

العتبة الحسينية المقدسة

المصباح

مجلةٌ فكريةٌ فصليةٌ متخصصةٌ
تعنى بالدراساتِ والأبحاثِ القرآنيةِ

تصدرُ عن

الأمانةِ العامةِ
للعتبةِ الحسينيةِ المقدسةِ
دارِ القرآنِ الكريمِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ
ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ
مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ
لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

صَدَقَ ٱللهُ ٱلعَلِيُّ ٱلعَظِيم

المشرف العام

سماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي

الامين العام للعتبة الحسينية المقدسة

رئيس التحرير

محمد علي هدو

المدير التنفيذي والعلاقات العامة

د. حميد مجيد هدو

الهيئة الاستشارية

أ.د. حسام الدين الالوسي

جامعة بغداد – العراق

أ.د. عبد الجبار ناجي

جامعة بغداد – العراق

أ.د. صباح نوري المرزوك

جامعة بابل – العراق

أ.د. عبد النبي اصطيف

جامعة دمشق – سورية

أ.د. عبد الامير كاظم زاهد

جامعة الكوفة – العراق

أ.د. عبود جودي الحلي

جامعة اهل البيت – العراق

أ.د. محمد الخطيب

جامعة كربلاء – العراق

المصباح

مجلة فكرية فصلية متخصصة

تعنى بالدراسات والأبحاث القرآنية

تصدر عن

الأمانة العامة

للعتبة الحسينية المقدسة

دار القرآن الكريم

موقعنا على شبكة الإنترنت

www.al-missbah.com www.al-missbah.net

www.al-missbah.org

البريد الإلكتروني

info@al-missbah.com

almosbah1431@yahoo.com

هاتف رئيس التّحرير

٠٠٩٦٤-٧٨١٠٥٣٥٥٢٤

٠٠٩٦٤-٧٧١١٦٣٤٣٤٤

هاتف المدير التنفيذي

٠٠٩٦٤-٧٨١٠٨٠٠٦٢٧

العنوان البريدي

الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

كربلاء المقدسة-جمهوريّة العراق

أرضي. ٠٠٩٦٤٣٢-٣٢١٧٧٦

داخلي ٥٦١

الترقيم الدولي:

ISSN: 2226-5228

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

١٤١٤ لسنة ٢٠١٠ م

التنسيق والمتابعة

د. عمار عبودي نصار (العراق)

د. أنمار عبد الجبّار (ألمانيا)

طلال فخر الدّين (لبنان)

عدنان الاردكاني (ايران)

الشؤون الادارية والمالية

رضا جواد الحائري

معتمد الترجمة الانكليزية

سعد شريف طاهر

الاخراج والتصميم

قاسم سالم محمد

البحوث وماتتضمنها من أفكار وآراء تعبر عن رأي كتابها

المحتويات

- كلمة الافتتاح/ رئيس التحرير – محمد علي هدو ١١
- حديث ((ماجاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله))/ سماحة السيد محمود الغريفي ١٧
- مقاربة في مدخلية المتشابه/ أ.د. عبد الامير كاظم زاهد ٦٧
- القيمة الدلالية للتراكيب النحوية في قراءة حفص/ د.محمد اسماعيل المشهداني ٩٣
- الابعاد التربوية لايات الاخراج من الظلمات الى النور/ أ.د. فاضل عبد العباس النعيمي ١١٣
- وسطية القرآن الكريم في دعم النظام الاقتصادي/ أنوار زهير نوري ١٣٩
- السياق... انماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني/ أ.د خليل خلف بشير العامري ١٦٧
- الدلالة الروحية في لغة القرآن الكريم/ أ.د. حسن منديل العكيلي ٢٠٥
- القرآن الكريم طريقنا لتجاوز العجز الحضاري/ أ.د. وجدان فريق عناد ٢٢٧
- منهج تفسير القرآن بالقرآن نماذج وتطبيقات/ جميل الحاج مانع ٢٤٥
- البنية المقطعية في سورة القارعة ايضاح لجمالية الايقاع/ خالد حوير الشمس ٢٨٣
- منهج البحث التاريخي عند الامام السبزواري/ د. سلمان باقر الخفاجي ٢٩٣
- صورة (ثمود) كما رسمها عبد الله يوسف علي – قرآنيا/ سعد شريف طاهر ٣١١

نافذة المصباح

- نقد كتاب (مفردات الفاظ القرآن) للراغب الاصفهاني/ سماحة الشيخ علي الكوراني ٣٣٤

المحاور الرئيسة التي تبحث فيها المجلة

- تفسير القرآن الكريم بمنهج جديد يتماشى والتطور الفكري والاجتماعي والعلمي والاقتصادي للمجتمع.
- البحث القرآني المقارن بالكتب السماوية والقوانين الوضعية والعرف الاجتماعي والأحوال الشخصية والنفسية.
- إعجاز القرآن (في اللغة والنظم والغيبيات والحقائق العلمية والتشريع...الخ).
- تاريخ القرآن) بنمط تحليلي مدعوم بالدليل العقلي من خلال فلسفة الرواية.
- أحكام القرآن أي فقه القرآن وتوجهاته التشريعية.
- المصطلح القرآني (الناسخ والمنسوخ المحكم والمتشابه المطلق والمقيد والتأويل وأسباب النزول الأحرف السبعة المكي والمدني...الخ).
- لغة القرآن ونظمه ونحوه وصرفه وطريقة استخدام اللفظ للدلالة على المعنى...الخ.
- القصة القرآنية-طريقة العرض-أهدافها ومراميها...الخ.
- المثل القرآني.
- منهج تفسير القرآن الكريم قديما وحديثاً والنظرة المستقبلية لهذا المنهج.
- رسم المصحف بميادينه كلها.
- تاريخ تدوين علوم القرآن وتوثيق العلماء في تلك العلوم عبر العصور.
- ترجمة آيات القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى (ضوابطها التعبد بالنص المترجم... الخ).
- فضل تعلم القرآن الكريم وأخلاق حملة القرآن وأدب تلاوته وكتابته والتحدث به.
- الرد على الشبهات التي أثيرت حول القرآن من مختلف الطوائف مثل شبهة تعارض المعاني أوشبهة التحريف فيه...الخ.
- ترجمة حال مفسر أوعلم من أعلام الخائضين في علومه أومشاهير كتاب المصحف وخطاطيه (عرضاً ونقداً وتحليلاً...الخ).
- المفاهيم الفكرية في القرآن الكريم (التصوف والعرفان-الفلسفة-الفقه-الوعد والوعيد-الغيب-حوار الأديان-الأدلة العقلية...الخ).
- قصص الأنبياء (من الوجهة التاريخية ومدى وثاقتها كحدث...الخ).

- تحقيق نصوص كتب ورسائل لم يسبق طبعها تنشر جملة واحدة أوفي حلقات متعددة على أن يكون التحقيق علمياً مصحوباً بصورة فوتوغرافية لعينات من صحائفه الخطية ويقدم المحقق بمقدمه تضم دراسة منهجية عن المؤلف والكتاب بالطرق المتعارف عليها
- روايات القراءات (السبع والعشر والشاذة) وأحكام الوقف والبسملة والتكبير...الخ.
- أية موضوعات أخرى لها علاقة بالقرآن وتفسيره وعلومه وتاريخه وكتابته وتدوينه وقواعد تجويده وتلاوته ولغته ومواعظه وفقهه ووصفه وأمثاله وإعجازه ومصطلحاته وفلسفة أفكاره وحواره وقصصه...الخ.

ضوابط النشر:

- تلتزم المجلة بنشر البحوث التي تعنى بشؤون القرآن الكريم خاصة وفي الإطار الوارد في ميادين الأبحاث.
- أن لا يكون الموضوع نمطيا تقليديا يعرض لموضوع مطروق أومنشور في كتاب أو مجلة او على شبكة الانترنت أو كان منشوراً بلغة أخرى وترجم الى العربية إلا إذا احتوى على رأي جديد قد تراءى للكاتب أوإضافات مفيدة أوتوسع في بسط الأفكار.
- أن لا يقل طول البحث عن مقادير بحوث الترقية الجامعية. (شكلا ومضمونا) وان تراعى فيها ضوابط البحث المنهجي المحكم.
- لا علاقة لتسلسل ترتيب البحث في المجلة بأهميته أوأهمية كاتبه أوبأولية تسلمه أو أي اعتبار آخر بل إن ذلك يتعلق بدواع فنية.
- يلحق بالبحث المرسل، مختصر السيرة الذاتية للكاتب وعنوانه ورقم هاتفه وبريده الالكتروني ليتسنى للمجلة الاتصال به عند اللزوم.
- لا تعاد البحوث إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر أوأجلت إلى الأعداد القابلة.
- الأفكار التي ترد في البحوث تعبر عن آراء اصحابها خاصة.
- تقرر المكافآت على وفق الضوابط والأطر المعمول بها في المجلات المماثلة.
- يرجى من الإخوة الباحثين الاحتفاظ بنسخة من البحث بحوزتهم.
- يفضل تحميل البحث على قرص مدمج (CD) وترسل عن طريق البريد الألكتروني.

بيان

لقد اعلنت مجلة المصباح الفصلية الفكرية المتخصصة بالأبحاث القرآنية عن هويتها منذ صدور العدد الاول منها كما اعلنت عن المحاور التي تبحث فيها والضوابط المترتبة على البحث الذي ينشر فيها وأهم تلك الضوابط:

أن يأخذ ما يُكتب فيها شكل البحث العلمي الأكاديمي المنهجي في سياقه، المستقل في مضمونه، الجديد في طرحه وموضوعه، البعيد عن الانحياز والتطرف، القوي في أسلوبه ونظمه، وكأن الباحث الكريم قد دخل في مباراة لاختيار أحسن بحث.. وان لا يكون البحث قد سبق نشره ضمن كتاب أو في مجلة داخل العراق وخارجه او على موقع الكتروني، اللهم الا اذا كان منشوراً بلغة أخرى وتُرجم الى العربية... وقد دأبنا على أن نجعل المكافأة مجزية لبحث يحمل هذه السمات فضلاً عن اجر الله سبحانه الذي أعده لحملة فكر القرآن ومروّجيه.

بيد أن الذي فتّ في اعضادنا، ورود ابحاث نكتشف لاحقاً انها تخالف بعض بنود خطتنا في الاختيار، كأنْ تكون منشورة في مجلات مماثلة في طرحها وموضوعها، أو انها نمطية في مواردها قد أشبعت بحثاً وتحليلا، أو انها تنهج نهج اثارة مالا يعمل على وحدة الكلمة ورص الصفوف خلف القرآن العظيم من خلال اعتماد المصادر والاسانيد الضعيفة مما لا يخدم سياسة المجلة في الدعوة الى بسط فكر القرآن الكريم ومراميه السامية في الوحدة ونبذ الفرقة.

ونحن في الوقت الذي ندعو فيه الى توخي الحذر والحيطة من مثل هذه التيارات، ندعو كل الباحثين الأجلاء الى أن يجسدوا موقعهم العلمي ومستواهم الفكري في ما يكتبون، مما يمثل لهم تاريخاً فكرياً يعتدّون برصانته ويَفخرون بطرحه، ويحتسبون أجره عند الله -سبحانه- بجدارة المجاهد بقلمه وعلمه، وصدق القول المأثور: زكاة العلم نشره.وقد وظفت المجلة كل امكاناتها من أجل اختزال ما لا يتماشى وسياستها أو ما سبق نشره في مجلة أو كتاب، او ما لا يصمد امام التقويم والتحقيق والتدقيق او ما فقد الموضوعية في الطرح، اذ وكلت ذلك الى ذوي الاختصاص من أهل الرأي والمشورة، وبناءاً على ذلك فأن البحوث التي تنشرها المجلة تعبّر عن اراء كتّابها حصريا وليس بالضرورة عن رأي المجلة ولكل من يريد أن يردّ أو يناقش فالباب مفتوح امامه وسوف نلتزم بنشر الرد و المناقشة كما هي في (نافذة المصباح) التي خصصت للنقد والعرض والتعريف.

ولا يفوتنا أن نؤكد للسادة الباحثين أن المجلة ملزمة باشعار الكاتب بموقفها من بحثه شريطة أن يرسل الينا عنوانه ورقم هاتفه، وبخلافه فلا سبيل له الى عتابنا... وفق الله الجميع لما فيه خدمة القرآن المجيد.

مجلة المصباح

كَلِمَةُ الإِفْتِتَاح

بسم الله الرحمن الرحيم

في زحمة الشؤون الدنيوية، وفي معترك الحياة المادية، تتجلى أهمية الركون الى الروح والى القيم الدينية موئلاً يضم الفضيلة، وينهل من معين السمو الذي يتضافر عنده الجهد الذي يرسم الصورة المثلى للمعرفة التي تفيض بالنور وتسحق الباطل بسنابك الحق، ذلك هو القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كتاب مبارك ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهل سُبُلُ السلام الا سبيل الله-جل في علاه... فهو السلام ومنه السلام واليه يؤول السلام ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ صفات لاتقوم الربوبية الكبرى الا على معانيها، ولا تحترم انسانية الإنسان الا بدلالتها على أحقية الخالق على المخلوق يوم يطمئن قلبه بالعبودية الحقة، ويستقيم عمله على بناء كينونته بمقتضاها، ولا سبيل الى ذلك الا بالاعتصام بحبل الله المتين والتوجه اليه بالوسيلة العصماء التي توشجه بالقرآن وتؤطر حياته بكل كلمة منه لكي ترتسم صورة الاستقامة واضحة جلية راسخة لا تهزها رياح الشك، ولا تربكها صيحات الشيطان وإجلابه واستفزازه، وصفٌ لم يغفله القول الحكيم من لدن الرب العليم لاولئك الذين التفَّتْ على أعناقهم حبائل الشيطان: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم

بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ وهل الغرور الا الأوهام والسراب الذي ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ فأين يجد الانسان الشفاء من وساوس الشيطان وتلبيسه؟ وهل غير القرآن الكريم من دواء ناجع للقلوب التي تتقاذفها الوساوس والاوهام وينتابها الوجيف والخوف من المجهول الذي يكتنفه الوعيد، وأي وعيد؟! انه خلود في عذاب لاتقوم له السماوات والارض بَلْهَ الانسان... والطمع بنعيم ابدي ما دامت السماوات والارض مما لاعينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر!! فالشيطان يريد أن يوقع الانسان في لبس يعيش معه متحيراً معذباً بين الخوف والرجاء... بين الشك واليقين... بين الحقيقة والخيال... بين اليأس والطمع... بين كل نقيضين لايحسن التمييز بينهما من أمور نفسه التي لا تفتأ-هي الاخرى- تأمره بالفحشاء والمنكر، وبذلك تختلف على الانسان الأهواء وتشتبك الأمور، فينسى نفسه، واذا نسي نفسه نسي الله وعندها يكون مقياساً للانسان الضال المضل، ينهى الله-تعالى- الناس أن يقتدوا به أو أن يتمثلوا طريقه ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.

في هذا الجو القاتم، يسأل الانسان السوي العاقل: اين المفر؟ ويأتيه الجواب صريحاً صادقاً مخلصاً... بأن الفرار لا يكون ناجعاً الا الى الله الذي يحدثنا بلسان القرآن العظيم... انه الدواء الوحيد الذي ينجينا من كل امراض الحيرة والشك والوسوسة الشيطانية وتلبيسها وتخرصات المرضى بها ممن تسلطت عليهم تلك الوسوسة فلم يعودوا قادرين على فك رقابهم منها ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ انه الشفاء من هذه الأدواء التي تصل بالانسان في كثير من الاحيان الى الفصام في الشخصية أو الهستريا النفسية أو الاكتئاب أو تجعله (ابيقوريا) مادام بمقدوره أن يعبث ويلهو حتى اذا عجز فانه يثوب الى ربه نادماً اذ تتمثل له الحقيقة عيانا، مرسومة الصورة في عينيه اللتين كانتا قد غشي عليهما ردحاً طويلا من الزمن، ويوم ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ

﴿سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ فكانت لهم أعين لايبصرون بها وآذان لايسمعون بها وقلوب لايفقهون بها، فهم في ذلك كالانعام بل هم أضل سبيلا.

اننا ومن كل منبر، ندعوا هؤلاء الى أن يرجعوا الى القرآن العظيم يتدبرونه تدبر عاقل متعقل، تدبر من ينشد فيه الهداية لا تدبر من يحاول التقاط ما يتوهم انه ثغرة يمكن أن ينفذ منها الى ما يحقق المآرب الخبيثة والتي تحقق للشيطان أمله في التلبيس على النفوس وقد حدثنا التاريخ عموماً وتاريخ علم الكلام خصوصاً عن رجال قادوا فرقاً، إسلامية وإلحادية، جادلوا في مثل هذه الأمور فخاب فألهم ثم ما ازداد القرآن بعدهم الا توهجا وبريقا. والسبب في ذلك معلوم لكل ذي لب ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ انه كتاب الله الذي يعلو ولا يعلى عليه، كما شهد بذلك رأس الكفر (الوليد بن المغيرة المخزومي)، والفضل ما شهدت به الاعداء.

رئيس التحرير



أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم

مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك

نستعين اهدنا الصراط المستقيم

صراط الذين أنعمت عليهم غير

المغضوب عليهم ولا الضالين

١٤٢٨

كتبه الفقير لرحمة ربه القدير مثنى العبيدي غفر الله له ولوالديه ولمن نظر فيه سنة ١٤٢٨ هجرية

بحوث العدد

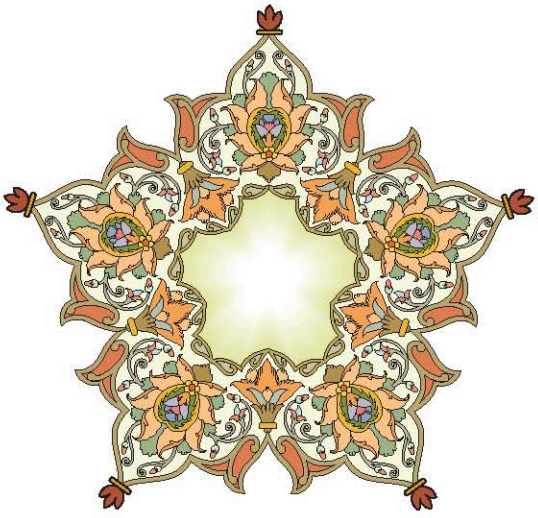

حديث ((ما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله))
قراءة في سنده ودلالته

سماحة السيد محمد المقدس الغريفي
استاذ في الحوزة العلمية - النجف الاشرف

ملخص البحث

مناقشة علمية، -سندية- دلالية هادئة لنص القول المأثور عن النبي الاكرم ﷺ: ((اذا اتاكم الحديث عني، فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فخذوا به فهو مني وانا قلته وما خالف كتاب الله فلا تأخذوا به وليس مني)) يقرر فيه -سماحة الباحث- أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع وفي بيان احكامهم وعقائدهم ، وهو المعيار والميزان الدقيق في الحكم بصحة ما وصلهم من الاحاديث والأخبار في حال الشك فيها. ويبسط - سماحته- آراء جمهور المسلمين (شيعةً وسنةً) في هذا الحديث الشريف ويثبت صحته باجماع علماء المسلمين. ثم يناقش تخرصات بعض اولئك العلماء للطعن في صحته ونسبة القائلين به الى الخوارج أو الملاحدة وهو في كل ذلك يعتمد اوثق المصادر عند الطرفين ويضرب جملة من الأمثلة على مايقول...

ويخلص سماحته الى القول بصحة الحديث (نقلاً وعقلاً).

● قال تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾[سورة البقرة: ٨ - ١٠]، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة الصف: ٧]، ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ٧٨]، ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[سورة آل عمران: ٩٤]، ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [سورة النحل: ١٠٥]، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾[سورة يونس: ٦٩ - ٧٠].

ما إن صدع رسول الله ﷺ بالرسالة الإسلامية وأخذت دعوته بالانتشار والتوسع في جغرافية الجزيرة العربية، وبدأت عقائده وتعاليمه بالتغلغل والقبول بين أبناء القبائل العربية، بل إلى ما وراء ذلك من أرض الحبشة والروم والأقباط وغيرهم، وبدأت العقائد الإسلامية والتعاليم الإلهية تأخذ وضعها الطبيعي في بناء المجتمع الإسلامي والعربي، وأن روح الإيمان والاستقرار بدأت تدب بين الناس، واخذ هذا الدين الجديد يتمركز في النفوس ويشغف القلوب، بما يقدمه من عطاء خلاق، وقيم راقية، وتعاليم نبيلة، وأخلاق سامية، وأحكام وسنن رائعة، متمثلة كلها بشخص سيد الرسالة ومبعوثها رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ الذي قال فيه المولى عز وجل ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧].

إلا أن المنافقين ومن كان في قلوبهم مرض -من الانتهازيين والانتفاعيين

-كبُر عليهم هذا الانتشار الكبير للدين الإسلامي وتوسع ساحاته، وما صاحبه من توافد القبائل العربية الكبيرة والصغيرة إلى رسول الله ﷺ وإعلان إسلامها وولائها لله ورسوله، وتمسكها بكافة العقائد والأحكام النازلة من السماء، التي صدح بها مبعوثها.

وحيث أن الكتاب المجيد والقران الكريم هو الوحي المنزل من الله تعالى الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: ٤٢] وأن رسول الله ﷺ قد جمع سوره وآياته بين دفتين قبل وفاته، وعارضه عليه[1] -أي قابله -جبرئيل مرتين في عام الوداع، كما روى البخاري في (صحيحه) عن عائشة قالت: أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: مرحبا يا بنتي، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسر إليها حديثا، فبكت!؟ فقلت لها: لم تبكين؟ ثم أسر إليها حديثا، فضحكت!؟ فقلت: ما رأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن!، فسألتها عما قال: فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ حتى قبض النبي ﷺ، فسألتها؟ فقالت: أسر إليَّ أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وانه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنكِ أول أهل بيتي لحاقا بي، فبكيت. فقال: أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين، فضحكت لذلك[2].

وربما يستفاد من مقابلة الوحي للقرآن الكريم مع رسول الله ﷺ مرتين في عام واحد، الهدف منه بيان وتثبيت أن ما جمعه ﷺ بين الدفتين كان بإشراف ورعاية ومراجعة السماء... لدفع غائلة المنافقين، ومن كان في قلوبهم مرض...

فان قلت: ربما كانت المعارضة والمقابلة على ما في صدر رسول الله ﷺ؟

(١) قال ابن منظور في (لسان العرب ج٧ ص١٦٧): عارض الشيء بالشيء معارضة: قابله، وعارضت كتابي بكتابه أي قابلته. وفلان يعارضني أي يباريني. وفي الحديث: إن جبريل عليه السلام، كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة وإنه عارضه العام مرتين، قال ابن الأثير: أي كان يدارسه جميع ما نزل من القرآن، من المعارضة المقابلة.

(٢) صحيح البخاري ج٤ ص١٨٣، الأمالي- الصدوق ص٦٩٢ وغيرهما.

قلت: لو سلمنا ذلك، فهل يا ترى تهتم السماء بحفظ القرآن الكريم، دستور الأمة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، مرتين في صدر رسول الله ﷺ، وهو الصادق الأمين، والنبي المعصوم، وان رسول الله ﷺ لا يحفظ هذه الأمانة العظيمة لأمته؛ بجمع آيات القرآن وسوره، وحفظه لها، من التلاعب والتزوير والتحريف بعد وفاته ﷺ، على ما يتهدد الأمة الإسلامية من تربص الأعداء كاليهود والمنافقين، هذا ما لا يقره العقل و الوجدان، على ان حقيقة العرض هو إظهار الشيء ليتصفح خارجا.

ومن هنا، كان توجه المنافقين، ومن في قلوبهم مرض، من المغرضين الذين يريدون الكيد بالإسلام، إلى الكذب على خصوص رسول الله ﷺ واختلاق الأحاديث عن لسانه الشريف، أو تحريفها بما يصرفها عن معناها الحقيقي، وتشويه مضامينها، لغرض النيل من الإسلام ورسوله الكريم وقادته المؤمنين، بعد ان انقطعت بهم السبل في ضرب القرآن الكريم وتحريف آياته والتلاعب به، ورسول الله ما زال قائما بين ظهرانيهم، حتى وقف عليه الصلاة والسلام يهدد أصحابه مرات عديدة، ويتوعد الكاذبين عليه بنار جهنم و ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[سورة الحج: ١١]، كما روى البخاري في (صحيحه) عن علي بن ربيعة عن المغيرة قال سمعت النبي ﷺ يقول: إن كذبا علي ليس ككذب على أحد، من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار[٣].

وعن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: قلت للزبير: إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان!؟ قال: أما إني لم أفارقه، ولكن سمعته يقول: من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار[٤].

ويؤيد ذلك ويدعمه ما تواتر في كتب العامة فضلا عن الخاصة، ما روي عن رسول الله ﷺ في يوم قَبضهُ الله تعالى إليه،

(٣) صحيح البخاري ج٢ ص٨١.
(٤) صحيح البخاري ج ١ ص٣٥، وانظر كمال الدين وتمام النعمة -الصدوق ص٦٠ وغيرهما.

انه قال: إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض[٥].

والظاهر أن مفاد كلمة (الترك) من الحديث الشريف هو للشيء الخارجي الملموس، لا ما هو مخزون في الصدور، وبقرينة(عترتي) الثابت وجودهم الخارجي والمتمثل بأمير المؤمنين علي وفاطمة الزهراء وسيدي شباب أهل الجنة الحسن والحسين عليهم السلام.

وقد انتشرت هذه الظاهرة -في اختلاق الأحاديث على رسول الله صلى الله عليه وآله والكذب عليه -في حياته صلى الله عليه وآله قبل وفاته، وأخذت تدوي بها مسامعه قبل رحيله، فكان لابد لهذه الظاهرة من علاج ودواء، يأمن من خلاله المسلمون على صحة ما يرد اليهم من أحكام وسنن وعقائد عن الرسول الكريم؛ لئلا تلتبس الأمور على المسلمين وخصوصا أنهم حديثو العهد بالإسلام، وحتى لا تختلط الأوراق في فهم هذه العقائد والاحكام وتفسيرها، فانبرى صلى الله عليه وآله بشخصه الشريف لجعل ضابطة للأمة ومقياسا على مدى عقودها وأجيالها، يُميز على ضوئها الحديث الصادر عنه صلى الله عليه وآله من الحديث المفترى عليه والمكذوب.

وكان طرح هذه الضابطة ملازما لظاهرة الافتراء عليه، ووضع الأحاديث المختلقة على لسانه صلى الله عليه وآله، لمعرفته بما ستؤول إليه الأمور إذا أُهمل الموضوع، وتنبيها للأمة، وإقامة للحجة عليها، وذلك بإرجاعهم إلى كتاب الله تعالى وقرآنه المجيد الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[سورة فصلت: ٤٢] وجَعَلَهُ المقياس والضابطة لتمييز الحديث الصادر عنه، من الحديث المختلق والمكذوب عليه، وقد روي عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أيها الناس لا تمسكوا علي بشيء يخالف القرآن، فإني لا أحل إلا ما أحل الله، ولا أحرم إلا ما حرم الله، وكيف أقول بخلافه وبه هداني

(٥) مسند احمد بن حنبل ج٣ ص١٤، سنن الترمذي ج٥ ص٣٢٨ -٣٢٩، مستدرك الصحيحين -الحاكم النيسابوري ج٣ ص١٠٩، الكافي -الشيخ الكليني ج٣ ص٤١٥ وغيرهم.

الله عز وجل؟![٦]. وتأسيسا على هذا قالﷺ -على حسب اختلاف الألفاظ فيه كما سيأتي - قد كثرت عليَّ الكذابة وستكثر، وإنه سيكذب عليَّ كما كذب على من كان قبلي من الأنبياء، فمن كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث عني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوا به، فهو مني وأنا قلته، وما خالف كتاب الله، فلا تأخذوا به، فليس مني ولم أقله، وإن قالوا: قاله.

وهذا الحديث خير دليل على وقوع الكذب على رسول اللهﷺ، إما على تقدير صحة الحديث فهو أمر واضح بشهادة رسول اللهﷺ، وأما على تقدير كذب الحديث واختلاقه عليهﷺ فالحديث نفسه دليل على وقوع الكذب عليه.

قال عز من قائل في كتابه العزيز ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [سورة طه: ١٢٣].

وقالﷺ: من اتبع كتاب الله هداه من الضلالة، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة[٧].

وقال الإمام زين العابدينعليه السلام عن القرآن الكريم من دعائه عند ختمه: وميزان قسط لا يحيف عن الحق لسانه، ونور هدى لا يطفأ عن الشاهدين برهانه، وعلم نجاة لا يضل من أم قصد سنته، ولا تنال أيدي الهلكات من تعلق بعروة عصمته[٨].

فالقرآن الكريم هو الدستور الإلهي، الذي يؤخذ منه ويرجع إليه عند الاختلاف والاشتباه والريبة، ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [سورة هود: ١]، فهو المعيار الأقوم والميزان الأصوب، والمركز الذي يدور في فلكه كل شيء من الأحكام والسنن والعقائد ونحو ذلك.

فإذا أعتمد الناس على كتاب ما، وفي أي علم كان، وثبت انه أصوب كتاب وأصدقه، وانه خال من الخطأ والشك

(٦) الإيضاح -الفضل بن شاذان الأزدي - ص٣١٢.

(٧) كنز العمال -المتقي الهندي ج ١ ص١٩٨.

(٨) الصحيفة السجادية الكاملة -الامام زين العابدين ص١٩٩.

والريب، وليس فيه اختلاف أو تناقض بين مضامينه، فان سيرة العقلاء والحكماء جارية وثابتة على التمسك بهذا الكتاب والرجوع إليه، واتخاذه قسطاسا قويما، ومنهجا حقيقيا للسير على هداه، وهذا الامر ثابت قبل إمضاء الشارع المقدس لذلك، وإرشاد سيدهﷺ إليه، ولا أظن أحداً يشك في ذلك، خصوصا من كانت لديه أدنى مسحة من العلم، وكان له ذوق سليم.

والقرآن الكريم هو ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه، هدى للمتقين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد أحكمت آياته من لد حكيم خبير، قد جعل رسول اللهﷺ في العرض عليه، والموافقة له وعدم مخالفته، الضابطة التي نلجأ إليها، والمُؤَمِن الذي نركن إليه، عند الاختلاف والشبهة والشك، فيما نقل عنه من مرويات وأقوال.

على أن مضامين هذا الحديث متفق عليها عند جميع المسلمين، بل انها متواترة معنا، ولكن قد ناقش البعض في سند هذا الحديث الشريف ودلالته، وبالخصوص جملة من علماء أهل السنة والجماعة، حيث طعنوا في سنده وان اشتهر عندهم، واعتمده جملة من كبار علمائهم، بل نسبوه إلى وضع الزنادقة!، وناقشوا أيضا دلالته، وعارضوه بما هو اصح سندا منه على دعواهم -كما سيأتي-.

أما علماء مدرسة أهل البيتﷺ فرووه بعدة طرق صحيحة ومعتبرة وبألفاظ مختلفة، واعتمدوا عليه وتمسكوا به في رد الأحاديث الموضوعة والمختلقة على رسول الله وأهل بيته الأطهارﷺ، تمسكا بنهج أهل البيتﷺ وطريقتهم، الذين جعلوا القرآن الكريم المقياس والضابطة لهم في ذلك.

وفيما يلي نحاول أن نبين مصادر وأصل رواية الحديث ورجاله، من طرق الفريقين، ثم النظر في إسنادهما والوقوف على ذلك، ثم نعرج على دلالة الحديث وفقهه، وبه يكون ختام البحث.

مصادر الحديث الشريف وأسانيده

١. مصادر الحديث في مدرسة أهل البيتﷺ: -

روى هذا الحديث عن أئمتناﷺ -

الذين حديثهم حديث رسول الله ﷺ كما قال الصادق عليه السلام: حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين عليه السلام، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ، وحديث رسول الله قول الله عز وجل[٩] -جملة من محدثينا الثقات، واشتهر بين علمائنا الأعلام، وأثبتوه في كتبهم، وعملوا بمضمونه، في معرفة الحديث ودرايته، وعند الاختلاف بين الأحاديث في باب التعادل والتراجيح، وكأنه من المسلمات الثابتة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، على حسب اختلاف الألفاظ فيه.

فقد روى الشيخ الكليني جملة من روايات العرض على القرآن الكريم في كتابه (الكافي) مع اختلاف بالألفاظ، إلا أن مضمونها واحد، منها:

ما رواه عن محمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن الحكم وغيره، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خطب النبي ﷺ بمنى فقال: أيها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاء كم يخالف كتاب الله فلم أقله[١٠].

وبسنده عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نورا، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه[١١].

وعن محمد بن يحيى، عن عبد الله بن محمد، عن علي بن الحكم، عن أبان بن عثمان عن عبد الله بن أبي يعفور، قال: وحدثني حسين بن أبي العلاء أنه حضر ابن أبي يعفور في هذا المجلس قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به؟ قال: إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهدا من كتاب الله أو من قول رسول الله ﷺ وإلا فالذي جاء كم به أولى به[١٢].

(٩) الكافي -الشيخ الكليني -ج ١ ص ٥٣.

(١٠) م.ن. ج ١ ص ٦٩.

(١١) م.ن. ج ١ ص ٦٩.

(١٢) م.ن. ج ١ ص ٦٩.

وعن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن خالد، عن أبيه، عن النضر بن سويد، عن يحيى الحلبي، عن أيوب بن الحر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف[١٣].

وعن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن ابن فضال، عن علي بن عقبة، عن أيوب بن راشد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف[١٤].

كما استشهد بهذا الحديث الشيخ الطوسي في كتاب (التهذيب) في قضية الرجل الذي تزوج امرأة فماتت قبل أن يدخل بها أيتزوج بإمها؟ فقال في جملة تعليقته: وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وعن الأئمة عليهم السلام أنهم قالوا: إذا جاءكم منا حديث فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالفه فاطرحوه، أو ردوه علينا[١٥].

واستشهد به في المسألة عينها في كتابه (الاستبصار)[١٦]، بل قد رواه مرسلا في مكان آخر منه مع حذف جملة(أو ردوه علينا)[١٧].

بل ذكر الشيخ الطوسي هذا الحديث في كتاب (عدة الأصول) وانه مما لا خلاف فيه، حيث قال: قد ورد عنهم عليهم السلام ما لا خلاف فيه من قولهم: إذا جاءكم عنا حديث فاعرضوه على كتاب الله، فان وافق كتاب الله فخذوه، وان خالفه فردوه، أو فاضربوا به عرض الحائط) على حسب اختلاف الألفاظ فيه[١٨].

وروى الشيخ الصدوق في كتاب (عيون أخبار الرضا عليه السلام) جواب الإمام الرضا عليه السلام عندما سأله بعض أصحابه عن العمل مع الحديثين المختلفين في الشيء الواحد؟ وقد ضمنه عليه السلام حديث العرض على القرآن الكريم، فقال الصدوق: حدثنا أبي ومحمد بن الحسن بن أحمد بن

(١٣) م.ن. ج ١ ص ٦٩.
(١٤) م.ن. ج ١ ص ٦٩.
(١٥) تهذيب الأحكام -الشيخ الطوسي -ج٧ ص٢٧٥.
(١٦) الاستبصار -الشيخ الطوسي -ج٣ ص١٥٨.
(١٧) م.ن. ج ١ ص١٩٠.
(١٨) عدة الأصول (ط.ج) -الشيخ الطوسي - ج١ ص٣٥٠-٣٥١.

الوليد رضي الله عنه قالا حدثنا سعد بن عبد الله قال حدثني محمد بن عبد الله المسمعي قال حدثني أحمد بن الحسن الميثمي انه سأل الرضا عليه السلام يوما وقد اجتمع عنده قوم من أصحابه وقد كانوا يتنازعون في الحديثين المختلفين عن رسول الله صلى الله عليه وآله في الشيء الواحد؟ فقال عليه السلام: ان الله عز وجل حرم حراما، وأحل حلالا، وفرض فرائض، فما جاء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله أو دفع فريضة في كتاب الله رسمها بَيّن قائم بلا ناسخ نسخ ذلك فذلك مما لا يسع -الا -الاخذ به؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن ليحرم ما أحل الله، ولا ليحلل -ما- حرم الله، ولا ليغير فرائض الله وأحكامه في ذلك كله، متبعا مسلما مؤديا عن الله، وقول الله عز وجل ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ فكان متبعا لله مؤديا عن الله ما امره به من تبليغ الرسالة.

قلت: فإنه يرد عنكم الحديث في الشيء عن رسول صلى الله عليه وآله مما ليس في الكتاب، وهو في السنة، ثم يرد خلافه؟ فقال: وكذلك قد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله -عن- أشياء نهي حرام فوافق في ذلك نهيه نهي الله، وأمر بأشياء فصار ذلك الامر واجبا لازما كعدل فرائض الله تعالى ووافق في ذلك امره أمر الله تعالى، فما جاء في النهي عن رسول الله صلى الله عليه وآله نهي حرام -ثم -جاء خلافه لم يسع استعمال ذلك وكذلك فيما أمر به، لأنا -لا -نرخص فيما لم يرخص فيه رسول الله صلى الله عليه وآله، و -لا -نأمر بخلاف ما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله، إلا لعلة خوف ضرورة، فأما ان نستحل ما حرم رسول الله صلى الله عليه وآله أو نحرم ما استحل رسول الله صلى الله عليه وآله، -فلا- يكون ذلك ابدا، لأنا تابعون لرسول الله صلى الله عليه وآله مُسلِمون له، كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله تابعا لأمر ربه عز وجل مُسلِما -له- ، وقال عز وجل ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾. -وان الله نهى عن أشياء -ليس- نهي حرام بل اعافه وكراهة، وأمر بأشياء ليس -بأمر -فرض ولا واجب، بل أمر فضل ورجحان في الدين، -ثم -رخص في ذلك للمعلول وغير المعلول، فما كان عن رسول الله صلى الله عليه وآله نهى اعافه أو أمر فضل فذلك -الذي -

يسع استعمال الرخص فيه.

إذا ورد عليكم عنا الخبران -فيه- باتفاق، يرويه من يرويه في النهي ولا ينكره، وكان الخبران صحيحين معروفين باتفاق الناقلة فيهما، يجب الاخذ بأحدهما أو بهما جميعا أو بأيهما شئت وأحببت موسع ذلك لك، من باب التسليم لرسول ﷺ والرد إليه والينا، وكان تارك ذلك -من- باب العناد والانكار، وترك التسليم لرسول ﷺ مشركا بالله العظيم.

فما ورد عليكم من خبرين مختلفين فاعرضوهما على كتاب الله، فما كان في كتاب -الله -موجودا حلالا أو حراما، فاتبعوا ما وافق الكتاب، و -ما -لم يكن في الكتاب فاعرضوه على سنن النبي، فما كان في السنة موجودا منهيا عنه نهي حرام، مأمورا به عن رسول الله ﷺ أمر الزام فاتبعوا ما وافق نهي رسول الله ﷺ وأمره، وما كان -في -السنة نهي اعافه أو كراهة، ثم كان الخبر الآخر خلافه فذلك رخصه فيما عافه رسول الله ﷺ وكرهه و -لم- يحرمه، فذلك الذي يسع الاخذ بهما جميعا، أو بأيهما شئت وسعك الاختيار من باب التسليم والاتباع والرد لرسول الله ﷺ، وما لم تجدوه في شيء من -هذه -الوجوه فردوا إلينا علمه فنحن أولى بذلك، ولا تقولوا -فيه -بآرائكم، وعليكم بالكف والتثبت والوقوف، وأنتم طالبون باحثون حتى يأتيكم البيان من عندنا[١٩].

ورواه أيضا في كتاب (الأمالي) فقال: حدثنا أحمد بن علي بن إبراهيم بن هاشم رضي الله عنه، قال: حدثنا أبي، عن أبيه إبراهيم بن هاشم، عن الحسين بن يزيد النوفلي، عن إسماعيل بن مسلم السكوني، عن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده عليهم السلام، قال: قال علي عليه السلام: إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نورا، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه[٢٠].

كما رواه البرقي في كتاب (المحاسن) بسنده:

- عن الحسن بن علي بن فضال،

(١٩) عيون أخبار الرضا عليه السلام -الشيخ الصدوق- ج١ ص٢٢ -٢٤.

(٢٠) الأمالي -الشيخ الصدوق -ص ٤٤٩.

عن علي، عن أيوب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا حدثتم عني بالحديث فأنحلوني أهنأه وأسهله وأرشده، فإن وافق كتاب الله فأنا قلته، وان لم يوافق كتاب الله فلم أقله[٢١].

- وعن أبي أيوب المدايني، عن ابن أبي عمير، عن الهشامين جميعا وغيرهما قال: خطب النبي صلى الله عليه وآله فقال: أيها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف القرآن فلم أقله[٢٢].

- وعن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن كليب بن معاوية الأسدي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما أتاكم عنا من حديث لا يصدقه كتاب الله فهو باطل[٢٣].

- وعن أبيه، عن علي بن النعمان، عن أيوب بن الحر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: كل شيء مردود إلى كتاب الله والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف[٢٤].

(٢١) المحاسن - أحمد بن محمد بن خالد البرقي - ج١ ص٢٢١.
(٢٢) م.ن. ج ١ ص٢٢١.
(٢٣) م.ن. ج ١ ص٢٢١.
(٢٤) م.ن. ج١ ص٢٢٠ - ٢٢١.

ورواه الحميري في كتاب (قرب الإسناد) بسنده عن ابي عبد الله الصادق عليه السلام فقال: جعفر، عن أبيه قال: قرأت في كتاب لعلي عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: أنه سيكذب علي كاذب كما كذب على من كان قبلي، فما جاءكم عني من حديث وافق كتاب الله فهو حديثي، وما خالف كتاب الله فليس من حديثي[٢٥].

والشيخ الطبرسي ذكره ضمن احتجاجات الإمام الجواد عليه السلام على قاضي القضاة يحيى بن أكثم في مجلس المأمون عندما أراد أن يختبر الإمام عليه السلام، فقال:

وروي أن المأمون بعدما زوج ابنته أم الفضل أبا جعفر -الجواد -، كان في مجلس وعنده أبو جعفر عليه السلام ويحيى بن أكثم وجماعة كثيرة. فقال له يحيى بن أكثم: ما تقول يا بن رسول الله في الخبر الذي روي: أنه (نزل جبرئيل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: يا محمد إن الله عز وجل يقرؤك السلام ويقول لك: سل أبا بكر هل هو عني راض فإني عنه راض).

فقال أبو جعفر عليه السلام: لست بمنكر فضل

(٢٥) قرب الإسناد - الحميري القمي - ص٩٢.

أبي بكر ولكن يجب على صاحب هذا الخبر أن يأخذ مثال الخبر الذي قاله رسول الله ﷺ في حجة الوداع: (قد كثرت علي الكذابة وستكثر بعدي فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار فإذا أتاكم الحديث عني فاعرضوه على كتاب الله وسنتي، فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به، وما خالف كتاب الله وسنتي فلا تأخذوا به) وليس يوافق هذا الخبر كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: ١٦] فالله عز وجل خفي عليه رضاء أبي بكر من سخطه حتى سأل عن مكنون سره، هذا مستحيل في العقول[٢٦].

على أن يحيى بن أكثم وهو قاضي قضاة الدولة الإسلامية حينها، ومن ابرز علمائها، أقر للإمام الجواد عليه السلام على الاستدلال بهذا الحديث ولم يعارضه بالضعف أو الوضع أو الاختلاق.

وذكر الفضل بن شاذان في كتاب (الإيضاح) ما روي عن علي عليه السلام انه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الحديث سيفشو عني فاعرضوه على القرآن فما ليس يوافق القرآن فليس عني.

وما روي عن علي عليه السلام أيضا انه قال: قال رسول الله ﷺ: يا أيها الناس لا تمسكوا علي بشيء يخالف القرآن فإني لا أحل إلا ما أحل الله، ولا أحرم إلا ما حرم الله، وكيف أقول بخلافه وبه هداني الله عز وجل؟![٢٧].

وروى الحر العاملي في كتاب (وسائل الشيعة) عن سعيد بن هبة الله الراوندي في رسالته التي ألفها في أحوال أحاديث أصحابنا وإثبات صحتها، عن محمد وعلي ابني علي بن عبد الصمد، عن أبيهما، عن أبي البركات علي بن الحسين، عن أبي جعفر بن بابويه، عن أبيه، عن سعد بن عبد الله عن أيوب بن نوح، عن محمد بن أبي عمير، عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله قال: قال الصادق عليه السلام: إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فاعرضوهما

(٢٦) الاحتجاج -الشيخ الطبرسي -ج ٢ ص٢٤٥-٢٤٦.

(٢٧) تثبيت الإمامة -الهادي يحيى بن الحسين- ص٩.

على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فردوه...[٢٨].

وغير ذلك كثير جدا ينقل على سبيل المرويات المسلمة الصدور، الثابتة الصحة.

ولو نظرنا في رجال الحديث الأول عن الكافي فيرويه الشيخ الكليني عن محمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن الحكم وغيره عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام... والكلام يقع في محمد بن إسماعيل، مع ثبوت وثاقة الرجال الباقين.

وعلى ما حققه السيد الخوئي قدس سره في (معجم رجال الحديث): انه ابو الحسن محمد بن إسماعيل النيسابوري الذي يدعى بندفر[٢٩]، وقد وثقه السيد الخوئي لوقوعه في أسناد كامل الزيارات[٣٠]، وان عدل عن هذا المبنى قبيل وفاته قدس سره. وان هذا المبنى جار على مَنْ يلتزم به من الفقهاء، فتكون الرواية صحيحة عليه.

بل يمكن الاطمئنان بوثاقة محمد بن إسماعيل؛ وذلك لإكثار الشيخ الكليني رضوان الله عليه الرواية عنه في كتاب الكافي، وقد روى عنه أكثر من ستمائة مورد فيه، خصوصا مع ما التزم الشيخ الكليني في مقدمة كتابه بأنه لا يروى إلا الآثار الصحيحة عن الصادقين عليهما السلام، حيث قال: وقلت: إنك تحب أن يكون عندك كتاب كاف يجمع فيه من جميع فنون علم الدين، ما يكتفي به المتعلم، ويرجع إليه المسترشد، ويأخذ منه من يريد علم الدين والعمل به بالآثار الصحيحة عن الصادقين عليهما السلام والسنن القائمة التي عليها العمل، وبها يؤدي فرض الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وآله[٣١]. فتكون الرواية معتبرة من هذا الوجه، فتأمل.

وإذا تنزلنا عن ذلك، فالقول: أن روايات الكليني رحمه الله عن الفضل بن شاذان في الأغلب لا تكون منحصرة عن طريق محمد بن إسماعيل، بل يذكر كثيرا

(٢٨) وسائل الشيعة (آل البيت) -الحر العاملي- ج٢٧ ص١١٨.

(٢٩) معجم رجال الحديث -السيد الخوئي ج١٦ ص٩٦ (ط ٥).

(٣٠) م.ن. ج١٥ ص١٠٠ (ط١).

(٣١) الكافي -الشيخ الكليني ج١ ص٨.

منضما إليه، علي بن إبراهيم، عن أبيه.

وفي بعض الموارد مكان علي بن إبراهيم شخص آخر مثل محمد بن عبد الجبار أو محمد بن الحسين وغيرهما، وقد أحصينا هذه الموارد فبلغت أكثر من ثلاثمائة مورد.

ومن جهة أخرى: إن الشيخ رحمه الله ذكر في المشيخة طريقه إلى روايات الفضل، فروى عن مشايخه، عن محمد بن يعقوب، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه ومحمد بن إسماعيل، عن الفضل، وبعض الروايات المذكورة في (التهذيبين) عن الفضل، نفس الروايات التي ذكرها الكليني رحمه الله بطريق واحد، يعني عن محمد بن إسماعيل، عن الفضل، فيظهر من ذلك أن للكليني كان أكثر من طريق واحد إلى روايات الفضل، وإنما اكتفى بواحد منها في بعض الموارد اختصارا أو لغير ذلك.

والحاصل: أن بهاتين الجهتين تصبح أكثر روايات الكليني عن محمد بن إسماعيل هذا بل جميعها معتبرة، ولا يلزم طرحها، والله العالم وله الحمد[٣٢].

(٣٢) معجم رجال الحديث -السيد الخوئي ج١٦ ص٩٩ (ط ٥).

أضف إلى هذا، أن رواية الشيخ الصدوق رضوان الله عليه في كتاب (عيون أخبار الرضا عليه السلام) معتبرة سندا أيضا، فقد قال: حدثنا أبي ومحمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد رضي الله عنه قالا: حدثنا سعد بن عبد الله قال: حدثني محمد بن عبد الله المسمعي قال: حدثني أحمد بن الحسن الميثمي انه سأل الرضا عليه السلام... ولا كلام في الجملة في وثاقة رجال السند عدا ما وقع الكلام في محمد بن عبد الله المسمعي، الذي نقل فيه الشيخ الصدوق آخر الرواية عن شيخه ابن الوليد انه كان سيء الرأي فيه[٣٣]، وسوء الرأي على إجماله لا يعرف المقصود منه، لربما يريد أمور غير معتبرة في ميزان الجرح كاعتماده المراسيل مثلا، لا المقصود منها عدم الوثاقة والضعف، التي يدفعها

(٣٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام -الشيخ الصدوق ج١ ص٢٢ -٢٤. قال مصنف هذا الكتاب رضي الله عنه -أي الشيخ الصدوق -كان شيخنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد رضي الله عنه سيء الرأي في محمد بن عبد الله المسمعي راوي الحديث، وإنما أخرجت هذا الخبر في هذا الكتاب؛ لأنه كان في كتاب (الرحمة)، وقد قرأته عليه فلم ينكره ورواه لي.

قوله -أي الصدوق -في تتمة كلامه: وإنما أخرجت هذا الخبر في هذا الكتاب؛ لأنه كان في كتاب (الرحمة)، وقد قرأته عليه- أي على شيخه ابن الوليد -فلم ينكره ورواه لي) وفيه دلالة على اعتماد -ابن الوليد -عليه، وروايته لحديثه عن كتاب (الرحمة) لأبي القاسم سعد بن عبد الله الثقة الجليل، الذي صرح الصدوق في كتابه(من لا يحضره الفقيه): انه من الكتب المشهورة التي عليها المعول واليها المرجع[٣٤]. وعليه لا إشكال في اعتبار هذه الرواية وصحتها بناء على وثاقة محمد بن عبد الله المسمعي، لا أقل حسنه.

فضلا عن مصححة القطب الراوندي التي رواها الحر العاملي في (الوسائل).

فإذا ثبتت صحة السند لإحدى هذه الروايات واعتبارها -كما رأيت -فانه يغنينا عن النظر في أسناد الباقيات، وتكون صحيحة وحجة بالتبع إليها.

٢. مصادر الحديث عند أهل السنة والجماعة:

روى هذا الحديث المأثور والمشهور عند أهل السنة والعامة جملة من المحدثين، واشتهرت روايته بين علمائهم الأعلام، وأثبتوه في كتبهم، لكن طعن فيه جملة من علمائهم ومحدثيهم، سندا ودلالة، وعارضوه بأحاديث أخرى -على ما سيأتي -، ونحن هنا نثبت جملة من الكتب والمتون الحديثية التي أثبتت هذا الحديث بأسنادها، على حسب اختلاف الألفاظ فيه وإن اتحدت في المضمون.

وقد رواه البخاري في (صحيحه) بشهادة سعد الدين التفتازاني حيث قال في كتابه (التلويح على التنقيح في أصول الفقه): واستدل على ذلك بقوله ﷺ: تكثر لكم الأحاديث من بعدي، فإذا روي لكم حديث فاعرضوه على كتاب الله تعالى فما وافقه فاقبلوه وما خالفه فردوه. وأجيب: بأنه خبر واحد وقد خص منه البعض، أعني المتواتر والمشهور، فلا يكون قطعيا، فكيف يثبت به مسألة الأصول، على أنه يخالف عموم قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾. وقد طعن فيه المحدثون بأن

(٣٤) من لا يحضره الفقيه -الشيخ الصدوق ج١ ص٣.

في روايته يزيد بن ربيعة وهو مجهول، وترك في إسناده واسطة بين الأشعث وثوبان فيكون منقطعا. وذكر يحيى بن معين: إنه حديث وضعته الزنادقة. وإيراد البخاري إياه في (صحيحه) لا ينافي الانقطاع أو كون أحد رواته غير معروف بالرواية. فان قيل: المشهور أيضا لا يفيد علم اليقين فكيف يعتبر في معارضة عموم الكتاب وهو قطعي؟ أجيب عنه: بأنه يفيد علم طمأنينة، وهو قريب من اليقين، والعام ليس بقطعي بحيث يكفر جاحده، فهو قريب من الظن وقد انعقد الإجماع على تخصيص عمومات الكتاب بالخبر المشهور كقوله ﷺ: لا يرث القاتل. وقوله: لا تنكح المرأة على عمتها. وغير ذلك[٣٥].

وبعد أن أثبت رواية البخاري للحديث في (صحيحه)، يمكن النظر والتأمل في ما قاله التفتازاني وعلّق عليه.

قال ابن حبان: يزيد بن ربيعة الرحبي الصنعاني: من صنعاء دمشق، كنيته أبو كامل، من أهل الشام؛ يروى عن أبي أسماء الرحبي، روى عنه أهل بلده، كان شيخا صدوقا إلا أنه اختلط في آخر عمره، فكان يروى أشياء مقلوبة، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد، وفيما وافق الثقات فهو معتبر به لقدم صدقه قبل اختلاطه من غير أن يحتج به[٣٦].

وقال عبد الله بن عدي: يزيد بن ربيعة أبو كامل الرحبي الصنعاني -صنعاء دمشق -حدثنا ابن حماد قال: ثنا معاوية أراه عن يحيى قال: قال أبو مسهر: يزيد بن ربيعة كان قديما غير متهم بما ينكر عليه انه أدرك أبا الأشعث ولكني أخشى عليه سوء الحفظ والوهم. حدثنا الجنيدي قال: ثنا البخاري قال: يزيد بن ربيعة أبو كامل الرحبي الصنعاني -صنعاء دمشق -عن أبي الأشعث حديثه مناكير. حدثنا ابن حماد قال: قال السعدي: أحاديث يزيد بن ربيعة أباطيل أخاف أن تكون موضوعة. قال الشيخ: ويزيد بن ربيعة هذا أبو مسهر

(٣٥) التلويح على التنقيح في أصول الفقه - التفتازاني -ج٢ ص٣٩٧. وانظر شرح التلويح على التوضيح -التفتازاني -ج٢ ص١٦ -١٧.

(٣٦) كتاب المجروحين -ابن حبان -ج٣ ص١٠٤.

اعلم به لأنه من بلده، ولا أعرف له شيئا منكرا قد جاوز الحد فأذكره، وأرجو انه لا باس به في الشاميين[٣٧].

فإذا نظرنا لقول ابن حبان (لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد، وفيما وافق الثقات فهو معتبر به؛ لقدم صدقه قبل اختلاطه) ولاحظنا -وسيأتي إثبات ذلك -أن الرواية لم ينفرد بها يزيد بن ربيعة بل رويت بطرق أخرى، وان اختلف بعضها لفظا إلا أن المضمون واحد.

والتخليط الظاهر من كلام أهل الجرح والتعديل في يزيد بن ربيعة آخر عمره، فانه كان يروى أشياء مقلوبة، بسبب انه أدرك أبا الأشعث، فهنا: إما أن يكون خلطه من باب خلط الروايات المنكرة مع غيرها، أو من باب خلط أسانيد الروايات بالأخرى. والأول يحتاج إلى إثبات أن الرواية منكرة، بدليل قاطع أو إجماع، وقد اعتمد جملة من العلماء على هذا الحديث واستشهدوا به وكأنه من المرويات الثابتة، والثاني: يدفعه نقل غيره لهذا الحديث والرواية.

إضافة لذلك فلو تأملت في كلام أبي مسهر في يزيد بن ربيعة، الذي هو ابن بلده واعرفهم به، كانت خشيته عليه من سوء الحفظ والوهم، ولم يقر إنكار القوم عليه.

والمُنكر من الحديث هو ما خالف المشهور، وحديثنا هو من الأحاديث المشهورة بين العلماء والفقهاء والمحدثين بشهادتهم -على ما يأتي -، على أن رواية المُنكر لا دلالة فيها على القدح في عدالة الرجل، فضلا على أن المقياس للأباطيل والمناكير أمر نسبي يتفاوت بين نظر فقيه وآخر، ومحدث وغيره، في قبول الحديث وإنكاره، فلا يكون طعنا على الراوي؛ وبدلالة ما قال أبو مسهر: يزيد بن ربيعة كان قديما غير متهم بما ينكر عليه انه أدرك أبا الأشعث، ولكني أخشى عليه سوء الحفظ والوهم) الذي يحتاج إلى التروي في نقل الرواية، وكذا التخليط فيما إذا انفرد بها، هذا على فرض ثبوت خشية أبو مسهر فيه؛ وهو مطلع عليه وابن بلده.

على أنه لا يدل شمول الأباطيل أو المناكير لهذا الحديث بعينه، فهذا أول الكلام.

(٣٧) الكامل -عبد الله بن عدي -ج٧ ص٢٥٩.

وعلى ذلك، نفى ابن عدي عنه البأس، حيث لم يجد في أحاديثه شيئا منكرا قد جاوز الحد المعقول، حيث قال: ويزيد بن ربيعة هذا..لا أعرف له شيئا منكرا قد جاوز الحد فأذكره، وأرجو انه لا باس به في الشاميين).

وعلى هذا، فلا أقل من القول بحسن الرجل، على مباني أهل السنة والجماعة، وان الرواية تكون حسنة، يمكن العمل عليها والأخذ بمضمونها، والتي قد رواها الطبراني في (المعجم الكبير) بسنده عن يزيد بن ربيعة أيضا وعن غيره.

أضف إلى ذلك، أنه قد ذكر ابن عساكر: أن أبا كامل يزيد بن ربيعة يروي عن أبي الأشعث وأبي أسماء الرحبي جميعا عن ثوبان والله أعلم[٣٨].

أقول: وعلى هذا ليس هناك واسطة ساقطة بين الأشعث وثوبان -وهو أبو أسماء الرحبي -، كما قال الخطابي: وقد روى من حديث يزيد بن ربيعة عن أبي الأشعث عن ثوبان...وأبو الأشعث لا يروى عن ثوبان إنما يروى عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان[٣٩]. وعليه فتكون الرواية منقطعة.

وكما ترى فان يزيد بن ربيعة يروي عنهما -أي عن الأشعث وأبي أسماء -عن ثوبان كما ذكر ابن عساكر وغيره.

كما يروي أيضا أبو الأشعث عن أبي أسماء الرحبي بعض الروايات كما في (مسند أحمد) حيث قال: حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا عبد الرزاق قال معمر أخبرني أيوب عن قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني عن أبي أسماء الرحبي عن شداد بن أوس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله عز وجل زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وان ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها، واني أعطيت الكنزين الأبيض والأحمر، وأنى سألت ربي عز وجل لا يهلك أمتي بسنة بعامة، وان لا يسلط عليهم عدوا فيهلكهم بعامة، وان لا يلبسهم شيعا، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، وقال: يا محمد إني إذا قضيت قضاءاً فإنه لا يرد، وإني قد أعطيتك لامتك

(٣٨) تاريخ مدينة دمشق -ابن عساكر -ج٣٥ ص١٠٥.

(٣٩) الموضوعات -ابن الجوزي ج ١ ص٢٥٨.

أن لا أهلكهم بسنة بعامة، ولا أسلط عليهم عدوا ممن سواهم فيهلكوهم بعامة، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا وبعضهم يقتل بعضا وبعضهم يسبى بعضا، قال: وقال النبي صلى الله عليه وسلم:وإني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين، فإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة[٤٠]. وغيره كثير يرويه أبو الأشعث عن أبي أسماء الرحبي[٤١].

بل أن أبا الأشعث يروى عن ثوبان مباشرة، فقد روى أبو النضر: حدثنا يزيد بن ربيعة ثنا أبو الأشعث الصنعاني قال: سمعت ثوبان يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: الحديث... انتهى[٤٢].

وبعد ذلك كله نعرف من كلام سعد الدين التفتازاني أن رواية البخاري لهذا الحديث في (جامعه الصحيح)، تكفى عن النظر في اسناد الروايات الأخرى، على مبنى أهل السنة والعامة، الحاكمين بصحة جميع رواياته، لا أقل حسنها في ميزان الجرح والتعديل كما عرفت، فضلا عن شهادته بأنه خبر مشهور، وهو الثابت، ويأتي ما يدل على ذلك.

ومنها ما رواه الترمذي في (سننه) قال: حدثنا عبد بن حميد أخبرنا حسين بن علي الجعفي أخبرنا حمزة الزيات عن أبي المختار الطائي عن ابن أخي الحارث الأعور عن الحارث الأعور قال: مررت في المسجد فإذا الناس يخوضون في الأحاديث فدخلت في علي، فقلت: يا أمير المؤمنين ألا ترى الناس قد خاضوا في الأحاديث؟ قال: أوقد فعلوها؟ قلت: نعم، قال: أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ألا إنها ستكون فتنة، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في

(٤٠) مسند أحمد بن حنبل ج٤ ص١٢٣.
(٤١) مسند أحمد بن حنبل ج ٤ ص١٢٣، ص١٢٤، ج٥ ص٢٧٧، ٢٨١، ٢٨٤، السنن الكبرى -البيهقي ج٣ ص٣٨٠، ج٤ ص٢٦٥ المصنف -الصنعاني ج٤ ص٢٠٩ وغير ذلك.
(٤٢) القول المسدد في مسند أحمد -ابن حجر ص١٤١.

غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا يزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك يا أعور[٤٣].

والظاهر من مضمون الرواية أن القوم قد خاضوا في الأحاديث، كلٌ يقول بحسب هواه ورأيه، وينسبه إلى رسول الله ﷺ ويفترون عليه...، فقال علي عليه السلام عنه ﷺ: ألا إنها ستكون فتنة، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله...

وروى الدارقطني في (سننه) قال: حدثنا عثمان بن أحمد بن السماك، حدثنا حنبل بن إسحاق، حدثنا جبارة بن المغلس، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم بن أبي النجود، عن زر بن حبيش، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنها تكون بعدي رواة عني الحديث، فأعرضوا حديثهم على القرآن، فما وافق القرآن فخذوا به، وما لم يوافق القرآن فلا تأخذوا به.

وعلق الدارقطني على سنده: أن هذا وَهْمٌ، والصواب: عن عاصم عن زيد عن علي بن الحسين مرسلا، عن النبي ﷺ[٤٤].

أقول: ويعضد هذا السند قول الصادق عليه السلام: حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين عليه السلام، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ، وحديث رسول الله قول الله عز وجل[٤٥].

وقال أيضا عليه السلام: ما سمعته مني فاروه عن ابي، وما سمعته مني فاروه عن رسول الله ﷺ[٤٦].

(٤٣) سنن الترمذي -الترمذي -ج٤ ص٢٤٥-٢٤٦.

(٤٤) سنن الدارقطني -الدارقطني -ج٤ ص١٣٣-١٣٤.

(٤٥) الكافي -الشيخ الكليني -ج١ ص٥٣.

(٤٦) وسائل الشيعة -الحر العاملي(آل البيت) ج٢٧ ص١٠٤ باب وجوب العمل باحاديث النبي ﷺ.

وقال أيضا حدثني أبي، حدثنا أحمد بن الحنين بن عبد الجبار، حدثنا داود بن عمرو، حدثنا صالح بن موسى. وحدثنا عثمان بن أحمد الدقاق، حدثنا محمد بن الحسين بن حفص الخثعمي، حدثنا محمد بن عبيد المحاربي، حدثنا صالح بن موسى، عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي صالح، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: سيأتيكم عني أحاديث مختلفة، فما جاءكم موافقا لكتاب الله ولسنتي فهو مني، وما جاءكم مخالفا لكتاب الله ولسنتي فليس مني[٤٧].

ورواه الطبراني في (معجمه الكبير) وقال: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة حدثنا إسحاق بن إبراهيم أبو النضر حدثنا يزيد بن ربيعة حدثنا أبو الأشعث عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألا إن رحى الإسلام دائرة! قال: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال: أعرضوا حديثي على الكتاب فما وافقه فهو مني وأنا قلته[٤٨].

وفي (المصنف) رواه عبد الرزاق الصنعاني قال: أخبرنا عبد الرزاق قال: أخبرنا الثوري عن عمارة عن حريث بن ظهير قال: قال عبد الله: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد أضلوا أنفسهم، فتكذبون بحق أو تصدقون بباطل، وإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا في قلبه تالية تدعوه إلى الله وكتابه. قال: وزاد معن عن القاسم بن عبد الرحمن عن عبد الله في هذا الحديث أنه قال: إن كنتم سائليهم لا محالة، فانظروا ما قضى كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه[٤٩].

وقال: أخبرنا عبد الرزاق عن الثوري عن الأعمش عن عمارة عن حريث بن ظهير قال: قال عبد الله: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم، وقد ضلوا، فتكذبوا بحق وتصدقوا الباطل، وإنه ليس من أحد من أهل الكتاب إلا

(٤٧) سنن الدارقطني -الدارقطني -ج٤ ص١٣٣.

(٤٨) المعجم الكبير -الطبراني -ج٢ ص٩٧.

(٤٩) المصنف -عبد الرزاق الصنعاني -ج١٠ ص٣١٢-٣١٣.

في قلبه تالية، تدعوه إلى الله وكتابه، كتالية المال. والتالية: البقية. قال الثوري: وزاد معن عن القاسم بن عبد الرحمن عن عبد الله في هذا الحديث قال: إن كنتم سائليهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه[٥٠].

وقال أيضا: أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن جعفر بن برقان قال: قال ابن مسعود: كل ما هو آت قريب، ألا إن البعيد ليس بآت، لا يعجل الله لعجلة أحد، ولا يخف لأمر الناس ما شاء الله لأمر الناس، يريد الله أمرا ويريد الناس أمرا، ما شاء الله كان ولو كره الناس، لا مقرب لما باعد الله، ولا مبعد لما قرب الله، ولا يكون شيء إلا بإذن الله، أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثه بدعة، وكل بدعة ضلالة. قال معمر: قال غير جعفر عن ابن مسعود: وخير ما ألقي في القلب اليقين، وخير الغنى غنى النفس، وخير العلم ما نفع، وخير الهدى ما اتبع، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربع أذرع، فلا تملوا الناس ولا تسئموهم، فإن لكل نفس نشاطا وإقبالا، وإن لها سآمة وإدبارا، ألا وشر الروايا روايا الكذب، ألا وإن الكذب يعود إلى الفجور، والفجور يعود إلى النار، ألا وعليكم بالصدق، فإن الصدق يعود إلى البر، وإن البر يعود إلى الجنة، واعتبروا في ذلك أنهما إلفان، يقال للصادق يصدق حتى يكتب صديقا، ولا يزال يكذب حتى يكتب كاذبا، ألا وإن الكذب لا يحل في جد ولا هزل، ولا أن يعد الرجل منكم صبيه ثم لا ينجز له، ألا ولا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وابتدعوا في دينهم، فإن كنتم لا محالة بسائليهم فما وافق كتابكم فخذوه، وما خالفه فاهدوا عنه واسكتوا، ألا وإن أصغر البيوت البيت الذي ليس فيه من كتاب الله شيء، خرب كخرب البيت الذي لا عامر له، ألا وإن الشيطان يخرج من البيت الذي يسمع فيه سورة البقرة تقرأ فيه[٥١].

(٥٠) المصنف -عبد الرزاق الصنعاني -ج١ ص١٥٩ -١٦٠.

(٥١) المصنف -عبد الرزاق الصنعاني -ج٦ =

أقول: ورب قائل يقول: ان هذا الحديث يختص بما رواه أهل الكتاب عما في كتبهم، كما في رواية الدارقطني وغيرها، ولهذا حذر رسول الله ﷺ من احاديثهم وأمر بعرضها على القرآن الكريم ؟.

قلت: انما خص رسول الله بالذكر أهل الكتاب هنا من باب المثل، لا على نحو الاختصاص، كونهم ابرز مصاديق الذين في قلوبهم مرض، من الذين يكذبون عليه ويفترون، ويحرفون كلامه عن معناه، ويحاولون ان يدسوا ما ورد في كتبهم التي حرفوها على اهوائهم بين المسلمين تفسيرا للقران الكريم، رواية على لسان رسول الله ليخلطوا عقائدهم المنحرفة مع عقائد الاسلام، وينشروها بين المسلمين، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [سورة المائدة:٤١]. كما ذكر هذا الحديث المتقي الهندي في عدة مواطن من كتابه (كنز العمال)، الذي احتوى على مجاميع الحافظ السيوطي الذي قال عنها في خطبة كتابه، التي أثبتها المتقي الهندي في مقدمة الكتاب: ان هذا الكتاب أودعت فيه من الكلم النبوية الوفا، ومن الحكم المصطفوية صنوفا، اقتصرت فيه على الأحاديث الوجيزة، ولخصت فيه من معادن الأثر أبريزه، وبالغت في تحرير التخريج فتركت القشر وأخذت اللباب، وصنته عما تفرد به وضاع أو كذاب[٥٢].

ومما رواه فيه:

- اعرضوا حديثي على كتاب الله فان وافقه فهو منى وانا قلته (الطبراني في المعجم الكبير عن ثوبان)[٥٣].

=ص١١١ -١١٢.

(٥٢) كنز العمال -المتقي الهندي ج١ ص٥ -٦.

(٥٣) م.ن. ج١ ص١٧٩.

- ألا إن رحى الاسلام دائرة! قيل: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال: اعرضوا حديثي على الكتاب فما وافقه فهو منى وانا قلته (الطبراني في المعجم الكبير وسمويه عن ثوبان)[٥٤].

- سئلت اليهود عن موسى فأكثروا فيه، وزادوا ونقصوا حتى كفروا، وإنه ستفشو عنى أحاديث فما أتاكم من حديثي فاقرؤوا كتاب الله واعتبروه، فما وافق كتاب الله فانا قلته، وما لم يوافق كتاب الله فلم أقله. (الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عمر)[٥٥].

- ستكون عنى رواه يروون الحديث فاعرضوه على القرآن فان وافق القرآن فخذوها، والا فدعوها (تاريخ ابن عساكر عن علي)[٥٦].

- من قال علي حسنا موافقا لكتاب الله وسنتي فأنا قلته، ومن قال عليّ كذبا مخالفا لكتاب الله تعالى وسنتي، فليتبوأ مقعده من النار (الديلمي في مسند الفردوس -عن نهشل عن الضحاك عن ابن عباس)[٥٧].

- عليكم بكتاب الله وسترجعون إلى قوم يحبون الحديث عني، ومن قال عليّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار، فمن حفظ شيئا فليحدث به (ابن الضريس عن عقبة بن عامر، مسند أحمد ومستدرك الحاكم عن أبي موسى الغافقي)[٥٨].

- عليكم بكتاب الله، فإنكم سترجعون إلى قوم يشتهون الحديث عني، فمن عقل شيئا فليحدث به ومن افترى على فليتبوأ مقعدا وبيتا من جهنم (الطبراني في المعجم الكبير عن مالك بن عبد الله الغافقي)[٥٩].

- يا أيها الناس أنزل الله كتابه على لسان نبيه، وأحل حلاله، وحرم حرامه، فما أحل في كتابه على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة، وما حرم في كتابه على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة (أبو نصر السجزي في الإبانة وقال حسن غريب، عن انس بن عمير الليثي مرسلا)[٦٠].

(٥٤) م.ن. ج١ ص١٩٦.
(٥٥) م.ن. ج١ ص١٩٦.
(٥٦) م.ن. ج١ ص١٩٦ -١٩٧.
(٥٧) م.ن. ج١٠ ص٢٣٠.
(٥٨) م.ن. ج١ ص١٩٧.
(٥٩) م.ن. ج١ ص١٩٧.
(٦٠) م.ن. ج ١ ص١٩٦.

- ألا إنها ستكون فتنة!؟ قيل: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ من قال به صدق، ومن عمل به اجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم (ابن أبى شيبة والترمذي، وضعفه عن علي)[٦١].

- من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة، وذلك إن الله يقول فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى (الطبراني في المعجم الأوسط عن ابن عباس)[٦٢].

- يا حذيفة عليك بكتاب الله فتعلمه واتبع ما فيه (البيهقي في شعب الايمان عن حذيفة)[٦٣].

- يأتي على الناس زمان لا تطاق المعيشة فيهم إلا بالمعصية حتى يكذب الرجل ويحلف! فإذا كان ذلك الزمان فعليكم بالهرب، قيل: يا رسول الله وإلى أين المهرب؟ قال إلى الله وإلى كتابه وإلى سنة نبيه (الديلمي في مسند الفردوس عن انس)[٦٤].

هذا، وقد رواه الهيثمي أيضا في (مجمع الزوائد) عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ألا إن رحا الإسلام دائرة! قال: كيف نصنع يا رسول الله؟ قال: أعرضوا حديثي على الكتاب فما وافقه فهو مني وأنا قلته[٦٥].

وعن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: سألت اليهود عن موسى فأكثروا فيه وزادوا ونقصوا حتى كفروا!، وسألت النصارى عن عيسى

(٦١) م.ن. ج١ ص١٩٧.
(٦٢) م.ن. ج١ ص١٩٨.
(٦٣) م.ن. ج١ ص١٩٨.
(٦٤) م.ن. ج١ ص١٩٨.
(٦٥) مجمع الزوائد - الهيثمي - ج١ ص١٧٠.

فأكثروا فيه وزادوا ونقصوا حتى كفروا به!، وانه ستفشو عني أحاديث فما أتاكم من حديثي فاقرؤا كتاب الله فاعتبروه فما وافق كتاب الله فأنا قلته وما لم يوافق كتاب الله فلم أقله[٦٦].

و ذكر العظيم آبادي في (عون المعبود) نقلا عن المنذري، ان حديث العرض على القرآن قد: أخرجه الترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه[٦٧].

ونقله ابو بكر السرخسي في (أصوله) في عدة مواطن مستدلا به ومسلما، على أن كل حديث هو مخالف لكتاب الله تعالى فهو مردود، فقال: وقال: تكثر الأحاديث لكم بعدي فإذا روي لكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله تعالى، فما وافقه فاقبلوه واعلموا أنه مني، وما خالفه فردوه واعلموا أني منه برئ[٦٨].

وقال: ولا شك أن السنة لا تكون مثلا للقرآن ولا خيرا منه، والقرآن كلام الله غير محدث ولا مخلوق وهو معجز، والسنة كلام مخلوق وهو غير معجز. فعرفنا أن نسخ الكتاب لا يجوز بالسنة، وقال: إذا روي لكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فاقبلوه، وما خالف كتاب الله فردوه. ومع هذا البيان من رسول الله كيف يجوز نسخ الكتاب بالسنة ؟[٦٩].

ورواه الإمام الشافعي في (رسالته) مسلما به، أن النبي قال: ما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فأنا قلته وما خالفه فلم أقله[٧٠].

وقال الدوري: سمعت يحيى يقول: كان يحيى بن آدم يحدث بحديث ابن أبي ذئب عن سعيد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله. وغير يحيى بن آدم يرسله[٧١].

(٦٦) مجمع الزوائد -الهيثمي -ج١ ص١٧٠.
(٦٧) عون المعبود -العظيم آبادي ج١٢ ص٢٣٢.
(٦٨) أصول السرخسي -أبو بكر السرخسي - ج١ ص٣٦٥.
(٦٩) أصول السرخسي -أبو بكر السرخسي - ج٢ ص٦٧.
(٧٠) الرسالة -الشافعي -ص٢٢٤.
(٧١) تاريخ ابن معين، الدوري -يحيى بن معين-ج١ ص٣٢٦.

وفي رسالة (علم الحديث) استشهد بما أورده الأصوليون من قوله: إذا روي عني حديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فاقبلوه وإن خالفه فردوه[٧٢].

كما استدل به الجصاص في (أحكام القرآن) فقال:...وأن لا يزال به حكم ثابت من جهة نص القرآن، لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فهو مني، وما خالفه فليس مني)[٧٣].

وقوله: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ دليل على وجوب اتباع القرآن في كل حال، وأنه غير جائز الاعتراض على حكمه بأخبار الآحاد، لأن الأمر باتباعه قد ثبت بنص التنزيل، وقبول خبر الواحد غير ثابت بنص التنزيل، فغير جائز تركه، لأن لزوم اتباع القرآن قد ثبت من طريق يوجب العلم، وخبر الواحد يوجب العمل، فلا يجوز تركه ولا الاعتراض به عليه. وهذا يدل على صحة قول أصحابنا في أن قول من خالف القرآن في أخبار الآحاد غير مقبول، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما جاءكم مني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فهو عني وما خالف كتاب الله فليس عني. فهذا عندنا فيما كان وروده من طريق الآحاد، فأما ما ثبت من طريق التواتر فجائز تخصيص القرآن به وكذلك نسخه قوله ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ فما تيقنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله، فإنه في إيجاب الحكم بمنزلة القرآن، فجائز تخصيص بعضه ببعض، وكذلك نسخه[٧٤].

واستشهد به الفخر الرازي في (تفسيره) في مواضع عدة وحكم بشهرته، وان ناقش في دلالته في كتابه (المحصول)، فقال: أن من الأحاديث المشهورة قوله عليه الصلاة والسلام: إذا روي لكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله فان وافقه فاقبلوه وإلا فردوه. فهذا الخبر يقتضي أن لا يقبل خبر الواحد إلا عند موافقة الكتاب. وقال ايضا في رده على القياس: انه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

(٧٢) تذكرة الموضوعات -الفتني -ص٢٨.

(٧٣) أحكام القرآن -الجصاص ج١ ص٦٢٩.

(٧٤) أحكام القرآن -الجصاص ج٣ ص٣٧-٣٨.

قال: إذا روي عني حديث فاعرضوه على كتاب الله فان وافقه فاقبلوه وإلا ذروه. ولا شك ان الحديث أقوى من القياس، فإذا كان الحديث الذي لا يوافقه الكتاب مردودا فالقياس أولى به[٧٥].

وقال: أما الخبر فما روي أنه ﷺ قال: إذا روي عني حديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فاقبلوه وإن خالفه فردوه. والخبر الذي يخصص الكتاب على مخالفة الكتاب فوجب رده[٧٦].

و قال ايضا: خبر الواحد إذا تكاملت شروط صحته هل يجب عرضه على الكتاب؟ قال الشافعي رضي الله عنه: لا يجب لأنه لا تتكامل شروطه إلا وهو غير مخالف للكتاب، وعند عيسى بن أبان: يجب عرضه عليه؛ لقوله صلى الله عليه وسلم إذا روي لكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله تعالى فإن وافقه فاقبلوه وإلا فردوه[٧٧].

وقال الآمدي: وأما المعقول فما ذكرناه فيما تقدم في تخصيص الكتاب بالكتاب. فإن قيل: ما ذكرتموه من التخصيص في الصور المذكورة لا نسلم أن تخصيصها كان بخبر الواحد، ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم: إذا روي عني حديث فاعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فاقبلوه، وما خالفه فردوه. والخبر فيما نحن فيه مخالف للكتاب، فكان مردودا[٧٨].

وقال الشيخ محمود ابو رية: وقد نبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)... بقوله: إن الأحاديث ستكثر بعدي كما كثرت عن الأنبياء قبلي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله تعالى، فما وافقه كتاب الله فهو عني قلته أو لم أقله[٧٩].

بل قد ادعى الاجماع يحيى بن الحسين الهادي على ان رسول الله قاله، حيث قال: وقد أجمعوا أن رسول الله ﷺ قال لهم: إنه

(٧٥) تفسير الرازي -الفخر الرازي ج١٠ ص٤٣، ج١٠ ص١٤٨ على الترتيب، وكذا استشهد به ج١١ ص٢١، ج١١ ص١٦٣.
(٧٦) المحصول -الرازي ج١ ص٩١ -٩٢، ج٤ ص٣٣٨.
(٧٧) المحصول -الرازي ج٤ ص٤٣٨.
(٧٨) الأحكام -الآمدي ج٢ ص٣٢٣.
(٧٩) أضواء على السنة المحمدية -محمود أبو رية -ص٩٩. وانظر له شيخ المضيرة أبو هريرة -ص٢٣٨.

سيكذب عليَّ كما كذب على من كان قبلي من الأنبياء، فما جاء كم عني فاعرضوه على كتاب الله عز وجل فما وافق كتاب الله عز وجل فهو مني وأنا قتله، وإن قالوا: لم يقله، وما خالف كتاب الله عز وجل فليس مني ولم أقله، وإن قالوا: قاله[٨٠].

وغيرهم كثير من علماء أهل السنة والجماعة وفقهائهم ومحدثيهم، ممن استدل بالحديث وأقره، واستشهد به وعمل بمضمونه، وقد حكموا بشهرته.

فاتضح من ذلك ان هذا الحديث الشريف له أصل ثابت في كتب الحديث، وقد روي من عدة طرق مختلفة، لا أقل أن إحداها طريق حسن، أضف الى ذلك شهرته بين الفقهاء والمحدثين، وأن جملة منهم قد عمل به وأخذه بعين القبول والرضا.

دلالة الحديث الشريف

ان ما اجمع عليه المسلمون هو أن القرآن الكريم أول الأدلة الإسلامية والمصدر الاساسي للتشريع، الذي تؤخذ منه العقائد الدينية والأحكام الشرعية والسنن الالهية، فهو الدستور الإلهي والقانون السماوي، وهو المرشد والهادي الى الطريق القويم، وهذا مما لا خلاف فيه بين المسلمين.

وبالنظر الى دلالة هذا الحديث الشريف، نرى انه يقرر وبصورة واضحة هذا المبدأ القويم، في جعل القرآن الكريم هو المعيار الفصل، والمقياس الحقيقي عند الاختلاف بين الاحاديث المتباينة، او عند طرو الشبهة والشك والريب فيها، وان الكتاب العزيز هو المرجع في اثبات صحة الاحاديث من سقمها، وتمييزها وفقهها، وانه الحاكم عليها في الجملة، وذلك بالرجوع اليه والعرض عليه، والأخذ بما وافقه، وطرح ما خالفه، وهذا ما يقرره أيضا العقل السليم والفطرة الحسنة.

على ان تفسير الموافقة للكتاب والمخالفة، على ما هو المعروف والمشهور بين الفقهاء والاصوليين، يكون في مؤدى الحكم ومدلوله ومغزاه. وإن ذهب بعض الفقهاء الى أن التوافق والتخالف انما

(٨٠) تثبيت الامامة -الهادي يحيى بن الحسين- ص٩.

يكون توافقا وتخالفا روحيا بين الكتاب العزيز والحديث الشريف، لا ان يكون في المؤدى -كما سيأتي -.

هذا، ولكن جملة من علماء اهل السنة والجماعة ومحدثيهم قد طعنوا في دلالة هذا الحديث -كما طعنوا سابقا في سنده، ورأينا ضعف دعواهم -من وجوه:

منها: ان هذا الحديث باطل ولا أصل له، بل انه من الاحاديث الموضوعة، وانه قد وضعته الزنادقة والخوارج؟!!

كما قاله الخطابي: فأما ما رواه بعضهم أنه قال: إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه. فإنه حديث باطل لا أصل له. وقد حكى زكريا الساجي، عن يحيى بن معين أنه قال: هذا حديث وضعته الزنادقة[٨١].

وقال عبد الرحمن بن مهدي: الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث، يعني ما روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما أتاكم عني فأعرضوه على كتاب الله، فإن وافق كتاب الله فأنا قلته، وإن خالف كتاب الله فلم أقل، وإنما أنا موافق كتاب الله وبه هداني الله. وهذه الألفاظ لا تصح عنه صلى الله عليه وسلم عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه[٨٢].

وهذه الدعوى وان كان حقها ان تطرح عند قراءة سند الحديث، الا اننا قرأناها في دلالته حيث انها تنكر أصل العرض على القرآن، وان في هذا خروجاً عن سياق الدين وحدوده.

وبعدما اتضح لك مما سبق، ان هذا الحديث الشريف له أصل ثابت في كتب الحديث، وقد روي بعدة طرق مختلفة، لا أقل أن إحداها طريق حسن، أضف الى ذلك شهرته بين الفقهاء والمحدثين، بل ادعي الاجماع على ان رسول الله ﷺ قاله، فضلا على ذلك أن جملة منهم قد عمل به وأخذه بعين الرضا والقبول.

ونحن لم نعلم ما هي المصلحة والفائدة لأهل الزندقة والخوارج في

(٨١) انظر عون المعبود -العظيم آبادي ج١٢ ص٢٣٢.

(٨٢) جامع بيان العلم وفضله -ابن عبد البر- ج٢ ص١٩٠ -١٩١، وانظر كشف الخفاء للعجلوني ج١ ص٨٦، تذكرة الموضوعات للفتني ص٢٨ وغيرهم.

وضع حديث يثبت فيه أن عرض الحديث على القرآن الكريم هو الضابطة المصححة للاحاديث المختلف فيها، وانه المقوم لها، وما هو هدفهم من وراء ذلك؟ وهل ينفعهم ذلك في شيء؟! واية فضيلة او مكرمة -بنظرهم -تضاف لهم في ضرب الاسلام ودستوره، في جعل كتاب الله هو المرجع لهم في كل شيء؟! إلا ان العاقل المنصف وصاحب الفطرة السليمة يُقرّ لهم بذلك، في ان الرجوع الى كتاب الله والعرض عليه هو الاصل؛ لأنه المصدر الاسلامي الاول في التشريع، كما ان هذا تقره قواعد النقد العلمي، واسس البحث الموضوعي، فالنأي عنه، والرجوع الى احاديث ومرويات غير قطعية الصدور، ومختلف فيها، ما بين مختلقة ومضطربة الدلالة، وبعضها لم يَفهم الراوي وجهها ولا حقيقتها، مع ان التناقض والاضطراب مستحكم في كثير منها، ولكنك ترى ان عملهم جار بها، وبناء عقائدهم واحكامهم عليها، بل انهم ينسخون أحكام القرآن وآياته بتلك المرويات المضطربة! انه لشيء غريب!! وهذا تهكم بقبول الاحاديث عجيب؟ بدل الاذعان للعقل والفطرة السليمة، فضلا عن النص الصريح، في الرجوع لكتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والعرض عليه للوقوف على الصدق والحقيقة.

وهذا ما أقره جملة من الصحابة والتابعين والعلماء، وألتزم به أئمة أهل البيت عليهم السلام وعلماؤهم، تأييدا وتثبيتا لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله، منها:

ما روي عن أبي بكر في خطبة له: فإن كانت للباطل غزوة، ولأهل الحق جولة، يعفو لها الأثر، وتموت السنن، فالزموا المساجد واستشيروا القرآن[٨٣]. وعن عمر قوله: حسبنا كتاب الله[٨٤]. وعن علي عليه السلام: ستكون عني رواة يروون الحديث، فاعرضوه على القرآن، فإن وافق القرآن فخذوه، وإلا فدعوه[٨٥]. وعن ابن عباس

(٨٣) غريب الحديث -ابن قتيبة ج١ ص٢٥٠-٢٥١.

(٨٤) صحيح البخاري ج٧ ص٩، صحيح مسلم ج٥ ص٧٦.

(٨٥) كنز العمال -المتقي الهندي ج ١ ص ١٩٧.

قال: إذا سمعتموني أحدث عن رسول الله فلم تجدوه في كتاب الله، أو حسنا عند الناس، فاعلموا أني كذبت عليه[٨٦]. وعن ابن مسعود قال: فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه[٨٧]. وعن معاذ بن جبل قال: فاعرضوا على الكتاب كل شيء من الكلام، ولا تعرضوه على شيء من الكلام[٨٨]. وأوصى أُبي بن كعب رجلا فقال له: اتخذْ كتابَ الله إماما، وآرضَ به قاضيا وحكما[٨٩]. وعن أيوب: أن رجلا قال لمطرف بن عبد الله بن الشخير: لا تحدثونا إلا بالقرآن، فقال له مطرف: والله ما نريد بالقرآن بدلا، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا[٩٠].

وعن علي بن الحسين عليه السلام في دعائه عند ختم القرآن قال: وميزان قسط لا يحيف عن الحق لسانه، ونور هدى لا يطفأ عن الشاهدين برهانه، وعلم نجاة لا يضل من أمَّ قصْدَ سنته، ولا تنال أيدي الهلكات من تعلق بعروة عصمته[٩١]. وعن الإمام الباقر عليه السلام: إذا حدثتكم بشيء فاسألوني عن كتاب الله[٩٢]. وعن الإمام الصادق عليه السلام: ما لم يوافق كتاب الله فهو زخرف[٩٣]. وغير ذلك كثير.

وليت شعري، هل يحكم هؤلاء على ابي بكر بأنه من الخوارج او الزنادقة حينما أمر المسلمين بالرجوع الى كتاب الله فقط، بعد أن احرق الاحاديث النبوية بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، كما روت ذلك ابنته السيدة عائشة، وانه قام في الناس خطيبا فقال: إنكم تحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافا، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئا! فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه[٩٤].

وهل يشاركه في هذا الحكم عمر بن

(٨٦) سنن الدارمي -ابن بهرام ج١ ص١٤٦.
(٨٧) الدر المنثور -السيوطي ج٥ ص١٤٧.
(٨٨) كنز العمال -المتقي الهندي ج١٣ ص٥٨٤-٥٨٥.
(٨٩) سير أعلام النبلاء -الذهبي ج١ ص ٩٢.
(٩٠) جامع بيان العلم وفضله -ابن عبد البر - ج٢ ص١٩١.
(٩١) الصحيفة السجادية الكاملة -الامام زين العابدين ص١٩٩.
(٩٢) الكافي -الكليني ج١ ص٦٠.
(٩٣) الكافي -الكليني ج١ ص٦٩.
(٩٤) تذكرة الحفاظ -الذهبي ج١ ص٢ -٣.

الخطاب في دخوله خانة الخوارج وأهل الزندقة، وهو الذي منع انتشار الحديث النبوي وأحرق كتب الصحابة التي تضم أحاديث رسول الله ﷺ ومنع تدوينها، بل انه رفض العمل بالسنة في حياة رسول الله ﷺ واعلن قولته الشهيرة: حسبنا كتاب الله!! كما روى ذلك البخاري ومسلم في (صحيحيهما) وغيرهما، فقد روى البخاري بسنده عن عبد الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي صلى الله عليه وسلم هلم اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده. فقال عمر: ان النبي صلى الله عليه وسلم قد غلب عليه الوجع!! وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله[٩٥].

وهل تكون ام المؤمنين عائشة في موضع الاتهام ايضا حينما أنكرت على عمر بن الخطاب حديث: إن الميت يعذب في قبره ببكاء أهله عليه، وعارضته بالقرآن، وقالت: لا والله ما حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يعذب المؤمن ببكاء أحد، ولكن قال: إن الله يزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه، قال: وقالت عائشة: حسبكم القرآن، فإنه يقول ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[٩٦]. كما أنكرت عائشة أم المؤمنين على مسروق سؤاله ان رسول الله رأى ربه! وعارضته بكتاب الله، كما روى البخاري عن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أمتاه هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت؟! أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب، من حدثك ان محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، ومن حدثك انه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ ومن حدثك انه كتم فقد كذب، ثم قرأت ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن

(٩٥) صحيح البخاري ج٧ ص٩، صحيح مسلم ج٥ ص٧٦.

(٩٦) صحيح البخاري ج٢ ص٨١، صحيح مسلم ج٣ ص٤٣ - ٤٤.

﴿رَبِّكَ﴾ الآية، ولكنه رأى جبرئيل عليه السلام في صورته مرتين[٩٧]. وغير ذلك مما اشتهر عنها بعرض الحديث على القرآن.

قال الحافظ أبو محمد بن حزم في كتاب (الإحكام): ولو أن امرءً قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن لكان كافرا بإجماع الأمة، ولكان لا يلزمه إلا ركعة ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل، وأخرى عند الفجر؛ لأن ذلك أقل ما يقع عليه اسم صلاة، ولا حد للأكثر في ذلك، وقائل هذا كافر مشرك حلال الدم والمال[٩٨].

فهل يشمل قول ابن حزم هذا الشيخين؛ اذ انهما يريان ان القرآن أصل براسه ولا حاجة به للسنة، فتأمل.

والغريب من اتباعهم انهم اخذوا يرددون خلاف ما قرره ائمتهم من الاكتفاء بكتاب الله سبحانه وتعالى، وترى كلماتهم تصدح ان القرآن غير كاف وانه لا يفي بالغرض، وانه ليس بقاض على السنة، وانما السنة قاضية عليه، وانه الى السنة احوج من السنة اليه -وسيأتي-، فيا ترى بكلام من نأخذ؟ ومن منهم المخطئ ومن هو المصيب؟!، إنه لأمر عجيب!!.

هذا، ومن جهة أخرى، قال بعضهم: ان هذا الحديث باطل بنفسه؛ لان القرآن ليس فيه ما يدل على عرض الحديث عليه، وانه أمر بطاعة الرسول والتزام ما يصدر عنه في كل حال.

كما قاله أبو بكر البيهقي: هذا حديث باطل لا يصح، وهو ينعكس على نفسه بالبطلان، فليس في القرآن دلالة على عرض الحديث على القرآن[٩٩].

وقال الآمدي في (الإحكام في أصول الأحكام): والخبر فيما نحن فيه مخالفاً للكتاب، فكان مردودا[١٠٠].

وقال ابن عبد البر: وقد عارض هذا الحديث قوم من أهل العلم، وقالوا: نحن نعرض هذا الحديث على كتاب الله قبل كل شيء ونعتمد على ذلك، قالوا: فلما عرضناه

(٩٧) صحيح البخاري ج٦ ص٥٠، صحيح مسلم ج١ ص١١٠.

(٩٨) كتاب الإحكام في أصول الأحكام -ابن حزم ج٢ ص٢٠٠.

(٩٩) دلائل النبوة -البيهقي ج١ ص٢٦.

(١٠٠) الإحكام في أصول الأحكام -الآمدي- ج٢ ص٣٢٣.

على كتاب الله وجدناه مخالفاً لكتاب الله؛ لأنا لم نجد في كتاب الله ان لا يقبل من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما وافق كتاب الله، بل وجدنا كتاب الله يطلق التأسي به والأمر بطاعته، ويحذر المخالفة عن أمره جملة على كل حال[١٠١].

وقال أبو عمر: قد أمر الله عز وجل بطاعته واتباعه -أي رسول الله -أمرا مطلقا مجملا، لا يقيد بشيء، كما أمرنا باتباع كتاب الله، ولم يقل: وافق كتاب الله، كما قال بعض أهل الزيغ[١٠٢].

ويرد على ذلك: انه لا خلاف بين المسلمين في اتباع رسول الله والتمسك بما ثبت من أقواله، لقول الله عز وجل ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[سورة الحشر:٧]، وأن هذا الحديث الشريف قد ثبت صدوره عن رسول الله ﷺ بالتواتر المعنوي، فضلا عن شهرته، وقد تلقاه أغلب العلماء والفقهاء بالقبول والرضا.

على ان هذه الدعوى انما تقع على فرض ثبوت الرواية الشريفة وصحة صدورها عن المقام النبوي الشريف، ولكن فرض كلامنا، ودلالة حديث العرض على القرآن الكريم، فيما اذا اختُلف في الحديث الشريف، ودخل الشك والريب في صدوره عن الرسول الكريم، فكيف يتعامل مع هذا الحديث، وكيف نخرج من عهدته؟ فجعل ﷺ الضابطة والمعيار الحقيقي، في عرضه على كتاب الله تعالى، المرجع الامين لذلك والطريق السليم؛ لان فيه الهدى والرشاد، وقال تعالى ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[سورة الأعراف:٣]، فان وافقه قُبل منه وعمل به، وان خالفه رد على راويه، هذا في حال ثبوت الموافقة او المخالفة.

اما اذا ورد الحديث وعرضناه على كتاب الله فلم نر ما يوافقه فيه، كما لم نر ما يخالفه ايضا، فان هذا الحديث يبقى على تمامية حجية الروايات والاخبار، لا ان نضربه عرض الجدار او نتركه جانبا؛ لعدم

(١٠١) جامع بيان العلم وفضله -ابن عبد البر- ج٢ ص ١٩١.
(١٠٢) جامع بيان العلم وفضله -ابن عبد البر- ج٢ ص١٩٠.

وجود شاهد له في الكتاب، فتأمل.

كما أن هذا القول لا يوجب ترك النقل وعدم الاخذ بمرويات السنة الشريفة، والا فيمكن ان يقال كما قال ابن حزم: ولو أن امرءً قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن: لكان كافرا بإجماع الأمة... وقائل هذا كافر مشرك حلال الدم والمال[١٠٣]، لأنه بالنتيجة يكون مكذباً لكتاب الله تعالى في ذلك، ولرسول الله وما جاء به.

وقد روى الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسُنة التي تفسر ذلك[١٠٤]. وعن أبي نضرة عن عمران بن حصين أنه قال لرجل: أنك امرؤ أحمق! أتجد في كتاب الله الظهر أربعة لا تجهر فيها بالقراءة، ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا، ثم قال: أتجد في كتاب الله مفسرا؟ أن كتاب الله أبهم هذا، وأن السنة تفسر ذلك[١٠٥].

وعلى هذا، فان ما روي عن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري، مما نهيت عنه أو أمرت به، فيقول ما ندري ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه)[١٠٦]. وما روي عن المقدام بن معد يكرب، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ألا إني أتيت الكتاب ومثله معه، لا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه)[١٠٧].

فان هذا -على فرض صدور الخبر عن رسول الله -، ليس فيه ما يدل على قول الخطابي -في معرض رده حديث العرض على القرآن -انه: في الحديث دليل على أن لا حاجة بالحديث أن يعرض على الكتاب، وأنه مهما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء كان حجة بنفسه)[١٠٨].

(١٠٣) الإحكام في أصول الأحكام -ابن حزم ج٢ ص ٧٦ -٨٢.

(١٠٤) جامع بيان العلم وفضله -ابن عبد البر- ج٢ ص١٩١.

(١٠٥) جامع بيان العلم وفضله -ابن عبد البر = ج٢ ص١٩١.

(١٠٦) سنن ابي داود -السجستاني- ج٢ ص٣٩٢.

(١٠٧) كنز العمال -المتقي الهندي - ج١ ص١٧٤.

(١٠٨) تفسير القرطبي -القرطبي -ج ١ ص٣٨.

أقول: ان هذا الامر انما يثبت، بعد فرض صحة الرواية والعلم بصدورها عن رسول الله ﷺ، ووضوح دلالتها ودرايتها، فالقول كما قال (فإنها تكون حجة بنفسها)، لا في حال الشك والتردد في أصل ثبوتها، او تضاربها واضطرابها -كما هو المفروض -.

وقد أجاب ابو بكر السرخسي في كتابه (اصول الفقه) عن هذه الدعوى بقوله: وما روي من قوله ﷺ: فاعرضوه على كتاب الله تعالى. فقد قيل: هذا الحديث لا يكاد يصح؛ لان هذا الحديث بعينه مخالف لكتاب الله تعالى، فإن في الكتاب فرضية اتباعه مطلقا، وفي هذا الحديث فرضية اتباعه مقيدا بأن لا يكون مخالفا لما يتلى في الكتاب ظاهرا. ثم ولئن ثبت فالمراد أخبار الآحاد لا المسموع منه بعينه، أو الثابت عنه بالنقل المتواتر، وفي اللفظ ما دل عليه، وهو قوله ﷺ: إذا روي لكم عني حديث ولم يقل إذا سمعتم مني. وبه نقول إن بخبر الواحد لا يثبت نسخ الكتاب؛ لأنه لا يثبت كونه مسموعا من رسول الله ﷺ قطعا، ولهذا لا يثبت به علم اليقين. على أن المراد بقوله: وما خالف فردوه، عند التعارض إذا جعل التاريخ بينهما، حتى لا يوقف على الناسخ والمنسوخ منهما، فإنه يعمل بما في كتاب الله تعالى، ولا يجوز ترك ما هو ثابت في كتاب الله نصا عند التعارض، ونحن هكذا نقول، وإنما الكلام فيما إذا عرف التاريخ بينهما[١٠٩].

ثم انهم بعد ان طعنوا في الحديث الشريف، ونسبوه الى الوضع، قالوا: ان هذا الحديث مدفوع بما صح خلافه، كما ادعى ذلك الخطابي والعجلوني وغيرهما[١١٠]، وذلك بما روي عنه ﷺ: إني قد أوتيت الكتاب وما يعدله. وفي رواية: أوتيت الكتاب ومثله معه[١١١]. وفي حديث آخر صحيح: لا ألفين أحدكم متكئا على متكأ، يصل إليه عني حديث فيقول: لا نجد هذا الحكم في القرآن، ألا وإني أوتيت القرآن

(١٠٩) أصول السرخسي -أبو بكر السرخسي- ج٢ ص٧٦.

(١١٠) انظر كشف الخفاء -العجلوني -ج٢ ص٤٢٣.

(١١١) كنز العمال -المتقي الهندي ج ١ ص١٧٤.

ومثله معه[١١٢]. وروي عنه ايضا أنه قال: ألا إني أتيت الكتاب ومثله معه، لا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه)[١١٣].

ثم قال الخطابي في بيان قوله ﷺ: (أوتيت الكتاب ومثله معه) انه يحتمل وجهين من التأويل:

أحدهما- ان معناه انه اوتى من الوحي الباطن غير المتلو، مثل ما اعطى من الظاهر المتلو.

والثاني- انه اوتى الكتاب وحيا يتلى، واوتى من البيان مثله. اي اذن له ان يبين ما في الكتاب، فيعم ويخص، ويزيد عليه، ويشرع ما في الكتاب، فيكون في وجوب العمل به، ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن[١١٤].

ولكن يرد على ذلك: انه ليس بمطلق ما يصلنا من الروايات والاحاديث عنه ﷺ، ليقال انه بها (يبين ما في الكتاب، فيعم ويخص، ويزيد عليه، ويشرع ما في الكتاب)، وإن كان خبر آحاد، الذي يكون فيه ريبة وشك واختلاف، وقد يكون بعيدا عن روح القرآن ونهجه، فهذا ما لم يقره العقل فضلا عن الشرع الشريف، بل(يكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله) هو الخبر المتواتر او المشهور او المجمع عليه من السنة القطعية، وما ثبتت حجيته وتماميته.

وكأن الخطابي يرمي في كلامه هذا ويشير الى أصل اعتمدوه في منهجهم وقرروه، وهو جواز الاعتراض على حكم الكتاب بأخبار الآحاد، وقد بنوا قواعدهم على ذلك، كأنه هنا يريد أن يثبت ذلك بقوله: (اذن له -أي النبي -ان يبين ما في الكتاب، فيعم ويخص، ويزيد عليه، ويشرع ما في الكتاب، فيكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن).

وأقول: انه ربما يريد ﷺ بقوله: اني اوتيت القرآن ومثله) أي كلاما بيّناً واضحا يقارب القرآن ويشابهه بالفكر

(١١٢) كنز العمال -المتقي الهندي ج١ ص١٧٤.
(١١٣) كنز العمال -المتقي الهندي ج١ ص١٧٤.
(١١٤) انظر تفسير القرطبي -القرطبي -ج١ ص٣٨.

والروح والمضمون.

او أن قوله ﷺ: ..مثله معه) اي من الحديث والسنة على نهج القرآن ولحن خطابه وذوقه العام، سواء في العقائد او الاحكام.

وقد أشار الى هذا المعنى سيدنا آية الله السيستاني حفظه الله ان المراد بالموافقة للكتاب والمخالفة، هو التوافق والتخالف الروحي بين الحديث والكتاب العزيز، لا التوافق والتخالف في المؤدى كما هو المعروف، فقال: قد نبه على اعتبار هذا الشرط في حجية الخبر جملة من الروايات، حيث اعتبرت في قبوله موافقة الكتاب والسنة، وأمرت بطرح ما خالفهما، فإن المقصود بذلك على التفسير المختار لها – التوافق أو التخالف الروحي بينه وبينهما على ما تشهد به قرائن داخلية وخارجية– وإن كان المعروف تفسيرها بالتوافق أو التخالف في المؤدى، ولنذكر بعض هذه الأخبار المستفيضة: منها: ما عن أبي عبد الله ؈ قال: خطب النبي ﷺ بمنى، فقال: يا أيها الناس ما جاءكم مني يوافق كتاب الله فأنا قلته وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله). ومنها: ما عنه ؈ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نورا فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه). و(الحقيقة) هي: الراية، والمعنى أن على كل حق راية، وعلى كل صواب وضوح، وراية الحق هي الموافقة مع القرآن الكريم. ومنها: معتبرة أيوب بن الحر قال: سمعت أبا عبد الله ؈ يقول: كل حديث مردود إلى الكتاب والسنة وكل شيء لا يوافق كتاب الله فهو زخرف) وغير ذلك.

ولو أريد بالتوافق في هذه الأخبار التوافق في المؤدى على أن يكون مضمون الحديث مفادا بإطلاق أو عموم كتابي لزم من ذلك عدم جواز الاخذ بالمخصصات، فهذا قرينة واضحة على أن المعني بها التوافق الروحي. وقد ورد إعمال هذا المنهج في بعض الأخبار، وهو قرينة على إرادة التوافق الروحي في الأخبار السابقة. منها: ما عن أبي جعفر ؈ قال: إذا حدثتكم بشيء فاسألوني من كتاب الله، ثم قال في

بعض حديثه إن رسول الله ﷺ نهى عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال. فقيل له: يا ابن رسول الله ﷺ أين هذا من كتاب الله؟ فقال: إن الله عز وجل يقول: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ وقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ وقال: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

ومنها: ما في صحيحة الفضل بن العباس قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا أصاب ثوبك من الكلب رطوبة فاغسله وإن مسه جافا فأصبب عليه الماء، قلت: لم صار بهذه المنزلة؟ قال: لان النبي ﷺ أمر بقتلها). فإن السؤال سواء كان عن سبب الحكم ثبوتا أو عن دليله إثباتا لا يكون الجواب عنه بذلك إلا من باب الاستئناس، باعتبار أن الامر بقتلها يدل على مدى مبغوضيتها شرعا فيسانخ ذلك مع الحكم بالغسل أو الصب، إلى غير ذلك[١١٥].

ثم علق الخطابي أيضا على قوله ﷺ في حديث: يوشك رجل شبعان...الحديث). انه يحذر بهذا القول من مخالفة السنن التي سنها مما ليس له في القرآن ذكر، على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض، فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي قد ضمنت بيان الكتاب، قال: فتحيروا وضلوا[١١٦].

أقول: وجريا على قولك، أي سنن قد ضمنت بيان الكتاب في قولك: (وتركوا السنن التي قد ضمنت بيان الكتاب)؟ لا بد انها تكون السنن والاحكام الثابتة من السنة القطعية، إما بالتواتر او الشهرة، وهذا ما تقوله (الرافضة) وتعمل به، اما الاحاديث التي ليس لها شاهد في الكتاب العزيز، ولم تخالفه، فهي لا تدخل فيما خالف القرآن -كما سبق -وانما ترجع الى حجية نفس الاخبار والمرويات، فـ(الروافض) لم يتحيروا ولم يضلوا ان شاء الله، وقال المثل(رمتني بدائها وانْسلّت). واما الخوارج فأنا لا اعرف ما هو رأيهم في ذلك؟ ولا يمكن التصديق بقولك؛

(١١٥) قاعدة لا ضرر ولا ضرار -تقرير بحث السيد السيستاني -ص ٢١٥ -٢١٦.

(١١٦) انظر تفسير القرطبي -القرطبي -ج١ ص٣٨.

لسقوط عدالتك بافترائك وكذبك على (الروافض) بقولك هنا، بنسبة ما ليس فيهم لهم؟! ولكن ربما نأخذ بكلامك فيهم، فانت اقرب للخوارج واعرف بآرائهم ياخطابي !!.

هذا، وخلاصة كلام الخطابي وغيره، في دلالة حديث: يوشك رجل شبعان... الحديث)، الذي استفاد من دلالته وقرر: أنه لا حاجة بالحديث إلى أن يعرض على الكتاب، فإنه مهما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حجة بنفسه)[117].

وعلى هذا المبنى من تقديم مطلق الحديث الشريف على القرآن الكريم!!؟ اقيمت أُسس مدرسة اهل السنة والجماعة، بل ادعى جملة من علمائهم ان السنة حاكمة على القرآن وقاضية عليه، فقد قال الامام الأوزاعي: الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب. وروى الأوزاعي عن مكحول قال: القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى كتاب. وعن الأوزاعي قال يحيى بن أبي كثير: السنة قاضية على الكتاب وليس الكتاب قاضيا على السنة[118]. وقال ابن عبد البر: إنها تقضي عليه، وتبين المراد منه[119]. وعن ابن قتيبة الدينوري قوله ان: السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاض على السنة[120]. وعن امام أهل السنة والجماعة في الاصول الامام الاشعري انه قال: إن السنة تنسخ القرآن وتقضي عليه، وأن القرآن لا ينسخ السنة ولا يقضي عليها[121].

وعليه فمبنى أهل السنة والجماعة يقتضي أن تكون السنة الشريفة هي الأصل الاول للتشريع!؟ لا القرآن الكريم، فتأمل.

وعلى هذا، وتأكيدا لما سبق من قول الخطابي وابن الجوزي والفتني وغيرهم، قال الآمدي في (الإحكام في أصول

(١١٧) تفسير القرطبي -القرطبي -ج١ ص٣٨.

(١١٨) انظر جامع بيان العلم وفضله -ابن عبد البر -ج ٢ ص١٩١.

(١١٩) جامع بيان العلم وفضله -ابن عبد البر- ج٢ ص١٩١.

(١٢٠) سنن الدارمي -ابن بهرام ج١ ص١٤٥، تأويل مختلف الحديث -ابن قتيبة ص ١٩٩.

(١٢١) مقالات الإسلاميين -الاشعري ج٢ ص٢٥١.

الأحكام): يجوز تخصيص عموم القرآن بالسنة، أما إذا كانت السنة متواترة، فلم أعرف فيه خلافا... وأما إذا كانت السنة من أخبار الآحاد، فمذهب الأئمة الأربعة جوازه. ومن الناس من منع ذلك مطلقا... وذهب القاضي أبو بكر إلى الوقف. والمختار مذهب الأئمة[١٢٢].

وأضاف: قطع الشافعي وأكثر أصحابه وأكثر أهل الظاهر بامتناع نسخ الكتاب بالسنة المتواترة، وإليه ذهب أحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه. وأجاز ذلك جمهور المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة، ومن الفقهاء مالك وأصحاب أبي حنيفة وابن سريج، واختلف هؤلاء في الوقوع. والمختار جوازه[١٢٣].

وكما ترى فان القوم قرروا جواز نسخ القرآن وتخصيصه بأخبار الآحاد، ومن أي طريق ورد، الا أن الجصاص في (أحكام القرآن) رد هذه الدعوى وانكرها، فقال:

لا يجوز الاعتراض على حكم القرآن بأخبار الآحاد، وقوله ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [سورة الأعراف:٣] دليل على وجوب اتباع القرآن في كل حال، وأنه غير جائز الاعتراض على حكمه بأخبار الآحاد، لأن الأمر باتباعه قد ثبت بنص التنزيل، وقبول خبر الواحد غير ثابت بنص التنزيل، فغير جائز تركه، لأن لزوم اتباع القرآن قد ثبت من طريق يوجب العلم، وخبر الواحد يوجب العمل، فلا يجوز تركه ولا الاعتراض به عليه. وهذا يدل على صحة قول أصحابنا في أن قول من خالف القرآن في أخبار الآحاد غير مقبول، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما جاءكم مني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فهو عني وما خالف كتاب الله فليس عني. فهذا عندنا فيما كان وروده من طريق الآحاد، فأما ما ثبت من طريق التواتر فجائز تخصيص القرآن به، وكذلك نسخه قوله ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [سورة الحشر: ٧] فما تيقنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله فإنه في إيجاب الحكم بمنزلة

(١٢٢) الإحكام في أصول الأحكام -الآمدي- ج٢ ص٣٢٢. وانظر المحصول -الرازي- ج٣ ص٨٥.

(١٢٣) الإحكام في أصول الأحكام -الآمدي- ج٣ ص١٥٣.

القرآن، فجائز تخصيص بعضه ببعض، وكذلك نسخه[١٢٤].

وقد رد أيضا دعوى الخطابي، ابو بكر السرخسي في كتابه (اصول الفقه)، فقال: إذا كان الحديث مخالفا لكتاب الله تعالى، فإنه لا يكون مقبولا، ولا حجة للعمل به، عاما كانت الآية أو خاصا، نصا أو ظاهرا، عندنا على ما بينا، أن تخصيص العام بخبر الواحد لا يجوز ابتداء، وكذلك ترك الظاهر فيه، والحمل على نوع من المجاز لا يجوز بخبر الواحد عندنا خلافا للشافعي، وقد بينا هذا، ودليلنا في ذلك قوله عليه السلام: كل شرط ليس في كتاب الله تعالى فهو باطل، وكتاب الله أحق، والمراد كل شرط هو مخالف لكتاب الله تعالى، لا أن يكون المراد ما لا يوجد عينه في كتاب الله تعالى، فإن عين هذا الحديث لا يوجد في كتاب الله تعالى، وبالإجماع من الاحكام ما هو ثابت بخبر الواحد و(القياس؟)، وإن كان لا يوجد ذلك في كتاب الله تعالى، فعرفنا أن المراد ما يكون مخالفا لكتاب الله تعالى، وذلك تنصيص على أن كل حديث هو مخالف لكتاب الله تعالى فهو مردود.

وقال عليه السلام: تكثر الأحاديث لكم بعدي، فإذا روي لكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله تعالى، فما وافقه فاقبلوه واعلموا أنه مني، وما خالفه فردوه واعلموا أني منه برئ. ولان الكتاب متيقن به، وفي اتصال الخبر الواحد برسول الله صلى الله عليه وآله شبهة، فعند تعذر الاخذ بهما، لا بد من أن يؤخذ بالمتيقن، ويترك ما فيه شبهة...

ولا شك أن الكتاب يترجح باعتبار النقل المتواتر في المتن على خبر الواحد، فكانت مخالفة الخبر للكتاب دليلا ظاهرا على الزيف فيه، ولهذا لم يقبل علماؤنا خبر الوضوء من مس الذكر؛ لأنه مخالف للكتاب...

فإن أصل البدع والأهواء إنما ظهر من قبل ترك عرض أخبار الآحاد على الكتاب والسنة المشهورة، فإن قوما جعلوها أصلا مع الشبهة في اتصالها برسول الله عليه السلام، ومع أنها لا توجب علم اليقين، ثم تأولوا عليها الكتاب والسنة المشهورة فجعلوا التبع متبوعا، وجعلوا الأساس ما هو غير متيقن

(١٢٤) أحكام القرآن -الجصاص -ج٣ - ص٣٧-٣٨.

به، فوقعوا في الأهواء والبدع...

وإنما سواء السبيل ما ذهب إليه علماؤنا رحمهم الله من إنزال كل حجة منزلتها، فإنهم جعلوا الكتاب والسنة المشهورة أصلا، ثم خرجوا عليهما ما فيه بعض الشبهة، وهو المروي بطريق الآحاد مما لم يشتهر، فما كان منه موافقا للمشهور قبلوه، وما لم يجدوا في الكتاب ولا في السنة المشهورة له ذكرا قبلوه أيضا، وأوجبوا العمل به، وما كان مخالفا لهما ردوه، على أن العمل بالكتاب والسنة أوجب من العمل بالغريب بخلافه...[١٢٥].

بل ترقى في ذلك وصرح أن القول بنسخ القرآن بالسنة يوجب الطعن برسول الله ﷺ، في انه اول من خالف القرآن المنزل عليه، حيث قال: فعندنا يجوز نسخ الكتاب بالسنة المتواترة أو المشهورة على ما ذكره الكرخي عن أبي يوسف... وقال تعالى ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ لا شك أن السنة لا تكون مثلا للقرآن ولا خيرا منه، والقرآن كلام الله غير محدث ولا مخلوق، وهو معجز، والسنة كلام مخلوق، وهو غير معجز. فعرفنا أن نسخ الكتاب لا يجوز بالسنة، وقال عليه السلام: إذا روي لكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فاقبلوه، وما خالف كتاب الله فردوه.

ومع هذا البيان من رسول الله ﷺ كيف يجوز نسخ الكتاب بالسنة ؟! ولان ما قلته أقرب إلى صيانة رسول الله عن طعن الطاعنين فيه، وبالاتفاق يجب المصير في باب بيان أحكام الشرع إلى طريق يكون أبعد عن الطعن فيه. وبيان ذلك: أنه إذا جاز منه أن يقول ما هو مخالف للمنزل في الظاهر على وجه النسخ له، فالطاعن يقول هو أول قائل وأول عامل بخلاف ما يزعم أنه أنزل إليه، فكيف يعتمد قوله فيه!؟ وإذا ظهر منه قول ثم قرأ ما هو مخالف لما ظهر منه من القول، فالطاعن يقول قد كذبه ربه فيما قال، فكيف نصدقه؟ وإلى هذا أشار الله تعالى في قوله ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

(١٢٥) أصول السرخسي -أبو بكر السرخسي- ج١ ص٣٦٤-٣٦٩.

﴿يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ ثم نفى عنه هذا الطعن، بقوله ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ ففي هذا بيان أنه ليس في نسخ الكتاب بالكتاب تعريضه للطعن، وفي نسخ الكتاب بالسنة تعريضه للطعن من الوجه الذي قاله الطاعنون، فيجب سد هذا الباب لعلمنا أنه مصون عما يوهم الطعن فيه(١٢٦).

ثم ذكر السرخسي اعتراض البعض على حديث العرض على القرآن، ودعوى ان هذا الحديث بعينه يخالف القرآن الكريم، حيث قال: وما روي من قوله ﷺ: فاعرضوه على كتاب الله تعالى. فقد قيل: هذا الحديث لا يكاد يصح؛ لان هذا الحديث بعينه مخالف لكتاب الله تعالى، فإن في الكتاب فرضية اتباعه مطلقا، وفي هذا الحديث فرضية اتباعه مقيدا، بأن لا يكون مخالفا لما يتلى في الكتاب ظاهرا. ثم ولئن ثبت فالمراد أخبار الآحاد لا المسموع منه بعينه، أو الثابت عنه بالنقل المتواتر، وفي اللفظ ما دل عليه وهو قوله ﷺ: إذا روي لكم عني حديث ولم يقل إذا سمعتم مني، وبه نقول إن بخبر الواحد لا يثبت نسخ الكتاب، لأنه لا يثبت كونه مسموعا من رسول الله ﷺ قطعا ولهذا لا يثبت به علم اليقين(١٢٧).

وقد روي عن الفضل بن زياد انه قال: سمعت أبا عبد الله -يعني أحمد بن حنبل -وسئل عن الحديث الذي روى أن السنة قاضية على الكتاب؟ فقال: ما أَجْسُرُ على هذا أن أقوله، أن السنة قاضية على الكتاب!؟ إن السنة تفسر الكتاب وتبينه. قال الفضل وسمعت أحمد بن حنبل يقول: لا تنسخ السنة شيئا من القرآن. قال لا ينسخ القرآن إلا القرآن. قال أبو عمر: قول الشافعي: إن القرآن لا ينسخه إلا قرآن مثله لقوله جل وعز ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة النحل:١٠١]، وقوله ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾[سورة البقرة:١٠٦] الآية. وعلى هذا جمهور أصحاب مالك

(١٢٦) أصول السرخسي -أبو بكر السرخسي- ج٢ ص٦٨.

(١٢٧) أصول السرخسي -أبو بكر السرخسي ج٢ ص٧٥-٧٦.

إلا أبا الفرج فإنه نسب إلى مالك قول الكوفيين[١٢٨].

و على هذا فان ظاهر دلالة الحديث الشريف في ان المراد من عرض الحديث على القرآن هو موافقته للكتاب اي بما لا يخالفه.

ومن ثم، أن الحديث اما ان يكون مخالفا لكتاب الله، او موافقا له، او يكون لا موافقا لكتاب الله ولا مخالفا له.

وعليه فان عدم وجود الحكم المنقول في الحديث الشريف في كتاب الله، لا يعني ان الحديث مخالف له، فربما يوافق عمومات القرآن العزيز وقد خفي علينا ذلك، والكتاب الكريم مبني على الاجمال لا على التفصيل كما هو معروف، فيبقى ثبوت حكم الحديث تحت ادلة حجية الاخبار، فانه لا خلاف في ذلك بين المسلمين، لقول الله عز وجل ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [سورة الحشر:٧].

وقد افاد شيخنا الانصاري في وجه دلالة احاديث العرض على القرآن والسنة بأخبار أهل البيت عليهم السلام، بما مضمونه: ان عدم وجود مضمون الحديث في الكتاب لا يدل على المنع عن الخبر، فانه ما من واقعة الا ويمكن استفادة حكمها من عمومات الكتاب التي ينحصر تخصيصها بالسنة القطعية كالتواتر او الشهرة او اجماع الطائفة، مثل قوله تعالى ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾، و ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، و﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، ونحو ذلك، فهل يا ترى ان هذه المخصصات جميعها مخالفة للكتاب؟ فإذا قلنا: ان هذه المخصصات لظاهر عمومات الكتاب لا تعد مخالفة للكتاب، فتخرج هذه عن عموم أخبار العرض على كتاب الله، على ان الناظر الى اخبار العرض يقطع بانها تأبى عن التخصيص، وكيف يرتكب التخصيص في قوله عليه السلام: كل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف. وقوله: ما أتاكم من حديث لا يوافق كتاب الله فهو باطل. وقوله عليه السلام:

(١٢٨) جامع بيان العلم وفضله -ابن عبد البر- ج٢ ص١٩١ -١٩٢.

لا تقبلوا علينا خلاف القرآن، فإنا إن حَدثنا حَدثنا بموافقة القرآن وموافقة السنة. وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: ما خالف كتاب الله فليس من حديثي، أو لم أقله. والا عدت الاخبار الصادرة يقينا عنهم عليهم السلام، والمخالفة لعمومات الكتاب مخالفة له، غاية الامر ثبوت الاخذ بها مع مخالفتها لعمومات الكتاب، فإنك ترى كثيراً من العمومات قد خصص بقول النبي صلى الله عليه وآله، فهذا يدل على أن مخالفة هذه العمومات لا تعد مخالفة للكتاب، كما دلت على ذلك جملة من الاخبار في بيان حكم ما لا يوجد في الكتاب والسنة النبوية، اذ بناء على تلك العمومات لا توجد واقعة الا ولها حكم فيهما، فمن تلك الأخبار: ما عن (البصائر) و(الاحتجاج) وغيرهما مرسلا، عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال: ما وجدتم في كتاب الله فالعمل به لازم و لا عذر لكم في تركه، وما لم يكن في كتاب الله تعالى وكانت فيه سنة مني فلا عذر لكم في ترك سنتي، وما لم يكن فيه سنة مني، فما قال أصحابي فقولوا به، فإنما مثل أصحابي فيكم كمثل النجوم، بأيها اخذ اهتدى، وبأي أقاويل أصحابي أخذتم اهتديتم، واختلاف أصحابي رحمة لكم، قيل: يا رسول الله، ومن أصحابك؟ قال: أهل بيتي... الخبر.

فإنه صريح في أنه قد يرد من الأئمة عليهم السلام ما لا يوجد في الكتاب والسنة. ومنها: ما ورد في تعارض الروايتين: من رد ما لا يوجد في الكتاب والسنة إلى الأئمة عليهم السلام. مثل: ما روي في (العيون) عن ابن الوليد، عن سعد بن عبد الله، عن محمد بن عبد الله المسمعي، عن الميثمي، وفيها: فما ورد عليكم من خبرين مختلفين فاعرضوهما على كتاب الله.. إلى أن قال: وما لم يكن في الكتاب فاعرضوه على سنن رسول الله صلى الله عليه وآله.. إلى أن قال: وما لم تجدوه في شيء من هذه فردوا إلينا علمه، فنحن أولى بذلك... الخبر -اذ هُم اعرف بتأويله منا، حيث خفيت علينا صلته بما أسسوه عليهم السلام من الضابطة والمعيار الحقيقي في عرض الاحاديث-.

فالمخالفة للكتاب ليست مخالفة لعمومه، ولا لإطلاقه فقط، كما يظهر ذلك من كثير من القرائن التي لا تخفى على المتتبع. وعلى هذا يظهر ضعف التأمل في تخصيص الكتاب بخبر الواحد، بل منعه

الشيخ في (العدة) لأجل تلك الاخبار، او لما ذكره المحقق: من أن الدليل على وجوب العمل بخبر الواحد الإجماع على استعماله فيما لا يوجد فيه دلالة، ومع الدلالة القرآنية يسقط وجوب العمل به.

هذا، ولكن كلامنا في الاحكام التي لم يرد فيها عمومات في الكتاب ككثير من احكام المعاملات، بل حتى العبادات قد وردت فيها آيات مجملة او مطلقة. فاذا سلمنا ان تخصيص العموم يعد مخالفة، دون تقييد المطلق، حيث يعتبر مفسراله لا مخالفا عرفا. فكيف تحمل الاخبار الكثيرة الآمرة بطرح ما خالف الكتاب؟ فان حملها على ما يباين الكتاب كلية حمل على فرد نادر بل معدوم، فلا موجب لهذا الاهتمام بالأخبار اذاً؟. وعليه فيمكن تصنيف هذه الاخبار الى قسمين: منها ما دل على عدم صدور الخبر المخالف للكتاب عنهم، وان المخالف باطل ليس بحديثهم، فاستقرب قدس سره حمل هذه الاخبار على الواردة في اصول الدين مثل مسائل الغلو والجبر والتفويض التي وردت فيها الآيات والاحاديث النبوية، وهذه الأخبار غير موجودة في كتبنا الجوامع، لأنها اخذت عن الأصول بعد تهذيبها من تلك الأخبار.

كما ويحمل عليها ايضا الاخبار الواردة على بطلان ما لم يوافق الكتاب وانه زخرف، مع احتمال كونها من اخبارهم الموافقة لباطن الكتاب الذين يعلمونه منها ولا يخالفه، حيث كانوا يستشهدون كثيرا بآيات لا نفهم دلالتها.

ومنها ما يدل على عدم تصديق الخبر المحكي عنهم اذا خالف الكتاب، فانه كما يمكن حملها على ما مر في القسم الاول، فإنها يمكن ان تحمل على صورة تعارض الخبرين كما يشهد به مورد بعضها، ويمكن حملها على خبر غير الثقة -لما سيجيء من الادلة على اعتبار خبر الثقة -كما يمكن حمل ما دل على طرح الخبر الذي لا يوافق الكتاب، ولا شاهد له فيه، فلا يجوز تصديقه على صورة التعارض، او خبر عدم الثقة ايضا[١٢٩].

(١٢٩) انظر فرائد الأصول -الشيخ الأنصاري - ج١ ص ٢٤٧ -٢٥٣.


خيركم من تعلم القرآن وعلمه

مُقارَبَةٌ في مَدْخَلِيَّةِ المُتَشابِهِ

أ.د. عبد الامير كاظم زاهد
عضو الهيئة الاستشارية

ملخص البحث

يكرس السيد الباحث حديثه لتقرير أن النص القرآني يتسم بانه نص مفتوح على التأويل، وفيه تتعاظم معطيات المتشابه وتتنوع تنوُّعَ انسجام، وأن كل معطيات المتشابه القرآني، تخضع لقوانين المحكم وضروراته المنهجية والتي منها: أن يكون المعنى منسجما وسياق الآية ، وأن يسنده دليل خارجي مضاف الى الدليل اللغوي أو البلاغي داخل النص.

كما يعالج البحث، آلية تعارض الأدلة وما يترتب عليها من آراء بها يتجلى بها المعنى وتتكون المعرفة التفسيرية الى جانب المنهجية التي تُعتَمَد عند تعارض الأدلة التي تقع بين إمكانية الجمع بين الدليلين المتعارضين أو التي تقرر إهمال التعارض بالكلية. والبحث في كل ذلك يتخذ من احدى آيات سورة البقرة انموذجاً يسير في ركابه.

المدخل

يتسم النص القرآني بأنه نص مفتوح على التأويل، وفيه تتعاظم معطيات المتشابه وتتنوع تنوع انسجام، وتخضع كل معطيات المتشابه القرآني لقوانين المحكم وضروراته المنهجية، ومن ضروراته أن يكون المعنى منسجماً مع سياق الآية وان يسنده دليل خارجي مضاف إلى الدليل اللغوي أو البلاغي من داخل النص، وهنا تتدخل إلية تعارض الأدلة وما يترتب عليها من أراء بما يتجلى بها المعنى وتتكون المعرفة التفسيرية الى جانب المنهجية التي تعتمد عند تعارض الأدلة التي تقع بين إمكانية الجمع بين الدليلين المتعارضين أو التي تقرر إهمال التعارض بالكلية (التساقط) أو إعمال الدليلين المتعارضين على أساس الفهم المتعدد للنص، تقدم سأتعرض لأراء المفسرين واستدلالاتهم في معنى قوله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وسنحلل أراء المفسرين في الآية و خلافهم في مصطلح (المشرك) وما يترتب عليه من نواتج النهي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[سورة البقرة: ٢٢١]

ابتداءً أود أن الفت النظر إلى الموجود في النص القرآني من خلال عدة روافد ومداخل:

الرافد الأول: النظم القرآني: وهو انتظام المعاني وتراتيبها وما تساهم به السابقة في اللاحقة ورغم جلية النظم ووضوحه انقسم المفسرون الى فئتين الاولى قائلة بالنظم القرآني و الثانية لا ترى التعويل على النظم في الكشف عن المعاني

وعلى مسلك الفئة الاولى: فانه قد تقدم في أية يسألونك عن اليتامى إذن الله تعالى بجواز المخالطة وان عموم المخالطة لا تتوقف على خلط المال بالمال، بل تسري إلى خلط النسب بالصهر، فعقب بتخصيص

هذه المخالطة -بالنهي عن زواج المشركة بالمسلم أو زواج المسلم بالمشركة[1].

بينما لا يرى اصحاب الراي الآخر و ابرزهم صاحب المنار ضرورة القول بالنظم ولا داعي عنده للربط بين المتقدم والمتأخر فالآيات جميعاً مستمرة في سرد الإحكام[2].

ويتوسط قولُ الرأيين فيرى ان مثل هذه الاية بيان لما أحاط الله به عباده من حصانه من طرق الفساد تبياناً لقوله ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِ﴾ وهو رأي وسط بين أصحاب النظم، ومن لا يرى ضرورة الربط على أساس السياق.

الرافد الثاني: سبب النزول: اختلف العلماء في سبب النزول على اقوال:

١-قال جمع المفسرين: إن رجلا يقال له مرتد بن أبي مرتد وهو (كناز بن حصين الغنوي) بعثه رسول الله ﷺ إلى مكة ليخرج رجلاً من أصحابه، و كانت له خليلة في مكة يقال لها عناق، قال: كنت أستريح في ظل حائط فجاءت عناق فلما عرفتني قالت مرحباً وأهلاً هلم.فبت عندنا الليلة: فقلت: يا عناق: قد حرم الله تعالى الزنا، قالت فتزوجني: قال: حتى استأذن رسول الله ﷺ فأتى الرسول ﷺ: فأستأذنه، فنزلت، فنهى النص الشريف عن التزوج بها[3].

وقد اختلف المفسرون في كونه سبباً لنزول هذه الاية فإن السيوطي قد تعقب سبب النزول هذا مكتشفاً إنه ليس سبباً لنزول هذه الآية، إنما سبب لنزول قول الله تعالى ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً﴾ [سورة النور: ٣]، لذلك ونقل المفسرون روايات اخرى لسبب النزول ومنها:

٢-وروى ألسدي عن ابن عباس: إن هذه الآية نزلت في عبد الله بن رواحه فقد كانت له أمه سوداء غضبت عليه فلطمها، ثم فزع فأتى النبي ﷺ فاخبره

(١) انظر الطبرسي ٢/ ٣١٧، القرطبي ٣/ ٦٧، المنار ٢/ ٢٤٧.
(٢) المنار ٢/ ٢٤٧.
(٣) انظر الطبرسي: ٢/ ٣١٧، القرطبي ٣/ ٦٧، المنار ٢/ ٣٤٧ الصابوني ١/ ٢٧٦، ٢/ ١٣، روح المعاني ٢/ ١١٧، الكشاف ١/ ٢٠٠، فتح القدير ١/ ٢٤٤.

بخبرها، فقال له النبيﷺ ما هي يا عبد الله ؟

قال هي: يا رسول الله تصوم وتصلي وتحسن الوضوء و تشهد إن لا اله إلا الله وانك رسوله فقالﷺ: يا عبد الله هي مؤمنة قال عبد الله: فو الذي بعثك بالحق لأعتقنّها ولاتزوجنها، ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين فقالوا نكح امة، فقيل ان هذا سبب نزول الآية ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾.

٣-وقيل كانوا يريدون إن يُنكِحوا نساءهم إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أنسابهم فأنزل الله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ .... ﴾ الآية[٤].

المعنى العام للنص: قوله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُوا﴾ قرأت بالفتح أي لا تتزوجوا وقرأت بالضم أي لاتزوجوا.

النكاح لغة: هو الوطء، و يطلق على العقد مجازاً أو هو اسم مشترك بينهما و شرعاً هو عقد لفظي يملك للوطء ابتداء، وهو من قبل تسميته السبب بالمسبب[٥] إذا قلنا بأنه الوطء حقيقة و العقد مجازاً، لكن الراجح اعتباره لفظ مشترك و (لا) أداة نهي وحجلة النهي تدل على الحرمة هنا، لأنه لما أذن الله تعالى في مخالطة الأيتام و منها مخالطة النكاح فبين عدم صحة مناكحة المشركين و المشركات[٦].

اما المشرك: فهو لفظ يطلق على من أشرك بالله شركاً كاملاً (ألحاداً) أو إن ينسب الى الله تعالى ما ليس فيه. والمراد من الآية إي لا تتزوجوا المشركات إلى إن يصدقن بالله ورسوله على ما ينبغي عليه التصديق الحقيقي الذي جاء به الإسلام.

و في لفظ المشركات خلاف بين الفقهاء في المراد منه فقد قال بعضهم انهن عابدات الوثن، وقال غيرهم انه يشمل نساء أهل الكتاب، و وقع فيها خلاف أخر في كون الآية منسوخة أو أنها عامة وفي حال كونها محكمة عامة غيرها قد خصصتها وذهب الزمخشري الى انهن الحربيات و الأمة هي المرأة المملوكة، جمعها أماء.

(٤) المنار.

(٥) كنز العرفان ج٣: ٣.

(٦) القرطبي ٣: ٦٧.

و عبر بوصف مؤمنة إذا تحقق لها الإيمان، وغالباً ما نجد أن القرآن الكريم يفرق بين المسلم والمؤمن و الإيمان تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان.

خير: أداة لفظية تفيد التفضيل مقابل الشر و المفسدة لذلك فالمراد إن مرآة مملوك مصدقة مسلمة خير من حرة مشركة وان كان قد أعجبتكم بمالها أو حسبها أو جمالها

و في الآية تفصيل في جواز نكاح الأمة (إذ يشترط الفقهاء عدة شروط منها المكنة المالية) قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.

وهنا جاء النص بالفعل المضارع بالضم (مبنياً للمجهول) ولم يُسَمَّ فاعله فاستفاد الفقهاء إن النكاح يتم بولاية من له الولاية على النكاح وسيأتي التفصيل و المعنى إن عبداً مؤمناً مصدقاً خير من مشرك حتى إذا حاز إعجابكم، و في الآية مقابلة في المعاني و العجب هنا للاستعظام

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ اسم إشارة يعني به المشركين.

﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إي يرتكبون ويشجعون الكفر و المعاصي التي هي سبب في دخول النار فسمى الأشياء بعواقبها، قيل لان الزوج يدعو زوجته إلى دينه، وهي اضعف من إن تقاومه في عقائده و سلوكه وقيمه، ومن هنا تبين إن الدين ليس عقيدة فقط انما هو فكر وسلوك وقيم وبواعث للتفضيل.

قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾: أي أن الله فيما يحتم على عباده، أو يندب لهم، أو يكره لهم أو ما يحرمه عليهم كل ذلك يدعوهم إلى الجنة أي انه يدعو إلى فعل ما يوجب لهم الجنة والمغفرة المتأتية عن الإيمان والطاعة.

قوله تعالى ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: أي بأمره، ومعناه بما يأمر ويأذن فيه من الشرائع والإحكام وقيل بمشيئته.

قوله تعالى ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾: أي حججه (أذا عدّ معنى الآية هنا البرهان والدليل والحجة) وقيل أوامره ونواهيه، إذا أخذت اللفظة بمعنى العلامة ألداله على الجواز وعدمه في

نكاح نساء أهل الكتاب جائزاً لم يكن لذكره فائدة في لسان الحديث، لأن لفظ الحديث في المجوس هو ((سنوا بهم سنة أهل الكتاب، غير ناكحي نسائهم)) واليه ذهب الطبري في جامع البيان فصار نهيه ﷺ عن نكاح نسائهم دليل على انهم ليسوا بدرجة اهل الكتاب تماماً[٩].

القول الثاني: ذهب فريق آخر من المفسرين إلى أن لفظ المشركين يشمل كل كافر لا يدين بدين الإسلام فيشمل(الوثني والمجوسي واليهودي والنصراني والمرتد) فهؤلاء الذكور منهم يحرم تزويجهم بالمسلمة ويحرم تزوج المسلم بنسائهم، ومقتضى القول الاول إلى جواز تزويج المسلم باليهودية والنصرانية، ولم يصح بالمجوسية والوثنية و تحريّم زواج المسلمة بمطلق الكافر (غير المسلم)، ومقتضى القول الثاني حرمة تزوج المسلم بغير المسلمة مطلقاً سواء كانت مشركة او كتابية او مرتدة.

١. استدلوا على ذلك، بان للرجل سلطة وولاية على المرأة، فربما أجبرها على ترك دينها، ثم أن المسلم مصدّق بنبوة سيدنا موسى وعيسى عليهما السلام فلا يصير اختلاف الدين سبباً للأذى أو الاعتداء، بخلاف غير المسلم الذي لا يصدق بنبوة محمد ﷺ.

٢. ملخصه أن الأديان السماوية السابقة عقائد توحيدية وهي متقاربة في القيم المحدَّدة لسلوك الإنسان و السلوك الديني توحيدي فوجب ان يكون المنع من الوثني حصراً لاسيما وان القرآن أستثنى أهل الكتاب في قوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ۖ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[سورة المائدة: ٥] نص يجيز تزوج المسلم فقط بالمحصنة من أهل الكتاب.

٣. ما ذكر أن عثمان قد تزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية على نسائه المسلمات وهي نصرانية وأن طلحة بن عبيد الله

=الرازي ٦/ ٦١.

(٩) الطبري: جامع البيان/ ج٢ ص ٣٧٨.

تزوج يهودية من أهل الشام، وروي أن حذيفة بن اليمان تزوج يهودية، فلو كان ذلك محرّما ما فعله الصحابة.

قال الجصاص: وفي ذلك دليل على اتفاقهم على جوازه.

٤. أن أسم المشرك ينصرف إلى عبدة الأوثان تبادراً و التبادر علامة الحقيقة ولا يدخل فيه الكتابيات إلا بدلالة وقرينة وحيث لا دلالة، بل الدلالة تخصيص آية المائدة وتفريق القرآن بالمغايرة فلا وجه لتحريم الزواج بهن.

٥. قوله تعالى ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يدل على أنه ليس كل الكتابيين يضمرون شراً للاسلام لاسيما وقد مدح القرآن بعضهم فمن الصعب ان يقعوا جميعا تحت التحريم[10].

٦. قالت طائفة: حرم الله نكاح المشركات في سورة البقرة في (الآية محل البحث) ثم نسخ من هذا التحريم نساء أهل الكتاب فأحلهن في سورة المائدة وبه قال مالك وسفيان و الاوزاعي وهو مروي عن ابن عباس.

وذهب الشافعي في أحد قوليه إلى ما روي عن قتادة من إن لفظ الآية العموم في كل كافرة لكن ورد الخصوص في الكتابيات وقد بينت آية المائدة التخصيص من ذلك العموم فلم يتناول التحريم الكتابيات.

مناقشة الأدلة: ناقش المانعون ادلة الذين يجيزون الزواج بالكتابية بما يأتي:

١. فيما يخص الاستدلال بالآيات التي عطفت المشركين على أهل الكتاب قالوا ليس دائماً العطف يقتضي المغايرة فان في ذلك نظر ((لأننا نمنع كون العطف يقتضي المغايرة دائماً))[11] فقد ورد في قوله تعالى ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ وكلاهما من الملائكة، يقول الجصاص إن الله تعالى عطف دون اقتضاء مغايرة فقال تعالى ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ

(١٠) الجصاص/ ٣/ ٣٣٣.

(١١) كنز العرفان ٣/ ٣.

﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ فافردهما بالذكر مع كونهما من جملة الملائكة.

والرأي الراجح هنا أن يقال أن العطف هنا عطف للخاص على العام وبهذا القول لا نخرج من قاعدة المغايرة ولانهدر الحالات التي لاتقتضي المغايرة الكاملة الا إذا قررنا ان لفظ المشرك عام يشمل الكتابي وغيره وقد تكون المغايرة بالنوع مع وحدة الجنس فكلهم كفار ولكن كفر عبدة الأوثان غير كفر الكتابيين مع ثبوت التحريف وما نسب منهم إلى الله سبحانه عما يصفون في معتقداتهم وسيأتي تفصيل ذلك.

٢. ما أستند عليه من رأي قتادة، لا يخلو عن كونه اجتهاداً ومن التابعي في تفسير النص واجتهاد ومذهب الصحابي فيه خلاف فكيف باجتهاد التابعي فضلا عن ان اجتهاد قتادة كان قبالة اقوال الصحابة المتعارضة معه يجعل الراجح ما ذهب اليه الصحابة، فليس رأي قتادة مما يوجب التوقيف، بل هو محض اجتهاد وكل اجتهاد ظن، والظن خاضع للاعتبار.

٣. ما رواه علي أبن أبي طلحة عن أبن عباس قال: أراد كعب بن مالك أن يتزوج امرأة من أهل الكتاب فسأل رسول الله ﷺ فنهاه، وقال: إنها لا تحصنك، وظاهر النهي يقتضي الفساد[١٢] كما يقولون فوجب حمل النهي على التحريم والبطلان.

٤. ما روي عن عبد الله بن عمر أنه كان إذا سئل عن نكاح اليهودية والنصرانية قال إن الله حرّم المشركات على المسلمين ويردف (فلا أعلم من الشرك شيئاً أكبر أو قال أعظم من أن تقول ربها عيسى أو أي عبد من عبيد الله (رواه مالك في الموطأ) و به أخبر أن مذهب النصارى شرك وأن مذهب اليهود شرك فتدخل اليهودية والنصرانية المرأة في المشركات.

٥. يذهب ابن عمر إلى حرمة التزوج بهما حتى لمن هو في حكم المضطر فقد سأله

(١٢) الجصاص ٣/ ٣٣٢.

ميمون بن مهران، قال: قلت لأبن عمر: ((أنا بأرض يخالطنا فيها أهل الكتاب فننكح نساءهم، فقرأ أية التحريم))[١٣].

٦. استفادة إبراهيم ألنخعي من حديث الرسول ﷺ بشأن المجوس ((سنوا بهم سنة أهل الكتاب، غير ناكحي نسائهم)) بيان للتأكيد على حكم عدم جواز نكاح النساء غير المسلمات لان المجوس لهم شبهة كتاب ومع ذلك ورد النص بتحريم نكاح نساءهم أنما فقط أكد الحديث اشتراكهم مع اهل الكتاب في حكم الجزية ولعله لا يمنع ذلك أن يكون الحديث مشيراً الى حرمة التزويج بالكتابية مطلقاً.

بل يستفاد منه أنه أذا جاز وطء الكتابية بعقد غير دائم أو بملك يمين كما يقول بعض العلماء فربما لا يجوز حتى ذلك للمشركة والمجوسية لأنهما ليسا محل خلاّف كما في الكتابية ولكن لا يخلو من انها استفادة حكم على مستوى الاجتهاد فلا يمكن اعتباره حكماً توقيفياً.

(١٣) الجصاص ٣/ ٣٣٢.

وفي تفريقهم بين جواز التزويج بالنصرانية وعدم جوازه تزوج المسلمة للنصراني، يعللون بسلطان الرجل على المرأة وهو في الواقع ليس مطرداً دائماً حتى يبنى عليه حكم شرعي وان كان أغلبيّاً، لكن الحكمة او العلل المظنونة تبقى معززات لاترقى الى مستوى الادلة فوجب تسويتهما فلا نكاح بين المسلم وغير المسلمة.

٧. أما ما استندوا اليه ان آية المائدة هي آية التخصيص من عموم حرمة الزواج بالمشركة ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ...وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[سورة المائدة: ٥].

فقد قال العلماء: أن الآية مؤولة بأن المراد بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب أي اللاتي أسلمن من اليهوديات والنصرانيات، أو اللاتي ولدن على الإسلام من ابوين من اليهود او النصارى ذلك لأن قوماً كانوا يتحرجون من العقد على من

أسلمت عن كفر فبين الله في هذه الآية أنه لا حرج في ذلك، ولهذا أفردهن بالذكر وقد حكي هذا عن أبي القاسم البلخي ورواه الطبرسي ورجحه[١٤] واليه أشار القرطبي[١٥] أيضاً.

٨. استدلالهم بقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٩] قوله تعالى ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ فأن هذه الآيات لا تتعدى مدح المسالمين منهم والمتعاونين مع المسلمين فالاية أجنبية عن المراد فلا يمكن الاستفادة منها في نسخ حكم حرمة التزوج بنسائهم.

٩. لم يرد في الأخبار إلا عن الجصاص أن الخليفة عثمان تزوج بنصرانية كما مر في الاستدلال، وحتى ولو ثبت فإن عمل الصحابي لايعد مستنداً متفقاً عليه لاسيما مع تعارضه مع النص واراء مخالفة له من الصحابة انفسهم من ذلك مثلاً ما ورد أن عمر فرّق بين طلحة بن عبيد الله، وكذلك بين حذيفة بن اليمان وبين كتابيتين فقالا: نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب قال لو جاز طلاقهما لجاز نكاحهما، ولكن أفرّق بينكما صغرة[١٦] وهذه الرواية تدل على أن عمر بن الخطاب:- فرّق بين الصحابيين، وما توهما انه جائز لهما.

وأنه لم يجز الطلاق منهما لأن الطلاق فسخ لعقد الزواج، والعقد غير منعقد فإذا صح الطلاق صح العقد، ومعروف نهيه المتواصل عن الزواج بالكتابية هو وكثير من الصحابة ومنه ما أخرجه أبن جرير عن شهر بن حوشب قال سمعت عبد الله بن عباس يقول نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات وكل ذي دين غير الإسلام وقال الله تعالى ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ﴾[١٧].

وقد وجدت تعليلات عند بعض المفسرين لموقف عمر بن الخطاب إلا أن تعليلات المفسرين في البواعث التي دفعته

(١٤) الطبرسي/ ٣/ ١٦٢، أنظر ألسيوري ٣/ ٥٣.
(١٥) القرطبي ٣/ ٦٩.
(١٦) القرطبي ٣/ ٦٨، الطبري ٢/ ٣٧٨، الرازي ٦/ ٦١.
(١٧) الطبري ٢/ ٣٧٨.

إلى(أن يغضب غضباً شديداً على حذيفة وطلحة) ويصرح لهما، بعدم حلية الزواج بالكتابية واعتماده التفريق بدل الطلاق لأنه يستلزم حلية النكاح ابتداءً وأمره بان ينتزعا نفسيهما عنها[١٨] صغرة لا تنسجم مع قوة الباعث وطبيعة تصرفه مع صحابيين ولنأخذ عينة من تلك التعليلات ولنفحصها لنجد عدم الانسجام واضحاً ولأجل الايضاح نتقي تعليلاً واحداً للقدماء ممثلين بـــ(الجصاص) وآخر للمحدثين ممثلين بالشيخ السايس و الشيخ محمد علي الصابوني.

فقد علل الجصاص ذلك فقال: أنه كتب عمر لحذيفة أن خلّ سبيل الكتابية كتب إليه حذيفة: أحرام هي ؟.. فكتب إليه عمر: لا ولكن أخاف أن تواقعوا المومسات منهن[١٩] وعلى هذا التعليل عدة ملاحظات:

الأولى: لم تذكر الروايات أن عمر فرّق بين الكتابية المومس و الكتابية العفيفة، ولم يفرق بين الكتابية الأمة والكتابية الحرة (المحصنة) فلو كانت بواعثه تلك لقال طلقها، إنما أمر بالتفريق لاستلزام عدم جواز العقد ذلك لأنه حرام و باطل فلا يجوز ابتداءً ولو كان الامر كذلك لأمرهم أن يتخيروا لأنفسهم فيتزوجوا فقط الحرائر منهن. ويجتنبوا المومسات إنما حرمهن عليهم جميعاً لأن أصل المسألة عنده فيها حرمة مبطلة للعقد مستفادة من الكتاب والسنة في رأيه كما يظهر من الرواية لكن هذا يعارضه ما ذكر أبن المنذر أنه أجاز زواج النصرانية و هنا حصل تعارض ومناقضة في تصرفه و فتواه أذا سلّمنا بصحة ما يرويه أبن المنذر ويغفله غيره[٢٠].

ما نقله القرطبي ان النحاس كما يعضد التعارض قال لا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم ذلك[٢١] في حين ينقل المانعون الروايات المتضافرة باراء المانعين فحديث ابن عمر وما عليه ابن عباس والمروي عن

(١٨) القرطبي ٣/ ٦٨، الجصاص ٣/ ٣٣٣.
(١٩) القرطبي ٣/ ٦٨.
(٢٠) القرطبي ٣/ ٦٨.
(٢١) تفسير السايس، الصابوني- نقلاً عن الطبري في جامع البيان وهو يعلل نهي عمر لطلحة وحذيفة.

الإمام علي عليه السلام من حرمة الزواج بهن يعد مستفيضاً عن أهل الرواية.

اما تعليل السايس والصابوني من انه أنما كره عمر لطلحه وحذيفة نكاح اليهودية والنصرانية حذراً من أن يقتدي بهما الناس فيزهدوا في المسلمات [٢٢] ويرد عليهما أن الجواز الشرعي إذا ثبت بالكتاب أو السنة فان دواعي المصلحة إذا تراءت لولي الأمر فلا تعد بالمنع مسوغاً لاهدار الحكم الشرعي فضلاً عن أنه لو كان ذلك هو الدافع لطلب طلاقهما أو اصدر الأمر بعدم التزوج بهن مع ذكر العلة الشرعية وإلا فما الذي يمنع عمر من أن يذكر العلة الشرعية وقد ذكرها في مواطن كثيرة من قراراته.

يناقش المانعون بقية الاستدلالات التي وردت عن المجيزين ان قول الجصاص بشأن انصراف اسم المشرك إلى عبدة الأوثان فقط أمر يحتاج إلى إثبات واستقراء لأننا اذا رجعنا إلى قول الله تعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فأننا امام دليل قطعيٌ على دخولهم في الشرك متى نسبوا لله تعالى الولد.

وكذا قوله ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ ﴾ فهذا نص في شركهم لقوله لا يؤمنون بالله وهذا كافٍ في توصيفهم أنهم مشركون.

وكذا قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ وقد ثبت ان اليهود و النصارى كانوا كارهين أن يظهر الإسلام على الدين كله وإلا لآمنوا به وحيث لا شك في كراهة أهل الكتاب لنبوته صلى الله عليه وآله فإنه نصٌّ في شركهم فالقول بأنصراف اللفظ إلى عبدة الأوثان فقط فيه نظر قبالة ما يشير إليه القرآن وقوله ((حيث لا دلالة على اندراج الكتابيين بالمشركين)) محل تأمل فما تقدم دلالة كافية وما مر من أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وأقوال الصحابة ما يكفي دلالة أما تخصيص المائدة لآية البقرة فقد

(٢٢) أنظر الطبرسي ٣/ ٤٨٩، ٣/ ٥٦٠.

نوقش من جهة الدلالة فأوّلها العلماء بالكتابيات اللواتي أسلمن عن دين سابق.

وبمناقشة ما تقدم من حجج، فلم تبق ذريعة يقام عليها الحكم بجواز الزواج بكتابية.

أما الاستشهاد بالآية الكريمة ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ فقيل أنها نزلت في النجاشي ملك الحبشة وقيل نزلت في نصارى آمنوا بنبوة محمدﷺ كما جاء عن سيدنا عيسى وتعقيب القرآن على هذه الآية انهم لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً دلالة على أنهم لا يأخذون عوضاً عن تحريف الكتاب (الإنجيل) وكتمان ما فيه من الحق بنبوة محمدﷺ ثم عقبت الآية فقالت ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ و كل ما تقدم مدح لهم ولكن الآية أجنبية عن موضوع النكاح بالكتابية فضلاً عن انهم قلة آمنوا بالقرآن وبنبوة محمد وهؤلاء لا تنطبق مواصفاتهم على الجميع فالاستدلال بها اجنبي تماماً عن الموضوع، ولأنهم لما اسلموا انتهى المشكل

وكذلك الاية الثانية ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ فان المعني عندما يرد مصطلح اهل الكتاب في سياق المدح فينصرف الى الذين اسلموا وآمنوا من أهل الكتاب[٢٣] وعلى هذا فالآية دليل أجنبي أيضاً عن الموضوع، فمجيء المدح لأنهم آمنوا بالإسلام وليس هناك جهة ارتباط بموضوع البحث.

إما مقولة نسخ آية المائدة لآية البقرة فرغم الاضطرابات الموجودة في أيهما الناسخ وأيهما المنسوخ في الروايات فقد تقدم أن البعض يرى أن المائدة ((متأخرة في النزول فهي التي نسخت ما جاء في سورة البقرة لتقدمها على المائدة في النزول)) ويقابل ذلك قول اسحق بن إبراهيم الحربي إن الآية التي في البقرة هي الناسخة والتي في المائدة هي المنسوخة فحرموا بناءً على ذلك نكاح كل مشركة كتابية أو غير كتابية ويستدل للأول أن البقرة أول ما نزل بالمدينة، والمائدة آخر ما نزل ويرون أن

(٢٣) القرطبي ٣/ ٦٨.

الآخر ينسخ الأول[٢٤] وهناك قول ثالث يرى إن أية المائدة منسوخة بقوله تعالى (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) وهي من سورة الممتحنة.

قال ألسيوري: في كتابه كنز العرفان

١. أننا نمنع كون المائدة آخر القرآن نزولاً لعدم الدلالة القاطعة عليه.

٢. وعلى تقدير إن يكون أكثرها هو آخر ما نزل، وليس جميع آيات السورة فلا يصح الاستدلال بكامل السورة ناسخاً وعليه يحتمل إن تكون هذه الآية قد ضمت إليها بعد نسخها بآية البقرة.

ويستعرض السيدابو القاسم الخوئي قدس سره جزءاً من الاراءا المتضاربة التي تخوض في النسخ فيقول:

ان ممن ذهب إلى النسخ ابن عباس ومالك وسعيد، بينما ذهب ابن عمر إلى أن ما جاء في سوره المائدة هو المنسوخ بالأولى فحرم نكاح الكتابية لآية البقرة وتعقيباً على ذلك. قال السيد الخوئي: والحق أنه لا نسخ في شيء من الآيتين فان المشركة التي حرمت الآية الأولى نكاحها إن كان المراد منها التي تعبد الأصنام والأوثان كما هو الظاهر فان حرمة نكاحها لا تنافي إباحة الكتابية التي دلت عليها الآية الثانية لتكون أحداهما ناسخة والثانية منسوخة وان كان المراد من المشركة ما هو اعم من عبدة الأصنام فتدخل فيه الكتابية كما توهمه القائلون بالنسخ فتكون الآية الثانية مخصصة للآية الأولى ويكون حاصل معنى الآيتين جواز نكاح الكتابية دون المشركة[٢٥].

ويردّ من يرى حرمة التزوج بالكتابية:- بعد مناقشة ادلة الجواز بما يأتي:

١. أن لفظ الآية حيث علّق الإباحة في التزوج من الكتابية على غاية فقال حتى يؤمنَّ فأن هذا يعد نهياً معلّقاً على حصول الإيمان والايمان المقصود به، الإسلام فهو شرط لصحة الزواج فإذا جمعنا إلى هذا قوله تعالى ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ فيكون الإيمان المعتبر هو الإسلام حسب وبذلك يكون الظاهر القرآني

(٢٤) الخوئي التبيان/ ٣٢٦.

(٢٥) [سورة الممتحنة: ١٠].

دال على حرمة التزوج بالكتابية وكل امرأة غير مسلمة.

٢. ومن لفظ الآية أيضاً قوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ يظهر أن عقيدة غير المسلم وتصرفه وأخلاقه يؤدي به إلى النار و عليه فإن من الثابت أن رؤية اليهودية والمسيحية المعاصرة للحياة عقيدة وأخلاقاً وسلوكاً فيها الكثير من المحرّمات التي حرّمها الإسلام وبذلك تكون الآية قاطعة في تحريم التزوج بغير المسلمة فهذه هي الكبرى ويندرج في صغرياتها عموم غير المسلم.

٣. من الثابت عند المسلمين جميعاً إن من جحد نبوة محمدﷺ فقد أنكر أصلاً ضرورياً من أصول الدين، ومن أنكر معجزة لرسول اللهﷺ أو أضاف إضافة إلى الله في ذاته وصفاته، فهذا هو الشرك وهو حاصل بالمسيحية واليهودية والصابئة والملحدين وعبدة الأوثان والبوذيين فكلهم في ذلك سواء وكلهم يدخلون في موضوع النهي فقد ثبت بالحجة القرآنية أن النصارى يقولون إن المسيح هو أبن الله واليهود يقولون أن عزيزاً ابن الله وأن القرآن يصرح إن هذا الاعتقاد شرك فيقول ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وفي هذا النص تصريح كافٍ بضمهم إلى شريحة المشركين، وتنطبق الآية عليهم انطباقاً تاماً.

٤. في قوله تعالى ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[٢٦] التي يقول جمع من الناس انها ناسخه لآية المائدة كما يروى في ذلك رواية عن زرارة عن محمد بن علي بن الحسين الباقر عليه السلام حيث قال أن النكاح عصمة، والكتابية كافرة إجماعاً، فالنهي وارد على حرمة التمسك بعصم الكوافر.

٥. في قوله تعالى ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ واليهودية والمسيحية (محادّه) والنكاح يوجب المودة لقوله ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فيحصل التعارض لأن الزواج كما

(٢٦) السايس ١٢٨.

يصفه النص بـ المودة و الرحمة كقوله تعالى ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، فالبقاء على غير الإسلام محادة لله ولرسوله.

٦. ما ذهب إليه بعض الصحابة مثل ابن عمر، وعبد الله بن عباس، والمروي عن أئمة آل البيت عليهم السلام من حرمة النكاح باليهودية والنصرانية يفسر الخلاف في الدلالة لصالح المانعين.

٧. يستدل أيضاً بقوله تعالى ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ و بها أوجب المباعدة عن الكفار و الكتابي كافر، والزواج صورة من صور الولاية والمودة.

٨. ذهب السايس والصابوني ومحمد رشيد رضا وغيرهم من المفسرين المعاصرين، إلى إن الواقع الراهن أثبت صواب حكم حرمة الزواج بالذمية.

فقد قال السايس: -

رحم الله عمر فقد كان ينظر إلى مصالح المسلمين، وما أحوجنا إلى مثل هذه السياسة، فان كثيراً من الشباب المسلمين في مصر رغبوا عن زواج المحصنات المسلمات إلى زواج الكتابيات الأجنبيات[٢٧] ونقلها الصابوني بنصها[٢٨] مما يدل على موافقته لما ذهب إليه الشيخ السايس.

وعلق صاحب المنار: بقوله هذا ما كتبته عند طبع التفسير للمرة الأولى، وقد حدثت بعد ذلك أن فتن كثيرٌ من الشبان المصريين بنساء الإفرنج فتزوجوهن فافسدن عليهم أمورهم الدينية والوطنية، واضطر بعضهم إلى طلاقهن، وغرّم كثيراً من المال، ومنهم رجل غني. قتلته امرأته الفرنسية ثم جاءت تطالب بميراثها منه والأخطر من ذلك أنه قد سرت العدوى إلى المسلمات فمن الغنيات من تزوجن بمن عشقن من رجال الإفرنج وقد عظمت الفتنة وقى الله البلاد شرها[٢٩].

ثم يقرر المانعون بقولهم: إذا كان في الشريعة متسع من النصوص نستدل بها على حرمة الزواج بالكتابية فلم العدول

(٢٧) الصابوني ١/ ٢٨٩.
(٢٨) المنار ٢/ ٣٥٧.
(٢٩) كنز العرفان ٣/ ٥٢.

إلى الحلّية بعد ثبوت ضررها على المسلمين، ثم أليس لولي الأمر حق تحجير هذا المباح حتى لو قلنا بإباحته لتسببه بالضرر.

٩. أن الآية تشمل مطلق الكافر من دون اختصاص بطائفةٍ خاصّة من الكفار لعموم التعليل في الآية الشريفة الشامل للجميع ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾.

وذلك أن علماء الأصول يرون أن الخطاب المعلل بعلة يكون المدار فيه على العلة الواردة دون الخطاب ذاته)) وحيث أن التعليل وارد على الاعمال التي تؤدي الى النار فهي شاملة لعموم غير المسلم فضلاً عن نسخ كل المعتقدات والأديان السابقة وإبطال المعتقدات غير السماوية بالاسلام، فصار كل المنسوخ مما يؤدي الى النار فكل ما يشتمل على العلة يعد حراماً باطلاً فتكون الآية مشيرة إلى عموم التحريم للكتابيات والوثنيات.

موقف الشيعة الأمامية من هذه المسألة

المشهور من اراء الأمامية حرمة الزواج بمطلق الكافرة[٣٠] فهذا هو مشهورهم ولكن ويقابل الرأي المشهور ما ذهب إليه قلة من المتقدمين واغلبيه المتأخرين من علماء الإمامية إلى حل الزواج بالكتابيات فقط بالزواج المنقطع او بملك اليمين لا غير[٣١].

يقول الشهيد في الروضة البهية: في المسألة اقوال أشهرها انه تحرم الكتابية عليه دواماً لامتعة اوملك يمين، و القول الاخر الجواز مطلقاً، والثالث المنع مطلقاً.

و تفصيل تلك الاقوال: اننا بالمراجعة و المتابعة نجد.

١. الشيخ الطوسي في كتابه النهاية: يجعل الاصل عدم الجواز مطلقاً الا اذا اضطر فيجوز اضطراراً العقد على النصرانية و اليهودية، ويعقب على ذلك بقوله ((و لا بأس بان يعقد على هذين الجنسين عقد متعة)) مع الاختيار[٣٢].

٢. اما في كتابه الخلاف: فينقل عمن

(٣٠) كنز العرفان ٣/ ٥٢.

(٣١) النهاية: ص ٤٧٥.

(٣٢) الخلاف: ٤/ ٣١١، المسألة ٨٤.

يسميهم (المحصلون من اصحابنا) انهم يقولون لايحل نكاح من خالف الاسلام و ينقل عن (قوم من اصحاب الحديث): القول بالجواز[٣٣] ويقصد به ابن بابويه.

٣. وفي التهذيب و الاستبصار: اختار الشيخ الطوسي القول بالتحريم[٣٤].

٤. وفي المبسوط قسم المشركين الى ثلاثة اقسام الاول من لهم كتاب فنقل قول المحصلين بالمنع من نكاحهم، ومن لهم شبهة كتاب فكذلك و الثالث من ليس لهم كتاب و لا شبهة كتاب فهم من باب اولى، لكنه قال (وقد اجاز اصحابنا كلهم التمتع بالكتابية و وطأها بملك اليمين)[٣٥].

٥. وعن الشيخ المفيد: القول بالمنع[٣٦] الا ملك اليمين.

٦. واعتبر السيد المرتضى المنع من منفردات الأمامية[٣٧].

٧. ويرى ابن بابويه: ان على المسلم ان يمنعها من المحرمات وبذلك يجوز العقد عليها على كراهة[٣٨].

٨. ويرى ابن ابي عقيل: جواز الزواج بعفائف اهل الكتاب

٩. ويرى ابن الجنيد: انه جائز مكروه في دار الاسلام، ومحرم في دار الحرب، وهو انما يجيزه في دار الاسلام فمع الضرورة اليه، ويشترط ان تكون من الابكار وان يمنعها من المحرمات.

١٠. يرى سلار جواز عقد المتعة عليها فقط، دون المجوسية[٣٩] و كذلك ابو الصلاح الحلبي[٤٠].

١١. وعندابن البراج: يجوز العقدعلى الكتابية في حال الضرورة الشديدة ومثله قول ابن ادريس الحلي و ابن حمزة[٤١].

١٢. نقل ابن ادريس (قال بعض اصحابنا انه لا يجوز العقد على هذين الجنسين عقد متعة ولاعقد دوام) وتمسكوا بظاهر الآية وهو قوي يمكن الاعتماد

(٣٣) التهذيب: ٧/ ٢٩٦، الاستبصار ٣/ ١٧٨.
(٣٤) المبسوط: ٤/ ٢٠٩.
(٣٥) المقنعة: ص٥٠٠.
(٣٦) الانتصار: ص١١٧.
(٣٧) فقه الرضا: ٢٣٥.
(٣٨) المراسم: ص ١٤٨.
(٣٩) الكفي في الفقه: ص٢٩٩.
(٤٠) المهذب: ٢/ ١٨٧.
(٤١) السرائر: ٢/ ٥٤١.

عليه و الركون اليه واجازوا فقط ملك اليمين[٤٢]

١٣. رأي العلامة الحلي: قال: والمعتمد تحريم اصناف الكفار كلهم في العقد الدائم وكراهة اهل الكتاب في المتعة وملك اليمين و تحريم ما عداهن فيهما[٤٣].

١٤. من الفقهاء من يرى الجواز فقد روي عن الحسن والصدوقين جواز الزواج الدائم بهن أيضاً[٤٤] ونسب إلى أبن الجنيد ذلك[٤٥].

ونقل الجزائري:- ان الجواز قول السيد المرتضى والشيخين فانهما ذهبا الى الجواز في أحد قوليهما، وابن إدريس وابن بابوية وابن أبي عقيل[٤٦] وهذا غير صحيح اذ تنص مدوناتهم على المنع الا ابن بابويه

وقد أجمل المحقق الحلي في الشرائع موقف الأمامية بقوله:- لا يجوز للمسلم نكاح غير الكتابية إجماعاً، وفي تحريم الكتابية من اليهود والنصارى روايتان، أشهرهما المنع من النكاح الدائم، والجواز في المؤجل وملك اليمين[٤٧].

وخلاصة اقوال علماء المذاهب الاسلامية في نكاح الكتابية:

١. أن الحنفية يرون صحة التزوج بالكتابية زواجاً دائمياً لا كراهة فيه.

٢. وأن الشافعية في قول معتمد لهم والحنابلة يرون صحة الزواج بها.

٣. وان المالكية يرون أيضاً صحة التزوج بهن على كراهة واستثقال.

٤. أما الأمامية فيرى المتقدمون حرمة الزواج بالكتابية زواجاً دائمياً. وينقل عن ابن الجنيد جوازه منقطعاً، بينما يرجح المحقق الحلي مذهب المانعين.

٥. اما الزيدية فأنهم يرون منع التزوج بهن[٤٨].

قال أبن رشد في بداية المجتهد ونهاية المقتصد ((اتفقوا يعني الفقهاء الأربعة على انه يجوز أن ينكح المسلم الكتابية الحرة إلا

(٤٢) العلامة: المختلف ٧/ ٩٣.
(٤٣) التبيان: الخوئي ٣٢٦.
(٤٤) كنز العرفان ٣/ ٥٢.
(٤٥) قلائد الدرر للجزائري ٣/ ١١٨.
(٤٦) الشرائع ٢/ ٢٩٤.
(٤٧) منتهى المرام/ ٧٨.
(٤٨) بداية المجتهد ج٢/ ٤٣ -٤٤.

ما روى في ذلك عن أبن عمر))[٤٩] وكل ما تقدم في الكتابية مالم تكن حربية.

أما نكاح أهل الكتاب إذا كانوا حربين فلا يحل لقوله ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ... صَٰغِرُونَ﴾ وقيل لعله لترك الولد في دار الحرب أو لتصرفها في الخمر والخنزير[٥٠].

الحكم الثاني: نكاح إماء أهل الكتاب: كان الحديث فيما تقدم حول جواز التزوج بالكتابية الحرة فما الموقف الشرعي من التزوج بالكتابية الأمة (أي الرقيق المملوك).

لفقهاء المذاهب الاربعة في التزوج بالكتابية الامة عدة اراء:

١. مذهب ابي حنيفة و اصحابه: يرى ابو حنيفة واصحابه كما ورد في تحفة الفقهاء: انه يجوز نكاح الامة الكتابية كالحرة عندنا.

وقال السرخسي: انه لما جاز للمسلم ان يطأ الأمة الكتابية بملك اليمين جاز ان يطأها بملك النكاح، لان ما لايحل بملك النكاح لا يحل بملك اليمين، وان ذكر الحرائر في النص لايعني حرمة النكاح الإماء[٥١].

٢. مذهب الشافعي: لا يحل لمسلم نكاح الامة الكتابية وان كانت لمسلم لانه قد اجتمع فيها نقصان لكل منهما اثر في منع النكاح وهما الكفر والرق كما انه لايجوز له نكاح المجوسية لاجتماع نقصي الكفر وعدم الكتاب[٥٢].

قال الشيرازي في المهذب: لان الأمة الكتابية ان كانت لكافر فان ولد المسلم سيكون عبداً رقيقاً، وان كانت لمسلم لم يؤمن ان يبيعها لكافر فيسترق ولده منها[٥٣] وبذلك يسترق المسلم.

٣. ذهب الحنابلة الى حرمة نكاح الامة الكتابية لاجل عدم ارقاق الولد وبقائه مع كافر[٥٤] فيفسد عقيدته.

٤. يذهب السيوري من الامامية إلى الجواز غير المشروط لقوله تعالى ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ

(٤٩) القرطبي ٣/ ٦٩.
(٥٠) المبسوط.
(٥١) مغني المحتاج: ١٢/ ٢٧٦.
(٥٢) المهذب: ٢/ ٤٣٢.
(٥٣) مطالب اولي النهى ١٥/ ٩١.
(٥٤) القرطبي: ٣/ ٧٤فيه تفصيلٌ.

عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ وقوله ﴿ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ ﴾.

يبنى نكاح الأمة الكتابية على مقدمتين:

الأولى: لما أجاز بعض الفقهاء الزواج بالكتابية الحرة ولم تقف العقيدة لها مانعاً من الزواج، فان الزواج بالأمة الكتابية مسوغ لأنها من الجنس نفسه.

الثانية: ان القرآن الكريم اشترط للتزوج بمطلق الأمة شرطين خوف القنت، وعدم الطول، وهذان الشرطان عند البعض قيود اشتراطية للجواز وعند الآخرين توصيف للحال، فلا يعاملها معاملة الشرط فعلى جواز الزواج بالكتابيات وعلى جواز التزوج بالأمة المسلمة ازاء الجمع فقرر المجيزون الزواج بالأمة الكتابية.

أراء الفقهاء في التزوج بالأمة الكتابية

أ- ذهب أبو حنيفة إلى جواز نكاح الأمة الكتابية وقد عرفت انه يرى جواز التزوج بالكتابية الحرة فجعلها حكماً لمناط واحد غير.

ب- أما مالك والشافعي: فلم يجوزوا التزوج بالأمة الكتابية، وإن كانوا قد أجازوا التزوج بالكتابية الحرة.

ج- أما الأمامية فلم يجيزوه إلا اضطراراً كما هو موقفهم من الكتابية الحرة

د- قال المالكية: يحرم نكاحها ولو كان المسلم يخشى على نفسه الزنا، وان عجز عن صداق الحرة فالحل مشروط بإسلامها ولأن الأمة الكافرة ولدها رقيق وهو يتبع أمه في الرق و الحرية و اباه في الدين و النسب فإذا تزوجها المسلم صار الأمر ذريعة الى استرقاق المسلم.

ه- مذهب الأمامية: نقل العلامة الحلي في المختلف أراء الفقهاء

فعن الشيخ الطوسي: في النهاية نقل الجواز إذا لم يجد طولاً، فان وجد طولاً فالحكم الكراهة، و العقد ماض غير انه تارك للأفضل وهو قول ابن حمزة، وابن إدريس

وعنه في الخلاف: اشترط للجواز

ثلاثة شروط

ان تكون مسلمة، و لا يجد طولاً، ويخاف العنت

و عن ابن الجنيد: لا يحل إلا إذا اضطر وخشي العنت ولا يجد الطول.

و المحصل: أن علماء الأمامية منهم من هو قائل بالجواز مشروطاً ومنهم من قائل به مطلقاً، ومنهم من أجازه مع الاضطرار

إلا أن ابن رشد نقل عن أبي حنيفة وابن شهاب والزهري أنها إذا عقدت نكاحها بغير ولي وكان كفؤاً جاز، ومنعه منهم أبو يوسف(٥٥)

الخاتمة

١. تبين من خلال البحث في منتج تفسيري أن انفتاح النص القرآني على التأويل وتحمله أكثر من مراد أو معنى -سبب مهم في تكوين المعرفة التفسيرية.

٢. إن التقاليد العلمية التي التزم بها التراث المعرفي الإسلامي التمسك بالدليل و البرهنة على الراجح من الآراء وقد قرن مع كل رأي دليله، فكان المشتغلون بالمعرفة التفسيرية أمام تنازع موضوعي للأدلة.

٣. ويلاحظ المتتبع للصيرورة المعرفية التفسيرية -لا سيما في آيات الإحكام، أن المعنى العام وسبب النزول تتداخلان مع المحصلة الحقوقية للنص بحيث يؤثر في المعنى الراجح و في تعيين الحكم المؤسس بالنص.

٤. ان العلاقة بين المسلم -وغير المسلم قد رسمها النص القرآني من نطاق الذات إلى نطاق المجتمع و الدولة صعوداً ففي نطاق الذات قال ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ وحرم الموادة و الولاية لهم و حصر التولي بالمؤمن ثم انتقل إلى نطاق الأسرة وهي اصغر خلية اجتماعية فمنع من زواج المسلمة بغير المسلم (أيا كان معتقده)، و أجاز للمسلم على رأي بعض الفقهاء ان يتزوج فقط الكتابية وحصراً النصرانية واليهودية سواء كان زواجاً دائمياً أو

(٥٥) الجصاص ١/ ٤٠١.

زواجاً مؤقتاً على اختلاف في الاختيار و الترجيح، ولم يجز ابداً التزوج بغير الكتابية سواء المجوسية ام الوثنية ام عباد الكواكب... الخ سعياً للانسجام العقائدي و الفكري و السلوكي و القيمي داخل الأسرة، وجعل هذه الحرمة غاية تنتهي حينما تقتنع المرأة غير المسلمة بان الإسلام هو الدين الحق، و إذا كانت هذه الحكمة كامنة وراء مقاصد النص فان من يذهب إلى منع الزواج بالكتابية يستند إلى النص و الحكمة أيضا (الانسجام الأسري) و من يقرر السماح بالزواج مؤقتاً فلكي يؤسس فرصة للإيمان بالإسلام، ومن يجيز الزواج الدائم يضع في حسابه تحقق الامر وبهذا لم يتعامل المفسرون مع القرآن الكريم و الإحكام المستفادة منه على انه ظاهرة نصية، بل هناك موجبات عقلية و موجبات اجتماعية و أخلاقية وقيمية يتضمنها النص الشريف فتكون بالنسبة للمنتزع الدلالي قرائن وإمارات إن لم تكن ادلة معززة.

٥. ويلاحظ في البحث ان الصحابة لم يكن لهم موقف واحد ازاء الزواج بالكتابية فقد انقسموا على فريقين متشددين بين مانع متشدد، ومجيز بلا شروط مما يدل على انهم مجتهدون فيما احتمل من النص لذلك لا يوجد ضابط منهجي في الافادة من سلوك الصحابة و يلاحظ على موقف الصحابة ان المانعين ربما يوسعون من دلالة النص بأتجاه اثبات المنع، مثل اعتبار قولهم المسيح بن الله شرك رغم ان القرآن في مواضع اعتبرهم كتابيين ومدح بعضهم في نصوصه الشريفة، كذلك لم يعلل موقف عمر بن الخطاب الذي طلب من حذيفة و طلحة ان ينتزعا نفسيهما ممن تزوجاهما من الكتابيات و لم يحول ذلك القرار الى حكم شرعي، ولكن لم اجد من المفسرين او فقهاء المذاهب من التفت الى ان ذلك منه حكم تدبيري يدخل ضمن صلاحيات الحاكم في

تحجير المباح، ولو كان تفسير موقف عمر بن الخطاب بهذا الشكل لانتهى الاضطراب الحاصل في فهم الموقف و لأغناهم عن التعليلات التي لا تستقيم مع والإصرار على التفريق و بطلان العقد أصلا.

٦. هناك موقف اشكالي في المعرفة التفسيرية قديما، ولا يزال وهو ضبط قضية النسخ فمن المفسرين من يرى وجود الناسخ و المنسوخ بكثرة ومنهم من يراه، ومنهم من ينكره اصلاً بل هناك في الفريق الذي يراه موجوداً بكثرة اختلاف في هل سورة المائدة كلها اخر ما نزل حتى تعتبر كلها ناسخة، ام ان بعضها أخر ما نزل ثم من يحدد البعض الناسخ الى جانب الخلط المشهور بين النسخ و التخصيص الذي طالما نجده عند القدماء.. هذه الإشكالية وجدناها في هذا البحث إشكالية مبنائية، لا يمكن أن تقدم لنا دليلاً على الرجحان بل ربما تحتاج الى دراسة مستقلة.

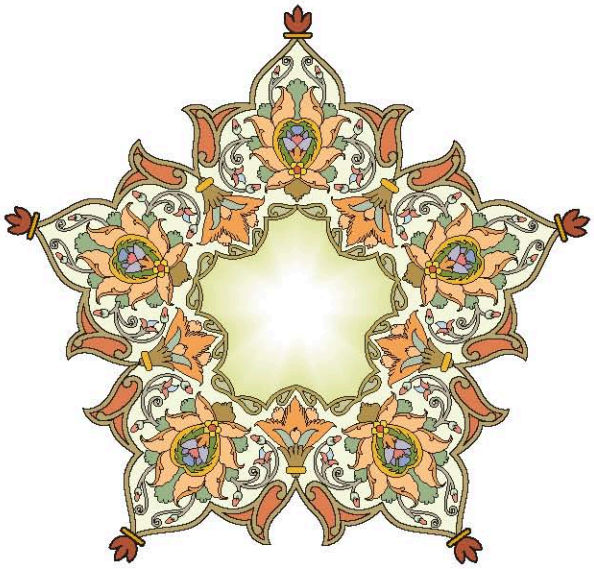

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ
انتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا
الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ
وَأَخَّرَتْ ۝ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ
بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ
فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝
كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝ وَإِنَّ
عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝
يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝
وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا
يَوْمَ الدِّينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝
وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ
مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ
لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۝ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝

القيمة الدلالية للتراكيب النحوية في قراءة حفص عن عاصم

د. محمد اسماعيل المشهداني
كلية التربية للبنات - جامعة الموصل

ملخص البحث

تتناول هذه الدراسة، القراءات القرآنية التي انفرد بها عاصم برواية حفص عن سائر القراءات السبع، والتي كان التغاير فيها تغايراً تركيبياً، وقد قام السيد الباحث باحصاء هذه القراءات ودراستها ضمن حدود مصطلح (القيمة الدلالية)، فكان البحث ضمن محاور أهمها: القيمة الدلالية والتراكيب النحوية التي تضمنتها القراءات التي انفردت بها قراءة حفص عن عاصم عن سائر القراءات مرتبة بحسب تسلسلها في المصحف الشريف. ثم ختم البحث بخاتمة لخصت أهم النتائج التي توصل اليها البحث مشفوعة بقائمة المصادر والمراجع.

المقدمة

إنّ قراءة عاصم برواية حفص هي واحدة من بين قراءات كثيرة للقرآن؛ منها ما هو خاضع لشروط القراءة الصحيحة من التواتر، وموافقة خط المصحف، وموافقة العربية ولو بوجه، ومنها ما هو شاذ، والصحيحة كثيرة أيضاً، إلا أن ابن مجاهد (ت٣٢٤هـ) اختار من بين هؤلاء القراء الكُثُر سبعة قراء بعد أن أجمع أهل أمصارهم عليهم هم: نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي، وجمع قراءاتهم في كتاب سماه: (السبعة في القراءات)، فاشتهرت قراءاتهم من دون الآخرين، وكان لكل واحد من هؤلاء القراء رواة كُثُر أيضاً، ثم اقتصر أبو عمرو الداني (ت٤٤٤هـ) على راويين لكل قارئ من هؤلاء السبعة، وجمع رواياتهم في كتاب سماه: (التيسير في القراءات السبع)، فاشتهرت لكل قارئ روايتان من دون الروايات الأخرى، ثم نظم أبو القاسم الشاطبي (ت٥٩٠هـ) ما جاء في التيسير في قصيدة مشهورة سماها (حرز الأماني ووجه التهاني)، وهي المعروفة بـ(الشاطبية)؛ ليسير حفظ القراءات على طلابها، واستدرك فيها بعض المواضع التي فاتت صاحب التيسير، فاشتهر هؤلاء القراء بين الناس بهؤلاء الرواة دون غيرهم، وظل أهل القراءات يسيرون على هذا الطريق يجيز أحدهم الآخر بها جيلاً بعد جيل حتى يومنا هذا. إلا أن قراءة العامة من الناس، والتي يقرأ بها جل الناس في صلواتهم سرعان ما بدأت بالانحصار في قراءات من دون أخرى من هذه القراءات العشر، بل والاقتصار على راوٍ دون آخر، حتى أصبحت قراءة عاصم برواية حفص هي السائدة الغالبة في معظم أنحاء العالم الإسلامي، أما القراءات والروايات الأخر، فلا تكاد تُلحظ إلا بعضاً منها يُقرأ به هنا أو هناك، الأمر الذي دفعنا إلى الوقوف والتلبث عند التراكيب التي انفردت بها هذه الرواية، والغوص في دلالاتها والكشف عن أسرار الإعجاز فيها.

التمهيد: تعريف بالعنوان

أولاً: القيمة الدلالية

Semantic Value

وصف (القيمة) بـ(الدلالية) يكوِّن لنا مصطلحاً دلالياً ذا مفهوم خاص يُعَرّفه علماء اللغة بأنه «قدرة العنصر اللغوي على التأثير في المعنى، مثال ذلك قدرة الفونيم على تغيير المعنى إذا حل محل فونيم آخر كما في Ban و Pan»[1]، فمحل اهتمامه منصب على العناصر اللغوية القادرة على التأثير في المعنى وتغييره، وهذا يتحقق بتغيير الفونيم أو زيادته أو حذفه، والفونيم Phoneme «هو أصغر وحدات اللغة التي تستطيع أن تميز كلمة من كلمة أخرى»[2]، فوظيفته هي التمييز بين الكلمات، ومنحها قيماً لغوية مختلفة، صرفية أو نحوية أو دلالية، فإذا قلنا: (لكَ) بفتح الكاف، و(لكِ) بكسرها، حصل تمييز صرفي نحوي يتبعهما في الحال تمييز دلالي، ونقول: (سار) و(طار)، فيحدث التمييز الدلالي، أي التفريق في المعنى بين الكلمتين بسبب وجود السين في الأولى والطاء في الثانية.

(١) معجم علم اللغة النظري، د. محمد علي الخولي/ ٢٥١- ٢٥٢.

(٢) علم الأصوات، د. كمال بشر/ ٤٨٨.

وكذلك الحال مع القراءات القرآنية كافة، إذ تقوم في جزء كبير منها على هذه التغييرات الفونيمية ذات الأثر الواضح في المعنى، أما إذا لم يُحدِث تغييرها تغييراً في المعنى، فلا تعد فونيمات، بل هي ألفونات لفونيم واحد، إذ لم يكن لها أثر في تمييز الكلمات وتغيير المعاني.

فالقيمة الدلالية مدارها العناصر اللغوية التي تمتلك القدرة على التأثير في المعنى، وهذا هو محل بحثنا في التراكيب النحوية التي انفردت بها قراءة عاصم برواية حفص عن سائر القراءات السبع.

ثانياً: التراكيب النحوية

يُراد بالتراكيب النحوية الأشكال التي يدل فيها اللفظ على معنى غير مفرد، سواء أكان هذا المعنى تاماً يحسن السكوت عليه أم كان ناقصاً فيه حاجة إلى ما يُضاف إليه، فهو يشمل مفهوم (التركيب) الجملة بكل صورها، بسيطة كانت أم مركبة، صغرى كانت أم كبرى[3].

والبحث في التراكيب النحوية هو

(٣) ينظر: المدخل إلى دراسة النحو العربي، د. علي أبو المكارم: ٢/ ٣٥٧-٣٥٨.

بحث في الأجزاء الأساسية من اسم وفعل وحرف، وما لهذه الأجزاء من وظائف لغوية تؤديها في أثناء التأليف، وما يطرأ على هذه الأجزاء من تغيرات كالتقديم والتأخير والذكر والحذف، فضلاً عن البحث في الأجزاء التي لا يقوم عليها أصل البناء، بل يتمّ بها المعنى من متعلقات الأسماء والأفعال كالمفاعيل والتوابع، والبحث أيضاً في المعاني العامة التي تطرأ على الجمل من استفهام ونفي وشرط وتوكيد مما تؤديه الأدوات المختلفة[٤].

إن التركيب كلام لا يقف عند حدّ الصوت وما يتعلق به من ظواهر لغوية، ولا بالكلمة المفردة وما يتعلق بها، بل يُعنى بالكلمة المؤلفة مع غيرها في جملة، وهي محل بحثنا هذا.

خامساً: القراءات السبع

القراءات جمع قراءة، وهي في اللغة مصدر (قرأ)، يقال: قرأ يقرأ قراءة. أما في اصطلاح علماء القراءات فهي: «علم بكيفية أداء كلمات القرآن، واختلافها، معزوا لناقله»[٥]، ذلك أن القرآن نُقِلَ إلينا لفظه ونصه كما أنزله الله تعالى على النبي محمدﷺ، ونقلت إلينا كيفية أدائه كما نطق بها النبيﷺ، وفقا لما علمه جبريلعليه السلام، وقد اختلف الرواة الناقلون، فكل منهم يعزو ما يرويه بإسناد صحيح إلى النبيﷺ، وهذا هو الشرط الأول في صحة القراءة، ثم زيد عليه شرطان آخران؛ موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، وموافقة العربية ولو بوجه[٦]، وهناك قوم من القرّاء جعلوا من القراءات شغلهم الشاغل، فاعتنوا بضبطها أتمَّ اعتناء، حتَّى صاروا في ذلك أئمة يُقتَدى بهم ويُرحَل إليهم، ويُؤخَذ عنهم، وتوزّعوا في كلّ مكان، ولمَّا جاء الإمام أحمد بن موسى بن العباس المشهور بابن مجاهد (ت٣٢٤هـ)، أفرد القراءات السبع المعروفة، فدوَّنها في كتابه (السّبعة في القراءات)، وكانت لها مكانتها في التدوين، ولا عجب في ذلك، فهو لم يأخذ إلاَّ عن إمام اشتهر بالضبط

(٤) ينظر: في النحو العربي -قواعد وتطبيق، د. مهدي المخزومي/ ٨٢.

(٥) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، الدمياطي/ ٦.

(٦) المصدر نفسه/ ٨.

والأمانة وملازمة الإقراء طوال العمر، وهؤلاء السبعة هم: عبد الله بن عامر اليحصبي الشّامي (ت١١٨هـ)، وعبد الله بن كثير الدَّاري المكي (ت١٢٠هـ)، وعاصم بن أبي النجود الأسدي الكوفي (ت١٢٧هـ)، وأبو عمرو بن العلاء البصري (ت١٥٤هـ)، وحمزة بن حبيب الزيات الكوفي (ت١٥٦هـ)، ونافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني (ت١٦٩هـ)، وأبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي الكوفي (ت١٨٩هـ).

ثم وُضِعَتْ بعد ذلك كتب أخر في القراءات السبع نظرت في الرواة الذين نقلوا عن السبعة فاقتصرت على أشهرهم، منها (التبصرة في القراءات السبع) لمكي بن أبي طالب القيسي(ت٤٣٧هـ)، و(التيسير في القراءات السبع) لأبي عمرو الداني (ت٤٤٤هـ) وغيرها.

وفي بحثنا هذا سنتناول بالدرس ما انفرد به عاصم برواية حفص من القراءات السبع التي وصلت إلينا عن طريق التيسير والشاطبية لشهرتها وانتشارها بين المقرئين، ولكونها تمثل الخلاصة التي اتفق أكثر القراء على القراءة بها. ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾

انفردت قراءة عاصم برواية حفص من بين سائر القراءات السبع بقراءة ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بالياء في قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٥٧](٧).

الياء في ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ تدل على أن الفاعل ضمير غيبة راجع إلى الاسم الكريم (الله) المتقدم ذكره في قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [سورة آل عمران: ٥٥](٨)، ومتفق مع الغيبة بعده في قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٥٧](٩).

لكن قوله تعالى في الآية السابقة لها جاء بصيغة المتكلم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ

(٧) قرأ عاصم برواية حفص ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بالياء، وقرأ الباقون (فَنُوَفِّيهِمْ) بالنون. التيسير/ ٧٤.

(٨) الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي: ٢/ ٢٢، والكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، القيسي: ١/ ٣٤٥.

(٩) الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه/ ٥٢.

عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٥٦] وهي معطوفة عليها، إذ السياق سياق شرط وتفصيل بـ(أما)؛ الفريق الأول: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟... ﴾، والفريق الثاني: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ... ﴾.

وإذا كان الأمر على هذه الحال فبين الآيتين التفات، إذ جاءت الأولى بصيغة المتكلم، والثانية بصيغة الغيبة، وقد لحظ المفسرون هذا الالتفات، فحمله أبو حيان «على سبيل الالتفات والخروج من ضمير المتكلم إلى ضمير الغيبة للتنوع والفصاحة»[١٠]، وعدَّه أبو السعود «للإيذان بما بين مصدري التعذيب والإثابة من الاختلاف من حيث الجلال والجمال»[١١]، وإلى قريب من هذا ذهب الآلوسي فقال: «ولعل وجه الالتفات إلى الغيبة... الإيذان بأن توفية الأجر مما لا يقتضي لها نصب النفس؛ لأنها من آثار الرحمة الواسعة، ولا كذلك العذاب"[١٢]، فحمل الالتفات ملامح عديدة؛ تنوعاً وفصاحة وإشارة إلى الجلال والجمال، وتنويهاً بما يقتضي تنصيب النفس وعدمه، وفي الشكل الآتي توضيح لذلك:

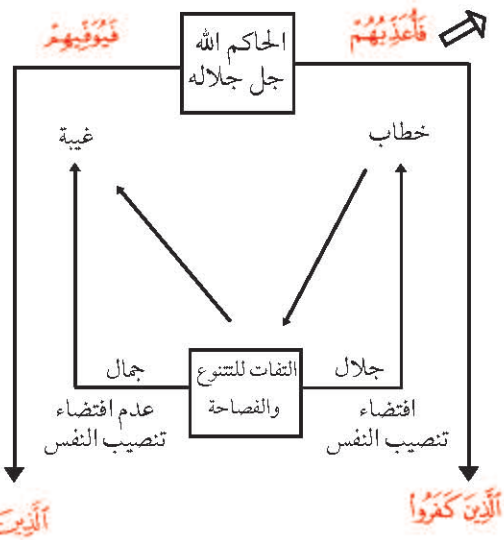

(١٠) البحر المحيط: ٣/ ١٨١.
(١١) إرشاد العقل السليم: ٢/ ٤٥.
(١٢) روح المعاني: ٣/ ١٨٥.

وبعد استقرائنا هذه اللفظة في القرآن وجدنا أنها قد أُسنِدَتْ إلى ضمير الغيبة في جميع المواضع التي تكلمت عن المؤمنين: قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ [سورة النساء: ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [سورة فاطر: ٢٩-٣٠].

فجاءت رواية حفص في سورة آل عمران على هذه الصيغة المُجْمَع على قراءتها في هاتين الآيتين.

ولم يأتِ هذا الفعل مسنداً إلى ضمير المتكلم إلا في موضع واحد كان الحديث فيه عن الذين يريدون زينة الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾ [سورة هود: ١٥]، وفي ذلك إشارة إلى الإجلال، والتنويه بما يقتضي له تنصيب النفس.

﴿ مَعْذِرَةً ﴾

انفردت قراءة عاصم برواية حفص من بين سائر القراءات السبع بقراءة ﴿ مَعْذِرَةً ﴾ بالنصب في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٤][١٣].

وَجَّهَ النحويون قراءة النصب ثلاثة توجيهات:-

الأول: أنها مفعول لأجله، أي: وعظناهم لأجل المعذرة[١٤].

والثاني: أنها مفعول مطلق منصوب بفعل مقدر من لفظه، أي: نعتذر معذرة[١٥].

والثالث: أنها منتصبة انتصاب المفعول

(١٣) قرأ عاصم برواية حفص ﴿ مَعْذِرَةً ﴾ بالنصب، وقرأ الباقون (مَعْذِرَةٌ) بالرفع. التيسير/ ٩٤.

(١٤) البيان في غريب إعراب القرآن، أبو البركات الأنباري: ١/ ٣١٨، والبحر المحيط: ٥/ ٢٠٨.

(١٥) معاني القرآن، الكسائي/ ١٤٨، وإعراب القرآن، ابن النحاس: ٢/ ٧٧.

به؛ لأن المعذرة تتضمن كلاماً، والمفرد المتضمن لكلام إذا وقع بعد القول نُصِبَ نَصْبَ المفعول به، كـ(قلتُ خطبةً)[١٦].

والذي يبدو أن الوجه الأول (المفعول لأجله) أكثر اتساقاً مع النص من التوجيهين الآخرين، فهو يتوافق مع ظاهر قولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾؛ لأن من شروط المفعول لأجله وقوعه في جواب (لِمَ) للسؤال عن العلة، قال ابن يعيش: «وإنما قلنا إنه علة وعذر لوقوع الفعل؛ لأنه يقع في جواب (لم فعلت؟) كما يقع الحال في جواب (كيف فعلت؟)»[١٧]. وقد تحقق الشرط في الآية، فالجواب ﴿مَعْذِرَةً﴾ هنا لبيان علة الوعظ وسببه، فهو جواب عن السؤال، أي: وعظناهم للاعتذار[١٨]، ولهذا وصفه أبو السعود بالأنسب، فقال: «قالوا -أي الوعاظ -: معذرة إلى ربكم، أي نعظهم معذرةً إليه تعالى، على أنه مفعول له، وهو الأنسب بظاهر قولهم ﴿لِمَ تَعِظُونَ؟﴾»[١٩]، ومثله الآلوسي وصفه بالأنسب[٢٠]. وقال الفراء: «أكثر كلام العرب أن ينصبوا المعذرة، وقد آثرت القراء رفعها، ونصْبُها جائز»[٢١]، فهو كما يبدو -لم يسمع بقراءة النصب؛ ولهذا قال: نصبها جائز، أي من حيث قواعد النحو، فضلاً عن أن كلامه يدل على أن رواية حفص قد جاءت على الأكثر في كلام العرب.

﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾ و﴿بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾

انفردت قراءة عاصم برواية حفص من بين سائر القراءات السبع بقراءة ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾ بإضافة اسم الفاعل إلى معموله في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: ١٨]، وبقراءة ﴿بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ بإضافة اسم الفاعل إلى معموله أيضاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [سورة الطلاق: ٣][٢٢].

(١٦) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر/ ٢٩١، وإعراب القرآن الكريم وبيانه، الدرويش: ٣/ ٦٧.
(١٧) شرح المفصل: ٢/ ٥٣.
(١٨) الحجة في القراءات السبع/ ٩١، ومعاني النحو، د. فاضل السامرائي: ٢/ ٦٥١.
(١٩) إرشاد العقل السليم: ٣/ ٢٨٥.
(٢٠) روح المعاني: ٩/ ٩١.
(٢١) معاني القرآن: ١/ ٣٩٨.
(٢٢) قرأ عاصم برواية حفص ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾ ﴿بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ بإضافة اسم الفاعل إلى معموله، فيُترك تنوينه ويُجر معموله على=

يكاد النحويون يجمعون على أن الوصف الذي يعمل فيما أضيف إليه عمل الفعل (الإضافة اللفظية) لا يفيد المضاف سوى تخفيف اللفظ من التنوين[٢٣]، فالفرق في هذا التركيب بين التنوين والإضافة -على حد قولهم -يتمثل في أن الإضافة أخف من التنوين[٢٤].

وهذا الكلام غير مسلَّمٍ به على الإطلاق «إذ لو كان التخفيف هو الغرض؛ لاستُعمِل كذلك مطلقاً وامتنع الإعمال، في حين نرى الاستعمالين جاريين: الإضافة والإعمال»[٢٥]، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ [سورة البقرة: ١٤٥] بالإعمال، وقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [سورة آل عمران: ٩] بالإضافة، فلو كانت الغاية من ذلك التخفيف وحسب لخفف دائماً.

وقد حاول بعضهم التفريق بين الاستعمالين، فذهب إلى أن الإعمال نص في الدلالة على الحال أو الاستقبال، والإضافة تدل على الزمن الماضي[٢٦]، أو أنها لا تنصُّ على زمن بعينه بل تشمل الماضي والحال والاستقبال[٢٧]، فإذا قلت: (أنا مكرمٌ زيداً) دلَّ ذلك على الحال أو الاستقبال، وإن قلت: (أنا مكرمُ زيدٍ) احتمل الأزمنة الثلاثة، ورواية حفص جاءت في هاتين الآيتين بالإضافة، فهي محتملة جميع الأزمنة، وليست مقيدة بزمن معين.

وأضاف الدكتور فاضل السامرائي مَلْمحاً دلالياً لطيفاً في التفريق بين الإضافة والتنوين، قال فيه: «إنه في الإعمال يكون الوصف ملحوظاً فيه جانبُ الحدث وقربُهُ من الفعلية، في حين أنه في الإضافة يكون ملحوظاً فيه جانب الاسمية، وذلك أن

=الإضافة، وقرأ سائر القراء وعاصم برواية شعبة (موهِنٌ كَيْدَ) و(بالِغٌ أَمْرَهُ) بتنوين اسم الفاعل وإعماله، ونصب معموله على المفعولية. التيسير/ ٩٥، ١٧٢.

(٢٣)المفصل في صنعة الإعراب، الزمخشري/ ١١٣، واللباب في علل البناء والإعراب، العكبري: ١/ ٣٩٠.

(٢٤)إعراب القرآن، ابن النحاس: ٤/ ١٠، ٢٧٧، ٢٩٧، والكشف: ١/ ٤٩٠، ٢/ ٢٣٩، ٣٢٠، والبيان: ٢/ ٢٧١.

(٢٥) معاني النحو: ٣/ ١٢٦.

(٢٦)الحجة في القراءات السبع/ ٩٤.

(٢٧)حجة القراءات/ ٣١٠، ومعاني النحو: ٢/ ١٢٧.

الإضافة من خصائص الأسماء، أما أخذ الفاعل والمفعول، فالأصل فيه للفعل»[٢٨]، فأنت تقول: (هذا بائعٌ الكتبَ) بمعنى (يبيع)، وتقول: (رأيت زيداً آكلاً التفاحة) بمعنى (يأكلها)، فإذا قلت: (هذا بائعُ الكتبِ وآكلُ التفاحِ) بالإضافة، دلَّ على الذات كما تقول: (مالكُ الدارِ).

وكذلك الحال في رواية حفص، إذ لمّا أراد التدليل في هذين الموضعين على النصية في الاسمية جاء به على طريقة الإضافة؛ لأن الإضافة -كما ذكرنا -من خصائص الأسماء، بخلاف التنوين الذي يُلحَظ فيه جانب الحدث لقربه من الفعلية.

﴿ نُّوحِيٓ ﴾

انفردت قراءة عاصم برواية حفص من بين سائر القراءات السبع بقراءة ﴿نُّوحِيٓ﴾ بالنون وكسر الحاء في قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم ﴾ [سورة يوسف: ١٠٩] [سورة النحل: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [سورة الأنبياء: ٧][٢٩].

كسر الحاء يدل على بناء الفعل للمعلوم، والفاعل هو الله عز وجل، والنون في أوله علامة على إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم. و(نوحي) بالنون تتوافق مع لفظة (أرسلنا) قبلها لفظاً ومعنى[٣٠]، وقد جاء إسناد هذا الفعل أيضاً إلى ضمير الجماعة في قوله: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [سورة النساء: ١٦٣][٣١].

وبناء الفعل للمعلوم، وإسناده إلى ضمير الجماعة دلالة على تعظيم الفاعل[٣٢]، فهو يتناسب مع عظمة الباري عز وجل.

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتُۢ﴾

انفردت قراءة عاصم برواية حفص من بين سائر القراءات السبع بقراءة

(٢٨) معاني النحو: ٣/ ١٢٧.

(٢٩) قرأ عاصم برواية حفص ﴿نُّوحِيٓ﴾ بالنون وكسر الحاء، وقرأ سائر القراء وعاصم برواية شعبة (يوحى) بالياء وفتح الحاء. التيسير/ ١٠٦، ١٢٥.

(٣٠) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج: ٣/ ١٦٣، والكشف: ٢/ ١٥.

(٣١) الحجة للقراء السبعة: ٢/ ٤٥٦.

(٣٢) معالم التنزيل، البغوي: ٣/ ٢٤٢.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ بنصب (الشمس) و(القمر)، ورفع (النجوم) و(مسخرات) في قول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [سورة النحل: ١٢][٣٣].

الواو في ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ عاطفة على ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾، أي: وسخر لكم الشمسَ والقمرَ، أما في ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ فعلى الابتداء والخبر، وواوها استئنافية[٣٤]، وإنما قُطِعَت عن العطف على ما قبلها؛ لأن هذا العطف يجعل من (مسخرات) حالاً مؤكدة للفعل (سخّر)[٣٥]، كقولنا: سخرت لك الدابة مسخرة، ومجيء الحال مؤكدة فعلها وهي من لفظه ليس بكثير في العربية[٣٦]، فجاءت رفعاً في رواية حفص على الاستئناف؛ لأن الفعل (سخّر) قد أغنى عن ذكر الحال (مسخرة)[٣٧].

وفضلاً عن ذلك كله فإن رواية حفص دلت في هذه الآية على أن (الشمس والقمر) لأهميتهما في حياة الإنسان كأهمية الليل والنهار سُلِّط عليهما عامل التسخير، فنصبُهما يدخلهما في عمل العامل المبني للمعلوم (سَخَّرَ) المسلّط على (الليل والنهار) وكذلك (الشمس والقمر) في رواية حفص، أما النجوم فلكونها أقل أهمية من سابقاتها في حياته رُفِعَت وأُسْنِدَ إليها (مسخرات) على صيغة المجهول، وكأنه قال: سُخِّرَت النجوم، فأعمَّ الحكم بعد تخصيصه.

﴿تُسْقِطْ﴾

انفردت قراءة عاصم برواية حفص من بين سائر القراءات السبع بقراءة ﴿تُسْقِطْ﴾ بضم التاء وكسر القاف

(٣٣) قرأ عاصم برواية حفص ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ بنصب (الشمس) و(القمر)، ورفع (النجوم) و(مسخرات)، وقرأ ابن عامر (وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ والنُّجومُ مُسَخَّراتٌ) برفع الجميع، وقرأ سائر القراء وعاصم برواية شعبة (وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ والنُّجومَ مُسَخَّراتٍ) بنصب الجميع. التيسير/ ١١١.

(٣٤) معاني القراءات، الأزهري/ ٢٤٥.

(٣٥) الحجة للقراء السبعة: ٣/ ٣٢.

(٣٦) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: ١/ ٦٥٣.

(٣٧) الكشف: ٢/ ٣٥.

وتخفيف السين بعدها ألف في قول الله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [سورة مريم: ٢٥][٣٨].

الأصل في السقوط أن يدل على الوقوع، يقال: سَقَطَ الشيء يَسْقُطُ سُقوطاً[٣٩]، وجميع هذه القراءات مأخوذة منه مع اختلاف صيغها، فـ(تُساقِط) مضارع (ساقَط) على وزن (فاعَل)، و(تَساقَط) أصله (تَتَساقَط) مضارع (تَساقَط)، وحذفت التاء منه تخفيفاً لاجتماع التاءين، و(تَسّاقَط) أيضاً أصله (تَتَساقَط) لكن لم تحذف إحدى تاءيه بل أُدغِمَتْ بالسين لتجانسهما، فالأول خُفِّفَ بالحذف، والثاني خُفِّفَ بالإدغام، والفاعل في جميع هذه القراءات (النخلة)، أي: تُساقِط النخلة أو تَتَساقَط النخلة رطباً جنياً، ويجوز أن يكون الفاعل هو جذع النخلة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، أو أن الجذع ملتبس بالنخلة، إذ هو بعضها، كما قالوا ذهبت بعض أصابعه، فأنثوا (بعض) لالتباسه بالأصابع؛ لأنه بعضها[٤٠]، والرطب منصوب مع (تُساقِط) على المفعولية، ومع (تَتَساقَط) على التمييز المحوّل، وكأن الفعل كان للرطب، فلمّا حُوِّلَ إلى النخلة خرج قوله (رُطباً) مفسراً[٤١]، وعدَّ أبو علي النحوي (تَساقَط) متعدياً كـ(ساقَط) فقال: «فأما تعديتهم تَساقَط وهو تَفاعَل، فإن يتفاعل مطاوع فاعل، كما أن تفعّل مطاوع فعّل، فكما عُدّي تفعّل في نحو: تجرَّعته وتملَّيته، وتمزَّزته كذلك عُدِّيَ تفاعل»[٤٢]، وحمله بعضهم على الحال[٤٣].

ورواية حفص (تُساقِط) من (ساقَطَتْ) بمعنى (أَسْقَطَتْ)، إذ يقال: أَسْقَطَتْهُ وساقَطَتْهُ كأَبْعَدَتْهُ وباعَدَتْهُ[٤٤]،

(٣٨) قرأ عاصم برواية حفص ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ بضم التاء وكسر القاف وتخفيف السين، وقرأ حمزة (تَساقَطْ) بفتحها مع التخفيف، وقرأ سائر القراء وعاصم برواية شعبة (تَسّاقَطْ) بفتحها مع التشديد. التيسير/ ١٢١.

(٣٩) مقاييس اللغة، ابن فارس/ ٤٦٣ (سقط).

(٤٠) الحجة للقراء السبعة: ٣/ ١١٩، والكشف: ٢/ ٨٨.

(٤١) إعراب القرآن، ابن النحاس: ٣/ ٩، ومعاني القراءات/ ٢٨٤.

(٤٢) الحجة للقراء السبعة: ٣/ ١١٩-١٢٠، وينظر: الكشف: ٢/ ٨٨.

(٤٣) مشكل إعراب القرآن، القيسي: ٢/ ٤٥٢.

(٤٤) معالم التنزيل: ٣/ ١٩٣، والموضح في=

إلا أن في (ساقَطَتْ) دلالة على المبالغة والتكثير في (أَسْقَطَتْ)[٤٥]، وأن الإسقاط «لا يكون دفعة واحدة، ومثله في الكلام: أنا أُساقِطُ إليك المال أوَّلاً فأوَّلاً»[٤٦]، فضلاً عن دلالة المفاعلة على المشاركة بين الطرفين؛ الأول سيدتنا مريم (عليها السلام)، والثاني جذع النخلة، فإسقاط الرطب لا يكون إلا بعد هزّ الجذع، وكأن الجذع في ذلك كائن حيّ له علاقة في إسقاط الرطب بأمر الله سبحانه وتعالى، فجذع النخلة أقوى من أن تهزه امرأة قد جاءها المخاض، لولا أن شاركها الجذع الاهتزاز فتساقط الرطب.

﴿قَلَ﴾

انفردت قراءة عاصم برواية حفص من بين سائر القراءات السبع بقراءة ﴿قَلَ﴾ بألف بعد القاف وفتح اللام في قول الله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [سورة الأنبياء: ١١٢][٤٧].

الألف بعد القاف وفتح اللام تدلان على أن الفعل فعل ماضٍ، فهو خبر عن النبي ﷺ، توجه به إلى الله ليقضي بينه وبين قومه بالحق، وهذا الدعاء من النبي ﷺ يتناسب مع الدعاء الذي توجه به نبي الله شعيب عليه السلام إلى ربه فقال: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٨٩].

وإذا كانت قراءة الجماعة ﴿قُلۡ﴾ تدل على أمر النبي ﷺ بامتثال الأمر بالدعاء، فإن قراءة عاصم برواية حفص ﴿قَلَ﴾ تدل عَلَى أَنَّ النبي ﷺ امْتَثَلَ الْأَمْرَ بِالْفِعْلِ، فدعا بما أمره الله أن يدعو به.

وهذه القراءة موافقة لرسم مصحف أهل الكوفة، إذ أُثْبِتَتْ فيه الألف بين القاف واللام[٤٨].

﴿لَخَسَفَ﴾

انفردت قراءة عاصم برواية حفص من بين سائر القراءات السبع بقراءة

=وجوه القراءات وعللها، ابن أبي مريم: ٢/ ٨١٧.

(٤٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١٦/ ٨٩.

(٤٦) حجة القراءات/ ٤٤٢.

(٤٧) (قالَ) قراءة عاصم برواية حفص، و(قُلْ)= =قراءة الباقين، التيسير/ ١٢٦.

(٤٨) الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه، القيسي: ٤/ ٣١١٤.

﴿لَخَسَفَ﴾ بفتح الخاء والسين في قول الله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ [سورة القصص: ٨٢][٤٩].

فتح الخاء والسين يدل على أن الفعل مبني للمعلوم، والفاعل ضمير مستتر جوازاً عائد على الله المتقدم ذكره في جملة الشرط، فالله هو فاعل المنّ والخسف، وباتحاد الفاعل يرتبط النص بعضه ببعض، وتأخذ مفرداته بعضها برقاب بعض، فضلاً عن دلالتها على عظمة الفاعل وقوته بالإعلام عنه، ودلالتها على أن الأمر محصور بيده جل جلاله.

﴿فَأَطَّلِعَ﴾

انفردت قراءة عاصم برواية حفص من بين سائر القراءات السبع بقراءة ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالنصب في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [سورة غافر: ٣٦-٣٧][٥٠].

من نصب الفعل جعل الفاء سببية في جواب الترجي، ومن رفع الفعل عطفه على ما قبله[٥١]، ولم يُجز البصريون نصب الفعل في جواب الترجي، وتأولوا الآية إما بحمل (لعل) على التمني، أي بمعنى (ليت)، أو بعطف الفعل على معنى (لعلي أبلغ) وهو: لعلي أن أبلغ، فإنَّ خبر (لعل) يقترن بـ(أنْ) كثيراً[٥٢].

وأجاز الكوفيون نصبه بعد الفاء في جواب (لعل)[٥٣]، واستدلوا على جوازه بهذه القراءة، وبقول الشاعر[٥٤]:

عَلَّ صُروفَ الدَّهْرِ أوْ دولاتِها

يُدِلْنَنا اللَّمَّةَ مِنْ لَمّاتِها[٥٥]

(٤٩) (لَخَسَفَ) قراءة عاصم برواية حفص، و(لَخُسِفَ) قراءة الباقين. التيسير/ ١٤٠.

(٥٠) (فَأَطَّلِعَ) قراءة عاصم برواية حفص، و=(فَأَطَّلِعُ) قراءة الباقين. التيسير/ ١٥٥.

(٥١) معاني القرآن، الفراء: ٣/ ٩، ٢٣٥، وإعراب القرآن، ابن النحاس: ٤/ ٢٥.

(٥٢) إعراب القرآن، ابن النحاس: ٥/ ٩٤، والمفصل: ١/ ٤٠٠، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام/ ٦٢٣.

(٥٣) إعراب القرآن، ابن النحاس: ٥/ ٩٤، ومغني اللبيب/ ٢٠٦.

(٥٤) معاني القرآن، الفراء: ٣/ ٢٣٥، ومغني اللبيب/ ٢٠٦.

(٥٥) صروف الدهر: حوادثه ونوائبه، ويُدِلْنَنا: من أدالنا من عدونا إدالة، وهي الغلبة، يقال: أدلني على فلان وانصرني عليه، واللَّمَّة: الشدة.

فَتَسْتَرِيحَ النَّفْسُ مِنْ زَفْراتِها
وَتُنْقَعَ الغَلَّةُ مِنْ غُلاتِها

فيكفي أن تكون هذه القراءة السبعية وهذا الشاهد الشعري الفصيح أصلاً لقاعدة نحوية قائمة على المنهج الوصفي للغة، وبعيدة عن التأويلات والتعليلات ما دام الشاهد الفصيح قد ورد بها، ولهذا عدَّها ابن هشام قاعدة يقاس عليها، فقال في معرض تعداده للمواضع التي ينصب الفعل فيها بعد فاء السببية: «والترجي كقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ﴾ في قراءة بعض السبعة بنصب (أَطَّلِعَ)»(٥٦)، لأن (لعل) قد شاركت هذه الأشياء الستة الأمر والنهي والاستفهام والدعاء والتمني والعرض والتحضيض في أنها لغير الإيجاب.

وثمة خلاف بين معنى القراءتين؛ «لأن معنى النصب: متى بلغت الأسباب اطلعت، ومعنى الرفع: لعلي أبلغ الأسباب ثم لعلي أطلع بعد ذلك؛ إلا أن (ثم) أشد تراخياً من الفاء»(٥٧)، ومثل ذلك قولنا: ألا تقع في الماء فتسبح، فإذا رفعنا (فتسبح) كان المعنى: ألا تقع في الماء وألا تسبح، وإذا نصبناها كان المعنى: إنك إذا وقعت سبحت(٥٨).

ولعل سائلاً يسأل فيقول: قد قال الله تعالى في موضع آخر مشابه للموضع الذي ذكرناه في سورة غافر: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [سورة القصص: ٣٨] إذ وردت فيها لفظة (أَطَّلِعُ) خبراً لـ(لعل) فرُفِعَتْ، فلماذا لا تُحمل على الرفع في سورة غافر لتكون خبراً لـ(لعل) أيضاً بعطفها على الخبر، ولماذا جاءت في رواية حفص منصوبة على الجواب؟

إن بين الموضعين اختلافاً أعطى لرواية حفص عمقاً دلالياً في كلٍ من السياقين أو المشهدين، ففي سورة القصص كان

(٥٦) شرح قطر الندى وبل الصدى/ ١٣٢.
(٥٧) إعراب القرآن، ابن النحاس: ٤/ ٢٥، =وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣١٥.
(٥٨) الحجة للقراء السبعة: ٣/ ٣٥١، والكشف: ٢/ ٢٤٤.

فرعون في ذروة غضبه وأعلى مراحله، إذ ادَّعى الألوهية، ونفى أن يكون هناك إله غيره، فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ فكان هذا مدعاة لأن يتكبر ويتبجح، فيترجى من الصرح الذي طلب من هامان بناءه أن يَطَّلِعَ به إلى إله موسى، أما في سورة غافر فإنه لم يَدَّعِ الألوهية، فكان خطابه أخف حدة وأقل تهوراً، فترجى أن يبلغ أسباب السماوات، عَلَّهُ ببلوغها يَطَّلِع إلى إله موسى، أي يكون البلوغ سبباً للاطلاع -حاشا لله أن يطلع عليه أحد - فناسبت كل لفظة في رواية حفص سياقها الذي وردت فيه.

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة الطيبة مع التراكيب النحوية التي انفردت بها قراءة عاصم برواية حفص عن سائر القراءات السبع، أودّ أن أقول إن التغيرات التركيبية التي انفردت بها رواية حفص عن بقية القراءات كانت تغيرات ذات أثر في تنوع الدلالة وهذا ما دفع بالباحث إلى دراستها، فهي ليست مجرد ظواهر لهجية كما هو الحال مع الاختلافات الحاصلة بينها في الظواهر العامة من إدغام وإمالة وتقليل وغير ذلك. وبالنظر في هذه المواضع وموازنتها ببقية ألفاظ القرآن المتفق على قراءتها توصل البحث إلى أن رواية حفص كانت في أغلب التراكيب تسير على وفق نمط واحد، واستعمال عام، ولا تخرج عليه إلا عندما يقتضيه المقام الذي وردت فيه، فهي وحدة متكاملة يرتبط آخرها بأولها ارتباطاً وثيقاً، تراعى فيه أدق التفاصيل، من ذلك تفريقها بين إضافة الوصف إلى معموله وتنوينه، فأضافت عند إرادة النص على الاسمية؛ لأن الإضافة من خصائص الأسماء، ونوَّنت عند ملاحظة جانب الحدث لقربه من الفعلية. وكانت رواية حفص في بعض المواضع أصلاً في وضع القاعدة النحوية، إذ جاءت على نصب (فأطَّلِعَ) من قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [سورة غافر: ٣٦] فكانت شاهداً على نصب الفعل إذا وقع بعد الفاء في جواب الترجي.

المصادر والمراجع

١. إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، البناء الدمياطي، شهاب الدين أحمد ابن محمد (ت١١١٧هـ)، تحقيق: أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود، محمد بن محمد العمادي (ت٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت -لبنان، ط١، (د.ت).

٣. إعراب القرآن، ابن النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد (ت٣٣٨هـ)، تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط٢، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

٤. إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش (ت١٩٨٢م)، دار اليمامة، دمشق -بيروت، دار ابن كثير، دمشق -بيروت، ط٩، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.

٥. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت -لبنان، ط١، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

٦. البيان في غريب إعراب القرآن، أبو البركات الأنباري، تحقيق: بركات يوسف هَبّود، دار الأرقم، بيروت - لبنان، ط١، (د.ت).

٧. التيسير في القراءات السبع، الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد (ت٤٤٤هـ)، تحقيق: أوتويرتزل، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط١، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

٨. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب، القاهرة -مصر، ط٢،

١٣٧٢هـ = ١٩٥٢م.

٩. حجة القراءات، أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة (توفي في أواخر القرن الرابع الهجري)، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت -لبنان، ط٢، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م.

١٠. الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

١١. الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي، تحقيق: كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط١، ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.

١٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، أبو الفضل محمود بن عبد الله (ت١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت -لبنان، ط١، (د.ت).

١٣. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، بهاء الدين، عبد الله (ت٧٦٩هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة -مصر، ط١٤، ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م.

١٤. شرح المفصل، ابن يعيش، أبو البقاء يعيش بن علي (ت٦٤٣هـ)، تحقيق: د. أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

١٥. شرح قطر الندى وبل الصدى، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفجر، دمشق -سورية، ط١، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

١٦. علم الأصوات، د. كمال بشر، دار غريب، القاهرة -مصر، ط١، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.

١٧. في النحو العربي-قواعد وتطبيق، د. مهدي المخزومي، دار الرائد، بيروت-لبنان، ط٢، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

١٨. الكشف عن وجوه القراءات السبع

وعللها وحججها، القيسي، أبو محمد مكي بن أبي طالب (ت٤٣٧هـ)، تحقيق: د. محيي الدين رمضان، مجمع اللغة العربية، دمشق -سورية، ط١، ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م.

١٩. اللباب في علل البناء والإعراب، العكبري، تحقيق: غازي مختار طليمات، دار الفكر، دمشق -سورية، ط١، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.

٢٠. المدخل إلى دراسة النحو العربي، د. علي أبو المكارم، دار الوفاء، القاهرة- مصر، ط١، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م.

٢١. مشكل إعراب القرآن، القيسي، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت -لبنان، ط٢، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

٢٢. معالم التنزيل، البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود (ت٥١٦هـ)، تحقيق: خالد العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت -لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

٢٣. معاني القراءات، الأزهري، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

٢٤. معاني القرآن، الفرّاء، أبو زكريا يحيى بن زياد (ت٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، ود. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار السرور، (د.مكان)، ط١، (د.ت).

٢٥. معاني القرآن، الكسائي، علي بن حمزة (ت١٨٩هـ)، جمع وتحقيق: د. عيسى شحاته عيسى، دار قباء، القاهرة - مصر، ط١، ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.

٢٦. معاني القرآن وإعرابه، الزجاج: أبو إسحاق إبراهيم بن السري (ت٣١١هـ)، تحقيق: د.عبد الجليل عبده شلبي، خرج أحاديثه: علي جمال الدين محمد، دار الحديث، القاهرة - مصر، ط١، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م.

٢٧. معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي، مطبعة التعليم العالي، الموصل -العراق، ط١، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.

٢٨. معجم علم اللغة النظري، د. محمد علي الخولي، مكتبة لبنان، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م.

٢٩. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت –لبنان، ط٦، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

٣٠. المفصل في صنعة الإعراب، الزمخشري، تحقيق: د. علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت –لبنان، ط١، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

٣١. مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق: د. محمد عوض مرعب، وفاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي، بيروت –لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

٣٢. الموضح في وجوه القراءات وعللها، ابن أبي مريم، أبو عبد الله نصر بن علي (ت بعد ٥٦٥هـ)، تحقيق: د. عمر حمدان الكبيسي، مكتبة التوعية العلمية، القاهرة –مصر، ط٣، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.

٣٣. الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه، القيسي، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.

الأبعاد التربوية لآيات الإخراج من الظلمات الى النور

أ.د. فاضل عبد العباس النعيمي
كلية الدراسات القرآنية - جامعة بابل

ملخص البحث

يقرر السيد الباحث أن وظيفة الإخراج من الظلمات الى النور، تنطوي على أبعاد ومضامين تربوية ومعرفية تتعلق بالناس جملة وبالفرد المسلم والجماعة المسلمة على وجه الخصوص.

ويحاول السيد الباحث استخلاص تلك الابعاد والمضامين من سائر النصوص القرآنية التي ذكرت فيها هذه الوظيفة والمحصورة في سبعة مواضع من القرآن الكريم، آيتان منها مكيتان، وخمس آيات مدنية.

ثم يبحث دلالة (النور) في القرآن الكريم، بعدها يعرض لدلالة (الإخراج) معرجاً في كل ذلك على توضيح البعد العقائدي لفكرة (الإخراج من ظلمة الكفر الى نور الإيمان) وختم بحثه بخلاصة مهمة مفادها: ان الأمة ادركت اليوم صحة العودة الى الجذور الأصيلة والعقيدة الصحيحة الرائدة بعد مرحلة طيبة من الدخول في أعماق الحقيقة، حقيقة التوحيد والإيمان.

المقدمة

أرسل الله عزّوجل محمداﷺ بدعوة الحق، وأنزل عليه الكتاب ليبين للناس سبل الهداية التي تتحقق بها سعادتهم في الدنيا، وتنتهي بهم إلى النعيم المقيم في الآخرة.

وفي حديث القرآن عن هذا الكتاب بيان لجملة الوظائف التي يقوم بها في حياة الإنسان، ومن أهم هذه الوظائف التي تحتاج منا إلى تأمل، وظيفة الإخراج من الظلمات إلى النور.

إنّ هذه الوظيفة تنطوي على أبعاد ومضامين تربوية ومعرفية تتعلق بالناس جملة، وبالفرد المسلم والجماعة المسلمة على وجه الخصوص.

وسنحاول في هذا البحث استخلاص تلك الأبعاد من سائر النصوص التي ذكرت فيها هذه الوظيفة.

فقد ذكرت سبع مرات في القرآن الكريم في مواضع مختلفة، آيتان منها مكيتان، وخمس آيات مدنية.

أما المكيتان فهما:

١. قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سورة إبراهيم: ١].

٢. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سورة إبراهيم: ٥].

وأما الآيات المدنية فهي:

١. قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٧].

٢. وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ

وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[سورة المائدة: ١٥ -١٦].

٣. وقوله عزّ من قائل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٣].

٤. وقوله جلّ جلاله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[سورة الحديد: ٩].

٥. وقوله سبحانه: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾[سورة الطلاق: ١٠ -١١].

من ثمرات التصنيف إلى المكي والمدني:

فنحن هنا أمام آيتين مكيتين وخمس آيات مدنية، وهو أمر يدعو إلى التساؤل، والذي يظهر -والله أعلم- أن الإخراج نوعان: نوع يتعلق بالناس كافة، فالدعوة تتجه إلى إخراجهم من أحلك الظلمات وهي ظلمة الكفر، إلى نور الإيمان، قال تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾[سورة آل عمران: ١٩٣] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾[سورة غافر: ١٠].

ثم هناك نوع آخر يتعلق بإخراج الذين آمنوا، وقد عبّر بلفظ «الذين آمنوا» في ثلاث آيات، وبالضمير العائد عليهم في آيتين، وكلها مدنية، بينما عبّر بلفظ «الناس» في آية واحدة [سورة إبراهيم: ١]، وعبّر بلفظ «القوم»عن الذين أرسل إليهم موسى عليه السلام.

إنَّ التوجه بالخطاب إلى عموم الناس يختلف عن التوجه به إلى خاصة المؤمنين، وذلك لأن أصل الإيمان يستلزم بمجرد النداء والخطاب به مفهوم الأتباع، ويذكر بمحور العلاقة التي تربط المسلم بالشريعة.

وهذا الأمر يزداد بياناً بتحديد معنى الإخراج من الظلمات إلى النور.

معنى الظلمات:

فالظلمات في اللغة: جمع ظلمة، بضم اللام: وهي ضد النور وذهابه[1] وعدمه[2]، هكذا عرّفها أهل اللغة، بذكر ضدها، وبضدها تتميز الأشياء.

قال الطوسي (ت ٤٦٠هـ): «والظلمة في الأصل سواد الجو المانع من الرؤية، تقول أظلم إظلاماً وظلاماً، وظلمة. والظلمة ذهاب الضياء بما يستره»[3].

وقال فخر الدين الرازي (ت٦٠٦ هـ): «إنَّ الظلمة عبارة عن عدم النور عن الجسم الذي من شأنه قبول النور، وليست عبارة عن كيفية وجودية مضادة للنور، والدليل عليه أنه إذا جلس إنسان بقرب السراج، وجلس إنسان آخر بالبعد منه، فإن البعيد يرى القريب ويرى ذلك الهواء صافياً مضيئاً، وأما القريب فإنه لا يرى البعيد، ويرى ذلك الهواء مظلماً، فلو كانت الظلمة كيفية وجودية لكانت حاصلة بالنسبة إلى هذين الشخصين المذكورين، وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أن الظلمة ليست كيفية وجودية.

وإذا ثبت هذا فنقول: عدم المحدثات متقدم على وجودها، فالظلمة متقدمة في التقدير والتحقق على النور، فوجب تقديمها في اللفظ[4]، ومما يقوي ذلك ما يروى في الأخبار الإلهية أنه تعالى خلق الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره»[5].

فالظلمة آية كونية جعلها الله تعالى مجالاً للاعتبار لما تنطوي عليه من الفوائد والمصالح، ولذلك جاءت في سياق ذكر الحمد، فقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [سورة الأنعام: ١].

(١) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (ظلم)، ٩/ ١٩٣ والفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة (ظلم)، ٤/ ١٤٧.

(٢) ينظر: الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مادة (ظلم)، ٥٣٧.

(٣) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٦/ ٢٧١.

(٤) يقصد في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [سورة الأنعام: ١].

(٥) الرازي، مفاتيح الغيب، ١٢/ ١٥٩ -١٦٠.

ثم استعير لفظ «الظلمة» في أمور معنوية تعبيراً عمّا يعتورها من حلكة واضطراب وحيرة، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٢].

ويلاحظ أن لفظ «الظلمات» -بمعنييها الحقيقي والمجازي -أكثر ذكراً في سورة الأنعام من سائر السور[٦]، وهذا ينسجم مع المطلع الذي استهلت به السورة.

معنى النور:

وأما النور فقد عرّفه الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ) فقال: «الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار»[٧]. وقد ورد في القرآن الكريم أيضاً بعَدِّه آية من آيات الله تعالى الكونية كما في آية [سورة الأنعام: ١].

ثم هو مستعمل أيضاً في الدلالة على أمر معنوي يهتدي به الإنسان في هذه الحياة، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٢]، وتفسير الآية: ومن كان ميتاً فأعطيناه الحياة وجعلنا له نوراً عظيماً يمشي به فيما بين الناس آمناً، وهذا تمثيل للمؤمن و الكافر لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين، فمثل المؤمن المهتدي كمن كان ميتاً هالكاً فأحياه الله، وأعطاه نوراً يستضيء به في مصالحه، ويهتدي به الى طرقه، ومثل الكافر الضال كمن هو منغمس في الظلمات لاخلاص له منها، فهو على الدوام متحير لايهتدي، فكيف يستويان!؟[٨]. وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾[سورة الزمر: ٢٢].

الإخراج من الظلمات إلى النور:

إنّ اقتران الظلمات والنور بلفظ الإخراج يعطي هذا التعبير أبعاداً دلالية متميزة، حتى انه يمكن عدّه مصطلحاً

(٦) ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (ظلمات)، ٤٣٨.

(٧) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مادة (نور)، ٨٢٧ وينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (نور)، ١٤/ ٣٧٩.

(٨) ينظر: حسنين محمد مخلوف، صفوة البيان لمعاني القرآن، ١٨٩.

قرآنياً، يتجاوز الدلالة اللغوية العاملة، ويقرر مجموعة من القواعد التي كانت اللغة العربية قبل نزول الوحي تخلو منها بصفة مطلقة.

فهذا المصطلح بألفاظه الثلاثة المكونة له: «الإخراج»، و «الظلمات»، و «النور»، وبأداتي الربط: «من»و «إلى» يكشف عن عملية ضخمة تجري في حياة الإنسان بالإسلام، كما أنه بمراجعة هذا المصطلح في سياقاته المختلفة في القرآن الكريم تتبين مجموعة من العناصر الأساسية في إنجاز تلك العملية.

مفهوم الإخراج:

لم يرد لفظ الإخراج هكذا بالمصدر، وإنما ورد منه الفعل يخرج وتخرج مضارعاً، وأخرج فعل أمر وهي صيغ فيها معنى التعدية، ففي اللفظ إذن دلالة الإخراج لا دلالة الخروج، أي أن مجرد التعبير بالإخراج، فيه دلالة على أن الخروج من الظلمات إلى النور لم يكن من ذات المخرج، بل هو مفتقر في هذا الخروج إلى من يخرجه.

ومن هنا تظهر مكانة الدعوة إلى الله تعالى، فالناس حين يكونون في الظلمات لا يتصوّر منهم القدرة على الخروج منها وهم مفتقدون للنور، فهم في حاجة إلى سراج منير، ينبعث النور منه إليهم، ينير لهم الطريق، ويتبعون خطاه حتى يخرج بهم من تلك الظلمات ويصلهم بأصل النور عن طريق الكتاب الذي هو نور ووسيلة إلى النور، فحينئذ ينالون حظهم من النور، ويسعون إلى إخراج غيرهم أيضا.

ثم إنّ هذا الإخراج يكون من الظلمات إلى النور، وقد حكى الرازي إجماع المفسرين على أن المراد من الظلمات والنور في هذه الآيات: الكفر والإيمان[٩].

وقال شهاب الدين الآلوسي (ت١٢٧٠هـ): «اقتصر الواقدي في تفسير الظلمات والنور على ذكر الكفر والإيمان، وحمل كل ما في القرآن على ذلك سوى ما في الأنعام من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَٰتِ وَالنُّورَ﴾، فإن المراد بهما هناك الليل والنهار، والأولى أن يحمل الظلمات على

(٩) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ٧/ ٢١ والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ١/ ١٤٤.

المعنى الذي يعم سائر أنواعها، ويحمل النور أيضاً على ما يعم سائر أنواعه، ويجعل في مقابلة كل ظلمة مخرج منها نور مخرج إليه»[١٠].

وكان الراغب الأصفهاني أكثر دقةً وتفصيلاً في هذا المقام حين ذهب إلى أن (الظلمات) «يعبر بها عن الجهل والشرك والفسق، كما يعبّر بالنور عن أضدادها»[١١]، والظاهر إنّ الذين قالوا بالقول الأول نظروا إلى بؤرة الظلمات، وهي أحلكها، دون الالتفات إلى مدخلها الذي هو الجهل، ولا إلى نتيجتها التي هي الفسق، ومن ثم يمكن اعتماد تعريف الراغب على أنه تفصيل وتقسيم وتدقيق، فهو في هذا التعريف المركز ينبه إلى فائدتين:

١ – إنّ التعبير بالنور عن «الأضداد» – هكذا بالجمع – يومئ إلى تعدد الأنوار على مستوى التفصيل، لكن لما لم يستعمل اللفظ في القرآن إلا مفرداً فقد دلّ ذلك على أن مصدر النور واحد وأن مصدر الظلمات متعدد.

وهذه مسألة فيها بعض الإشكال، فقد ذهب الزركشي (ت٧٩٤هـ) إلى أن الجمع والإفراد في الظلمات والنور شبيه بجمع سبل الباطل وإفراد سبيل الحق كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[سورة الأنعام: ١٥٣]. قال: «والجواب في هذا كله أن طريق الحق واحد، وأما الباطل فطرقه متشعبة متعددة، ولما كان الظلم بمنزلة طريق الباطل، والنور بمنزلة طريق الجنة بل هما هما، أفرد النور وجمع الظلمات ولهذا وحد الولي فقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [سورة البقرة: ٢٥٧] لأنه الواحد الأحد، وجمع أولياء الكفار لتعددهم، وجمع الظلمات وهي طريق الضلال والغيّ لكثرتها واختلافها، ووحد النور، وهو دين الحق»[١٢].

وهذا الذي استدل به الزركشي لا يحصل به الثلج في هذه المسألة: لأن إفراد

(١٠) الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ٣/ ٢٣.

(١١) ينظر: الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مادة (ظلم)، ٥٣٧.

(١٢) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٤/ ١٢، ١٢٩.

سبيل الحق وجمع سبل الباطل ليس على إطلاقه، بل ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[سورة العنكبوت: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ [سورة المائدة: ١٥ -١٦].

ومن أسباب ورود الظلمات بالجمع والنور بالإفراد:

قال محمد الطاهر بن عاشور: «وإنّما جمع الظلمات وأفرد النور إتباعا للاستعمال، لأن لفظ الظلمات بالجمع أخف، ولفظ النور بالإفراد أخف، ولذلك لم يرد لفظ الظلمات في القرآن إلا جمعاً، ولم يرد لفظ النور إلا مفرداً، وهما معاً دالان على الجنس، وتعريف الجنس يستوي فيه المفرد والجمع»[١٣].

إنّ هذا الرأي الذي ذهب إليه محمد الطاهر بن عاشور في حصر علة الإفراد والجمع في عنصر الخفة قد لانميل إليه ولا نتفق معه، لأن خفة اللفظ القرآني لا تتعارض مع خصوصية دلالة كل لفظ وكل صيغة في القرآن.

ولا نشك في أن جمع «الظلمات»معنى خاصاً، كما أن في إفراد «النور»معنى خاصاً كذلك. وصيغة الجمع لاتكون بالضرورة دليلاً على الذم مطلقاً بالنسبة لسائر الألفاظ، كالسبل مثلاً.

ولا بد من التنبيه على الأصل الجامع مقابل الأشتات المتفرقة، وهذا ظاهر في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[سورة البقرة: ٢٥٧].

فالله سبحانه هو الولي الحق الواحد الأحد، وأما غيره من الشركاء المزعومين فهم أعداد وأنواع وأشكال.

وهذا يعني أن الإنسان بالظلمات

(١٣) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير= =والتنوير، ٧/ ١٢٧.

يتوزع في اتجاهات مختلفة ومتضاربة، وأن ما يقابلها من أنوار آيلة إلى نور واحد جامع يهدي إلى صراط مستقيم.

فهذا هو مجمل ما يمكن قوله في هذا المقام بالنسبة لجمع الظلمات وإفراد النور.

٢-وأما الأمر الثاني الذي يثيره تعريف الراغب فهو استيعابه لأبعاد الإنسان المعرفية والعقائدية والسلوكية، وهو استيعاب ينسجم مع مقاصد القرآن وقواعده.

إنّ نص الراغب على الجهل باعتباره ظلمة، وما يقابله من نور العلم دليل على اعتبار العلم قبل الإيمان، ولذلك خصص البخاري باباً في صحيحه سماه: «باب العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فبدأ بالعلم[١٤].

وحكى الله تعالى عن موسى عليه السلام مخاطباً قومه الذين: ﴿ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[سورة الأعراف: ١٣٨].

(١٤) البخاري الجامع الصحيح، كتاب العلم، باب فضل من عَلِمَ وعَلّمَ، ١/ ٣٠.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾[سورة الزمر: ٦٤].

ثم إنّ تقسيم الراغب الظلمات إلى تلك العناصر الثلاثة يومئ إلى تلازمها، ومن ثم فالعلاقة بين العلم والإيمان والعمل قوية جداً، مما يدل على أن صيانة الإيمان لا تقل شأناً عن الدخول فيه ابتداءً، وهذا مبني على قاعدة كونية، وسُنة إلهية في الخلق، فإنّ أي شيء وجد ثم خلا عن الصيانة والرعاية والتعهد يتأثر بعوامل الزمن قبل أوانه، ثم يندثر بعد ذلك، ويؤول إلى زوال.

والصيانة للإيمان تكون بالاستزادة من العلم، والارتقاء في الطاعة، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[سورة العنكبوت: ٦٩]. وهكذا يمكن الخلوص -انطلاقاً من تعريف الظلمات والنور -إلى أن للتربية في المنظور القرآني أبعاداً ثلاثة: البعد المعرفي، والبعد العقائدي، والبعد السلوكي.

ونود -قبل تفصيل القول في هذه الأبعاد -أن نقف قليلاً عند لفظ التربية في علاقته بهذه الأبعاد.

فالملاحظ -كما سبقت الإشارة -أن أغلب الآيات في هذا الموضوع مدنية، وأن الخطاب فيه ينص على الذين آمنوا، ومعنى هذا أن الإخراج من الظلمات إلى النور عملية لا تقف عند مجرد الانتقال من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، بل هي عملية تربوية مستمرة ومجاهدة متواصلة على عدة جبهات، سعياً إلى التخلص التام من كل الظلمات سواء أكانت كفراً أم جهلاً أم فسقاً.

الأبعاد التربوية لمفهوم الإخراج من الظلمات إلى النور

أولاً- البعد المعرفي: الإخراج من ظلمة الجهل إلى نور العلم:

إنّ المدخل الطبيعي إلى الإسلام هو العلم، ولذلك يقابل المؤرخون بين عصر الجاهلية وعصر الإسلام، وهم يستندون أساساً إلى القرآن الكريم في هذا التصنيف، وهو تصنيف يتجلّى لمن يقارن بين العصرين فتتبين له النقلة المعرفية الضخمة التي شهدتها الإنسانية في وقت وجيز أبهر عقول المؤرخين وعلماء الحضارات[١٥].

والقرآن الكريم حين نظر إلى الجهل، نظر إليه بوصفه ظلمة، لأن الجهل في حقيقته «معنى مقتض للأفعال الجارية على غير النظام»[١٦]، ومعنى هذا أن صاحبه يتخبّط في السبل المتفرقة، تائهاً عن الصراط المستقيم، فهو لا يهتدي إلى الحق في تعامله مع الأفكار والأشخاص والأشياء.

ثم إنّ الجهل -في بعض معانيه أيضاً-«اعتقاد الشيء بخلاف على ما هو عليه»[١٧]. فصاحبه مفتقد للنور الذي إذا سلّطه على الأمور، بانت كما هي في حقيقتها.

ويتحدث ابن عباس رضي الله عنه عن العرب قبل نور الإسلام فيقول: إذا سرك أن تعرف جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٠][١٨].

(١٥) ينظر: عماد الدين خليل، حول تشكيل= =العقل المسلم، ٣٧ وما بعدها.

(١٦) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مادة (جهل)، ٢٠٩.

(١٧) المصدر نفسه والصفحة.

(١٨) ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٧/ ١٢٥.

فإذا رجعت فعلاً إلى هذه السورة فسوف تلاحظ عبارة «بغير علم» تتكرر في نعت مجمل تصوراتهم وتصرفاتهم، وسوف تجد أيضاً جملة من الألفاظ التي تقوي هذا المعنى، مثل وصفهم بالسفه والخرص وإتباع الظن والهوى والضلال. وهذه التصورات والتصرفات لا تستند إلى أي أساس من العلم: سواء أكان علماً من الوحي أم كان دليلاً من العقل، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾[سورة الأنعام: ١٤٨].

إنّ الإسلام جعل من أهم وظائفه إخراج الناس من ظلمة الجهل تلك، وفتح الباب أمام العقل الإنساني لكي يبدأ رحلة العلم والنور، وهي رحلة لاتنتهي -أفقياً ولا عمودياً-عند حد، فالإسلام في بعده المعرفي نور متجدد ومتدفق يتتبع بالتبديد سائر الظلمات بمختلف أنواعها، ويطاردها في مواقعها، وهي كثيرة ومتجددة أيضاً، وانتشار النور أو الظلمات إنما هو بحسب الإنسان، في علاقته بمصدر النور، وسوف نرى بجلاء من خلال نصوص هذا الموضوع كيف ينتصب القرآن في صلب بنية عملية الإخراج من الظلمات إلى النور، والمفهوم الذي تقوم به العلاقة بين الإنسان والكتاب هو الإتباع، وهو المفهوم نفسه الذي تقوم به العلاقة بين الإنسان والهوى أو غيره.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [سورة الروم: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [سورة القصص: ٥٠].

ومن فوائد هذا الكلام أن الإنسان بقدر ما فيه من الاتباع يكون نصيبه من النور أو الظلمة. ومما يفهم من علاقة العلم بالاتباع، أن هناك ارتباطاً شديداً

بين التحقق بالعلم واستشعار الهداية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[سورة فاطر: ٢٨].

فهذه هي ثمرة العلم، والرسول ﷺ كان في دعائه يسأل الله أولاً الانتفاع بما علمه، ثم يسأله ثانياً أن يعلمه مما ينفعه، ثم يسأله ثالثاً الاستزادة من العلم مطلقاً. فكان عليه الصلاة والسلام يقول: «اللهم انفعني بما علّمتني، وعلّمني ما ينفعني وزدني علماً، والحمد لله على كل حال»(١٩).

إنّ هذا التفاعل المتوالد المستمر بين العلم نظرية والعلم سلوكاً هو الذي يفضي بالمسلم إلى كشف السنن الإلهية في الخلق بحيث غالباً ما يكون مصيباً، لأنه على نور من ربّه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة الحديد: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [سورة الزمر: ٢٢].

وجاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال: «إنّ مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب الأرض فكانت منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها ورعوا وسقوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله فنفعه ما بعثني الله به، ونفع به، فعلم وعلم، ومثل من يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»(٢٠).

إنّ هذا الصنف من العلوم هو الأساس التصوري الذي ينبغي أن تنبني عليه سائر فروع العلم والمعرفة، وهو المنطلق الذي تتضح به المصالح والمقاصد، فتسعى تلك المعارف إلى تحقيقها، وهكذا يمتد نور علم الوحي إليها فيوجهها إلى التي هي أقوم، ولا شك في أن الإعراض

(١٩) ابن ماجة، سنن ابن ماجة، المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، حديث رقم (٢٥١).

(٢٠) النسائي، سنن النسائي، كتاب العلم، ٦٧.

عن هذا العلم هو السبب الرئيسي وراء النتائج المدمرة للعلوم المادية في الحضارة الغربية المعاصرة، فالتلوث يلتهم الحياة يوماً بعد يوم، والأسلحة النووية والكيميائية والجرثومية تقتل العباد وتفسد البلاد، والاستنزاف الجشع للثروات يهدد باختلال الموارد... إلى آخره.

فعلم الغيب أي الوحي إطار علوم الشهادة أي علوم الكون والحياة والإنسان، فإذا تحركت هذه داخل الإطار أثمرت ما خلق له الإنسان مما ينفع الناس ويمكث في الأرض، من عبادة الله جل وعلا، وإلاّ كانت جهلاً مركباً، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَٰهِلُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٦٤]. والعلم بالله جل جلاله هو رأس العلم، من فاته فقد فاته كل شيء، ومن أدركه فقد أدرك كل شيء، ذلك بأن صور الأشياء -أسباباً وموانع، وأحجاماً ومواقع، وأهدافاً ووسائل -لا تستقيم إلاّ من بعد العلم بهذا العلم، وهو في التحصيل سابق لكل علم، وفي الترتيب منطلق لكل عمل، وغاية وهدف من كل علم.

وهذا موضوع كبير جداً، والقصد هنا هو التأكيد على قضية العلم، وأن المسلم مطالب بأن يتعهد نفسه بإخراجها من ظلمة الجهل إلى نور العلم، من خلال اجتهاد مستمر في الطلب لا يقف عند حد ما دام في الدنيا.

ثانياً- البعد العقائدي: الإخراج من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان:

يعبّر العلماء عن هذه الظلمة تارةً بالكفر، وتارةً بالشرك، وبينهما فرق، وهما على درجات.

قال الراغب الأصفهاني: «أعظم الكفر جحود الوحدانية، أو الشريعة أو النبوة، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً، والكفر في الدين أكثر»(٢١).

وقال أيضاً: «شرك الإنسان في الدين ضربان: أحدهما: الشرك العظيم، وهو إثبات شريك لله تعالى، وذلك أعظم كفر. والثاني: الشرك الصغير، وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور»(٢٢).

(٢١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مادة (كفر)، ٧١٤.
(٢٢) المصدر نفسه، مادة (شرك)، ٤٥٢.

والقرآن الكريم يصوّر الصلة بين الكفر والظلمات بشكل جلي في الآيات الكريمة التالية:

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٢]

وقوله عزّوجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [سورة النور: ٣٩-٤٠].

وقوله جلّ وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٣٩-٤١].

فهذه الآيات تضعنا أمام ثلاثة مفاهيم في سياق الحديث عن الظلمات، وهي: الكفر، والتكذيب، والشرك، وهذه المفاهيم تشترك جميعاً في دلالتها العقائدية.

والخروج من هذه الظلمات يكون بالانتقال إلى أضدادها من أنوار الإيمان والتصديق والإخلاص.

وهذه الأنوار درجات وطبقات، والدرجة الأولى هي التي تفصل بين الملتين ملّة الإسلام وملّة غيره من الأديان، فالكفر ملة واحدة، ثم تأتي بعد ذلك درجات أخرى، ومن هنا تحدث العلماء عن كفر دون كفر، وعن الشرك الأكبر، والشرك الأصغر، وتحدثوا عن زيادة الإيمان ونقصانه، وهم يقصدون أن هناك درجات أخرى دون تلك الدرجة الفاصلة، لكنها لما كانت درجات في الكفر فقد نالت نصيبها من الظلمات.

قال ابن بطال: «التفاوت في التصديق على قدر العلم والجهل، فمن قلّ علمه كان

تصديقه مثلاً بمقدار ذرة، والذي فوقه في العلم تصديقه بمقدار برة أو شعيرة، إلاّ أن أصل التصديق الحاصل في قلب كل أحد منهم لا يجوز عليه النقصان، ويجوز عليه الزيادة بزيادة العلم والمعاينة»[٢٣].

وقال محمد الطاهر بن عاشور: «إنّ الله يزيد الذين اهتدوا هدى لأن اتباعهم للإسلام تيسير لطرق اليقين فهم يزدادون توغلاً فيها يوماً فيوماً، وبعكسهم الذين اختاروا الكفر على الإسلام فإن اختيارهم ذلك دلّ على ختم ضرب على عقولهم فلم يهتدوا، فهم يزدادون في الضلال يوماً فيوماً، ولأجل هذا الازدياد المتجدد في الأمرين وقع التعبير بالمضارع في «يخرجهم» و «يخرجونهم»[٢٤].

وهذا يعني أن مقاومة الظلمات بالنور لا تنتهي بمجرد الدخول في ملة الإسلام من خلال الإقرار بالشهادتين. فبعد التحصيل تأتي الصيانة والتحصين، والارتقاء بالعلم والمعرفة والممارسة، ومما يومئ إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾[سورة النساء: ١٣٦].

وقد ذكر الرازي (ت ٦٠٦هـ) في الآية وجوهاً، ومن أحسنها: أن المراد يا أيها الذين آمنوا: داوموا على الإيمان واثبتوا عليه، وحاصله يرجع إلى معنى: يا أيها الذين آمنوا في الماضي والحاضر آمنوا في المستقبل.

ومن هذه الوجوه أيضاً: يا أيها الذين آمنوا على سبيل التقليد آمنوا على سبيل الاستدلال، ومنها: يا أيها الذين آمنوا بحسب الاستدلالات الجميلة آمنوا بحسب الدلائل التفصيلية[٢٥].

وأما الشرك الأصغر فلا شك في ظلمته، فهو يحبط الأعمال، وموقع في الحرمان من توفيق الله تعالى، والخروج منه إلى نور الإخلاص -الذي هو في حقيقته: التبري من كل ما دون الله تعالى -يحتاج إلى مجاهدة شديدة والى يقظة مستمرة، لأنه

(٢٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ١/ ١٠٣.

(٢٤) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٣/ ٣٠.

(٢٥) الرازي، مفاتيح الغيب، ١١/ ٧٥.

شرك خفي يسري إلى الأعمال كدبيب النمل[٢٦].

ثالثاً- البعد السلوكي: الإخراج من ظلمة الفسق إلى نور الانقياد والطاعة:

يأتي هذا البعد المرتبط بالعمل والسلوك بعد البعد العقائدي الذي هو في الترتيب بعد البعد المعرفي، فهي أبعاد يفضي بعضها إلى بعض، ويؤثر بعضها في بعض، وتتفاعل فيما بينها لتنتج الخير والفلاح، فالعلم الصحيح يسوق إلى الإيمان في أعمق صوره وهو الخشية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [سورة فاطر: ٢٨]. والإيمان القوي دافع إلى الطاعة، والطاعة تورث العلم النافع وتزيد في الإيمان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩].

وقد عبّر الراغب الأصفهاني عن الظلمة في هذا البعد السلوكي بكلمة «الفسق»، فنبه بذلك على إمكانية وقوعه من المسلم، فيكون حينئذٍ واقعاً في ظلمة يحتاج إلى الخروج منها إلى ضدها من نور الطاعة والانقياد.

قال الراغب: «فسق فلان خرج عن حجر الشرع وذلك من قولهم: فسق الرطب إذا خرج عن قشره، وهو أعم من الكفر، والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير، لكن تعورف فيما كان كثيراً، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقرّ به ثم أخلّ بجميع أحكامه أو ببعضها، وإذا قيل للكافر الأصلي فاسق فلأنه أخلّ بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة»[٢٧].

وهذا يعني أن واجب التربية يقتضي المعالجة المستمرة لهذا البعد أيضاً، وذلك لأن المسلم بطبيعته البشرية معرض

(٢٦) روى الإمام أحمد في مسنده ٤/ ٤٠٣ عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل، فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يارسول الله ﷺ قال: قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم» وينظر: د. محمد جابر فياض العلواني، الأمثال في الحديث النبوي الشريف، ٣٧٥.

(٢٧) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مادة (فسق)، ٦٣٦.

للذنوب والشيطان يزاحمه بالوسوسة، والنفس من طبيعتها المنازعة !!.

فإذا استثنينا الحد الأكبر لهذه الظلمات، فإن الذين آمنوا -أو بعضهم- قد يبقى فيهم قسط من الجهل أو الفسق أو الشرك[٢٨]، وهو ظلمات أيضاً، فيكونون في حاجة إلى إخراج منه إلى نور العلم والطاعة والإخلاص.

ومما يقوي هذا المعنى مفهوم التطهير، ومن ذلك قوله تعالى بعد الأمر بالوضوء والاغتسال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[سورة المائدة: ٦].

فتمام النعمة بعد الإيمان هو تبيين هذه الشرائع والهداية إليها، فبها تتحقق الأعمال الصالحة التي تنافس الأعمال الفاسدة وتتعقبها وتطردها، وتطهر الإنسان من أرجاسها.

وهذا هو روح التربية الإسلامية الذي يجعلها دائمة المتابعة لسير عملية التطهير والإخراج من الظلمات إلى النور، فالإخراج مستمر سعياً إلى النور الأتم، ولذلك يدعو المؤمنون يوم القيامة: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة التحريم: ٨]، و﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [سورة الحديد: ١٢ -١٣].

صور الدلالة الإسنادية في آيات الإخراج:

١- إسناد فعل الإخراج من الظلمات إلى النور إلى الله سبحانه وتعالى، كما ورد في قوله عزوجل: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٧].

(٢٨) شرك الإنسان في الدين ضربان: أحدهما الشرك العظيم، وهو اثبات شريك لله تعالى، والثاني: الشرك الصغير، وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهو الرياء. (الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مادة (شرك)، ٤٥٢).

وجاء في تفسير الطوسي (ت ٤٦٠ هـ): «ووجه إخراج الله تعالى المؤمنين من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان بإهدائهم إليه، ونصب الأدلة لهم، وترغيبهم فيه، وفعله بهم من الألطاف ما يقوي دواعيهم إلى الإيمان. فإذا اختاروا الإيمان، فكأن الله أخرجهم منها، ولم يجز أن يقال: إنه أخرج الكفار من الظلمات إلى النور من حيث قدرهم على الإيمان، ودعاهم إليه ورغّبهم فيه، كما فعل بالمؤمنين، لأنهم لم يختاروا الإيمان»[٢٩].

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٣]، ومعنى الآية: «ليخرجكم من الجهل بالله إلى معرفته، فشبه الجهل بالظلمات والمعرفة بالنور، وإنما شبه العلم بالنور، لأنه يقود إلى الجنة، فهو كالنور، والكفر يقود إلى النار»[٣٠].

وجاء في تفسير الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ): «ليخرجكم من ظلمات المعصية إلى نور الطاعة»[٣١].

وفي قوله جل جلاله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة المائدة: ١٥ -١٦].

ففي قوله: ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ معناه: «من الكفر إلى الإيمان، لأن الكفر يتحير فيه صاحبه كما يتحير في الظلام، ويهتدي بالإيمان إلى النجاة كما يهتدي بالنور»[٣٢].

ففي هذه الآيات الثلاث إسناد جلي للإخراج من الظلمات إلى النور إلى الله تعالى.

٢- كما أسند فعل الإخراج من الظلمات إلى النور بجلاء إلى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، كما ورد في قوله تعالى:

(٢٩) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٢/ ٣١٤.
(٣٠) المصدر نفسه، ٨/ ٣١٦.
(٣١) الزمخشري، الكشاف، ٣/ ٥٥٥.
(٣٢) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٣/ ٤٧٥.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[سورة إبراهيم: ١].

ففي الآية دلالة على أن الله سبحانه يريد الإيمان من جميع المكلفين، لأنه ذكر أنزل كتابه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليخرج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، واللام هنا لام الغرض، ولا يجوز أن تكون لام العاقبة، لأنها لو كانت كذالك، لكان الناس كلهم مؤمنين والمعلوم خلافه[٣٣].

وقال ابن عطية الأندلسي (ت٥٤٦هـ): «قوله ﴿لِتُخْرِجَ﴾ أسند الإخراج إلى النبيﷺ من حيث له فيه المشاركة بالدعاء والإنذار، وحقيقته إنما هي لله تعالى بالاختراع والهداية. وفي هذه اللفظة تشريف للنبيﷺ. وعمّ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ إذ هو مبعوث إلى جميع الخلق، ثبت ذلك بآيات القرآن التي اقترن بها ما نقل متواتراً من دعوته العالم كله»[٣٤].

(٣٣) ينظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٣/ ١٧٩ والطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٦/ ٢٧١.

(٣٤) ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٣/ ٣٢١.

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[سورة الحديد: ٩]، نجد في إسناد الإخراج احتمالين:

فيحتمل ليخرجكم الله بالقرآن من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ويحتمل ليخرجكم الرسول بدعوته[٣٥].

٣- وجاء فعل الإخراج مسنداً بصيغة الأمر إلى نبي الله موسىعليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سورة إبراهيم: ٥].

و ﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى «أي» على وجه التفسير[٣٦].

ومعنى الآية: ولقد أرسلنا موسى

(٣٥) ينظر: الزمخشري، الكشاف، ٤/ ٤٧٢ والخازن، لباب التأويل، ٤/ ٢٢٨ ومدارك التنزيل للنسفي على هامشه.

(٣٦) أبو حيان الأندلسي، إعراب القرآن، ٤/ ٧.

بأدلتنا وحججنا من قبلك يا محمد، كما أرسلنا إلى قومك بمثلها من الأدلة والحجج. . . أي ادعُهم من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان[٣٧].

أما آية الطلاق وهي قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [سورة الطلاق: ١٠ -١١].

فقوله تعالى: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾، قال ابن عطية: «اختلف في المراد بالاسمين «الذكر» و «الرسول»، وأبين الأقوال عندي: معنى أن يكون الذكر للقرآن والرسول محمدﷺ، والمعنى بعث رسولاً»[٣٨].

قال محمد الطاهر بن عاشور: «إسناد الإخراج إلى النبي ﷺ، لأنه يبلغ هذا الكتاب المشتمل على تبيين طرق الهداية إلى الإيمان، وإظهار فساد الشرك والكفر، وهو مع التبليغ يبين للناس ويقرّب إليهم معاني الكتاب بتفسيره وتبيينه، ثم بما يبينه عليه من المواعظ والنذر والبشارة، وإذ قد أسند الإخراج إليه في سياق تعليل إنزال الكتاب إليه علم أن إخراجه إياهم من الظلمات بسبب هذا الكتاب المنزل أي بما يشتمل عليه من معاني الهداية.

وتعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات دلّ على أن الهداية هي مراد الله تعالى من الناس، وأنه لم يتركهم في ضلالهم، فمن اهتدى فبإرشاد الله»[٣٩].

وفي كلام الطاهر فائدتان:

١- إن إسناد الإخراج إلى النبيﷺ، لكونه مبلغاً لما أنزل عليه من الكتاب، وكونه مبيناً له أيضاً. ومما يؤكد هذا أن في جميع الآيات التي ذكر فيها الإخراج مسنداً إلى الرسولﷺ أو مقترناً بذكر رسالته ذكر في السياق القريب معه الكتاب، وقد يعبّر عنه بأسماء أخرى، فذكر الكتاب في:

(٣٧) ينظر: الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ١٣/ ١٨٢.

(٣٨) ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٥/ ٣٢٧.

(٣٩) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٨/ ٣٠٢.

[سورة إبراهيم: ١]، و [سورة المائدة: ١٥ -١٦]، والآيات في: [سورة إبراهيم: ٥]، والآيات البيّنات في: [سورة الحديد: ٩]، والآيات المبينات بالفتح في قراءة في: [سورة الطلاق: ١٠ -١١]، والمبينات بالخفض في قراءة أُخرى(٤٠).

وأما الآيتان الأخريان المتممتان للسبعة التي هي موضوع الدرس، فقد أسند فيهما الإخراج مباشرة إلى الله تبارك وتعالى، ولم يذكر معه الكتاب في السياق القريب، كما أنه لم يعبّر عنه بمثل تلك الأسماء السابقة.

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ راجع الآيات من [سورة البقرة: ٢٥٣ -٢٥٧] وقال عزوجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ راجع الآيات من [سورة الأحزاب: ٣٩ -٤٦].

(٤٠) قرأ بالفتح عامة القرّاء. والمعنى: بيّنها الله سبحانه، وقرأ ابن عامر وحفص والكسائي بالخفض، والمعنى: أي يبين لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام. (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ١٧٤).

وقد يفهم من هذا -والله أعلم- أنّ في هاتين الآيتين نوعاً خاصاً من الإخراج، وهو مرتبط بالتوفيق الربّاني لعبده المؤمن، حين يتولاه الله تعالى فيتعهده بلفظه ويرعاه بعنايته: «وهي هبة لدنية يودعها الله القلوب التي تستشعر تقواه، وتؤمن حق الإيمان برسوله، هبة تنير تلك القلوب فتشرق، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز، ومن وراء الأشكال والمظاهر، فلا تتخبط ولا تلتوي بها الطريق»(٤١).

قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٢].

وقال عزّوجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [سورة الحديد: ٢٨].

فذكر النور الذي يمشي به الفرد، والنور الذي يمشي به الفرد وتمشي به الجماعة، قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا

(٤١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٤٩٦.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [سورة النور: ٤٠].

وهذا النور ثمرة لأتباع النور الذي أنزله الله تعالى، والله تعالى من أسمائه: النور، والقرآن من أسمائه: النور، ومحمد ﷺ منير، وقد فسّر الرازي قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة المائدة: ١٥]، أنه محمد ﷺ(٤٢).

فمن اتبعه فهو على نور من ربه، وهكذا هو في سعي مستمر الى النور الأتم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ﴾ [سورة الحديد: ١٢].

وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ [سورة التحريم: ٨].

إن إسناد الإخراج الى رسول الله ﷺ يدل على موقع النبوة وأهميتها في بنية الإسلام، كما أن ذكر الكتاب في هذا السياق يدل على موقع النص أو الوحي، ومركزيته في منهج الإسلام، فلا يمكن أن نتصور -بحال - إخراجاً من الظلمات الى النور بغير النبي ﷺ المبيّن للكتاب!!.

١- ونحن نذكر في هذا السياق أن العالم اليوم يتخبط في الظلمات، وليس بخارج منها الاّ بنور الوحي، فهو الذي أخرجه أول مرة، وهو القادر على إخراجه اليوم أيضاً.

لقد أخرج رسول الله ﷺ الناس من الظلمات الى النور، ومن الضلالة الى الهدى، بإذن الله تعالى، فقام بالوظيفة التي كلّف بها خير قيام، وأدى الأمانة والرسالة الى الأمة التي كلفت هي الأخرى بالشهادة على الناس وإخراجهم من الظلمات الى النور.

ولقد أدركت الأمة اليوم صحة العودة الى الجذور الأصيلة، والعقيدة الصحيحة الرائدة بعد مرحلة طيبة من العودة والدخول الى أعماق الحقيقة، حقيقة التوحيد والإيمان، فكل شيء ما خلا الله باطل وكل بناء نسجه من خيوط العنكبوت واهن، فالحضارة حضارة نفوس وأرواح وعقائد صحيحة قبل الاعتبارات الأخرى، وقد ضرب الله

(٤٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ١١/ ١٩٤.

الأمثال الكثيرة في كتابه العزيز لأقوام سادت وبادت، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾[سورة إبراهيم: ٩].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الأخيار المنتجبين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الآلوسي، أبو الفضل، شهاب الدين، محمود الآلوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، إدارة المطبعة المنيرية، القاهرة (د. ت).

٢. أحمد بن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي (ت٢٤١هـ)، المسند، شرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٦٩هـ-١٩٥٠م.

٣. البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح، تقديم: أحمد محمد شاكر، دار الجيل، بيروت (د. ت).

٤. ابن حجر العسقلاني، الحافظ شهاب الدين، أبو الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

٥. حسنين محمد مخلوف، صفوة البيان لمعاني القرآن، القاهرة، الطبعة الثالثة (د. ت).

٦. أبو حيان الأندلسي، أثير الدين، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي (ت٧٥٤هـ)، إعراب القرآن، جمع وترتيب وتصحيح: محمود شاكر، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٧. الخازن، علاء الدين، علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن (ت٧٤١هـ)، لباب التأويل

في معاني التنزيل، وبهامشه تفسير النسفي المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، مطبعة دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة (د. ت).

٨. الرازي، فخر الدين، محمد بن عمر بن الحسين (ت٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣ (د. ت).

٩. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم، الحسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ -١٩٩٦م.

١٠. الزركشي، بدر الدين، محمد بن عبد الله الزركشي (٧٩٤هـ)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت -لبنان، ١٤٠٨هـ -١٩٩٨م.

١١. الزمخشري، أبو القاسم، جار الله، محمود بن عمر الخوارزمي (ت٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت (د. ت).

١٢. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الخامسة ١٣٨٦هـ -١٩٦٧م.

١٣. السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت-لبنان ١٩٧٣م.

١٤. الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ -١٩٥٤م.

١٥. الطوسي، أبو جعفر، محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ)، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، المطبعة العلمية، النجف الأشرف ١٣٧٦هـ -١٩٥٧م.

١٦. ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م)،

التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م. وطبعة مؤسسة التاريخ العربي، بيروت -لبنان، ط١ ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٧. ابن عطية، القاضي أبو محمد، محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت٥٤٦هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

١٨. عماد الدين خليل، حول تشكيل العقل المسلم، بيروت -لبنان (د. ت).

١٩. الفيروزآبادي، مجد الدين، محمد بن يعقوب بن محمد (ت٨١٧هـ)، القاموس المحيط، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت -لبنان (د. ت).

٢٠. القرطبي، أبو عبد الله، شمس الدين، محمد بن أحمد الأنصاري (ت٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

٢١. ابن ماجة، الحافظ، أبو عبد الله، محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٥هـ)، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٧٣هـ-١٩٥٣م.

٢٢. محمد جابر فياض العلواني، الأمثال في الحديث النبوي الشريف، بيروت - لبنان (د. ت).

٢٣. محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٧م.

٢٤. ابن منظور، جمال الدين، محمد بن مكرم الأنصاري (ت٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت -لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٢٥. النسائي، الحافظ، أبو عبد الرحمن، أحمد بن شعيب بن علي النسائي (ت٣٢٠هـ)، سنن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو رغدة، بيروت (د. ت).



www.mobda3.net

وَسَطِيَّةُ القرآنِ الكريمِ في دَعْمِ النظامِ الاقتصادي

أنوار زهير نوري
كلية التربية للبنات - جامعة بغداد

ملخص البحث

في مقدمة البحث، تقرر السيدة الباحثة، أن الوسطية سمة هذه الامة وبها تعرف بين سائر الامم. وقد كرست البحث لبسط موضوع الوسطية في القرآن الكريم ضمن ثلاثة محاور هي:-

- العمل.
- الملكية.
- الارث.

والتي عدَّتها السيدة الباحثة: دعائم النظام الاقتصادي في الاسلام والتي كان القرآن الكريم دستوراً لها وخلال البحث تعرضت لأمور فرضت نفسها على النظام الاجتماعي في الاسلام بحكم تيار الانحراف عن مبادئه وتعاليمه مثل: الميسر والربا وظلم اليتيم والتي كان القرآن الكريم لها بالمرصاد ، فهدد وتوعد كل من يقترف تلك المآثم. وقد ذيلت البحث بالنتائج التي توصلت اليها معتمدة كثيراً من المصادر والابحاث ذات الاختصاص.

المقدمة

الوسطية سمة هذه الأمة وبها تعرف من بين سائر الأمـم بل هي ميزة مازها الله تعالى بها على غيرها، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣]، ومع كون الوسطية سمةً من سمات الأمـة فانه يتنازعها في الواقع كثير من الأطـراف، منهم الجافي والمغالي، ومنهم من يأخذ بها في طرف دون طرف، بل تستخدم الوسطية أحيانا لتمرير بعض المفاهيم الخاطئة، وتلبيس الحق بالباطل، أو توظف لأغـراضٍ ظاهرها الدين وباطنها الدنيا، وتضيع الوسطية بين الإفراط والتفريط، ومن هنا كان من المهم بيان الوسطية ومجالاتها ومنهجها.

فقد صبَّت الوسطية في القرآن الكريم بالفعل في دعم النظام الاقتصادي والذي يتألف من (الملكية الفردية، العمل، الإرث) فأقامته على أساس إنساني مثالي من العلم والعمل والبحث والسعي والتنافس في الخير والتعاون عليه مع الصدق والتسامح والرحمة في التعامل والتبادل.

فانطلقت آيات القرآن الكريم في إقامة تلك الدعائم من المنطلق الذي تصدر عنه كل جوانب كيانه وقواعد بنيانه. فقد احترم حق الملكية الفردية شريطة مشروعيتها في الأصل وسلامة ممارستها، بحيث لا تمس حقوق الأفراد ولا تتعارض ومصلحة الجماعة، كما منح القرآن الكريم حرية العمل، والفرد يختار ما يشاء من عمل من دون إكراه أو إجبار ماعدا الأعمال المحرمة التي تضر ولا تنفع مثل الخمر والميسر والربا وغيرها. وشرع الله عز وجل في كتابه الكريم الإرث كوسيلة لتفتيت الثروة ويعدّها ضماناً لأفراد الأسرة الواحدة بعد أن فصّل القرآن الكريم توزيع الحصص توزيعاً عادلاً ودقيقاً بما يرضي إرادة المورث.

فكان لابد لنا من العودة الى الحد الوسط، والى الصراط السوي فتعتدل كفتا الميزان، وهذا ما جاء به القرآن الكريم يريد العدل والاستقامة، وهو دليل الخيرية كما انها تمثل الأمان وهي دليل القوة ومركز

الوحدة وهي حبل النجاة لأمّتنا العربية والإسلامية من التيه والضياع الذي يهدد حاضرها ومستقبلها.

مفهوم العمل لغة واصطلاحاً

العَمَل لغةً: عَمِلَ يَعْمَل عَمَلاً، فهو عامل: أي فَعَل فِعْلاً عن قصد.[1] والعَمَلُ: المِهْنَة والفِعْلُ.[2]

والعمل في الاصطلاح: لم اطلع على تعريف مرض للعمل، فكل ما اطلعت عليه أما عام لا معنى له، أو خاص لايؤدي الغرض، فالعمل ميدان واسع متشعب متعدد الاغراض، يصعب حصره في تعريف جامع مانع، ولعل أحسن ما يقال فيه: انه كل ما يزاوله الانسان من انشطة صناعية أو مهنية أو زراعية أو تجارية أو غيرها بغية هدفٍ، أو هي الوحدة بين الكلمة المنطوقة والحركة الواقعة.

والعمل في الاقتصاد: مجهود يبذله الإنسان لتحصيل منفعة[3].

فالعمل إذن من دعائم النظام الاقتصادي، ويقصد بالعمل بالتعريف الاقتصادي: ما يبذله الإنسان من مجهود للحصول على وسائل العيش؛ من طعام ولباس وسكن والمواد الضرورية الأخرى، وهذا العمل من الإنسان يوفر ما يحتاج اليه لنفسه وما يحتاج الآخرون، لأن الإنسان لا يستطيع بمفرده توفير كل ما يحتاج اليه، وذلك النشاط (العمل) المبذول من الإنسان يسمى بالنشاط الاقتصادي، ولابد من تنظيم هذا العمل بشكل يرتضيه المجتمع ويحقق الخير للفرد وللمجتمع على حد سواء، وهذا النظام لابد له من أساس يقوم عليه، وأفكار تنسجم وخصائصه وأحكامه وقواعده وهذه القواعد والأحكام، وما قامت عليه من اساس تكوِّن النظام الاقتصادي الإسلامي[4].

وسطية القرآن الكريم بين العمل الدنيوي والعمل الأخروي

إن العمل هو احد أهم دعائم النظام

(١) المعجم الوسيط، احمد الزيات وآخرون: ص٦٣٨.

(٢) القاموس المحيط، الفيروز آبادي: ج ١، ص ١٣٣٩.

(٣) المعجم الوسيط، ج٢، ص ٦٢٨.

(٤) النظم الإسلامية، د منير حميد البياتي، فاضل شاكر النعيمي: ص ٣٤٣.

الاقتصادي، والذي يعدّ قوام الحياة في النظام الإسلامي، ولا بد لنا ونحن في معرض بحث وسطية القرآن الكريم في دعائم النظام الاقتصادي أن نتطرق الى وسطيته في تناوله للعمل، وابتداءاً نتكلم عن وسطيته في تناوله للموازنة بين أداء الأعمال الدنيوية والأعمال الأخروية.

إن الإسلام-منطلقاً من قاعدته القرآنية في العمل- يوجب على الإنسان أن يوازن بين العمل الدنيوي والأخروي، بعد ان يقصد بها وجه الله، وان لا يشرك بعبادة ربه أحداً، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[سورة الكهف: ١١٠]، والعمل الصالح: هو العمل الذي يقصد به وجه الله سبحانه، ويكون في خير العباد شخصياً أو اجتماعيا، سواء كان عملاً دنيوياً أو أخروياً.

أما حث القرآن على الأعمال الأخروية فيكاد يكون محور القرآن، وهنا نتناول بعض الآيات التي تجمع بين العمل الدنيوي والآخروي، ومن الآيات التي يتم فيها الاقتصار على ذكر العمل الدنيوي تحديداً، قوله تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾[سورة القصص: ٧٧]، فأما قوله تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ﴾[سورة القصص: ٧٧] أي اجعل نصيباً منه في سبيل الله والعمل للدار الآخرة،(٥) أو اطلب فيما أعطاك الله من الأموال رضى الله، وذلك بفعل الحسنات والصدقات، في الطاعات(٦)، أو أن تفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب، وتجعله زادك الى الآخرة(٧)، أي اطلب طلباً تجهد نفسك فيه لله الملك الأعظم الذي له الأمر كله، يكون ابتغاؤك ذلك مقصوداً له فيكون كالروح للجسد، ليكون حياً بذلك الابتغاء، فلا يكون منه شيء بغير حياة، فان فعلك لذلك يذكرك ان هذه الدار دار ارتحال، وكل ما فيها الى

(٥) روح المعاني، للآلوسي: ج ٢: ص ٥٥.

(٦) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ج٢، ص٣٢٧.

(٧) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، ج١، ص ١٦٤.

زوال[8]. أما قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾[سورة القصص: ٧٧] فانها تستعمل في الإباحة، أي لا نلومك على أنْ تأخذ نصيباً من الدنيا أي الذي لا يأتي على نصيب الآخرة[9]، أو أن تتمتع بها في الحلال من دون إسراف[10]، ولا تنس استغناءك بما احل الله لك عما حرمه عليك، أو أحسن في طلب الحلال كما أحسن إليك في الإحلال[11]، قال ابن عباس: لا تترك أن تعمل لله في الدنيا[12]، وقيل لا تضيع حظك من دنياك من تمتعك بالحلال وطلبك إياه و ونظرك لعاقبة دنياك، وفي الحديث:(احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)[13]، أي لا تمنع نفسك نصيبها من التمتع بالحلال في الدنيا كما قال الرسول ﷺ: (ان لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً)[14].

وجاء في التفسير: هذا يمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم، المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة، ولا يحرمه ان يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة، بل يحضه على هذا او يكلفه إياه تكليفاً، كي لا يتزهد تزهد الزاهد الذي يهمل الحياة ويضعفها. لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس، وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها، فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض، ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة. فلا ينحرفون عن طريقها، ولا ينشغلون بالمتاع عن تكاليفها، والمتع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم، وتقبُّل لعطاياه، وانتفاع بها، فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسنى. وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق

(٨) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي: ج ٥، ص ٥١٨.
(٩) التحرير والتنوير، ابن عاشور: ج ٣: ص٦٨.
(١٠) التفسير الميسر، عدد من أساتذة التفسير تحت إشراف د. عبد الله التركي: ج ٧، ص ١١١.
(١١) تفسير الماوردي (النكت والعيون): ج ٢، ص ٥٤.
(١٢) تفسير ابن أبي حاتم: ج٣، ص٩٦.
(١٣) تفسير القرطبي: ج١٣، ص ٣١٤.
(١٤) صحيح البخاري (٥/ ٨٢)، صحيح ابن حبان (٢/ ٢٣)، صحيح ابن خزيمة: (٣/ ٣٠٩).

فيها، في حياة الإنسان ويمكّنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة، التي لا حرمان فيها، ولا إهدارً لمقومات الحياة الفطرية البسيطة[١٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود: ٦١]، والاستعمار طلب العمارة، والطلب المعلق من الله تعالى على الوجوب، واستعمركم فيها: أي خلقكم لعمارتها[١٦]. اي جعله يعمره بأنواع البناء والغرس والزرع[١٧].

وجاء في التفسير: أي طلب منكم أن تعمروها، فكل حركة في الحياة تؤدي الى عمارة الأرض فهي من العبادة، فلا نأخذ العبادة على أنها صوم وصلاة فقط، لأنهما الأركان التي تقوم عليها حركة الحياة التي يُبنَى عليها الإسلام، فلو جعلت الإسلام هو هذه الأركان فقط لجعلت الإسلام أساسا بدون مبنى، فإذن الإسلام هو كل ما يناسب خلافة الإنسان في الأرض.

(١٥) في ظلال القرآن، سيد قطب: ج٥: ص٤٤٣.
(١٦) اللباب في علوم الكتاب، أبو جعفر الدمشقي: ج١٠، ص ٢٧٩.
(١٧) البحر المحيط، ابو حيان الأندلسي: ج ٤، ص ١٩٦.

إن كل عمل يُعدّ عبادة، وإلا ستكون متقاعساً في الوجود، والإيمان الحق يقتضي منك أن تنتفع بعملك، ولا تعتمد على عمل غيرك، ان الحق سبحانه قد استخلفنا في الأرض من اجل ان نعمرها، ومن حسن العبادة ان نتقن كل العمل وبذلك لا نقيم أركان الإسلام فقط، ولكن نقيم الأركان والبنيان معاً، ونكون قد أدينا مسؤولية الإيمان[١٨].

ومما يدل على وجوب عمارة الأرض، أنَّ الاستعمار يعني طلب العمارة، والطلب المطلق منه تعالى يحمل على الأمر والإيجاب، والمعنى أمركم بالعمارة فيها، وأقدركم على أمارتها[١٩].

وسطية القرآن الكريم في الحث على العمل

إن القرآن الكريم كتاب الله سبحانه الذي أنزله على الناس ليبين لهم خير دنياهم وآخرتهم، فلم يترك شيئاً، من أمور الآخرة والدنيا إلا بينها للناس إما إجمالا أو تفصيلاً، فهو (سبحانه) يحث الناس

(١٨) تفسير الشعراوي: ص ٢٥٧.
(١٩) تفسير البحر المحيط: ج٥: ص١٩٦ و٢٣٩.

على العمل ويأمرهم بذلك ويمنعهم من الكسل والتواكل والعجز، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [سورة الملك: ١٥]، جاء في تفسير هذه الآية:

إن في هذا الأمر (فامشوا) مع الإباحة توجيهاً وحثاً للأمة على السعي والعمل الجاد، والمشي في مناكب الأرض من كل جانب لتسخيرها، وتذليلها مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها، [٢٠] وفي الآية إيماء الى طلب الرزق والمكاسب.[٢١]

ففي الآية حث على العمل والاكتساب، وهذا أمر يقتضي الإباحة وليس الوجوب، فلا يجب عليك أن تمشي في المناكب، ان كان عندك سعة[٢٢]، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الجمعة: ١٠]، ففيه إباحة الانتشار وليس وجوبه، لجواز بقاءك في المسجد لقوله ﷺ : (الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه تقول:اللهم اغفر له اللهم ارحمه،مالم يحدث)[٢٣]، [٢٤].

ففعل الأمر هنا حث على البحث عن الرزق في الأرض يؤيده قوله ﷺ:

« مَا أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ طَعَامًا خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِ يَدَيْهِ »[٢٥].

ومن أجل ذلك قال الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾[سورة المزمل: ٢٠].

فعلى الرغم من أهمية قراءة القرآن وعظمة أجر قراءته؛ الا أن الله سبحانه قد جعل العمل سبباً للعفو عن العبد ان لم يستطع، فقدم المرض ثم العمل ثم الجهاد في سبيل الله، ليبين لنا مدى أهمية العمل لديمومة الحياة وعمارة الأرض ونهضة

(٢٠) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشنقيطي: ج ٨، ص ١٢٣٨.
(٢١) التفسير الميسر: ج ١٠، ص ٢٠٥.
(٢٢) الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، ج٤٥: ص٢٨٧
(٢٣) موطأ الامام مالك: ج١، ص١٦٠.
(٢٤) سلسلة التفسير، لمصطفى العدوي وابو عبد الله مصطفى بن العدوي شلبايا المصري، دروس صوتية قام بتعريفها موقع الشبكة الاسلامية: ج٦، ص٦٦.
(٢٥) السنن الكبرى: (٦/ ١٢٧).

الأمة.[٢٦] ويسند ذلك كله قوله ﷺ (الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى)[٢٧]، وقوله ﷺ : (أفضل الكسب: عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور)[٢٨]، وقوله ﷺ (من أمسى كالا من عمل يديه أمسى مغفوراً له)[٢٩].

فالأنبياء عليهم السلام احترفوا أعمالاً متنوعة، فآدم احترف الزراعة، وزكريا و نوح عليهما السلام احترفا النجارة، وداود عليه السلام احترف الحدادة، وإدريس عليه السلام احترف الخياطة، وعيسى عليه السلام الغزل، ومحمد ﷺ احترف رعي الغنم والتجارة، والصحابة رضي الله عنهم احترفوا الحرف منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه سقى بالدلاء واحترف الزراعة، وخباب بن الأرت كان حداداً، وعبد الله بن مسعود كان راعياً، وسعد بن أبي وقاص كان نبالاً، والزبير بن العوام كان خياطاً، وسلمان الفارسي كان حلاقاً[٣٠].

ويؤكد ما مرّ من قولنا في عمل الأنبياء عليهم السلام والصالحين قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾[سورة الفرقان: ٢٠]، فكانوا متعففين لا يمدون ايديهم الى الناس عليهم السلام بل يذهبون الى العمل؛ فقوله سبحانه: ﴿وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [سورة الفرقان: ٢٠]، كقوله تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [سورة الملك: ١٥] فالمشي هنا جاء للدلالة على العمل والسعي من أجل الرزق، لأن جميع الحرف منتهاها ومستقرها الأسواق، وآخر ما نختم به قولنا هو قوله ﷺ (أخشى ما خشيت على أمتي كبر البطن ومداومة النوم والكسل وضعف اليقين)[٣١].

(٢٦) سلسلة التفسير: (٦/ ٦٩).
(٢٧) صحيح البخاري: (٣/ ٥٢٢).
(٢٨) مسند أحمد بن حنبل: (٣/ ٤٦٦)، ١٥٨٧٤، تعليق شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لضعف شريك- وهو ابن عبد الله النخعي.
(٢٩) المعجم الأوسط: (٧/ ٢٨٩)، ٧٥٢.
(٣٠) السيرة النبوية، لابن هشام: (١/ ٢٨٠)= =والمعارف لابن قتيبة. ٨١٦.
(٣١) أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، محمد بن درويش بن محمد: (١/ ٣٤)، والتيسير بشرح الجامع الصغير، الإمام المناوي:(١/ ٩٩)، وكنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، (٣/ ٨٣٢)، وصحيح وضعيف الجامع الصغير،الألباني، حديث ٢٣٨.

وسطية القرآن الكريم في إباحة العمل وتقييده

القرآن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حينما يتناول العمل يمنح حرية العمل، والفرد يختار ما يشاء من عمل من دون إكراه أو إجبار أو منع، ما عدا الأعمال المحرمة التي تضر ولا تنفع مثل الخمر والميسر والربا والرشوة وغيرها[٣٢].

فكما بينا في المطالب المارّ ذكرها أن الإسلام دين، انطلق من القرآن وحث على العمل بما فيه من منافع للإنسان ونهضة للأمة، وحذر من الكسل لما فيه من مضار على الإنسان، وتثبيط همم الأمة وبالتالي انتكاسها وهبوطها ومن ثم سقوطها حتى انها ترى في حال لا تحسد عليه، وانه وازن من خلال كتابه الأعظم (القرآن الكريم) في القيام بالأعمال الأخروية والدنيوية، بل وجعل الأعمال الدنيوية جزءاً لا يتجزأ من الأعمال الأخروية اذا قُصِدَ بها مرضاة الله عز وجل.

إن القرآن الكريم وكما أوضحنا حينما أمر الناس بالعمل، لم يأمرهم بنوع معين من الأعمال بل أباح لهم كل الأعمال، لذلك تنوعت أعمال الأنبياء عليهم السلام والآل والاصحاب رضي الله عنهم، ما دام مصاحباً لأخلاقيات الإسلام العامة، كالعدل، وعدم الغش، وعدم بخس الناس أشياءهم، وعدم إخسار الميزان، والأمانة، الى غير ذلك من الأخلاقيات الإسلامية؛ التي جعلها الله سبحانه في ذكره اياها في قرآنه ديناً؛ يدين بها الناس إذا التزموا بها، ويثيبهم الله عليها بركة في الدنيا، وحسنات وجنة في الآخرة ورضوان من الله أكبر.

ولكن هذه الإباحة للأعمال لم تكن مطلقة بلا حدود؛ فان إباحة الأعمال بشكل مطلق يؤدي الى ضرر المجتمعات والتعدي على حقوق الآخرين، واستغلال الفقير، وسلب إرادة الضعيف، وتدمير إنسانية الإنسان، ويسود نظام الغاب، ويتآكل العدل، وتنصهر الأمانة، وتتجمد المروءة في شرايين الإنسانية، وعندها تسير المجتمعات بل الدنيا كلها نحو الهلاك.

(٣٢) النظم الإسلامية: ص ٣٤٦.

ولكي ينقذ القرآن هذه البشرية من تلك السيئات، ومن براثن هذه الخطايا، ذهب ليدغدغ تلك المشاعر تارة بالترغيب بالأعمال الصالحة، وتارة بالترهيب من الأعمال التي تنخر في جسد الأمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[سورة المائدة: ٩٠- ٩١]، فحرم سبحانه الخمر لما فيه من إفساد للعقل وذهاب للمروءة، وهبوط للإنسان من إنسانيته، ليفقد عقله ثم يعتدي بذلك على الآخرين، وحرم الميسر لما فيه من هدر للأموال وأخذها بغير وجه حق.

ولا يسعنا المقام هنا إلا بذكر بعض التحريمات التي تقيّد الأعمال، مثل الميسر، والربا، وأكل مال اليتيم، إخسار الميزان، الغش، وسنقتصر في دراستنا هذه على تحريم الميسر، والربا كمثالين لتحريم الأعمال الطالحة.

فالميسر: (كل شيء فيه قمار فهو ميسر) [٣٣]، وفيه تهيج أكثر الصفات الذميمة؛ وهي الحرص، والبخل، والكبر، والغضب، والعداوة، والبغض، والحسد، والحقد وأشباهها، وبها يضل العبد سواء السبيل[٣٤].

حيث ان أكل المال بالباطل شنشنة معروفة لأهل الجاهلية بل هي أكثر أحوالهم المالية، فإن إكتسابهم كان في الإغارة، ومن الميسر، ومن غصب القوي مال الضعيف، ومن أكل أموال اليتامى، ومن المقامرة ومن المراباة ونحو ذلك وكل ذلك من الباطل ليس عن طيب نفس[٣٥].

فالميسر مثلاً يولد حقد القلوب، وإحساس كل واحد بأن الآخر متربص له ومتحفز، ولأمواله طالب متوثب، وهذه الأمور بارزة آثارها للعيان غير محتاجة الى بيان[٣٦].

والميسر لا يشغل عن عبادة الله وعن

(٣٣) لسان العرب: : ج ٥، ص٢٩٥.
(٣٤) تفسير حقي: (٣/ ٣٣).
(٣٥) جامع لطائف التفسير (٤/ ١٣٧)، و التحرير والتنوير: (٢/ ١٨٧).
(٣٦) زهرة التفاسير: (١/ ٢٣٤٨).

الصلاة فقط، بل يشغله عن أهله وأولاده، وعن عمله الذي يكتسب منه، بل عن ثيابه التي يكسو نفسه بها، فهو في غمرة طاغية لا ينقذه منها إلا إطاعته أمر الله تعالى ونهيه[٣٧].

وقد اتفق الفقهاء على تحريم ضروب القمار؛ وأنها من الميسر الحرام، لما فيها من أكل أموال الناس بالباطل ومن جلب العداوة والبغضاء، ومن تعويد المقامرين على الكسل وانتظار الربح السريع من القمار من دون كد وعمل[٣٨].

ومن مضار الميسر، إيجاد العداوة والبغضاء بينك وبين أخيك، انه قد يؤدي بمن يمارسُه الى بيع أهله وأولاده وبيع ملابسه واعز ما يملك، وانه حينما يعتاد صاحبُه، يقوده الى أن يكسب بدون حركة ويؤدي به الى أن يختلس أو يسرق. هذا هو حال الذين يلعبون الميسر، إنهم أصحاب الرذائل في المجتمع؛ فهم الذين يرتشون، ويسرقون، ويعربدون، ولا أخلاق عندهم، وليس لهم صاحب ولا صديق، وبيوتهم منهارة، وأسرهم مفككة، وعليهم اللعنة حتى في هيئتهم، وهندامهم.[٣٩] وهذا اللون من اللعب يعطل القدرة على الكسب الحلال، لأن الكسب الحلال يحتاج الى حركة في الكون، والميسر يشل حركة الكاسب لأنه يزهده في العمل، والخسران يشل حركة الخاسر لأنه مهما سعى في الأرض فقد لا يستطيع ان يسدد ديونه[٤٠].

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن للناس ألا ينتفع احد بشيء إلا بكدِّه وبعمله، والحق يريد أن يكون بناء جسد كل إنسان من ناتج عرقه في عمل مشروع، وكذلك بناء أجساد من يعول[٤١].

وأخيراً فان الميسر الذي يلوح فيه الوهم بالكسب والسراب، فيلهث اللاعب فيه خلف اللعب لعله يكسب، ويفقد القدرة على ذكر الله والصلاة.

تحريم الربا

الربا: الفضل والزيادة، وفي الشرع، هو فضل خال عن عوض شرط لأحد

(٣٧) زهرة التفاسير: (١/ ٢٣٤٨).
(٣٨) نيل المرام شرح آيات الأحكام، (١/ ٥٣).
(٣٩) تفسير الشعراوي: ص ٢٢٢.
(٤٠) المصدر نفسه: ص ٧٥٢.
(٤١) تفسير نفسه: ص ٧٥٢.

المتعاقدين، وفي علم الاقتصاد المبلغ يؤديه المقترض زيادة على ما اقترض تبعاً لشروط خاصة[٤٢].

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[سورة البقرة: ٢٧٥-٢٧٩]. لقد حرم الإسلام الربا في كتابه الكريم لأنه نظام يسحق البشرية سحقاً، ويشقيها في حياتها أفراداً وجماعات ودولاً وشعوباً لمصلحة حفنة من المرابين، ويحطها أخلاقياً ونفسياً وعصبياً، ويحدث الخلل في دورة المال ونمو الاقتصاد البشري نمواً سوياً[٤٣].

فالقرآن لم يجعل الفرد حراً بشكل مطلق في وسائل حصوله على المال، وفي طرق تنميته، وفي التمتع به، غير ملتزم في شيء بعهد من الله و وغير مقيد كذلك بمصلحة الآخرين، ومن ثم لا حسبان لأذى الملايين إذا هو أضاف الى خزانته ورصيده ما يستطيع إضافته، وبالتالي يتولد تصور خاطئ فاسد هو أن غاية الغايات للوجود الإنساني هو تحصيله للمال بأية وسيلة كانت، واستمتاعه به على النحو الذي يهوى !! ومن ثم يتكالب على جمع المال التمتع به، ويدوس في طريقه كل مبدأ[٤٤].

فالربا من كبائر المحرمات، والواقع فيه معرِّض نفسَهُ لغضب الله وعذابه وحربه، وانتقامه، سواء أكان الواقع فرداً، أم أمة، أم دولة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن

(٤٢) المعجم الوسيط: ج١: ص٣٢٦.

(٤٣) (في ظلال القرآن): ج١، ص٣٠٠.

(٤٤) (في ظلال القرآن): ج ١، ص٣٠٠.

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٨- ٢٧٩]،[٤٥] ومن ثم فالربا عملية تصطدم ابتداء بقواعد التصور الإيماني، لذلك فرض القرآن على المسلمين قيوداً في تنمية المال لا تجعلهم يسلكون إليها سبلاً تؤذي ضمير الفرد وخلقه، وتؤذي حياة الجماعة وكيانها[٤٦].

وقد ذكر ابن عاشور أسبابا أربعة لتحريم الربا هي: -

الأول: أن فيه أخذ مال الآخرين من غير عوض.

الثاني: أن في تعاطي الربا ما يمنع الناس من اقتحام مشاق الاشتغال في الاكتساب، لأنه إذا تعود صاحب المال أخذ الربا خف عنه اكتساب المعيشة، فإذا فشى في الناس أفضى الى انقطاع منافع الخلق لان مصلحة العالم لا تنتظم إلا بالتجارة والصناعة والزراعة.

الثالث: انه يفضي الى انقطاع المعروف.

الرابع: إن الغالب في المقرض أن يكون غنياً، وفي المستقرض أن يكون فقيراً، فلو أبيح الربا لتمكن الغني من أخذ مال الضعيف[٤٧].

والاقتصاديون يقررون ان طرق الكسب أربع: ثلاث منها منتجة وهي الصناعة والزراعة والمخاطرة في التجارة، لأنها في نقل الأشياء من مكان إنتاجها الى مكان استهلاكها تتعرض للمخاطر، وتزيد قيمتها بهذا الانتقال، أما الرابعة فهي الفائدة أو الربا، وهذه لا مخاطرة فيها، لان القرض لا يتعرض للخسارة، بل له الكسب دائماً، ولأنه لا إنتاج إلا لعمل المقترض، وهذا يؤدي الى تحكم رؤوس الأموال في العمل[٤٨].

ولقد وافقت السُّنة ما جاء في كتاب الله العزيز (القرآن الكريم) في ذكر تحريم الربا فلقد جاء في صحيح مسلم قوله ﷺ عن جابر رضي الله عنه:

(٤٥) فقه المعاملات المالية في الإسلام، حسن أيوب ٧٦.

(٤٦) (في ظلال القرآن) ج ١، ص٣٠٠.

(٤٧) ابن عاشور- التحرير والتنوير- ج٣ ص٥٦.

(٤٨) تفسير القطان: ج١، ص١٦٧.

(قَالَ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ وَقَالَ هُمْ سَوَاءٌ)[٤٩]،[٥٠] وقوله ﷺ (إجتنبوا السبع الموبقات، وذكر منها أكل الربا)[٥١]. وهناك كثير من الأحاديث التي تناولت موضوع تحريم الربا اكتفي فيها بهذا القدر للفائدة.

وفي معرض تناولنا لآيات القرآن نجد أن النظام الإسلامي والنظام الربوي نظامان متقابلان، لا يلتقيان في تصور ولا أساس، ولا يتوافقان في نتيجة. إن كلاً منهما يقوم على تصورٍ للحياة وأهداف وغايات يناقض فيها الآخر تمام المناقضة، وينتهي الى ثمرة في حياة الناس تختلف عن الأخرى كل الاختلاف.[٥٢]

(٤٩) صحيح مسلم (٥/ ٥٠)، رقم الحديث ٤١٧٧. ومصنف أبي شيبة، (٤/ ٤٤٨)، رقم الحديث ٢٢٠٠٠.

(٥٠) الأنوار الساطعات لآيات جامعات، عبد العزيز بن محمد السلمان، ٥٠.

(٥١) متفق عليه، صحيح البخاري: (١٧/ ٢٣٤). رقم الحديث (٦٨٥٧)، و صحيح مسلم (١/ ٩٢)، رقم الحديث (١٤٥).

(٥٢) في ظلال القرآن: ج ١، ص ٢٩٩.

(الملكية الفردية)

الملكية لغة: المنسوبة الى الملك[٥٣]، وهو مصدر صناعي من المُلك والمِلك والمَلك، وهو إحتواء الشيء والقدرة على التصرف[٥٤].

أما اصطلاحاً: فهو العلاقة الشرعية بين الإنسان والشيء الذي ترتب له حق التصرف فيه، وتحجز الآخرين عن هذا التصرف، وهو قدرة يثبتها الشرع ابتداءًا على التصرف الا لوجود مانع.[٥٥]

وتقسم الملكية بحسب صاحبها على ثلاثة أنواع: -

١. ملكية الدولة أو ملكية بيت المال: وتضم كل مال استحقه المسلمون، ولم يتعين مالكه كبيت مال الزكاة، والخراج، والفيء، وخمس الغنائم، والجزية والعشور، وبيت مال الضوائع، كاللقطة وغيرها، ويتصرف فيه ناظر بيت المال تصرف المُلاّك

(٥٣) المعجم الوسيط، ج٢، ص٨٨٦.

(٥٤) لسان العرب: (١/ ٢٨٨).

(٥٥) مفاهيم اسلامية، أ. د. نعمة عبد اللطيف مشهور، ص ٨٨.

الخاصين في أملاكهم بما يحقق مصلحة الجماعة المسلمة[٥٦].

٢. الملكية العامة أو الجماعية: وهي ملكية مشتركة بين مجموع أفراد الأمة من دون ان يختص بها أحد منهم، إما لتجاوز المنفعة من هذه الاشياء على ما يبذل في سبيلها من جهد ونفقة، واما لكون نفعها ضرورياً لمجموع الأمة ولا غنى لأفرادها عنها، وتشمل الملكية المشتركة المرافق العامة و الانهار و الشوارع والطرق، والغابات وغيرها، لقوله ﷺ (المسلمون شركاء في ثلاث في الماء والكلأ والنار).[٥٧]،[٥٨].

٣. الملكية الخاصة (الفردية): وهي موضوع البحث من أنواع الملكية، ويكون مستحقها وصاحبها فرداً أو جماعة على سبيل الاشتراك، وتشمل كل الاموال الحلال، من نقود وعروض فنية، وعروض تجارة، وأصول ثابتة، ووسائل انتاج، والتي لا تقع ضمن الملكية العامة المشتركة للمسلمين، أو ملكية بيت مال المسلمين.[٥٩] وهناك تقسيمات أخرى صُنفت اعتماداً على أسس أخرى، أهملتها لأني أرى إنها ليست موضوع البحث.

وسطية القرآن الكريم في الاعتراف بالملكية الفردية وقبول التفاوت الطبقي

ان القرآن الكريم يقر الفرد على ما يملكه لانه ينطلق من تشريع أنّ الملك أصلا، ثم يعود إليه سبحانه

(٥٦) والملكية ونظرية العقد في الشريعة الاسلامية، محمد ابو زهرة ص ٦٥، و القيمة والاسعار والنقود، ص٢٦.

(٥٧) القيمة والاسعار والنقود، ص٢٦.

(٥٨) السنن الصغرى،البيهقي (٢/ ١٥٠). والسنن الكبرى،البيهقي، (٦/ ١١٠). وسنن أبي داود:(٣/ ٢٩٥)، ومسند الإمام أحمد بن حنبل: (٥/ ٣٦٤).

(٥٩) الملكية الخاصة في الشريعة الاسلامية ومقارنتها بالاتجاهات المعاصرة، والاتحاد الدولي للبنوك الاسلامية: ص ٩٤. و الفروق، الغرافي، ص ٢١. ومعجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء، نزيه حماد: ص ١٦٣. و قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الاسلامية، د. محمد عمارة: ص ١٣٠.

انتهاءنا، فالقرآن يقر حق الملكية الفردية اذا حصل عليها المسلم بالطرق المشروعة، والإنسان مفطور على حب المال، قال تعالى ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[سورة الفجر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[سورة البقرة: ٢٧٤]، فنسب سبحانه الأموال الى الناس مجازاً؛ وإن كان الأصل كله الى الله والناس مستخلفون فيه، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ﴾[سورة الحديد: ٧].و قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[سورة المائدة: ١٧].

وسبب نسبة الملكية الى الإنسان جاءت تشجيعاً له وتحفيزاً على العمل والضرب في الأرض لتعميرها، وإشباع غريزة حب التملك التي يمتلكها الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [سورة البقرة: ١٨٨][٦٠].

فالقرآن يقر حقيقة أن الملكية أصلها لله، وينسبها الى الإنسان ويعترف بملكيته لها طوال حياته عليها، ثم تؤول الى الله انتهاء كما كانت إليه ابتداء، وكما أن الملك كله لله على الحقيقة، فهو إذن لا يلغي الملكية؛ كما يفهم الإنسان ان الملك على الحقيقة لله، وفي هذا توسَّط القرآن في نظرته للملكية بين الإلغاء وبين إفهام الإنسان أن الملك لله لكي يترتب على ذلك الإفهام واجبات أخرى على الإنسان أن يعملها.

كما أقر القرآن الكريم التفاوت في الملكية الفردية، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ [سورة النحل: ٧١]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [سورة الزخرف: ٣٢]، والحقيقة ان التفاوت في الملكية المالية طبيعي لان الناس يتفاوتون في الصحة والقوة والذكاء وفي بذل الجهد في العمل، والرزق مقسوم من الله سبحانه، فهو الذي يوسع الرزق أو يضيقه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سورة الرعد: ٢٦].

ووسطية القرآن تظهر جلية في هذا التفاوت فهو لا يعني فقراً مدقعاً أو غنىً فاحشاً، فالإسلام مع اعترافه بهذا التفاوت

(٦٠) بناء المجتمع الإسلامي: ص ٢٠.

من خلال القرآن، إلا أنه يسعى من خلال آياته الى إزالة هذا التفاوت من خلال إزالة آثار الفقر والقضاء عليه عن طريق الزكاة والصدقة، وعدم تكديس الأموال بيد قلة قليلة من الناس،قال تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [سورة الحشر: ٧]، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[٦١] [سورة البقرة: ١٧٧].

وسطية القرآن الكريم من حيث نشأة الملكية

وسطية القرآن تظهر هنا من حيث اعترافه بالملكية إذا كان منشؤها من حلال؛ فهو لا يعترف بالملكية بصورة مطلقة فمثلاً التي يكون منشؤها غير شرعي؛ لا يعترف بها ولا يحميها؛ بل يأمر بنزعها من يد حائزها وردها الى مالكها الاصلي، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾[سورة البقرة: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [سورة البقرة: ١٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[سورة البقرة:١٨٨]، ويؤيد ذلك قوله ﷺ :- (إنكم تختصمون وإنما أنا بشر ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فإنما أقضي بينكم على نحو ما أسمع منكم فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار جهنم يأتي بها يوم القيامة)[٦٢].

والاسباب الشرعية للملكية هي: -

الاستيلاء على المال المباح:-مثل الصيد، وإحياء الأرض الموات...الخ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[سورة المائدة: ٢].

١- العقود والتصرفات: مثل البيع والهبة والوصية.... الخ، قال تعالى:

(٦١) النظم الإسلامية: ص٣٥٣.

(٦٢) المعجم الكبير: (٢٣ -٣٨٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾[سورة المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٠].

٢- الميراث:- قال تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴾(٦٣) [سورة النساء: ١١].

وسطية القرآن الكريم بين الانفاق من الملكية ونمائها

حث القرآن الكريم على الإنفاق ما نحو: وجوب أداء بعض الحقوق على المال كالزكاة والنفقات الشرعية، قال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [سورة البقرة: ٤٣]، قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ ﴾ [سورة البقرة ٢٦١].

(٦٣) النظم الاسلامية: ص٣٥٣- ٣٥٤، و الاقتصاد الإسلامي (المفاهيم والمرتكزات الأساسية): ص٢٠٥، و القيمة والأسعار والنقود في الفكر الاقتصادي الإسلامي: ص١٤٧.

وكذلك فهو من جانب آخر يسمح باستثمار المال ونمائه بالطرق المشروعة كالتجارة والزراعة والصناعة، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ ﴾[سورة النساء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ ﴾[سورة الأنعام: ١٤١]، فمن وسطية هذا الكتاب العظيم انه لا يسمح بنماء المال بالطرق غير المشروعة والمحرمة كالربا والميسر وأمثال ذلك، لانه كالورم الخبيث الذي يصيب بدن الإنسان ويحسبه الجاهل سمنة وعافية وهو في نظر الحكيم العارف بلاء ومرض ينبغي التخلص منه(٦٤).

وسطية القرآن الكريم في الاعتراف بملكية الانسان وأن أساس الملك لله

لابد لمالك المال ان يعلم بأن ملكيته هي ملكية الظاهر اما المالك الحقيقي لكل شيء فهو الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾

(٦٤) النظم الإسلامية ص ٣٥٤، و أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان: ص٢٥٣- ٢٥٤.

[سورة المائدة: ١٢٠].

واما اختصاص إنسان بشيء من الملك فذلك بوصفه نائباً عن المجتمع في ادارة الملك، كمثل مدير شركة مساهمة يقوم بإدارتها مدير مفوض في حدود نظام معين، وكما يعزل مدير مؤسسة إذا أساء التصرف، فان المالك يفقد سلطته على المال لو لم يتبع المنهج الذي وضعه له المالك، وهو الله سبحانه وتعالى كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾[سورة النساء: ٥]. ففي هذه الآية الكريمة قال سبحانه: (أموالكم) ولم يقل (أموالهم) لبيان أن السفه الذي حدث في المالك أفقده السلطة على المال، ولم يبق للمالك السفيه سوى الكسوة والرزق، وتكمل المقارنة لو تدبرنا الآية الكريمة التي تليها: قال تعالى: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [سورة النساء: ٦]. ففي هذه الآية نسبت الأموال الى اليتامى، ويمكن تصرفهم فيها بعد ان وضح الرشد منهم الذي يدل على حسن تصرفهم وقيامهم بمسؤولية إدارة المال برجاحة عقل. وكذلك اذا انحرف الإنسان عن النهج الذي ارتضاه له الله سبحانه في إدارة المال المستخلف فيه، أفقده عينَ المال، ونقله الى سواه، والله هو الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾[سورة آل عمران: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾[سورة الأحزاب: ٢٧].

وفي هذا يقول النبي ﷺ : (إن لله أقواما اختصهم بالنعم لمنافع العبد و يقرها فيهم ما بذلوها فإذا منعوها نزعها عنهم و حولها إلى غيرهم)[٦٥]، [٦٦].

وهكذا نلاحظ وسطية القرآن الكريم في إقرار الملكية للمالك اذا اتصف برجاحة العقل وما يؤهله لحيازة الملك ومنها التصرف بالملك ضمن التعليمات والأوامر

(٦٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الأصبهاني، ١٤٠٥: (٦/ ١١٥).وشعب الإيمان، البيهقي، ١٤١٠: (٦/ ١١٧).

(٦٦) النظم الإسلامية: ص ٣٥٦.

الإلهية التي يصدرها المالك الأصلي وهو الله سبحانه، وعند عدم الالتزام بتلك التعاليم والإرشادات والشروط تسحب الملكية من الفرد وتعطى لغيره أو لبيت المال حسب الظروف والأحوال.

وهذا القانون يسري حتى على مستوى الجماعات، فالجماعة التي لا تحترم التعاليم الإلهية يسحب الله منها تلك النعم، وذكر ذلك في الكثير من الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[سورة النحل: ١١٢] فأية جماعة لا تلتزم بأوامر الله يسحب الله منها تلك النعم ويورثها قوماً آخرين، ومنها قوله تعالى عن قوم فرعون: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾[سورة الدخان: ٢٥- ٢٩]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[سورة الانعام: ٤٤- ٤٥]. وهكذا نرى أن الله عز وجل يستعمل القانون نفسه في تعامله سواء كان على مستوى التبعية الفردية أم التبعية الجماعية عند عدم إطاعة أوامره وارتكاب ما نهى عنه أو ما أمرنا بالابتعاد عنه.

الميراث (الإرث): -

الإرْث من أسباب التملك للمال [٦٧]، وقد يأتي الإرث بمعنى (بَقيةُ الشيء)[٦٨]، وقيل الإرث: الأمر القديم الذي توارثه الآخِرُ عن الاول[٦٩]، فذكر أن الإرث هو الميراث وأصله الورث بالواو فأبدلت بالهمزة [٧٠]، وقيل: الإرث في الحسب،والورث في المال. [٧١]

(٦٧) النظام الاقتصادي في الاسلام: ص ١١٥.
(٦٨)المعجم الوسيط: ج١، ص١٣.
(٦٩) تاج العروس ج٥، ص ١٥٥.
(٧٠) طلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية، النسفي: ج١، ص١٥٤.
(٧١) لسان العرب، ج٢، ص١١١.

والميراث أيضاً:-انتقال الشيء من شخص الى آخر بعد الوفاة، سواء أكان الانتقال الى وارث موجود، أو في حكم الموجود كالجنين [٧٢].

أما اصطلاحا: فاستحقاق نصيب في تركة المتوفي، بسبب قرابة، أو زوجية، أو ولاء. [٧٣]

أدلة مشروعية الاستحقاق: -

١- قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[سورة النساء: ٧].

٢- قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ [سورة النساء: ١٢].

وسطية القرآن الكريم في الإرث: -

لقد شرع الله سبحانه الإرث وذكره في كتابه الكريم كوسيلة لتفتيت الثروة، ويشير القرآن الكريم الى ذلك الهدف حيث يقول تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾[٧٤] [سورة الحشر: ٧].

ويعد نظام الإرث ضماناً اجتماعياً لأفراد الأسرة الواحدة، فان رب الأسرة يستجيب للفطرة الإنسانية في كون المالك حريصاً على ذريته من زوجة وأبناء وبنات ووالدَين وغيرهم، ويكون رب الأسرة قلقاً عليهم اذا تركهم بلا مال بعد موته. [٧٥] ووسطية القرآن الكريم ظاهرة في أن تكون أموال المالك لمن كانا السبب في وجوده وهما الوالدان، وكذلك لمن كان هو السبب في وجودهم كالأولاد، وقد فصَّل القرآن الكريم توزيع الحصص توزيعاً عادلاً دقيقاً على هؤلاء الأقرباء مما يرضي إرادة المورث، قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ﴾

(٧٢) القاموس المحيط، ج٢: ص ١٦٧.

(٧٣) النبراس، عبد الفتاح محمود إدريس: ص ١٨٤. وينظر: الميراث والوصية في الإسلام، محمد زكريا البرويسي: ج١، ص ٢٩٦.

(٧٤) النظم الإسلامية: ص٣٥٣.

(٧٥) أصول الدعوة ص ٢٥٥، و النظم الإسلامية ص ٣٥٨.

أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾[٧٦] [سورة النساء: ١١].

ومن وسطية القرآن الكريم في الورث انه يُهيئ الأموال للأحياء منهم، فلا يضيع الصغير واليتيم والأرملة من الأقرباء، ويذهب الى أكثر من ذلك فيشمل القريب غير المشمول بالورث واليتامى والمساكين وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖ ﴾[٧٧][سورة النساء: ٨].

ومن عظمة وسطية القرآن الكريم توزيع حصص الإرث عادلة ودقيقة بشكل لا يضاهيه أي نظام آخر في العالم فقد روعي فيه: -

١. قرب الوارث من الميت على قدر نفسه وإعانته للمورَّث.

٢. روعي فيها مدى حاجة الوارث وتكاليفه.

ونضرب لذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ ﴾ [سورة النساء: ١١] فقد تمت فيها مراعاة حاجة الابن من المال أكثر من حاجة البنت؛ لكثرة التكاليف المالية عليه؛ فهو الذي يدفع المهر في النكاح، وعليه نفقة الزوجة؛ كذلك عليه نفقة أولاده، وعليه نفقة والدته ان لم يترك والده لها شيئاً، أما البنت قبل الزواج فنفقتها على أبيها في حياته، وعلى إخوتها بعد وفاته، وعلى زوجها بعد زواجها، وعلى ابنها اذا لم يترك لها زوجها تعتمد عليه[٧٨].

ومن هنا تتبيَّن لنا وسطية القرآن الكريم في أنه لم يحرم البنت تماماً كما فعلت بعض الشرائع قبل الإسلام، ولم يساوِها بالذكر، لأنها هي نفسها تقع ضمن مسؤولية الرجل سواء كان (والدها

(٧٦) النظم الإسلامية ص ٣٥٩.

(٧٧) النظم الإسلامية: ص ٢٥٩.

(٧٨) أصول الدعوة: ص ٢٢٣- ٢٢٥، و النظم الإسلامية ص ٣٦٠.

وأخوها، أو زوجها، أو ابنها)[٧٩].

ولننظر في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [سورة النساء: ٧]، رفع بها الباري الظلم عن الضعيفين (الطفل والمرأة) وعاملهما بالعدل والرحمة، وردَّ إليهما حقوقهما في الإرث، إذ أوجب توريث النساء والرجال، ولم يفرق بين صغير وكبير، وبين ذكر وأنثى، بل جعل لكلٍ نصيباً في الميراث سواء قلَّ الإرث أم كثر، وسواءاً رضي المورث أم لم يرض، فرد الى النساء والأطفال اعتبارهم، وقضى على الظلم والحيف، وهذا من وسطية القرآن الكريم في الميراث[٨٠].

بل راح القرآن يتابع الميراث بعد أن يذهب لليتامى؛ سواء كانوا كاملي الأهلية؛ أم لم يكونوا كذلك. فيوصي الأولياء بهم خيراً، وان لا يأخذوا من هذا المال الذي كان إرثا أصلا أيَّ شيء ظلماً؛ بما لم يتناوله أي نظام عالمي في هذا الكون: حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [سورة النساء: ٥] حتى ان الله سبحانه يصفها بأنها كأموال الأولياء وهي ليست كذلك لكي يحرص على هذه الأموال وكأنها أمواله.

ويقول في أموال اليتامى محذراً من أخذها ظلماً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٠].

الخاتمة

١. دعائم النظام الاقتصادي تتكون من ثلاثة عناصر هي العمل والملكية والإرث، إذ العمل هو مجهود يبذله الإنسان لتحصيل منفعة، بينما الملكية هي العلاقة الشرعية بين الإنسان والشيء الذي يترتب حق التصرف فيه، أما الميراث: هو استحقاق نصيب في تركة المتوفي، بسبب قرابة أو زوجية أو ولاء.

(٧٩) بناء المجتمع الإسلامي: ص٢٣٠- ٢٣١.

(٨٠) المواريث في الشريعة الإسلامية، للصابوني: ص ١٦، والوسطية في القرآن الكريم: ص٥٠٥.

٢. وسطية القرآن في العمل، تتضمن وسطيته بين العمل الدنيوي والعمل الآخروي، ووسطيته في الحث على العمل، ووسطيته بين إباحة العمل وتقييده.

٣. وسطية القرآن الكريم في الملكية تتضمن؛ وسطيته في الاعتراف بالملكية الفردية وقبول التفاوت الطبقي فيها، ووسطيته من حيث نشأة الملكية، ووسطيته من حيث نماء وبقاء الملكية، ووسطيته في ان أساس الملك لله وإمكانية انتفاء الملك في حالة وجود سبب يقتضي ذلك.

٤. وسطية القرآن الكريم في الإرث من العظمة بحيث إنّه يقوم بتوزيع الإرث بطريقة عادلة ودقيقة، وبشكل لا يضاهيه أي نظام في العالم معتمداً بذلك على قرب الوارث من الميت على قدر نفسه وإعالته للمورث، ومدى حاجة الوارث وتكاليفه.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة البشائر، عمان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ هـ، ١٩٨٨م.

٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الامين محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، (المتوفى ١٣٩٣ م)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥ م.

٣. التحرير والتنوير محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التوني (ت ١٣٩٣ هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٠ هـ، ٢٠٠٠ م.

٤. تفسير البحر المحيط، أبو حيان الاندلسي، عدد الاجزاء ٨، دار الفكر.

٥. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، (ت١٤١٩هـ=١٩٩٨م).

٦. تفسير القرطبي، محمد بن احمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي، ابو عبد الله،

عدد الاجزاء ٢.

٧. تفسير الماوردي (النكت والعيون)، ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، تحقيق: عبد المقصود عبد الرحيم.

٨. التيسير بشرح الجامع الصغير، الامام الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي، مكتبة الامام الشافعي، الرياض، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨م ط ٣.

٩. جامع لطائف التفسير، عبد الرحمن بن محمد القماش، الامارات العربية المتحدة، عدد الاجزاء ٢٠.

١٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الآلوسي أبو الفضل، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١١. زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، عدد الاجزاء ١٠.

١٢. سنن ابي داود، ابوداود سليمان بن الاشعث السجستاني، دار الكتاب العربي، بيروت، وزارة الاوقاف المصرية.

١٣. السنن الكبرى، احمد بن الحسين بن علي بن موسى ابو بكر البيهقي، مكتبة دار ابن باز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، تحقيق محمد عبد القادر عطا.

١٤. شعب الايمان، ابوبكر احمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ، تحقيق محمد السيد بسيوني زغلول.

١٥. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي: مؤسسة الرسالة- بيروت،الطبعة الثانية، ١٤١٤- ١٩٩٣،تحقيق: شعيب الأرنؤوط.

١٦. صحيح ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، الناشر: المكتب الإسلامي-بيروت، ١٣٩٠- ١٩٧٠، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي.

١٧. صحيح البخاري (الجامع الصغير

المختصر)، محمد اسماعيل ابو عبد الله البخاري الجعفي، (ت٢٥٦ هـ)، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧م.

١٨. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، (ت٢٦١ هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياءاء التراث العربي، بيروت.

١٩. طلبة الطلبة مع الاصطلاحات الفقهية، الشيخ نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد النسفي، ت ٥٣٧ هـ.

٢٠. الفروق، شهاب الدين أبو العباس المشهور بالقرفي، مطبعة عيسى الحلبي، ١٣٤٦ م.

٢١. فقه المعاملات المالية في الاسلام، الشيخ حسن أيوب، دار السلام، القاهرة، الاسكندرية، مصر، ط ٣، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦ م.

٢٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، (ت١٩٦٦ م)، دار الشروق، بيروت، الطبعة الشرعية الرابعة والثلاثون، ١٤٢٥ هـ، ٢٠٠٤ م.

٢٣. قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الاسلامية، د. محمد عمارة و طبعة دار الشروق القاهرة، ١٤١٣هـ.

٢٤. القيمة والاسعار والنقود في الفكر الاقتصادي الاسلامي، د. قاسم محمد حمود الدليمي، دار السلام، دمشق، سورية، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨ م.

٢٥. كنز العمال في سنن الافعال والاقوال، علي بن حسام الدين المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩ م.

٢٦. اللباب في علوم الكتاب، أبوحفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ م، ط ١، تحقيق عادل احمد عبد الموجود وعلي مجيد معوض.

٢٧. مسند الامام أحمد بن حنبل بن عبد الله الشيباني (ت ٢٤١ هـ)، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة

الرسالة، ط ٢، ١٤٢٠ هـ-١٩٩٩م.
٢٨. مصنف ابن ابي شيبة، (المصنف في الاحاديث والآثار)، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، مكتبة الرشيد، الرياض، ط١، ١٤٠٩ هـ، تحقيق كمال يوسف الحوت.
٢٩. المعجم الاوسط، أبو الفاسم سليمان بن احمد الطبراني، (ت ٣٦٠ هـ)، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن ابراهيم الحسيني، دار المحرمين القاهرة، ١٤١٥هـ.
٣٠. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٣ م، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي.
٣١. معجم المصطلحات الاقتصادية في لغة الفقهاء، نزيه حماد، العهد العالمي للفكر الاسلامي، الولايات المتحدة الامريكية، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣ م.
٣٢. المعجم الوسيط ابراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.
٣٣. الملكية الخاصة في الشريعة الاسلامية ومقارنتها في الاتجاهات المعاصرة، الاتحاد الدولي للبنوك الاسلامية، طبعة القاهرة.، ١٩٨٢ م.
٣٤. الملكية ونظرية العقد في الشريعة الاسلامية،، محمد أبو زهرة،، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٧٦ م.
٣٥. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية- الكويت،الطبعة: (من ١٤٠٤- ١٤٢٧ هـ) الطبعة الثانية طبع الوزارة.
٣٦. موطأ الامام مالك بن أنس أبوعبد الله الاصبحي، رواية يحيى الليثي، دار إحياء التراث العربي، مصر تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
٣٧. الميراث والوصية في الاسلام، محمد زكريا البرديسي، ١٣٨٣ هـ-١٩٦٤ م، الدار القومية، القاهرة.
٣٨. النبراس، عبد الفتاح محمود ادريس،

ط ١، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٥ م، مطبعة الاخوة الاشقاء، القاهرة.

٣٩. النظام الاقتصادي في الاسلام، تقي الدين النبهاني، دار الامة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ م.

٤٠. النظم الاسلامية: د. منير حميد البياتي، فاضل شاكر النعيمي، ط١، جامعة بغداد، مطبعة التعليم العالي، بغداد، ١٩٨٧ م.

٤١. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور و برهان الدين ابي الحسن ابراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م. تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي.

٤٢. الوسطية في القرآن الكريم، د. علي محمد الصلابي بيروت، لبنان، الطبعة الاولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م.

السِّياقُ
أنماطُهُ وتطبيقاتُهُ في التَّعبيرِ القرآني

أ.د. خليل خلف بشير العامري
كلية الآداب - جامعة البصرة

ملخص البحث

بحث يتناول السياق وأنماطه وتطبيقاته في القرآن العظيم وقد مهّد السيد الباحث له بتعريف السياق في المعجمات اللغوية والاصطلاحية ثم تحدث عن أنماط السياق محللاً الشواهد القرآنية بالاعتماد على دراسات قرآنية قديمة وحديثة مسلطاً الضوء على سياقات النص القرآني الداخلية: المعجمية، والصوتية، والإيقاعية،والصرفية،والنحوية، والقصصية، والسياقات الخارجية: سياق الحال وسياق المقام، و السياق التاريخي، و السياق الاجتماعي مؤكداً على حقيقة أن نظرية سياق الحال التي نادى بها العالم الانكَليزي جون فيرث لم تكن جديدة في عهده.

ويقرر السيد الباحث أن السياق في التعبير القرآني له خصوصية متفرّدة ذلك أنّ النص القرآني حمّال أوجه إذ تتعدد عنده الوجوه بتعدد السياقات.

السياق في اللغة

جاء في أساس البلاغة قول الزمخشري: ((... ومن المجاز: ساق الله إليه خيراً. وساق إليها المهر. وساقت الريح السحاب... والمحتضر يسوق سياقاً،وفلان في ساقة العسكر: في آخره، وهو جمع سائق كقادة في قائد، وهو يساوقه ويقاوده وتساوقت الإبل: تتابعت، وهو يسوق الحديث أحسن سياق و "إليك يساق الحديث "وهذا الكلام مساقة إلى كذا وجئتك بالحديث على سوقه:على سرده...وقامت الحرب على ساقها. وكشف الأمر عن ساقه...))[1]، وجاء في لسان العرب قول ابن منظور في شرح مادة (سوق): ((سوق السوق: معروف. ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقاً وسوّاق وسياقاً، وهو سائق وسوّاق شدد للمبالغة ... وقال تعالى ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[سورة ق: ٢١]... والسياق: نزع الروح))[2] أو المهر أي ((الصداق لأن أصل الصداق عند العرب الإبل والغنم فكانوا إذا تزوجوا يسوقونها مهراً))[3]. وجاء في المعجم الوسيط: ((ساق الله خيراً ونحوه: بعثه وأرسله. وساقت الريح التراب و السحاب رفعته وطيّرته.وساق الحديث:سرده وسلسله ... وسياق الكلام: سَرْدُهُ وأسلوبه الذي يجري عليه))[4].

يتضح مما سبق أن للسياق عدة معان منها: نزع الروح، والمهر، وأسلوب الكلام، والبعث والإرسال والتتابع، ويعنينا من هذه المعاني الكثيرة معنى واحداً هو أسلوب الكلام.

السياق اصطلاحاً:

هو بناء كامل من فقراتٍ مترابطةٍ في علاقته بأي جزء من أجزائه أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة[5]، وهو ما يسمى بالقرينة

(١) أساس البلاغة/ الزمخشري، مادة (سوق) ٣٧٥.

(٢) لسان العرب/ ابن منظور، مادة (سوق)٢/ ٢٤٢.

(٣) فاكهة البستان/ عبد الله البستاني ٦٩١.

(٤) المعجم الوسيط/ إبراهيم مصطفى وآخرون ١/ ٤٦٧.

(٥) معجم المصطلحات الأدبية/ إبراهيم فتحي ٢١٠.

الحالية إذ أنه قد يعبّر عن القرينة الحالية بالسياق[٦] نحو قول المتنبي[٧]:

فيوماً بِخَيْلٍ تطردُ الرومَ عنهُمُ
ويوماً بِجودٍ تطردُ الفقرَ والجَدْبا

فتطرد الثانية مجاز لغوي، والقرينة حالية؛ لأنّ الفقر لا يطرد.

ويحدد السياق معنى الوحدة الكلامية على مستويات ثلاثة في تحليل النص هي[٨]:

١. يحدد أيّة جملةٍ تمّ نطقها.
٢. يخبر عن أية قضيةٍ تمّ التعبير عنها.
٣. يساعد على القول إنّ القضية تحت الدرس قد تمّ التعبير عنها بموجب نوع من القوة غير الكلامية دون غيره.

أكّد جون فيرث الوظيفة الاجتماعية للغة، وصرّح بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال جعل الوحدة اللغوية في سياق مختلف، وهذا يتطلب تحليلاً للسياق والمواقف التي ترد فيها حتى ما كان منها غير لغوي، فمعنى الكلمة يتعين تبعا لتعدد انواع السياق التي تقع فيها[٩]، ولذلك فقد تعددت تقسيمات السياق، وما زال السياق يشغل حيزا واسعا في البحث اللغوي المعاصر، ويستحوذ دوره في تحديد الدلالة ويستأثر باهتمامهم حتى يصير نظرية متكاملة ترتبط بجهود علماء كثيرين يأتي في مقدمتهم عالم اللغة الإنكليزي فيرث[١٠]، على أنّ جذور تلك النظرية متأصلة عند علمائنا الأفذاذ أمثال سيبويه، والجاحظ، وابن قتيبة، وابن جني، والجرجاني، وغيرهم[١١].وقد شبه جون لاينز علاقات السياق بنسيج العنكبوت الواسع المتعدد الأبعاد، يمثل كل خيط فيه إحدى هذه العلاقات، وتمثل كل عقدة فيه وحدة معجمية مختلفة وأنه يستحيل إعطاء معنى كلمة من دون وضعها في نص.أي

(٦) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب/ مجدي وهبة وكامل المهندس ٢٨٨.
(٧) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب/ ناصيف اليازجي ٢/ ٣٣٧.
(٨) ينظر: اللغة والمعنى والسياق/ جون لاينز ٢٢٢.
(٩) المصدر نفسه ٨٣.
(١٠) يُنظر: السياق في الفكر اللغوي عند العرب (بحث) د.صاحب أبو جناح، مجلة الأقلام،ع ٣، ٤ نيسان، ١٩٩٢، ص١١٦.
(١١) ينظر: الدلالة السياقية عند اللغويين/ د. عواطف كنوش المصطفى ٩٣-١٧٧.

أن السياق يعتمد على تجميع الكلمات بعضها مع بعضها الآخر، وترابط أجزائها وتتابعها بحيث توحي معنىً وهي مجتمعة في النص[١٢]، فهو (السياق) يقوم بتحديد العلاقات السياقية التي تربط الكلمات في التركيب، وتكتسب قيمتها من مجاورتها الكلمة السابقة واللاحقة في أي تركيب أو نص، ويحدد السياق نوع هذه العلاقة[١٣] فإذا أريد تحديد دلالة النص لابدّ من معرفة عملية التساوق التي تسمح للكلمات في التركيب أن تتساوق مع الكلمات الأخرى فمثلا كلمة: (حرج) أصلها اللغوي(الضيق)[١٤] بيد أن معناها اللغوي قد تغيّر من خلال دخولها في سياق آخر غير (الضيق) فهي بمعنى (الشك) في قوله تعالى ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٢] وبمعنى (الإثم)[١٥] في قوله ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [سورة النور: ٦١] وقوله ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ [سورة التوبة: ٩١].

وقد استعمل القرآن الكريم ألفاظاً تحمل مدلولاً مترادفاً، ولكنها في السياق تعطي مدلولاً مغايراً، ومثال ذلك (الغيث) و(المطر). قال الجاحظ: ((وقد يستخفُّ الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحقُّ بذلك منها. ألا ترى أنّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المُدْقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السّغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذِكر المطر؛ لأنّك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذِكر المطر وبين ذِكر الغيث))[١٦] فكلاهما عندهم بمعنى واحد فالغيث: المطر والكلأ، والمطر: الماء المنسكب من السحاب[١٧]، ولكن المعنى في القرآن الكريم مختلف إذ إن الغيث معناه

(١٢) اللغة والمعنى والسياق ٨٣.
(١٣) الدلالة السياقية عند اللغويين ٢٣٠.
(١٤) يُنظر: لسان العرب، مادة (حرج) ١/ ٥٩٩.
(١٥) يُنظر: تأويل مشكل القرآن/ ابن قتيبة ٤٨٤.
(١٦) البيان والتبيين/ الجاحظ ١/ ٢٠.
(١٧) يُنظر: لسان العرب، مادة (غيث) ١٠٣٤.

الماء المنسكب من السماء رحمة للعباد، وهو سبب الخير و النماء والزرع وهو متاع للناس والأنعام[18] نحو قوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [سورة الشورى: ٢٨]، وقوله﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ [سورة لقمان: ٣٤] في حين دل المطر على نقمة الله على الكافرين المعرضين أرسله الله تعالى عقابا للأمم الكافرة و الأقوام السادرة في غيّها[19]، نحو قوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ [سورة هود: ٨٢] وقوله: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [سورة الشعراء: ١٧٣]، [سورة النمل: ٥٨].

يستدل من ذلك أن لغة التنزيل قد ((فرّقت بين المطر، والغيث فكان المطر عذاباً وشراً ونذراً بالويل والثبور، وكان الغيث رحمةً وخيراً ونعماً))[20]، ومثل ذلك في استعمال لفظتي (الريح والرياح) فالريح ضارة شديدة قاسية عاصفة في حين الرياح هادئة مطمئنة طيّبة تحمل في نسائمها الخير[21] نحو قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [سورة الحاقة: ٦]، وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [سورةالأعراف: ٥٧]، وقوله تعالى ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة الأحقاف: ٢٤]، وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [سورة الحجر: ٢٢] ويستثنى من ذلك قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ۖ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا ﴾ [سورة يونس: ٢٢]. فقد دلت الريح على الرحمة؛ لأن سياق الآية يتطلب ذلك[22]، ولكنها رحمة مؤقتة فقد﴿ جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ

(١٨) يُنظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن/ عودة خليل أبو عودة ٥٠٧.

(١٩) المصدر نفسه ٥٠٨.

(٢٠) من وحي القرآن/ د. إبراهيم السامرائي ١٢٧.

(٢١) يُنظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ٥١١، ٥١٢.

(٢٢) يُنظر: مراتب التفضيل في القرآن الكريم دراسة أسلوبية (بحث) الدكتورة عواطف كنوش،مجلة دراسات لغوية وأدبية ع ٦، س٢، ٢٠٠٢، ص ١٢.

﴿ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [سورة يونس: ٢٢]

ومما يؤيد هذا الفرق الدقيق الذي استعمله القرآن بين الريح والرياح رواية للنبي ﷺ عن ابن عباس رضي الله عنه قال: ((هاجت ريح أشفق منها رسول الله ﷺ فاستقبلها وجثا على ركبتيه ومدّ يديه إلى السماء ثم قال: اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا))[٢٣].

وربما يتجلى للعلم هذا الفرق الدقيق بين الريح العاصفة القاصفة، والرياح الخيّرة الطيبة مع أن المفروض أن تكون الرياح أشد قسوةً وعصفاً وقصفاً من الريح لأن الرياح جمع للريح[٢٤]، ولعل هذا سر من أسرار القرآن الكريم يبقى مكنوناً إلى ما شاء الله.

ولا يمكن استبعاد السياق من الدراسة الدلالية خلافا لما يراه بعض اللسانيين معلّلين ذلك بالمصاعب العملية والنظرية البالغة التعقيد في معالجة السياق معالجة مرضية متناسين أنه لا يمكن معرفة معنى جملة ما بمعزل عن السياق[٢٥] بل إن الكلمات والحروف ليس لها معنى خارج السياق، وإنما تكتسب معناها من خلال السياق الذي توضع فيه[٢٦].

من هذا المنطلق بدأت محاولات المفسرين والمؤولين من صحابة، وتابعين، وعلماء ((تلقوا النص القرآني واستوعبوا مراميه ومقاصده من خلال معرفتهم بظروف التنزيل ومناسباته وبسياق أحكامه ونصوصه أثمرت هذه البيانات التي قيّدها المصنفون في كتب الوجوه والنظائر بل إن بعضهم - ممن لم يقف على أثر منقول في تفسير ألفاظ بعينها استعان في تفسير مدلولاتها، زيادة على ما أستمدّه من أهل اللغة، بما اقتنصه من السياق الذي وردت في الألفاظ على نحو ما فعل الراغب الأصفهاني في كتابه مفردات القرآن))[٢٧] إذ عُدّ من أبرع اللغويين

(٢٣) يُنظر: الإتقان في علوم القرآن/ السيوطي ١/ ٥٦٣.

(٢٤) يُنظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ٥١٣.

(٢٥) يُنظر: علم الدلالة/ بالمر ٥٧.

(٢٦) يُنظر: الدلالة السياقية عند اللغويين ١٠١.

(٢٧) السياق في الفكر اللغوي عند العرب ١١٩-١٢٠

القدامى في توظيف السياق اللفظي بدقة، وذكاء حتى وصف بأنه يستثمر المعاني من السياق[٢٨].

وللدلالة على هذا نأخذ مفردة من مفردات معجمه ولنختر مادة (عزّ) التي قال فيها: ((العزة حالة مانعة للإنسان من أن يُغْلَب من قولهم: أرض عزاز أي: صلبة قال: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[سورة النساء: ١٣٩]، والعزيز الذي يَقْهر ولا يُقهر. قال -تعالى-: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٦] ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ [سورة يوسف: ٧٨]: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المنافقون: ٨] ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[سورة الصافات: ١٨٠] فقد يمدح بالعزة تارة كما ترى ويذم بها تارة كعزة الكفار قال سبحانه ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾[سورة ص: ٢] ووجه ذلك أن العزة التي لله ولرسوله وللمؤمنين هي الدائمة الباقية التي هي العزة الحقيقية، والعزة التي هي للكافرين هي التعزز وهو في الحقيقة ذل... وقد تستعار العزة للحمية، والأنفة المذمومة))[٢٩] وذلك في قوله تعالى﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[سورة البقرة:٢٠٦].

أنماط السياق

ذكر الدارسون المحدثون أنواعاً كثيرةً للسياق منها: السياق العاطفي، وسياق الموقف، والسياق الاجتماعي والسياق الداخلي، والسياق الخارجي... الخ، ولكني آثرتُ نوعين منها، لأنّ كل هذه الأنواع إنما تنطوي تحت هذين النوعين[٣٠]:

١. السياق الداخلي: ويسمى أيضاً السياق

(٢٨) الدلالة في البنية العربية بين السياق اللفظي والسياق الحالي، (بحث)، مجلة آداب الرافدين ع ٢٦، ١٩٩٤، ص١٢٣.

(٢٩) مفردات ألفاظ القرآن/ الراغب الأصفهاني٥٦٤.

(٣٠) يُنظر: المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث/ محمد أحمد أبو الفرج١٢٠، ١٣٢، وقد ارتضتِ الدكتورة عواطف كنوش المصطفى في كتابها الموسوم (الدلالة السياقية عند اللغويين ص٥٢) هذا التقسيم، وأضفتُ إلى السياق الداخلي نوعاً أطلقتُ عليه السياق القصصي.

اللغوي، ويشمل السياق الصوتي، والصرفي، والنحوي، والمعجمي، والقصصي.

٢. السياق الخارجي: ويسمى أيضاً السياق غير اللغوي، ويشمل سياق المقام، والسياق الاجتماعي،والسياق التاريخي، وسياق الحال، وسياق الموقف.

أنماط السياق القرآني

أولاً: أنماط السياق الداخلي: وهي على النحو الآتي:

١- **السياق النحوي:** ويُعنى السياق النحوي بالبنية النحوية وعلاقات الكلمات، وظائفها،ومواقعها من الترتيب فعند تتبع الآيات التي ورد فيها لفظ الجلالة نجد الكثرة الكاثرة منها قد تقدّم فيها المسند إليه على المسند، ولنأخذ سورة النحل شاهداً على هذا التقديم ففي قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ [سورة النحل: ٦٥] وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾[سورة النحل: ٧٠] وقوله ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾[سورة النحل: ٧٢] تقدم المسند إليه(لفظ الجلالة) على المسند(الفعل) مما حدا بالدكتور إبراهيم أنيس[٣١] الى أن يعدّ هذا النظام أسلوباً من أساليب القصر يلجأ إليه في الكلام عند إرادة قصر صفة من الصفات على المسند إليه ففي هذه السورة المباركة وأمثالها جاء تقديم لفظ الجلالة على الفعل بيانا لنعمه الكثيرة على الناس، وتذكيراً بآلائه على العباد ودفعا لما يُتوهَّم من أن له شريكا فيها أو أن للإنسان يدا في الحصول عليها فاقتضى المقام أمر تدبيرها على الله سبحانه، وأن يؤكد هذا المعنى في أذهان العباد.

ولبيان دور العلاقات النحوية في توضيح الدلالة نمثل بقوله تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾[سورة التوبة: ٣] فكلمة (رسوله) الأولى مجرورة، والثانية مرفوعة ولابدّ من أن تكون الثانية كذلك، وربما تكون منصوبة على العطف على اسم أنّ،

(٣١) يُنظر: من أسرار اللغة ٣١٠.

أما تكون مجرورة فلا؛ لأنّ معنى الآية يمنع ذلك ويحرمه[٣٢]، ولعل حادثة أبي الأسود الدؤلي مع ابنته خير ما يؤيد دور هذه العلاقات عندما قالت: ما أجملُ السماءِ قال أبو الأسود: نجومها. قالت: ما أردت الاستفهام بل التعجب. قال لها: بل قولي ما أجملَ السماءَ! إذاً هناك قرائن معنوية تفيد في تحديد المعنى النحوي مثل علاقة الإسناد بين المبتدأ والخبر، ثم بين الفعل والفاعل أو نائبه فالجملة قد تكون اسمية أو فعلية وقد يكون الإسناد خبريا أو إنشائياً. ومن القرائن الأخرى التعدية للمفعول به، والغائية للمفعول لأجله، والمضارع المنصوب بعد اللام، وكي، والفاء، ولن، وإذن، والمعية للمفعول معه، والمضارع بعد الواو، والظرفية للمفعول فيه، والتحديد والتوكيد للمفعول المطلق، والملابسة للحال، والإخراج للاستثناء، والمخالفة للاختصاص وبعض المعاني الأُخَر[٣٣] فضلا عن قرائن لفظية تدخل في السياق مثل العلامة الإعرابية، والرتبة، والصيغة، والمطابقة، والربط، والتضام، والأداة، والنغمة[٣٤].

وقد يحذف من التعبير القرآني لفظ أو أكثر على وفق السياق القرآني مؤدياً هذا الحذف غرضاً بلاغياً في غاية الفن والجمال فلْننظر في قوله تعالى ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ [سورة الكهف: ٩٧]إذ الأصل (استطاعوا) في الأولى فحذف التاء تخفيفاً، لأن المقام مقام تخفيف فصعود السد أيسر من نقبه وأخف عملاً كما تشير إلى ذلك الآية السابقة ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ [سورة الكهف: ٩٦] ثم طوّل الفعل فجاء بأطول بناء له للعمل الثقيل الطويل فقال ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴾[٣٥]، وينبغي التنويه بأن القدماء ذكروا شروطا للحذف منها ـ الذي يتعلق

(٣٢) يُنظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ٨٢.

(٣٣) يُنظر:اللغة العربية معناها ومبناها/ د.تمام= =حسان ١٩١ -١٩٢.

(٣٤) يُنظر: المصدر نفسه ٢٠٥.

(٣٥) يُنظر: التعبير القرآني/ د. فاضل السامرائي٧٢.

ببحثنا ـ وهو أن يكون في المذكور دلالة على المحذوف ويعرف من لفظه أو من سياقه.

ويبرز السياق النحوي في سياق آيات القيامة الذي يوصف بـ ((سياق تهويل، وتهديد، ودال على الحركة التي لم تحدث لحد الآن، وإن التنبؤ قائم على حصولها في المستقبل))[٣٦] كما في قوله تعالى ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [سورة الانشقاق: ١-٤] وقوله ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [سورة الزلزلة: ١-٢] فمجيء ((الفعل ماضيا تقرير لأنه حادث فعلا وقد صُدِّر بـ (إذا) فصرفته إلى المستقبل من دون أن يفقد التعبير أثره الذي يوحي به استعمال الماضي بدلا من المستقبل الصريح))[٣٧] ثم أن الأفعال التي شكّلت سياق آيات القيامة أغلبها مبنية للمجهول مما جعلها ظاهرة أسلوبية وقفت عندها الدكتورة بنت الشاطئ طويلا وسمتها (ظاهرة الاستغناء عن الفاعل) وقد ألمحت إلى ثلاثة أشكال لهذه الظاهرة[٣٨]:

١. البناء للمجهول: وفيه تركيز الاهتمام على الحدث بصرف النظر عن محدثه إذ إنّ زلزلة الأرض، والنفخ في الصور، ودك الأرض،وانشقاق القمر، وانتشار الكواكب، وبعثرة القبور[٣٩]، وغير ذلك لا تتعلق بالمحدث نفسه أهو الله سبحانه وتعالى أم أحد ملائكته أم قوة إلهية.

٢. المطاوعة: وفيها بيان للطواعية التي يتم بها الحدث تلقائيا أو على وجه التسخير، فليست به حاجة إلى فاعل، نحو قوله تعالى ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[سورة القمر: ١] وقوله ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [سورة الانشقاق: ١].

٣. الإسناد المجازي: الذي يعطي

(٣٦) منة المنان في الدفاع عن القرآن/ السيد محمد الصدر ﷺ ١/ ٢٤٧.

(٣٧) التفسير البياني للقران الكريم/ د.عائشة عبد الرحمن ١/ ٧٢.

(٣٨) يُنظر: من أسرار العربية في البيان القرآني/ د.عائشة عبد الرحمن ٥٣-٥٦، والإعجاز البياني في كتاب العربية الأكبر، د.عائشة عبد الرحمن، مجلة مجمع اللغة العربية، ج١٢، ١٩٦٠، ص ٢٠٦.

(٣٩) يُنظر: الزلزلة/ ١، والنبأ/ ١٨، الفجر/ ٢١، القمر/ ١، الانفطار/ ٢، ٤، وغيرها.

المسند إليه فاعلية محققة يُستغنى بها عن ذكر الفاعل الأصلي، نحو قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ [سورة الطور:٩-١٠]، وقوله ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ [سورة القيامة:٧-١٠].

وقد تكون صيغة الماضي المبني للمجهول في مقام الذم نحو قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ [سورة المعارج: ١٩] عندما يذكر الخالق خصلة من طبيعة البشر فلا ينسب الفعل إلى نفسه لأنه في مقام ذم وسوء وهذا أقرب إلى المخلوق منه إلى الخالق لذا نراه في مقام المدح يَنسِب الفعلَ إلى نفسه[٤٠]. قال تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [سورة التين: ٤].

وقد تُقدَّمُ لفظة مذمومة على أخرى ممدوحة؛ لأن السياق يقتضي ذلك مثال ذلك قوله تعالى ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [سورة المعارج: ٢٠-٢١]، وحفلت بمشاهد كثيرة من التعذيب[٤١] منها قوله ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [سورة المعارج:١١ -١٧] وذهبت الدكتورة عواطف كنوش إلى أن الله تعالى قد فضّل الشر على الخير لأن السياق يقتضي ذلك[٤٢]، والواقع أنه قدّم الشر على الخير؛ لأن السياق سياق عذاب وسوء ولو أنّه فضّل الشر على الخير فكيف نفهم دعوة الأنبياء إلى فعل الخير وتجنب الشر لاسيما أن الله تعالى يثيب على فعل الخير ويعاقب على فعل الشر فهو القائل ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [سورة البقرة:١٤٨]، [سورة المائدة:٤٨]، وهو القائل في زكريا عليه السلام وأسرته ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠]، وهو

(٤٠) يُنظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني/ د.فاضل السامرائي ٧٥.

(٤١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل/ د.فاضل السامرائي ١١٥-١١٦.

(٤٢) يُنظر: مراتب التفضيل في القرآن الكريم ١٢٤.

الموحي إلى الأنبياء بفعل الخيرات في قوله ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [سورة الأنبياء:٧٣] ولعل جمعه كلمة (خير) على (خيرات) في عشرة مواضع في القرآن وعدم جمعه كلمة (شر) على هذا الجمع يوحي بتفضيله الخير على الشر، أمّا ورود كلمة (شر) أكثر من كلمة (خير) فهذا يعود إلى دعوة الباري عزّ وجل عباده إلى الابتعاد عن الشر والأشرار ومرافقة الخير والأخيار. قال أبو العلاء المعري:

عرفتُ الشرَ لا للشرِ لكن لِتَوَقّيهِ
ومن لا يعرفِ الخيرَ من الشرِ يَقَعْ فيهِ*

٢- السياق الصوتي: ويفهم هذا النمط من خلال مصطلحين، الأول: النبر الذي سمّاه الدكتور محمود السعران الارتكاز وعرفه بقوله: ((الارتكاز هو درجة قوة النفس التي ينطق بها صوت أو مقطع))[٤٣]، والثاني: التنغيم الذي يعرّف بأنه المصطلح الصوتي الدال على الارتفاع والانخفاض في درجة الجهر في الكلام[٤٤] ففي قوله تعالى ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [سورة الذاريات: ٢٩] وقع النبر على كلمة (صكّت) التي لا تقوم مقامها أية كلمة أخرى في هذا السياق المعبر، إذ إن القرآن الكريم يأخذ المعنى المعجمي ويهتم بالصورة الصوتية للكلمة وهذا الارتباط بين اللفظ (الصوت) وبين المعنى في الكلمة القرآنية يشكل وحدة لا سبيل للفكاك منها.[٤٥] ومثل هذا نجده في قوله تعالى ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [سورة الفجر:٢١] إذ وقع النبر على الكاف ثلاث مرات في (دك، دكا، دكا) فقد كان القرآن دقيقا في اختيار ألفاظه ومنها هذه اللفظة الموحية التي تجاوَرَ فيها صوتان صوت (الدال) الشديد الانفجاري مع صوت (الكاف) الشديد فأوحتْ هذه اللفظة بهذه الشدة المفرطة، وعند المقارنة بين (الصك) في الآية السابقة و (الدك) في هذه الآية نجد فرقا صوتيا واضحا فالصك

* لم أجده في ديوانه.

(٤٣) علم اللغة -مقدمة للقارئ العربي/ د.محمود السعران ١٥٧.

(٤٤) ينظر: المصدر نفسه ١٥٩.

(٤٥) يُنظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ٨٠-٨١.

أدنى من الدك وكل هذا نتيجة شدّة صوت (الدال) وقوته وهمس صوت (الصاد) وليونته [٤٦]، وكذا قوله تعالى ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [سورة النجم: ٢٢] فقد آثر ((التعبير القرآني كلمة (ضيزى) بأصواتها الثقيلة على كلمة -جائرة- بأصواتها الخفيفة الهادئة فأعطاها مرتبة في التفضيل لما فيها من ظلال وإيحاءات أسلوبية تؤدي الى الغرض المطلوب من سياق الآية)) [٤٧]، ولما كان اجتماع صوتيّ (الضاد) و(الزاي) في لفظة لما يثقلها ويجعلها قبيحة ولكنها في هذا الموضع جميلة لوجود صوتيّ المد (الألف) و (الياء) اللذين حسّنا اللفظة وجعلاها مقبولة فضلا عما أعطياها من دلالة شكلية موسيقية وداخلية مضمونية أدت المعنى بدقة كبيرة [٤٨].

أمّا التنغيم فله وظيفتان فضلاً عن وظيفته الصوتية هما: وظيفة نحوية من خلال تحديد الإثبات والنفي في جملة، ووظيفة دلالية يمكن رؤيتها لا في اختلاف علو الصوت وانخفاضه فحسب بل في اختلاف الترتيب العام لنغمات المقاطع في الشاهد التنغيمي الذي يقوم من الأمثلة مقام الميزان الصرفي من أمثلته [٤٩]، وقد تكون النغمة هابطة أو صاعدة وثابتة في التقرير والطلب والاستفهام غير المبدوء بهل والهمزة، وصاعدة وثابتة في الاستفهام المبدوء بهل والهمزة، وفي المجموعة الكلامية التي لم يتم بها المعنى [٥٠]. مثال النغمة الهابطة قوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ [سورة النازعات: ٤٢-٤٣] أما مثال النغمة الصاعدة فقوله تعالى ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ۝٨٩ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ [سورة يوسف: ٨٩-٩٠] إذ كشف الاستفهام والتوكيد

(٤٦) يُنظر: مستويات النظم في التركيب القرآني، عبد الواحد زيارة، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩٨، ص٥٤.

(٤٧) مراتب التفضيل في القرآن الكريم ١١٤.

(٤٨) يُنظر: مستويات النظم في التركيب القرآني ٧٧.

(٤٩) يُنظر: مناهج البحث في اللغة/ د. تمام حسان ١٩٨.

(٥٠) يُنظر: المصدر نفسه ٢٠٢.

المتجاوران في الآية (٩٠) عن حقيقة نفسية عميقة في طبيعة الإنسان، ورسما صورة بارعة لموقف أنساني واقعي في مثل هذه الحالة ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ إنهم استرجعوا الصورة التي مرت عليها أعوام كثيرة في لحظة واحدة لكنهم مازالوا مبهوتين مترددين، هذه الآية وضحت أثر النبر والتنغيم في الدهشة التي تنطق بها(٥١) (٥٢)، على أن للنبر نوعين يميّز بينهما د.تمام حسان هما: نبر الصيغة ونبر السياق في كون نبر السياق يمكن وصفه إما أن يكون تأكيداً أو تقريراً ولا يكون كذلك نبر الصيغة(٥٢).

ومما يتصل بالسياق الصوتي أن التنزيل العزيز يعبّر بالمقاطع المقفلة عن معنى العقاب الصارم الذي ينزل بالظالمين الكافرين الجاحدين نعمة الله وفضله في قوله تعالى ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾[سورة الفجر:١٣].

(ص ـَ ب) -(ل ـَ ي) -(هـ ـِ م) -(ر ـَ ب) -(س ـَ و).

وقوله ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ [سورة الطارق: ١٣-١٤].

(ا ـ ن ـ ق ـَ وْ ـ ل ـُ نَ ـ ف ـَ ص ـ ل ـُ ن ـ ب ـِ لْ ـ هـ ـَ ز)(٥٣).

وبالمثل يعبر بالمقاطع المفتوحة في سياق النعيم عندها يصف حال المتقين إذ يرون ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.قال تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [سورة الغاشية: ٨- ١٦]، وتجتمع الصورتان (وجوه المتقين) و (وجوه الكافرين) في مشهدين متناقضين في قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾[سورة عبس:٣٨]، وقوله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾[سورة عبس: ٣٨-٤٢] إذ زاد المقطع الطويل الكامل

(٥١) يُنظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ٨٢.

(٥٢) يُنظر: مناهج البحث في اللغة ١٩٧.

(٥٣) يُنظر: دراسات قرآنية في جزء عم/ د. محمود أحمد نخلة ١١٢.

(ت -ب) في مستبشرة زيادة في استبشار المؤمنين بالنعيم المعد لهم في حين أدّى بالمقاطع المقفلة في (ترهقها، عليهم) إلى زيادة الهم والضيق الذي يعتري هؤلاء الكفرة الفجرة فتغبر وجوههم ويغشاها الغبار كناية عن كثرة الهم والغم والضيق الذي هم فيه، وقد يعبر بالمقاطع المفتوحة في سياق الندم كما في قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [سورة الفجر: ٢٣-٢٤].

٣- السياق الإيقاعي: تؤدي الفواصل دوراً كبيراً في سياق صوتي من خلال اتساقها في الآيات ففي قوله تعالى ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [سورة الدخان: ٤٣-٤٩] تتسق الآيات اتساقاً صوتياً من خلال الإيقاع والنبر والتنغيم في ثنايا النص الكريم باعتماد على سجعة الميم وتكرارها في آخر كل آية.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ الفواصل تقوى وتقصر في السور المكية التي اتصفت((بالزجر، والتسفيه، والوعد، والتهديد،والترغيب، والترهيب، والتبشير، والإنذار في أسلوب شديد الأسر متتابع السجعات الرنانة، والفواصل المدوية القصيرة))[٥٤]، وأنها، أي الفواصل، تضعف وتطول في السور المدنيّة التي انمازت بغلبة الاسترسال، والهدوء، وطول النفس فهي تخاطب قوما آمنوا بها واطمأنوا إلى هدايتها إذ إنّ مهمتها تنظيم حياة المسلمين دينياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وسياسياً من عبادات، ومعاملات، وتنظيم مجتمع، وتهذيب أخلاق[٥٥]، ولعل في قصر الفواصل المكية سر من أسرار الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، وهو مناسبة الخطاب اللغوي،

(٥٤) ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن/ د. عبد الفتاح لاشين ٢١٠.

(٥٥) يُنظر: الفاصلة في القرآن الكريم (بحث) د. عبد الفتاح لاشين، مجلة المورد، ع ٢، س٧، شوال ١٤٠١ هـ(أغسطس ١٩٨١)، ص٨١.

إذ راعى القرآن طبيعة المكيين فقد كانوا جبابرة تسود بينهم المنكرات والعادات فيقتضي خطابهم بلغة سريعة آخذة غير مسترسلة، وقول حاد حاسم يبرز التجانس الصوتي وتعلو الموسيقى بقصر الجمل، أما الخطاب اللغوي في السور المدنيّة فقد جاء مسترسلاً منساباً ينزع إلى التفصيل والتوضيح،وكل ذلك يشهد على تلون الخطاب القرآني مع تغيّر الأحوال، والمقتضيات، وطبيعة المخاطبين(٥٦).

وتأتي الفاصلة في السياق القرآني ((مستقرة في قرارها مطمئنة في مواضعها غير نافرة ولا قلقة يتعلق معناها بمعنى الآية كلها بحيث لو طرحت لاختل المعنى))(٥٧)، وقد تلحقها هاء السكت مما يؤدي إلى عدل مقاطع السورة فيكون للحاقها في هذا الموضع تأثير عظيم في الفصاحة(٥٨) كما في قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [سورة القارعة: ٨-١١].

وقد يقتضي السياق تقديماً وتأخيراً في أجزاء الجملة أو حذفاً وزيادة أو تحولاً من صيغة إلى أخرى أمّا مثال التقديم والتأخير لأجل السياق الإيقاعي ففي قوله تعالى ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [سورة النحل:٩٢] إذ تقدّم الجار والمجرور (فيه) على الفعل (تختلفون)، ومثال الزيادة قوله تعالى ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة يوسف:٤٦]، إذ كررت (لعل) مراعاة لفواصل الآي، ولو جاءت على الأصل لقيل: لعلي أرجع إلى الناس فيعلموا، ومثال الحذف قوله ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ [سورة الفجر:٤] إذ حذف الياء من (يسري) مناسبة للفواصل. وأمّا مثال التحول من صيغة إلى أخرى فقوله تعالى ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ

(٥٦) يُنظر: من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم (بحث) محمد سليمان العبد، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت ع٣٦، مج٩، سنة ١٩٨٩ ص٨٨.

(٥٧) من بلاغة القرآن/ د. أحمد أحمد بدوي ٧٥.

(٥٨) يُنظر: البرهان في علوم القرآن/ الزركشي ١/ ٦١.

﴿دَافِقٍ﴾ [سورة الطارق: ٥-٦] أي مدفوق فقد عدل من اسم المفعول إلى اسم الفاعل مشاكلة للفواصل القرآنية[٥٩]، وهذا ما سماه الدكتور أحمد نصيف الجنابي بالسياق الموسيقي متكئاً على ثقافته الأدبية مقارناً بين قافية الشعر وفواصل الآي لذا نراه في بحث آخر يعقد صلة بينهما في بحثه(الصلة بين القافية وفواصل الآي)[٦٠]، ويبدو أن الدكتور عبد الواحد زيارة قد اقتفى أثر الدكتور الجنابي فسمى السياق القرآني إيقاعا لذا آثرت تسمية السياق الإيقاعي على السياق الموسيقي الذي قال به الجنابي.

ومما يتصل بالسياق الإيقاعي أو الموسيقي السياق التناسبي أو ما سماه القدماء بعلم المناسبة الذي قسّمه ابن أبي الأصبع المصري على:[٦١]

(١) مناسبة معنوية: وهي أن يبتدئ المتكلم بمعنى ثم يُتمُّ كلامه بما يناسبه معنى وليس لفظاً نحو قوله تعالى ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة القصص: ٧١-٧٢] فناسب السماع للظرف المظلم من جهة صلاحية الليل للسماع دون الإبصار لما(أن جعل الليل سرمدا إلى يوم القيامة)، وبالمثل جعل النهار سرمداً إلى يوم القيامة فناسب الإبصار للظرف المضيء، وكأن الوجود لم يخلق فيه ليل مطلقا فجاءت في الفاصلة (أفلا تبصرون).

(٢) مناسبة لفظية: وهي الإتيان بألفاظ موزونات مقفاة وغير مقفاة، وهذا يعني أن المناسبة اللفظية نوعان:

أ. تامة: مقفاة موزونة نحو قوله تعالى﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم: ١].

ب. ناقصة: موزونة غير مقفاة نحو قوله

(٥٩) لمزيد من التفصيل والأمثلة يُنظر: السياق الموسيقي للجملة العربية وأثره في بنائها د. أحمد نصيف الجنابي، آداب المستنصرية، ع ١٦، ١٩٨٨ ص٥٠-٦٤.

(٦٠) مجلة آداب المستنصرية، ع٣، ١٩٧٨، ص٨٣ وما بعدها.

(٦١) ينظر: بديع القرآن ١٤٥-١٥٠.

تعالى ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ [سورة ق: ١-٢]، ويهمنا من هذا التناسب الذي يقع في الآيات المتشابهة نحو قوله تعالى ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا﴾[سورة البقرة: ٦٠] وقوله تعالى ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا﴾[سورة الأعراف: ١٦٠]،فقد آثر التعبير القرآني (انفجر) في سورة البقرة على (انبجس) في سورة الأعراف لما يقتضيه السياق، ولو غاير بينهما فاستعمل الانفجار مكان الانبجاس لكان خلاف الأولى وخلاف ما يقتضيه السياق والمقام، وإن كان الانفجار والانبجاس مترادفين إلا أن الأول أكثر وأغزر من الثاني فناسب إجابته بانفجار الماء؛ لأن موسى هو الذي استسقى في سورة البقرة قال تعالى ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾ في حين في سورة الأعراف كان قومه هم الذين استسقوا موسى. قال تعالى ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾ فناسب ذكر الانفجار في سورة البقرة والانبجاس في سورة الأعراف؛ لأن القول الصريح من الله أكمل وأقوى من الوحي[٦٢].

٤- السياق الصرفي: ويهدف إلى ((دراسة المفردات لا بوصفها صيّغا أو ألفاظا فقط وإنما بحسب ما فيها من خواص تفيد في خدمة الجملة أو العبارة))[٦٣]، وأن المبنى الصرفي الواحد ((متعدد المعنى ومحتملٌ كلَّ معنى مما نسب إليه وهو خارج السياق أما إذا تحقق المعنى بعلاقة في سياق، فإن العلاقة لا تفيد إلا معنى واحداً تحدده القرائن اللفظية والمعنوية والحالية))[٦٤]، ويدرس السياق الصرفي السوابق، واللواحق، والزوائد فكل زيادة في المبنى ترافقها زيادة في المعنى، وكثيراً ما يقترن السياق الصرفي بالسياق النحوي لتفاعل الصرف والنحو في سياق

(٦٢) يُنظر: التعبير القرآني ٢٧٦ ـ ٢٨٧، وبلاغة الكلمة في التعبير القرآني ١٠٠-١٠١.
(٦٣) الدلالة السياقية عند اللغويين ٥٨.
(٦٤) اللغة العربية مبناها ومعناها ١٦٥.

واحد[٦٥] مثال ذلك استعمال (أفعل) و(فعّل) مثل أنزل ونزّل فقد قال تعالى في [سورة العنكبوت:٥٠] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وقال في [سورة الأنعام:٣٧] ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةً مِّن رَّبِّهِ﴾ فالظاهر أنّ الموقف في سورة الأنعام أشد وأعنت مما في سورة العنكبوت لذلك استعمل الصيغة المشددة[٦٦].

ومثله استعمال جمع القلة وجمع الكثرة مع العدد نفسه في نحو قوله تعالى ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١]، وقوله ﴿إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ﴾ [سورة يوسف: ٤٣] إذ العدد واحد هو (سبعة) لكنه استعمل معه تارة جمع الكثرة، وتارة أخرى جمع القلة؛ والسبب لأن الأولى سيقت في مقام التكثير، والمضاعفة فجيء بها على (سنابل) لبيان التكثير أما قوله ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [سورة يوسف: ٤٣] فجاء بها على القلة لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير[٦٧]، وكذا استعماله (الأبرار والبررة) نحو قوله تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [سورة الانفطار: ١٣-١٤]، وقوله ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [سورة المطففين: ٢٢-٢٣] وقد وردت الأبرار في ستة مواضع في القرآن الكريم، ولم ترد (البررة) إلا في موضع واحد هو قوله تعالى ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [سورة عبس: ١٥-١٦] صفة للملائكة ولعل السبب يعود إلى أن الأبرار إذا قيسوا بالفجار كانوا قلة فجيء بالفجّار على جمع كثرة والأبرار على جمع قلة قال تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سورة سبأ: ١٣] وقال ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يوسف:١٠٣] فجيء بالجمع للدلالة على القلة النسبية وجيء بصفة الملائكة بلفظ (البررة) لا (الأبرار) للدلالة على الكثرة لأنهم كلهم كذلك بخلاف البشر[٦٨].

(٦٥) الدلالة السياقية عند اللغويين ٦٠.
(٦٦) يُنظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ٥٥.
(٦٧) يُنظر: البرهان في علوم القرآن ٤/ ٢٢.
(٦٨) يُنظر: معاني الأبنية في العربية/ د. فاضل=

٥- السياق القصصي: قصص القرآن ولاسيما الأنبياء (آدم، وموسى، وإبراهيم، وعيسى، ونوح، .. وغيرهم)، نجدها مكررة موزّعة على سور متنوعة إلا قصة النبي يوسف عليه السلام فهي في سورة واحدة [سورة يوسف]، ولعل موضوعها الإجمالي الصرف وخصوصيتها من بين قصص الأنبياء جعلها متفردة في سورة واحدة، وأن هذه السورة تمثل قصة كاملة من بدايتها إلى نهايتها مما يسبغ عليها تماسكاً نصياً.

ولعل الحكمة من عدم تكرار قصة يوسف عليه السلام وسوقها مساقا واحداً في موضع واحد من دون غيرها من القصص يعود إلى[٦٩]:-

١. تشبيب النسوة بيوسف، وتضمُّن الأخبار عن حال امرأة، ونسوة افتتنّ بأبدع الناس جمالاً، وأرفع مثالاً فناسب عدم تكرارها لما فيها من الإغضاء والستر.

٢. إنها اختصت بحصول الفَرَجِ بعد الشدة بخلاف غيرها من القصص فإنّ مآلها إلى الوبال.

٣. إشارة إلى عجز العرب كأنّ النبي ﷺ قال لهم: إنّ كان من تلقاء نفسي تصديره على الفصاحة فافعلوا في قصة يوسف ما فعلته في قصص سائر الأنبياء.

ويرى الدكتور فاضل السامرائي أنّ القصة في القرآن لا تتكرر بل يفرض في كل موطن جانب منها بحسب ما يقتضيه السياق وبحسب ما يراد من مواطن العبرة والاستشهاد، لذا فقد آثر تسمية الحشد الفني في القصص القرآني بدلا عن التكرار في القصص القرآني مثال ذلك ورود قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة والأعراف وص والحجر، ومثله ورود قصة موسى في سورة البقرة والأعراف والشعراء[٧٠].

والملاحظ أنّ تكرار القصة في أكثر من موضع، وفي أكثر من سورة يحقق التماسك النصي على عدة محاور[٧١]:-

١. على مستوى القصة نفسها على الرغم

=السامرائي ١٤٢ -١٤٣.

(٦٩) يُنظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢٩-٣٠

(٧٠) يُنظر: التعبير القرآني ٢٥١.

(٧١) يُنظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق/ د. صبحي إبراهيم الفقي ٢/ ١٧٧.

من ذكرها في أكثر من سورة.

٢. على مستوى الموقف من القصة المذكورة في السورة، والسورة نفسها.

٣. على مستوى السورة، والسور الأخرى التي ذكرت فيها مواقف من القصة.

وقد يقع هذا التماسك ليس بين مواقف القصة الواحدة المذكورة في أكثر من سورة بل بين قصص الأنبياء جميعا على اختلاف عصورهم فكلهم أوحي إليه وكلّف بالدعوة وقام بها، وكذّبه معظم قومه وصدّقه القليل، ونكّل الله بالمكذبين وهذا يعني أنّ هناك وحدة دلالية بين القصص(٧٢).

وقد يختار التعبير القرآني في سياق القصة جواً مناسباً للحدث مثل اختيار (الليل) في سورة مريم، و(اليوم) في سورة آل عمران ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[سورة مريم: ١٠]، ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾[سورة آل عمران: ٤١] كما أنه ناسب ذكره الليل في [سورة مريم: ٣] بالنداء الخفي إذ قال ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ فقد حسّن ذكر خفاء النداء بشبه الخفاء في الليل، ومما حسّن ذلك أيضا ذكر شيخوخته وضعفه، وهي شيء أشبه بالليل ذي السبات وقلة الحركة(٧٣) في قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾[سورة مريم: ٤].

٦- **السياق المعجمي:** ويمثل السياق المعجمي مستوى آخر من مستويات البنية اللغوية الأفقية التي تقوم بين المفردات بوصف الأخيرة وحدات معجمية دلالية لا وحدات نحوية أو أقساماً كلامية عامة(٧٤). بيد أنّ المعجم العربي لا يستطيع حصر جميع السياقات التي تقع فيها العبارة أو الكلمة مما جعل القدماء يلجأون إلى السياق لكي يفسروا ما اهتموا بتفسيره من اللغة، ولاسيما تفسيرهم القرآن الكريم حين سخّروه بدقّة عند تناولهم

(٧٢) المصدر نفسه ٢/ ١٧٧ -١٧٨.

(٧٣) يُنظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ١٠٤.

(٧٤) يُنظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن ٧٦.

للآيات فضلا عن إفادتهم من أسباب النزول[٧٥].

يبدو أنّ معنى الكلمة في المعجم متعدد، ومحتمل لكن معناها في السياق واحد لا يتعدد لسببين[٧٦]:-

١. لوجود قرائن فيه تعين على التحديد (قرائن المقال).

٢. ارتباط كل سياق بمقام معين يحدد عنده في ضوء القرائن الحالية.

فالكلمة صورة صوتية مفردة في ذهن المجتمع أو صورة كتابية بين دفتي المعجم، والمتكلم هو الذي يحوّل هذه الصورة إلى حقيقة (سمعية أو بصرية) كما يحولها من الإفراد (طابع المعجم) إلى السياق الاستعمالي (طابع الكلام)[٧٧]، ويشير الدكتور تمّام حسّان إلى حقيقة وهي أنّ المعجم ينتفع بنتائج المستويات التحليلية وهي النظام الصوتي والنظام الصرفي، والنظام النحوي، وهي النظم المسؤولة عن تحديد المعنى الوظيفي[٧٨].

ثانياً: أنماط السياق الخارجي: وهي على النحو الآتي:

١- السياق الاجتماعي: ويشمل عدداً كبيراً من العوامل من بينها المجموعات الاجتماعية التي ينتمي إليها المتحدث، والعلاقات الاجتماعية بين المتحدث والمتلقي والتعامل الاجتماعي ونوعية هذا التعامل والمعرفة المشتركة بين المشتركين في الكلام، ولعل أفضل طريقة لتعلم اللغة هي أن يعيش طالب التعلم حيناً في المجتمع الذي يتحدث اللغة، ذلك لأنَّ اللغة مرتبطة ارتباطا وثيقاً بالمجتمع حتى أنَّ اللغويين المحدثين أصبحوا متفقين على أنَّ اللغة نشاط اجتماعي يقوم به الإنسان فهي ليست مجرد معبر عن الفكر كما تعرف قديماً، لذا فإنَّ السياق الاجتماعي متمم للمعنى لا يمكن الاستغناء عنه في تفسير اللغة[٧٩].

ولا يخفى على ذي لب أنَّ القرآن الكريم قد راعى هذا السياق من خلال

(٧٥) يُنظر: المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث ٩٨.

(٧٦) يُنظر: اللغة العربية معناها ومبناها ٣١٦.

(٧٧) يُنظر: المصدر نفسه ٣١٧.

(٧٨) يُنظر: المصدر نفسه ٣٣. (80) يُنظر: علم اللغة الاجتماعي/ د. هدسن ٣٨٢.

(٧٩) يُنظر: المعاجم اللغوية ١١٩ -١٢٠.

تشريعاته السمحة فيما يتعلق بأمور الزواج والطلاق والميراث فضلاً عن نهيه عن عادات اجتماعية سيئة كانت سائدة في الجاهلية مثل وأد البنات قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [سورة التكوير: ٨-٩] وكذا قتل الأولاد خشية الفقر قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [سورة الأنعام: ١٥١] وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [سورة الإسراء: ٣١] إذ قدم رزق الآباء على رزق الأبناء في الأنعام في حين قدم رزق الأبناء على رزق الآباء في الإسراء لأنهم في الأنعام يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم فهم محتاجون إلى الرزق العاجل. أما في الإسراء فالأمر مختلف لأنهم يقتلون أولادهم خشية الفقر في المستقبل لا لأنهم مفتقرون في الحال إذ آية الأنعام خاصة بالفقراء أما آية الإسراء فخاصة بالموسرين[٨٠].

٢- السياق التاريخي: أشار القرآن الكريم إلى حقائق تاريخية ذات صلة وثيقة بحياة العرب عندما يذكر أماكن وأخبار خارجة عن محيطهم فلم يخاطبهم إلا بما يفهمونه ويعهدونه لاسيما أنّ للعرب أسفاراً وتجارات واتصالات تربطهم بالعالم الخارجي فالقرآن نوّه بتجارتهم. قال تعالى: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ [سورة قريش: ١-٢] وكانت مكة مركزاً للقوافل التجارية.

وفي هذا السياق لا يمكن فهم الآيات بمجرد الأدوات اللغوية بل لابد من الإحاطة بجوانبها التاريخية والوقوف على تفاصيلها الحقيقية[٨١]، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [سورة الفيل: ١] وقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [سورة البروج: ٤] وقوله: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [سورة الفجر: ٩] وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سورة سبأ: ١٥] وقوله: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ

(٨٠) يُنظر: التعبير القرآني ٢٤٦.

(٨١) يُنظر: دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم/ عبد الوهاب أبو صفية الحارثي ١١٣.

﴿بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [سورة الروم: ٢-٣] فضلاً عن ذلك فسورة التوبة لا تفهم بمعزل عن تفاصيل غزوة تبوك، وسورة الأنفال تكاد تكون مختصة بغزوة بدر، وسورة الحشر فيها تسجيل تفصيلي لغزوة بني النضير، وسورة الفتح مرتبطة بصلح الحديبية وفتح مكة، وسورة الأحزاب سميت بإحدى الغزوات المشهورة وهي غزوة الخندق، أمّا سورة المزّمّل، والمسد، والمدّثّر، والجن، والفيل، والكوثر، والعلق والقلم، والتحريم، والنور، فلا يتأتى لنا فهمها فهماً كاملاً ما لم نُحِط إحاطة تامة بتفاصيل سيرة المصطفى ﷺ[٨٢].

٣- **سياق الحال أو سياق المقام:** لما كان المعنى المعجمي ليس كل شيء في معرفة الكلام إذ لابد من عناصر غير لغوية لها دخل كبير في تحديد المعنى بل هي جزء من أجزاء معنى الكلام وهي ظروف الكلام وملابساته، وهذا ما يسمى (بسياق الحال) الذي يمكن تعريفه بأنه كل الأحوال والظروف والملابسات التي تصاحب النص وتحيط به نطقاً أو كتابةً[٨٣].

ويطلق على سياق الحال أكثر من مصطلح منها: مقتضى الحال – وهو مصطلح قديم-،والماجريات أو سياق الموقف، وسياق المقام. وتقف هذه المصطلحات في مقابل مصطلح سياق المقال[٨٤]، ولعل أقدم عبارتين جمعتا فكرة السياق هما اللتان نادى بهما البلاغيون العرب بقولهم: «لكل مقام مقال» و«لكل كلمة مع صاحبتها مقام»،وقد عدتا من نتائج المغامرات الفكرية في دراسة اللغة في الفكر المعاصر[٨٥].

إن فكرة المقام هي المركز الذي يدور حوله علم الدلالة، وهو الأساس الذي تُبنى عليه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال[٨٦]، وبالرغم من أن علم الدلالة المعاصر يتناول

(٨٢) يُنظر: المصدر نفسه ١١٤.

(٨٣) يُنظر: علم اللغة ٣٣٨-٣٣٩.

(٨٤) يُنظر: علم اللغة المعاصر/ د.يحيى عبابنة ود.آمنة الزعبي ٣٧.

(٨٥) يُنظر: اللغة العربية معناها ومبناها/ د. تمام حسان ٢٠-٢١.

(٨٦) يُنظر: المصدر نفسه ٣٣٧.

جوانب أخرى غير نظرية السياق أو فكرة المقام، إلا أن نظرية السياق تشكل ركناً هاماً من أركان علم الدلالة؛ لأن التحليل اللغوي للنص أو الكلام لا يعطينا إلا المعنى الحرفي للنص، وهو معنى فارغ تماماً من محتواه الاجتماعي والتاريخي، ومنعزل عن كل ما يحيط به النص من القرائن التي تحدد المعنى(٨٧).

وقد حرص القرآن الكريم على اختيار الألفاظ بحسب سياق المقام، وللتدليل على ذلك نذكر نصين قرآنيين متشابهين في اللفظ لكنهما مختلفان في المقام، أحدهما من [سورة النمل: ١٠] في قوله تعالى ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، والآخر من [سورة القصص: ٣١] في قوله تعالى ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾، ففي القصص ذكر لفظة (أقبل) ولم يذكرها في النمل؛ لأن المقام في النمل مقام إيجاز لا مقام تفصيل كما في القصص، وكذا شيوع جو الخوف في القصص يدل على إيغال موسى في الهرب فدعاه إلى الإقبال وعدم الهرب. أضف إلى ذلك أنه قال في النمل ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، لأن المقام مقام تكريم وتشريف ويدلنا على زيادة التكريم والتشريف زيادة لفظة (لدي) في حين قال في القصص ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾، لأن المقام مقام خوف، والخائف لا يحتاج إلا إلى الأمن(٨٨).

ويفرق بعض الدارسين المحدثين بين سياق الحال والسياق الاجتماعي في كون سياق الحال سياقاً مؤقتاً يتصف بالآنية عند النطق بالكلام أو عند كتابته، أما السياق الاجتماعي فهو سياق سائد يتصف بالثبات أو الدوام(٨٩). ويبدو أن هذا الكلام لا ينطبق على النص القرآني؛ لان سياقه يتناول جميع الإغراض والمقاصد الأساسية التي تدور عليها جميع

(٨٧) يُنظر: الكلمة دراسة لغوية ومعجمية/ د.حلمي خليل ٢١٩.

(٨٨) يُنظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ٨٢-٨٣.

(٨٩) يُنظر: الدلالة في البنية العربية بين السياق اللفظي والسياق الحالي ١٢٦.

معاني القرآن إلى جانب النظم الإعجازي والأسلوب البياني[٩٠].

ويعد بعضهم السياق الاجتماعي من سياق الحال متكئاً على كون اللغة ظاهرة اجتماعية لا يمكن فصلها عن المجتمع والسياق الاجتماعي[٩١].

أما رائد النظرية السياقية فهو العالم الانكليزي جون فيرث الذي أكد الوظيفة الاجتماعية للغة وصرح بان المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية أي وضعها في سياقات مختلفة[٩٢].

وقد حدد فيرث العناصر المتصلة بسياق الكلام بثلاثة عناصر هي[٩٣]:

١. شخصية المتكلم والمتلقي، وتكوينهما الثقافي، وشخصيات أخرى تشهد الحدث الكلامي، وأحداث غير كلامية كالإشارات، وتعبيرات الوجوه والانفعالات وغيرها.

٢. العوامل والظواهر الاجتماعية التي تتصل بالموقف الكلامي كالمكان الذي تجري فيه العملية الكلامية أو الطقس، وحالة الجو، والوضع السياسي، وعلاقة ذلك كله بالسلوك اللغوي وقت الكلام.

٣. اثر النص الكلامي في المشتركين كالاقتناع، أو الاعتراض، أو الضحك، أو السخرية، أو غير ذلك.

وهذه العناصر كلها موجودة في أسباب النزول، وللتدليل على ذلك نأخذ قصة الإفك التي تحدث عنها القرآن الكريم بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [سورة النور:١١] إذ عند تأمل سبب نزول هذه الآية نجد صدى هذه العناصر الكلامية، فالمتكلم هو القرآن -الله تعالى- والسامع هو الرسول ﷺ وعائشة والمسلمون، والشخصيات الأخرى المغرضون أمثال: عبد الله بن أبي سلول، وأم مسطح -رفيقة عائشة- وغيرهم، وزمان النزول غزوة بني المصطلق، ومن العوامل المتعلقة بالسلوك اللغوي فَقْدُ

(٩٠) يُنظر: دلالة السياق ٨٨.
(٩١) يُنظر: الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى/ د.حامد كاظم عباس ١٧٤.
(٩٢) يُنظر: علم الدلالة/ د.أحمد مختار عمر ٦٨.
(٩٣) يُنظر: علم اللغة المعاصر ٣٨ - ٣٩.

عائشة عِقدَها ورجوعها للبحث عنه مع رفيقتها أم مسطح مما جعل بعض المنافقين يتهم عائشة بالزنا فنزلت الآية مبرِّئةً إياها من هذه التهمة(٩٤).

وبذا تتضح عناية القرآن الكريم والعرب بأسباب النزول للإحاطة بما يرافق النص القرآني من ظروف وأحداث لكي يصل المفسر إلى فهم صحيح للآيات، فهي -أسباب النزول - قرائن للكشف والتفسير تسهم مع القرائن الأخرى في توجيه النص القرآني وجهة أكثر دقة(٩٥).

ولعل خير وسيلة نعتمدها في معرفة هذه الأحوال والظروف والملابسات - أسباب نزول الآيات وارتباط ذلك بسياق حال المخاطبين ولنأخذ أمثلة على ذلك:

١. ما جاء في سبب نزول سورة المطففين: ((عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أبخس الناس كيلاً فأنزل الله ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك)) (٩٦)، ويروى أنّ رجلًا يدعى أبا جهينة كان له صاعان يأخذ بأحدهما ويعطي بالآخر فجاءت الآيات في السورة المباركة وعيداً لكل من طفف الكيل والوزن(٩٧). قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ١ - ٤].

٢. ما جاء في سبب نزول سورة الممتحنة أنه لما تجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة كتب حاطب بن بلتعة يخبرهم بذلك، وقال لهم: إنّ رسول الله ﷺ يريد أن يغزوكم فخذوا حذركم ثم أرسل الكتاب مع امرأة مسافرة فنزل الوحي على رسول الله ﷺ يخبره بذلك

(٩٤) يُنظر: البحث الدلالي في تفسير مجمع البيان، أطروحة دكتوراه، خليل خلف بشير، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٦، ص ١٩٢ ويقارن بسبب النزول في: أسباب النزول/ الواحدي ٣١٨ - ٣٢٣.

(٩٥) يُنظر: الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى ١٧٣.

(٩٦) لباب النقول في أسباب النزول/ السيوطي ٢٢٨.

(٩٧) يُنظر: صفوة التفاسير/ محمد علي الصابوني ٣/ ٥٣٢.

فبعث رسول الله ﷺ علياً عليه السلام والزبير والمقداد رضي الله عنهما واستخرجوا الكتاب من عقيصتها* بعد أن هدّدوها بالقتل(٩٨) فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ [سورة الممتحنة: ١].

أقول لا يمكن فهم السورتين السابقتين وأمثالهما ما لم نطلع على سبب نزول كل سورة أو آية.

وقد يكون السياق هادئاً أو شديداً غليظاً بحسب المقام وبحسب منزلة المخاطب ففي خطابه نبيه الكريم ﷺ نلمس خطاباً هادئاً لطيفاً لمؤانسته وبعث الأمن والطمأنينة في قلبه كما في سورتي المدثر والمزمل إذ خوطب بهذين اللفظين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، و ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ عندما كان يتعبد بغار حراء. جاء في سبب نزول سورة المدثر عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: ((قال رسول الله ﷺ: جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري نزلت فاستبطنت الوادي فنوديت فلم أرَ أحداً فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء. فرجعت فقلت: دثروني. فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾(٩٩)، ولتعظيم الله حبيبه المصطفى وتبجيله إياه وتخصيصه عن سواه من الأنبياء لم يناده بـ (يا محمد) بل بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾(١٠٠)، و ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾(١٠١) في حين نادى الأنبياء بأسمائهم(١٠٢) بقوله: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [سورة البقرة:٣٥] وقوله: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ﴾ [سورة هود: ٤٨] وقوله ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [سورة الصافات: ١٠٤-١٠٥] وقوله: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي

*جاء في المعجم الوسيط في مادة (عقص) في ص٦١٥ ((عقصت المرأة شعرها عقصاً: أخذت كل خصلة منه فلوتها، ثم عقدتها حتى يبقى فيها التواء ثم أرسلتها)).

(٩٨) يُنظر: لباب النقول ٢١، وصفوة التفاسير ٣/ ٣٦٠.

(٩٩) لباب النقول ٢٢٣.

(١٠٠) يُنظر مثلًا: [سورة الأنفال: ٦٤، ٦٥، ٧٠]، و [سورة التوبة: ٧٣]، و [سورة الأحزاب: ١، ٢٨، ٤٥، ٥٠، ٥٩]، ...الخ.

(١٠١) يُنظر مثلًا: قوله ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [سورة المائدة: ٦٧].

(١٠٢) يُنظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٢٢٨.

﴿ ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٤] وقوله: ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [سورة آل عمران: ٥٥].

أما الخطاب الغليظ فنجده في سياق آيات الشرك والمشركين، والكفر والكافرين، والنفاق والمنافقين، والجهاد والمجاهدين من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [سورة البقرة: ١٩٠ -١٩١] وقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة المجادلة: ١٤ - ١٧].

وقد يستعمل التعبير القرآني الكنية للمشرك مع أنّ الكنية يراد بها الإكرام والاحترام ففي سياق اللعنة والعذاب يكني تعالى عن عبد العزى عم النبي ﷺ بـ (أبي لهب) في قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [سورة المسد: ١] إذ يطرح صاحب المنة[١٠٣] تساؤلًا مفاده أنّ الله تعالى ذكر أبا لهب بكنيته دون اسمه مع أن ذلك إكرام واحترام، والسياق سياق لعنة وعذاب، ويجيب على ذلك بالقول: إنّ القرآن الكريم لم يذكر اسمه (عبد العزى) لأمرين:

١- لمانع ثبوتي وهو مخالفته للواقع من حيث كونه عبداً حقيقة.

٢- لمانع إثباتي أو إعلامي، وهو تعمد حذف أمثال هذه الأسماء من السياق القرآني لأنّ في ذكرها تخليداً لأصحابها.

فضلاً عن ذلك نجد أن لفظة أبي لهب مناسبة مع حاله الأخروي فمن اللطيف أن يُسب بكنيته باعتباره من المعاقبين مع

(١٠٣) السيد محمد الصدر تغمّد في كتابه منة المنان في الدفاع عن القرآن ١/ ٧٦.

ملاحظة تناسب النار ذات اللهب مع أبي لهب[١٠٤]، وهذا التناسب أو التجانس الفني بين (النار ذات اللهب) و (أبي لهب) له قيمته الفنية الممتعة المثيرة[١٠٥].

ومثل هذا الاستعمال نجده في خطابه أبا جهل في قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[سورة الدخان: ٤٩]، إذ استهزأ بالمخاطب[١٠٦] والذي يدلنا على ذلك السياق فقد سبقت هذه الآية بقوله: ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾[سورة الدخان: ٤٧-٤٨].

وهذا موجود في الشعر من ذلك قول الحطيئة في هجاء الزبرقان بن بدر[١٠٧]:

دَعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغيتِها
واقعدْ فإنّكَ أنتَ الطّاعمُ الكاسي

أراد: المطعوم المكسو.

أمّا خطابه للكافرين فكان خطاب ذم وتحقير[١٠٨] من ذلك قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ﴾[سورة التحريم: ٧] وقوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾[سورة الكافرون: ١-٢] وبعكسه خطابه المؤمنين خطاب لين ورفق وتلطف من ذلك قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾[سورة الممتحنة: ١] وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[سورة التحريم: ٨].

الخاتمة

بعد هذه الجولة البحثية يطيب لي أن أوجز ما تمخض عنه هذا البحث من خلاصة ونتائج في الآتي:

١. للفظة (السياق) في اللغة العربية عدة معانٍ منها: نزع الروح، والمهر،

(١٠٤) يُنظر: المصدر نفسه ١/ ٧٧.
(١٠٥) يُنظر:التفسير البنائي للقرآن الكريم/ د.محمود البستاني ٥/ ٤٥٠.
(١٠٦) يُنظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٢٣١.
(١٠٧) ديوان الحطيئة ١٠٨.
(١٠٨) يُنظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٢٣٠.

وأسلوب الكلام، والبعث والإرسال والتتابع، أمّا في الاصطلاح القرآني فنعني به جميع الظروف والأحوال التي يراعيها القرآن الكريم في نصوصه تكون لها دلالة سياقية في هذا التركيب تختلف عنها في تركيب آخر، وقد اعتمدت سياقاته الخارجية في تحديد تلك الظروف على أسباب النزول، وعلم المناسبة خاصةً.

٢. المعجم العربي وحده لا يستطيع حصر جميع سياقات الجمل أو التراكيب فلابد من وجود الصوت، والصرف، والنحو، وعلم المناسبة، وأسباب النزول، بحيث تتضافر كلها مع المعجم لفهم أسرار النص القرآني.

٣. للسياق نوعان رئيسان هما:

أ- **السياق الداخلي أو اللغوي:** ويشمل السياق الصوتي، والصرفي،والنحوي، والإيقاعي (الموسيقي)، وسياق القصة فضلاً عن السياق المعجمي.

ب- **السياق الخارجي أو غير اللغوي:** ويشمل السياق الاجتماعي، والسياق التاريخي، وسياق الحال أوسياق المقام.

٤. يبرز السياق النحوي بوساطة البنية النحوية وعلاقات الكلمات ووظائفها ومواقعها من حيث التقديم والتأخير، والذكر والحذف، ومجيء الفعل ماضياً أو مضارعاً، مبنياً للمجهول أو مبنياً للمعلوم.

٥. يتجلى السياق الصوتي من خلال النبر والتنغيم في الآيات فضلاً عن الإيحاء الصوتي للكلمات القرآنية، مع استعمال المقاطع المقفلة في سياق العقاب الصارم للظالمين والكافرين واستعمال المقاطع المفتوحة في سياق النعيم عند وصف حالة المتقين وما هم فيه من دعة، ورخاء، وحبور.

٦. كان للفاصلة القرآنية أثر كبير في تكوين السياق الصوتي، وإن كنّا قد سمّيناه بالسياق الإيقاعي ذاك الذي أطلق عليه القدماء عبارة (مراعاة الفواصل) أو (تناسب الفواصل)،

ولعل الفاصلة في السور المكية جاءت متوائمة مع جبروت المكيين وفعلهم المنكرات والعادات السيئة إذ جاءت سريعة آخذة غير مسترسلة حادة حاسمة، وبعكسه في السور المدنية إذ جاءت مسترسلة منسابة نزّاعة إلى التفصيل والتوضيح لأنها خاطبت مجتمعاً آمن بالله ورسوله.

٧. كانت قصص الأنبياء موزعة بين سور كثيرة إلا قصة يوسف فقد تفردت بوقوعها في سورة واحدة لا غيرها هي سورة يوسف لخصوصية هدفها الاجتماعي ومراعاة لمشاعر المسلمين والمسلمات، فضلاً عن ذلك فإن توزع القصص على سور القرآن لا يعني بالضرورة تكرار هذه القصص، وإنّما السياق اقتضى ذلك زد في ذلك تحقيق التماسك النصي الذي يكون في القصص على مستويات ثلاثة: في أكثر من سورة على مستوى القصة نفسها، وعلى مستوى الموقف من القصة في السورة والسورة نفسها، على مستوى السورة والسور الأخرى التي فيها مواقف من القصة.

٨. يشمل السياق الخارجي سياقات متعددة تبدو متشابهة لكنها مختلفة: السياق الاجتماعي الذي يتعامل مع مجموعة من العلاقات الاجتماعية بين المتحدث والمتلقي والتعامل الاجتماعي ونوعيته بين المشتركين، أما سياق الحال فيعرف بأنه كل الأحوال والظروف والملابسات التي تصاحب النص وتحيط به نطقاً أو كتابةً ويمكن التعرف عليه في النص القرآني من خلال علم المناسبة وسبب النزول، في حين يهتم السياق التاريخي برصد الحقائق التاريخية ذات الصلة بحياة الناس وقد أشار القرآن إلى الحوادث والغزوات والتجارات و الأسفار وكان التركيز على غزوات النبي ﷺ وسيرته العطرة فضلاً عن قصص الأنبياء عليهم السلام.

٩. النص القرآني غني بمدلولاته، مرن

بتفاعله مع الواقع ولا يجدب غناه ولا يقيد مرونته سوى البعد عن السياق، ولما كان القرآن حمّال أوجه أي صلاحيته لكل زمان ومكان فلا غرابة في تعدد سياقاته الداخلية(اللغوية) والخارجية (غير اللغوية).

١٠. ألمحنا إلى أنّ السياق الاجتماعي يفيدنا في التعرف على عادات وقيم وأخلاق اجتماعية تحدث عنها القرآن الكريم وماهية العلاقات الاجتماعية زمن الدعوة الإسلامية ومقارنتها بالعلاقات زمن الجاهلية، ولا يمكن فهم كثير من الآيات ما لم نحط إحاطة تامةً بالحوادث التاريخية التي تتعلق بنزول بعض الآيات أو السور.

١١. اختلاف الخطاب القرآني متأتٍ من اختلاف رتبة المخاطبين ومن اختلاف سياق حالهم فخطاب النبي ﷺ يختلف عن خطاب بقية الأنبياء، وخطاب المؤمنين يباين خطاب المشركين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د.عبد الفتاح لاشين، ط، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان ١٩٨٢.

٢. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تح/ سعيد المندوب، ط١: لبنان –دار الفكر، ١٤١٦-١٩٩٦م.

٣. الإعجاز البياني في كتاب العربية الأكبر (بحث) د. عائشة عبد الرحمن، مجلة مجمع اللغة العربية، ج١٢، ١٩٦٠.

٤. أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري،ط١، دار إحياء التراث العربي،بيروت، لبنلن، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٥. أسباب النزول، الواحدي، تخريج وتدقيق: عصام عبد المحسن الحميدي، ط٣، دار الذخائر، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع،١٤٢٥ هـ-٢٠٠٤ م.

٦. البحث الدلالي في تفسير مجمع البيان، أطروحة دكتوراه، خليل خلف بشير،

كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٦ م.
٧. بديع القرآن، ابن أبي الأصبع، تح/ حفني محمد شرف، ط١، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٥٧.
٨. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تح/ محمد أبي الفضل إبراهيم، ط١، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٥٧.
٩. بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، ط١، بغداد، ٢٠٠٠.
١٠. البيان والتبيين، أبر عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط٤، مكتبة الخانجي بمصر (د.ت).
١١. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، شرح: أحمد صقر، ط٣، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨١.
١٢. التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن، عودة خليل أبو عودة، ط١، مكتبة المنار، الأردن، ١٩٨٥.
١٣. التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل (د.ت).
١٤. التفسير البياني للقرآن الكريم، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢.
١٥. التفسير البنائي للقرآن الكريم، د. محمود البستاني، ط١، مؤسسة الطبع التابعة للاستانة الرضوية، مجمع البحوث الإسلامية، ١٤٢٤ ق – ١٣٨٢ ش.
١٦. دراسات قرآنية في جزء عمَّ، د. محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٨.
١٧. دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم، عبد الوهاب أبو صفية الحارثي، ط١، عمان، الأردن، ١٩٨٩.
١٨. الدلالة السياقية عند اللغويين، د. عواطف كنوش المصطفى، ط١، دار السياب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٧.
١٩. الدلالة في البنية العربية بين السياق اللفظي والسياق الحالي (بحث) د. كاصد ياسر الزيدي، مجلة آداب الرافدين ع٢٦، ١٩٩٤.

٢٠. الدلالة القرآنية عند الشريف المرتضى (دراسة لغوية)، د.حامد كاظم عباس، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠٠٤م.

٢١. ديوان الحطيئة، شرح أبي سعيد السكري، دار صادر، بيروت، ١٤١٨ هـ-١٩٩٨م.

٢٢. السياق في الفكر اللغوي عند العرب (بحث)، د.صاحب أبو جناح، مجلة الأقلام، ع٣-٤، نيسان، ١٩٩٢.

٢٣. السياق الموسيقي للجملة العربية وأثره في بنائها، د.أحمد نصيف الجنابي، آداب المستنصرية ع١٦، س ١٩٨٨.

٢٤. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ط٦، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٩٨٥.

٢٥. الصلة بين القافية وفواصل الآي، (بحث)، د.أحمد نصيف الجنابي، مجلة آداب المستنصرية، ع٣، ١٩٧٨.

٢٦. العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ناصيف اليازجي، بيروت، (د.ت).

٢٧. علم الدلالة، د.أحمد مختار عمر، ط١، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٤٠٢ هـ-١٩٨٢م.

٢٨. علم الدلالة، بالمر، ترجمة/ مجيد الماشطة، مطبعة الجامعة المستنصرية، ١٩٨٥.

٢٩. علم اللغة الاجتماعي، د. هدسن، ترجمة محمد عبد الغني عيّاد، مراجعة عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية بغداد، ١٩٨٧.

٣٠. علم اللغة -مقدمة للقارئ العربي، د.محمود السعران، ط٢، دار الفكر العربي، ١٤١٧هـ-١٩٩٧.

٣١. علم اللغة المعاصر-مقدمات وتطبيقات، د.يحيى عبابنة ود.آمنة الزعبي، دار الكتاب الثقافي، الأردن، ١٤٢٦ هـ-٢٠٠٥ م.

٣٢. علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي، ط١، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، ٢٠٠٠.

٣٣. الفاصلة في القرآن الكريم (بحث)، د.

عبد الفتاح لاشين، مجلة الدارة، ع١، س٧، شوال ١٤٠١هـ (أغسطس ١٩٨١م).

٣٤. فاكهة البستان، عبد الله البستاني، المطبعة الأمريكانية، بيروت، ١٩٣٠.

٣٥. الكلمة دراسة لغوية ومعجمية، د.حلمي خليل، الهيأة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، ١٩٨٠ م.

٣٦. لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي، ط١، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٧٨.

٣٧. لسان العرب، ابن منظور، أعداد يوسف خياط ونديم مرعشلي، دار لسان العرب، بيروت، (د.ت).

٣٨. اللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان، الهيأة المصرية للكتاب، ١٩٧٣.

٣٩. اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، ترجمة عباس صادق الوهاب، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٧.

٤٠. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل السامرائي، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٩.

٤١. مراتب التفضيل في القرآن الكريم دراسة أسلوبية (بحث)، د. عواطف كنوش، مجلة دراسات لغوية وأدبية ع٦، س٢، ٢٠٠٢.

٤٢. مستويات النظم في التركيب القرآني، عبد الواحد زيارة، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة البصرة، ١٩٩٨.

٤٣. المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، د. محمد أحمد أبو الفرج، ط١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٦.

٤٤. معاني الأبنية في العربية، د.فاضل السامرائي، جامعة بغداد، ١٩٨٠.

٤٥. معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، ط١، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، ١٩٨٦.

٤٦. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، ط٢، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤.

٤٧. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٤.

٤٨. المعجم الوسيط، قام بإخراجه (إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد علي النجار)، مطبعة مصر، ١٩٦٠.
٤٩. مناهج البحث في اللغة، د. تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٧٩.
٥٠. من أسرار العربية في البيان القرآني، د. عائشة عبد الرحمن، محاضرة ألقتها في جامعة بيروت العربية في ٢٧ آذار ١٩٧١.
٥١. من أسرار اللغة، د. إبراهيم أنيس، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، (د.ت).
٥٢. من بلاغة القرآن، د.أحمد أحمد بدوي، ط٣، مطبعة نهضة مصر بالفجالة، (د.ت).
٥٣. منة المنان في الدفاع عن القرآن، السيد محمد الصدر، دار النجوى، بيروت، (د.ت).
٥٤. من صور الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، (بحث)، محمد سليمان العبد، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، ع٣٦، مج٩، ١٩٨٩.
٥٥. من وحي القرآن، د. إبراهيم السامرائي، ط١، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، ١٩٨١.

بسم الله الرحمن الرحیم

الم

ذلک الکتاب لا ریب

این کتاب که تردیدی در آن نیست

فیه هدی للمتقین الذین یؤمنون

راهنمای پرهیزگاران است کسانی که

بالغیب و یقیمون الصلوة و مما

به نادیده ایمان دارند و نماز برپای دارند و از آنچه

رزقناهم ینفقون

به آنان دادیم ببخشند

کتبه العبد عباس اخوین یکهزار و سیصد و ۸۵

والذین یؤمنون بما انزل الیک و ما انزل من قبلک و بالآخرة هم یوقنون اولئک علی هدی من ربهم و اولئک هم المفلحون

و آن کسانیکه بدانچه بر تو و پیش از تو نازل شده است ایمان آورند و بآخرت یقین دارند آنانند بر هدایتی از پروردگار خویش و آنانند رستگاران

الدلالة الروحية في لغة القرآن الكريم

أ.د. حسن منديل حسن العكيلي
كلية التربية للبنات - جامعة بغداد

ملخص البحث

يقرر السيد الباحث أن لكلام الله -سبحانه- سلطانا روحياً على الانسان على قدر ما يملك من العلم بالله والخشية منه والقرب اليه. وأن لكل مقال حرمة عند الله، وان الانسان اذا نطق به وتدبره نفعه في حياته بحسب المواطن والحالات النفسية.

كما يقرر السيد الباحث أن الله -سبحانه- خلق الانسان ليعبده حق عبادته بلغة مقررة مفهومة لها اثر في قبول تلك العبادة أو ردّها ، لأن اللغة هي وعاء الفكر وأن وظيفتها تنحصر في التعبير والبيان، وأن في اللغة الانسانية جوانب غير الجوانب الظاهرة التي أولاها علماء اللغة اهتمامهم.

والسيد الباحث يخوض هذا المعترك البحثي مستنيراً بنفحات صوفية متناغمة السياق ويستشهد بأقول رواد التصوف الاسلامي كالقشيري وابن عربي، بيد أنه يقرر في خاتمة بحثه ان اطروحات المتصوفة قد تتقاطع -ظاهرياً- مع مسار البحث الأكاديمي المعاصر لكونها مغرقة في الفلسفة الإلهية وإن استعانوا بعلم اللغة، وانه يحتاج الى الرجوع الى أسس علم التصوف ومصطلحاته.

المقدمة

- إن لكلام الله تعالى سلطانا روحيا على الانسان على قدر ما يملك من العلم بالله والخشية منه والقرب اليه، وفيه شفاءٌ للانسان من الامراض النفسية والجسدية.

- ومن النصوص الاسلامية المأثورة ما لايمكن تفسيرها في ظل الجانب المادي المعاصر اذ تتقاطع معه الا في ضوء الايمان بالجانب الروحي في لغة القرآن الكريم ذلك إن ظاهرها قد يتقاطع مع العلم والعقل.

- ولكل مقال حرمة لدى الله تعالى، فاذا نطقه الانسان وقصده وتدبره، نفعه في حياته بحسب المواطن والحالات النفسية وكان له شفاءاً.

وقد اتصف عصرنا الحضاري بالمادية، إذ غلب الجانبُ المادي الجانبَ الروحيَّ في حياة الإنسان، لاعتماد العصر على الآلة والتقانة والصروح الدنيوية وقد تأثرنا، نحن المسلمين، بهذه الحياة المادية الغربية، لذلك ارتفعت أصوات تدعو إلى الاهتمام بهذا الجانب، وعقدت مؤتمرات ودراسات في ذلك[1]، ولا سيما ان الجانب العقلي ليس نقيضاً للجانب الروحي وانما النقيض له هو الجانب المادي.

إن المطّلع على كتب الأذكار والأدعية، يجد أن النبي محمداًﷺ قد أكد على أن لبعض التراكيب تأثيراً روحياً سلطوياً على الجوانب المادية لدى الإنسان، وأن ترديدها شرط على المسلم بحسب المواقف والحالات النفسية التي تمر به، فهي توقف البلاء وتنزل الرحمة وتفتح الخير، علّمها الله تعالى نبيّه الكريمﷺكالإستعاذة والبسملة والحوقلة والحسبلة والتكبير والتسبيح وغير ذلك[2]. وعلى الإنسان أن يكون مؤمناً بها ((قائماً في صلاته بإلقاء

(١) مثل الملتقى الإسلامي المسيحي الرابع المنعقد في تونس ٢١ -٢٦ نيسان ١٩٨٦ تحت شعار: (الروحية ضرورية من ضروريات العصر) ينظر: اشكاليات الفكر العربي المعاصر ١٤٢، ومناهج المستشرقين ١/ ٢٢، والقرآن يتحدى ٤٤٤.

(٢) أفردت لها كتبا كنوادر الأصول للحكيم الترمذي، وقوت القلوب للشيخ أبي طالب المكي ١/ ١٦ -٦٠، ومكارم الأخلاق للطبرسي، وتحفة الذاكرين للشوكاني وغيرها.

سمع وشهود قلب، وحضور عقل، وجمع هم، وصحة تيقظ، وحسن إقبال، وتدبّر كلام...))[٣].

سلطة اللغة:

إن للإسلام مرجعية لا بد للمسلم من الالتزام بها ولاسيما الذكر الدائم، فقد خلق الإنسان ليعبد الله تعالى، وللغة اثر مهم في ذلك فمثلا إن النظام الكوني خلقه الله تعالى مسبحاً له، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[سورة النور: ٤١]، ولكي لا يكون الإنسان نكرة في نظام الكون هذا عليه الالتزام بالتسبيح وهكذا سائر مرجعيات الدين الإسلامي.

قال الإمام الصادق عليه السلام: ((عجبت لمن بُلي بأربع كيف يغفل عن أربع، عجبت لمن أُعجب بأمرٍ كيف لا يقول: (ما شاء الله لا قوة إلا بالله). . وعجبت لمن خاف قوماً كيف لا يقول: (حسبي الله ونعم الوكيل). . وعجبت لمن خاف من مكْرٍ مُكر به كيف لا يقول: ((أفوض أمري إلى الله. .)) وعجبت لمن أصابه غمٌّ أو كرب كيف لا يقول: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[سورة الأنبياء: ٨٧]..))[٤].

يمكن للدارس هنا إذا كان مؤمناً، فطناً ان ينتهي إلى صياغة مفهوم واضح مطّرد في جميع الحالات هو أن هذه التراكيب مفاتيح لما في الغيب مما خلق الله تعالى ذلك أن العلماء أثبتوا نقلاً وعقلاً أن للغيب سلطة على الظاهر، يقول الفخر الرازي ((أما الروحانيات فإنما يحصل تكوينها وخروجها إلى الفعل دفعة، ومتى كان الأمر كذلك كان حدوثها شبيهاً بحدوث الحرف الذي لا يوجد إلا في الآن الذي لا ينقسم فلهذه المشابهة سميت نفاذ قدرته بالكلمة، وأيضاً ثبت في عالم المعقولات أن عالم الأرواح مستولٍ على عالم الأجسام، وإنما هي المدبرات لأمور هذا العالم كما قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾)) [سورة النازعات: ٥]. فقوله: (أعوذ بكلمات الله التامات) استعاذة من الأرواح البشرية بالأرواح العالية المقدسة الطاهرة الطيبة

(٣) قوت القلوب ١/ ١٧.

(٤) أسرار التنزيل ١٣٤.

في دفع شرور الأرواح الخبيثة الظلمائية الكدرة، فالمراد بكلمات الله التامات، تلك الأرواح العالية الطاهرة))[٥].

وجاء في تحفة الذاكرين[٦] عن النبي محمدﷺ: من قال: ((لا حول ولا قوة إلا بالله، كانت له دواءً من تسعة وتسعين داءً أيسرها الهَمُّ)) وإن توقع بلاءً وأمراً مهولاً قال: حسْبُنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا. وإن أصابته مصيبة قال: (إنا لله وإنا إليه راجعون). وإن أخذه إعياء من شغل أو طلب زيادة قوت، فليسبح الله عند نومه كل ليلة ثلاثاً وثلاثين وليحمد الله ثلاثاً وثلاثين، وليكبر أربعاً وثلاثين. . وإن خاف سلطاناً، أو ظالماً قال: الله أكبر، الله أكبر، الله أعزُّ من خلقه جميعاً، الله أعزّ مما أخاف وأحْذر ... اللهم كن لي جاراً من شرِّهم جلَّ ثناؤك، وعزّ جارُك ولا إله غيرُك، ثلاث مرات.. وعند الفزع يقول: (أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون)[٧]. وغير ذلك من الأقوال الكثيرة لكل شدّة أو وضع نفسي أو خوف أو مصيبة قول خاص بها. حتى الأمور اليسيرة، فعلى المسلم أن يقول (كذا) إذا لبس ثوباً جديداً، وإذا دخل السوق أو خرج منه يقول (كذا)... وإذا رأى في ماله أو في نفسه أو غيره ما يعجبه يقول كذا، وإذا اشترى دابة أو رقيقاً وإذا أُتي بمولود أذّن في أُذنه حيث ولادته ويقول كذا، وإذا رأى ما يحب وما لا يحب.. وإذا رأى أخاه المسلم يضحك، وإذا سمع ما يكره، وإذا عطس فليقل: الحمد لله على كل حال، وإذا طنَّت أُذنه. . وإذا خدرت رجله، وإذا غضب. . وغير ذلك من الأحوال النفسية والمادية التي يتعرض لها الإنسان[٨].

ويلاحظ أنهم يربطون هذه الأقوال بالأعداد فالتسبيح مثلاً ثلاث وثلاثون مرة، مما يدلك على أن بالأعداد دلالة روحية أيضاً، فزيادتها لا تعني زيادة التأثير ونقصها أيضاً، ذلك إن لكل عدد دلالة روحية ولهذا علم وكتب وعلماء متخصصون.

فكأن لهذه العبارات قوة أو سلطة

(٥) مفاتيح الغيب ١/ ٧١.
(٦) ٢٧٣ -٢٧٨.
(٧) تحفة الذاكرين ٢٧٩.
(٨) تحفة الذاكرين ٢٤٨ - ٢٩٠.

علينا، ولاسيما القرآن الكريم يقول الشيخ ابن عربي أنه رأى سورة ياسين على هيئة رجل يدفع عنه الموت عندما غشي عليه[٩]. وفي كتب التفسير يذكر المفسرون السور كأنها أرواح عاقلات، أو أشياء لها قوة تحمي الإنسان من الضلالة[١٠].

ولدى الصوفية لكل قطب منهم عبارة أو آية قرآنية يرددها ويحيا بها، يسمونها (الهجير). يقول الشيخ ابن عربي رحمه الله: الهجير هو الذي لازمه العبد من الذكر، كان الذكر ما كان، ولكل ذكر نتيجة لا تكون لذكر آخر، وإذا عرض الإنسان على نفسه الأذكار الإلهية، فلا يقبل منها إلا ما يعطيه استعداده فأوّل فتح له في الذكر قبوله له ثم لا يزال يواظب عليه مع الأنفاس، فلا يخرج منه نفسه في يقظة ولا نوم إلا به لاستتاره فيه ومتى لم يكن حال الذاكر على هذا فليس هو بصاحب هجير))[١١].

ولضيق المقام سأتناول بعضاً من هذه العبارات التي لها حرمة أو قدسية في الإسلام، لا يكتمل اسلام المسلم بدون الإيمان بها وترديدها في أوقات العبادة أو في الدعاء ومناجاة الخالق تبارك وتعالى.

قال الحكيم الترمذي في كتابه (نوادر الأصول) الذي تناول فيه هذه الآثار عن النبي ﷺ، وشرحها شرحاً روحياً إسلامياً مثل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وحسبي الله، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وغيرها قال عنها:

((إن لكل مقال حرمة، والله تعالى لا يضيع حرمته، فإذا ردّد هذه الكلمات نفعته في هذه المواطن بأن كنّ شفعاء إلى الله تعالى، وإذا تكلّم بها على يقظة وانشراح صدر، وجد الله تعالى في هذه المواطن قد كفاه))[١٢].

العمق الروحي للألفاظ

إن اللغة وعاء الفكر وإن وظيفتها هي التعبير عن الفكر البشري[١٣]. فضلاً عن ذلك فلها سلطة وتأثير في الإنسان فوظيفة البيان الكلامية قبل كل شيء سلطة المتكلم

(٩) ابن عربي حياته ومذهبه، بلاثيوس ١٠.
(١٠) ينظر: الكشاف في آخر تفسير كل سورة.
(١١) الفتوحات المكية ١/ ٨٨.
(١٢) نوادر الأصول ٢١٨.
(١٣) أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ٢٠٨.

على السامع التي لا تقل تأثيراً عن سلطة الحاكم على المحكوم.

يقول أحد علماء اللغة: إن للألفاظ سيطرة علينا وخضوعنا لها خضوع يشبه الرقّ والعبودية(١٤).

وإذا كان تأثير اللغة الأدبية واضحاً لا يجحده أحد في النفوس سلباً أو إيجابا. وإذا كانت اللغة في أحد جوانبها تعبر عن انفعالات النفس أو الروح وترجمة لها، فإن التأثير الروحي في اللغة واضح أيضاً. وهذا يفسّر لنا سراً من أسرار إعجاز القرآن الكريم.

ويفسّر أيضا تأثير الكلمة في المتلقي، فهي تجعله يحزن أو يغضب أو يفرح، أو يبكي وغير ذلك من الانفعالات والحالات النفسية المتقلبة. وبها يتقرب إلى الله تعالى، بشرط القصد والدلالة واستعداد المتلقي لها. فأحياناً كلمة تثير في المتلقي أن يكتب قصيدة... هذه طبيعة اللغة، إذ هي ليس لمجرد التفاهم والتعبير عن الحاجات، فلها وظائف أخرى منها الصلة بين الإنسان وخالقه ولاسيما الكلمات المرتبطة بالإسلام ارتباطاً روحياً نحو: لا إله إلا الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، سبحان الله، الله أكبر، بسم الله الرحمن الرحيم ... وغيرها. فلها تأثير روحي يشعر به المسلم المؤمن.

والدليل على ذلك أن الكتب الروحانية الأجنبية المترجمة إلى العربية يخلط مؤلفوها كلامهم بعبارات عربية غريبة وبآيات قرآنية كريمة مما يدل على أن في اللغة العربية جانباً روحياً، ويدل أيضاً على أنهم أخذوها من المسلمين(١٥).

ثمّة أقوال كثيرة عن رسول الله ﷺ، وآل البيت عليهم السلام وبعض الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين وأئمة المسلمين و العلماء. لا يمكن تفسيرها إلا في ضوء هذا الجانب. ذلك ان ظاهرها يتقاطع مع العلم والعقل. وبدون تأويلها والإيمان بالجانب الروحي في العربية يصعب التصديق بها وقبولها.

من ذلك ما نقل في الأثر أن سورة

(١٤) بنية العقل العربي ٣٠.

(١٥) ينظر: دائرة المعارف السحرية ٤٥، وينظر: العقل والمغامرة ٥٨، ١٦، ٦٤ - ٧٥.

الإخلاص تعدل ثلث القرآن الكريم وهو أمر اختلف فيه العلماء[١٦]، والتفسير المشهور أنها تعدل القرآن الكريم معنىً لا لفظاً فمثل هذا الكلام لا يصدر إلا من خالق اللغة أو عالم بماهيتها.

وقول الصادق عليه السلام: (من قرأ مائة آية من أيِّ القرآن شاء، ثم قال سبع مرات: (يا الله)، فلو دعا على الصخور فلقها)[١٧].

قال الحكيم الترمذي -رحمه الله- ورضي عنه: ((سلطان كلام الله تعالى على القلوب على قدر ما فيها من العلم بالله والخشية له والحظ من القربة وإنما ينزل من القلب كلام كل واحد منهم على قدر منزلته عنده))[١٨].

يتبين أن الدلالة تختلف بحسب إيمان المتلقي وقربه من الله تعالى وسلوكه إليه بالعبادات والنوافل. إذ يفتح الله في العبادات نفسها دلالات لا يعلمها كل من اطلع عليها، وهذا مانلمسه حقاً في لغة القرآن الكريم.

يقول الأستاذ محمد سعيد الحبابي: ((إن اللسان العربي ليس أبجدية، وليس مجموعة لهجات، وليس هو ما بين ضفتي (دفتي) القاموس المحيط أو ما جاء عند سيبويه والخليل وغيرهما، إنه تاريخ ووجدان إنه السنية وقد تجسدت في الثقافة العربية الإسلامية، فاللسان العربي لا يحيا ولن يحيا إلا داخل ميدانه الطبيعي، مثله كمثل السمك الذي يموت خارج الماء))[١٩].

ففي اللغة الإنسانية عامة جوانب غير الجوانب الظاهرة التي أولاها علماء اللغة عنايتهم، ولاسيما اللغة العربية المتعددة المعجزات، ومنها ((إنها لغة رعاة الإبل والضأن وقد فنيت لغات عظيمة ثرية ما كان يُتوجس فناؤها، وبقيت العربية، وما كان يتوقع بقاؤها، فإذا بلغة البادية، لغة رعاة الإبل والضأن تتسع إلى لفلسفة ارسطو، وعلوم اليونان وغيرهم عامة [لها قوة في التعبير عن غامض الآراء ومشتبهها] وهذه المعجزة العربية الأولى))[٢٠].

أما الصوفية فيرون معجزة العربية

(١٦) ينظر: تفصيلات هذا الخلاف: جواب أهل العلم والإيمان ٢٠٠.
(١٧) مكارم الأخلاق ٣٢٨.
(١٨) نوادر الأصول ٢١٩.
(١٩) تأملات في اللغو واللغة ١٢١.
(٢٠) المخصص، دراسة -دليل ٣ - ٤.

روحية خالصة، إذ خلف كل حرف روح كما سنرى وأن الكلمة تعبر عن (الحقيقة المحمدية) لا عن صورتها، في العقل الأول وهي المبدأ العقلي الكوني ... وهي أصدق التجليات الإلهية في صورة الإنسان الكامل. ولهم في ذلك إطروحات فلسفية لا يقبلها الظاهريون، إذ ان اللغة عندهم توازي الأشياء وهي حقيقة الحقائق، سابقة على وجود العالم وعنها يصدر العالم، وإنها مستودع الأسرار[٢١].

ويبدو أن مفهوم الكلمة لدى الصوفية يختلف عن المفهوم اللغوي السائد، الذي يرى للكلمة دلالة قد تتغير بحسب السياق، وتفعل تأثيرها في النفس أيضاً من خلال السياق. إن المتصوفة يفرقون بين باطن الكلمة وظاهرها، لا يكشف الله باطنها إلا لأوليائه الراسخين في العلم.

والحق أن هذه النظريات الفلسفية والرؤى قد تأثر الصوفية في وضعها بالفلسفات الأجنبية كاليونانية واليهودية والهندية وغيرها، فقد كان يرى هؤلاء أن في اللغة جانباً روحياً وهي ركن في دياناتهم فقد قال بذلك الهنود في لغتهم السنسكريتية، والأوروبيون في اليونانية واللاتينية واليهود في كتابهم المقدس. والفرس في بعض كتبهم، وقد ظهرت مؤخراً في إيران دعوة باسم الحركة الحروفية ترى ((أن الأصل في معرفة الله تعالى هو اللفظ وذلك ان الله تعالى غير محسوس ومن هنا لا يتم التواصل بين الله تعالى والخلق إلا عن طريق اللفظ باعتبار أن السبب في امتناع معرفة الإنسان بالأشياء دون ألفاظ يقوم على أنه ليس من العالم شيء إلا هو مظهر لها))[٢٢].

وظهر لدى اليهود في القرن الأول الميلادي كتاب (الأسرار الخفية) أي كتاب الخلق في بابل يعرف باسم (سفير يصيرا) كان متصوفة اليهود يعتقدون أن الله تعالى نفسه واضعه وفي الكتاب ربط بين الحروف الهجائية العبرية الثلاثة والعشرين وعملية الخلق وقد شرح الكتاب مراراً[٢٣]، ويرون أن معنى كلمة الله هو إعلان الله تعالى نفسه

(٢١) تراث الإسلام ٢/ ١١٤.

(٢٢) علم الحروف وأقطابه ١٠.

(٢٣) قصة الحضارة ج ٣/ مج ٤/ ١٤ ص١٣٧.

للبشر[٢٤].

لغة القرآن الكريم:

يتجلى الجانب الروحي في لغة القرآن واضحاً، لذلك سأفرد له بحثاً تطبيقياً في ضوء ما جاء في هذه الأطروحة، ولاسيما أن فكرتها انطلقت من لغة القرآن.

لكني سأشير هنا إلى إحدى معجزاته المطلقة، هي الاستشفاء بالقرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الإسراء: ٨٢]. وقال تعالى ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [سورة فصلت: ٤٤].

فثمة شرط رئيس للاستشفاء بالقرآن الكريم هو الإيمان والاعتقاد والتصديق قال رسول الله ﷺ:

((في القرآن شفاء من كل داء)).

وروي عنه أنه قال: ((من نالته علة فليقرأ عليها أم الكتاب -سبع مرات))[٢٥].

وأحاديث كثيرة تنقلها الكتب عن النبي ﷺ والأئمة الأطهار أكّدوا على ان في كل سورة أو آية علاجاً لنوع من الأمراض النفسية والجسدية، وقد استغل بعضهم هذه الأحاديث فزادوا عليها ما لا يعقله عاقل.

وقد اشتهر خلال مراحل التاريخ كثير ممن وهب لهم الله تعالى هذه الكرامة، يعالجون المرضى بالقرآن الكريم فيشفون بإذن الله، ونسمع في زماننا هذا عن الكثير منهم.

وقدأثبتت الدراسات الباراسيكولوجية والنفسية الحديثة أن للقرآن الكريم تأثيراً واضحاً في علاج الأمراض. وفي منظمة (إباء) اجريت تجارب وبحوث رأت أن السنابل التي يتلى عليها القرآن الكريم (في تسجيل) تكون أكثر إنتاجاً وأفضل نوعاً من غيرها. وغير ذلك من النتائج التجريبية العلمية[٢٦].

---

(٢٤) ينظر: موسوعة الكتاب المقدس ٢٦٢.

(٢٥) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي= =(شفى) ٣/ ١٥٦.

(٢٦) في مقابلة مع بعض أعضاء جمعية الباراسايكولوجي.

الاستعاذة

الاستعاذة: تطهير القلب من كل ما يكون مانعاً من الاستغراق في الله تعالى[٢٧]. ولها صيغ عديدة أشهرها: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، و (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم).

ويشترط على المسلم التعوذ عند قراءة القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [سورة النحل: ٩٨]. ولا بد أن تقال بالقلب واللسان، يقول الرازي: اختصت بقراءة القرآن الكريم لأنه أعظم الطاعات لله تعالى فلا جرم كان يسعى الشيطان في الصد عنه[٢٨].

ومعنى (أعوذ) إشارة إلى الحاجة التامة، و (بالله) إشارة إلى الغنى التام للحق. و (أعوذ بالله)، اعتراف بعجز النفس وبقدرة الرب، وهذا يدل على أنه لا وسيلة إلى القرب من حضرة الله إلا بالعجز والانكسار[٢٩].

(٢٧) مفاتيح الغيب ١/ ٦٠-٦٢.
(٢٨) مفاتيح الغيب ١/ ١٩.
(٢٩) نفسه ١/ ٩١.

ومعنى (الاستعاذة) الاستجارة بالله تعالى دون غيره من سائر خلقه، من الشيطان أن يضرّ أو يصدّ في دين المسلم، واختلفت كتب اللغة في معنى (الشيطان)، والأقرب أنه من شطن أي بعد، والرجيم: الملعون، المشؤوم[٣٠].

أما قوله: (السميع العليم)، ففيه وجهان: الأول أن الغرض من الاستعاذة الاحتراز من شر الوسوسة ومعلوم أن الوسوسة كأنها حروف خفية في قلب الإنسان، ولا يطلع عليها أحد، فكأنه يقول، يا من هو على هذه الصفة التي يسمع بها كل مسموع، ويعلم كل سر خفي أنت تسمع وسوسة الشيطان وتعلم غرضه منها، وأنت القادر على دفعها عني، فادفعها عني بفضلك، فلهذا السبب كان ذكر السميع العليم أولى بهذا الموضوع من سائر الأذكار[٣١]. قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الاعراف: ٢٠٠].

إن ذكر الاستعاذة لفظاً وقصداً له

(٣٠) الطبري ١/ ١١١-١١٢.
(٣١) مفاتيح الغيب ١/ ٦٥.

تأثير روحي، ذلك أن الشيطان وجنوده في ظاهرهم كما يقول الحكيم الترمذي[٣٢]، كل منكر، وشر في النفس من الهوى والشهوة والغضب والكره والحقد، وكل نقيصة ونجاسة، واللغة هي مرآة الفكر والنفس للمتكلم، من هنا ندرك الترابط بين النفس واللغة وتأثير الشيطان نعوذ بالله السميع العليم منه ومن جنوده.

وقد ورد في الأثر ما لا يمكن تفسيره ظاهراً إلا تأويلاً، وبعقول تدرك هذا الترابط بين ظاهر الإنسان وباطنه وأهمية اللغة في هذا الترابط.

قال رسول الله ﷺ: ((لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت، ويقول: (حدث هذا بقوتي)، ولكن قل: باسم الله فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب))[٣٣].

وقد وضّح الجبلي في الإنسان الكامل[٣٤]، طبيعة الشيطان وكيفية تصاغره، كل هذا مرتبط باللغة وبعمق الإنسان وروحه، ويشترط القصد في كل العبادات الدينية.

وروي أن رجلين استبّا عند رسول الله ﷺ: أحدهما سبّ صاحبه مغضباً قد احمرّ وجهه، فقال النبي ﷺ: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجده ـ لو قال ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[٣٥].

يقول كلمات يقصد معناها فيحدث هذا التأثير النفسي، الروحي الذي من دونه قد يتسبب الأمر في خصومات.

فثمّة تأثيرات سلبية على الإنسان خفية مصدرها الشيطان وعلى الإنسان مقاومتها بعقله وباستعانته بكلام الله تعالى وببعض العبارات اللغوية يتلفظها وهي عبارات علمها الله تعالى رسوله الكريم ﷺ، ثم أخذها الناس، أي إن مصدرها الغيب لذلك فان لها قوة روحية غيبية مؤثرة في الغيب تَرُدّ وسوسة الشيطان بإذن الله.

وقد تناول الفخر الرازي ماهية (الاستعاذة) لغوياً وفلسفياً وروحياً، قال: ((اعلم أن الاستعاذة لا تتم إلا بعلم

(٣٢) غور الأمور ٦٧.

(٣٣) تفسير الثعالبي: ١/ ١٥٦، والتاج ٥/ ٢٤٩، وينظر: خلق أفعال العباد ٩٦.

(٣٤) ٢/ ٣٦ راجعه.

(٣٥) النشر ١/ ٢٤٣.

وحال وعمل، أما العلم فهو كون العبد عالماً بكونه عاجزاً عن جلب المنافع الدينية والدنيوية وعن دفع جميع المضار الدينية والدنيوية، وإن الله قادر على ذلك... لا يقدر أحدٌ سواه على دفعها عنه، فإذا حصل هذا العلم في القلب تولد عن هذا العلم حصول حالة في القلب، وهي انكسار وتواضع يعبر عن تلك الحالة بالتضرع إلى الله تعالى والخضوع له، ثم إن حصول تلك الحالة في القلب وجب حصول صفة أخرى في القلب، وصفة في اللسان، (فالأولى) هي أن يصير العبد مريداً لأن يصونه الله تعالى عن الآفات ويخصّه إفاضة الخيرات والحسنات.

وأما الصفة التي في اللسان فهي أن يصير العبد طالباً لهذا المعنى بلسانه من الله تعالى، وذلك الطلب هو الإستعاذة، وهو قوله (أعوذ بالله ...) فالعلم بالله هو الركن الأعظم في الاستعاذة وعليه بنفسه ... فإذا حصلت هذه العلوم في القلب وجب أن يحصل في قلبه حالة الانكسار والخضوع، وحينئذ يحصل في قلبه الطلب وفي لسانه اللفظ الدال على ذلك الطلب ذلك هو قوله ((أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...))[٣٦].

البسملة

تناول النحاة واللغويون البسملة بالدرس واختلفوا في اشتقاق الاسم وفي متعلق الباء وغير ذلك مما لا يعنينا في بحثنا هذا. وكذلك خلاف الفقهاء فيها أهي آية هي أم لا، وفي حكم قراءتها في الصلاة، وبتدرج نزولها وبغير ذلك[٣٧].

والذي يعنينا ما نقل في الأثر من أن هذه الكلمات الأربع لها مقدار عظيم وقدر جليل، وتحتها معان لطيفة، عرفها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن بعده الراسخون في العلم. قال أبو حاتم الرازي: ((والله عزّ وجل عظّم شأن هذه الآية فجعلها فاتحة كتابه، وفاتحة كل سورة، وسنّ النبي صلى الله عليه وآله أن جعلها فاتحة كتبه إلى الأمم والقبائل والملوك فجرت السُّنة بذلك منه ﷺ في

(٣٦) مفاتيح الغيب ١/ ٦٥ -٦٦.

(٣٧) ينظر: الزينة ١٦٥ ومفاتيح الغيب ١/ ١٦٨، وتفسير ابن عاشور ١/ ١٣٥ -١٦٠ ولطائف الإشارة ١/ ٢٨.

أمّته واقتدى به سائر الأمم اضطراراً وجبلهم الله على ذلك لعظم شأنها وثبوت برهانها))[٣٨].

وقال الفخر الرازي ((إن من كتب (بسم الله) على بابه الخارج صار آمناً من الهلاك وإن كان كافراً))[٣٩] ونقل روايات لا يمكن تصديقها إلا بالإيمان بالقوة الروحية لهذه العبارة.

من ذلك أن صحابياً كان قد صبَّ السُّم على الأكل ثم قال بسم الله الرحمن الرحيم وأكل وقام سالماً بإذن الله، ليثبت لأحد المجوس القوة الروحية في آية البسملة[٤٠].

ويرى الصوفية أن دلالة البسملة تختلف من سورة إلى أخرى، فيذكرون لها تفسيرات باطنية في أول كل سورة، تتناسب مع المعنى العام للسورة، بل يختلف تفسير البسملة نفسها بين تفسير وآخر، إذ يقول فيها الصوفي بحسب ما يفتحه الله عليه وبحسب مواجيده التي تختلف من صوفي إلى آخر.

يقول الشيخ عبد الكريم القشيري في تفسير بسملة الفاتحة:

((الباء في (بسم الله) حرف التضمين، أي بالله ظهرت الحادثات، وبه وجدت المخلوقات ... وقال (بسم الله) ولم يقل (بالله) على وجه التبرك بذكر اسمه عند قوم، وللفرق بين هذا وبين القسم عند الآخرين، ولأن الاسم هو المسمى عند العلماء، ولاستصفاء القلوب من العلائق ولاستخلاص الأسرار عن العوائق عند أهل العرفان، ليكون مردود قوله (الله) على قلب مُنقّى وسرٍ مُصطفّى. وقوم عند ذكر هذه الآية يتذكرون من الباء (برّه) بأوليائه، ومن السين سرّه مع أصفيائه، ومن الميم مَنُّهُ على أهل ولايته، فيعلمون أنهم ببره عرفوا سره، وبمنته عليهم حفظوا أمره، وبه سبحانه وتعالى عرفوا قدره. وقوم عند سماع (بسم الله) تذكّروا بالباء براءة الله سبحانه وتعالى من كل سوء، وبالسين سلامته سبحانه عن كل عيب له، وبالميم مجد، سبحانه بعز وصفه،

(٣٨) الزينة ١٦٨، وابن عاشور ١/ ١٤٧.
(٣٩) مفاتيح الغيب ١/ ١٧٢.
(٤٠) مفاتيح الغيب ١/ ١٧٢.

وآخرون يذكرون عند الباء بهاءه، وعند السين سناءه، وعند الميم ملكه ...))[41].

فقد ذكر تفاسير الصوفية قبله وهي أقرب إلى المواجيد والحالات النفسية التي تثيرها البسملة فيهم من التفسير اللغوي البياني المعروف.

ثم فسّر بسملة سورة البقرة بغير هذا، فبسملة سورة آل عمران أيضاً فالنساء، تناول في شرحها او تفسيرها اختلافهم في اشتقاق الاسم من السمو (العلو) أو من السمة (الكليّة) تفسيراً صوفياً لا لغوياً، وكأنها حالات وجدانية، تتناسب مع مدلولات السورة العامة[42].

وكذلك بسملة سورة المائدة، والأنعام والأعراف وسائر سور القرآن الكريم[43]، يقول في سورة يونس: ((كلمة توجب شفاء كل عابد وضياءاً لكل قاصد، وعزاء كل فاقد، وبلاء كل واجد، وهدوء كل خالف وسكون لك عارف، وأمان كل تائب..

(٤١) لطائف الإشارات ١/ ٤٤.
(٤٢) لطائف الإشارات ١/ ٥٢، ٢١٧، ٣١٠، ٣٧٥.
(٤٣) لطائف الإشارات ١/ ٣٩٦، ٤٥٩، ٥١٦، ٢/ ٣٦، ٢١٥، ٣٣٣، ٣٧٥.

قلوب العارفين لا تفرح إلا بسماع: (بسم الله) وكروب الخائفين لا تبرح إلا عند سماع بسم الله))[44].

هكذا هم الصوفية لا يعنون بظاهر الآية أو لغتها بقدر عنايتهم بدلالتها العامة أو ما تطرحه هذه الدلالة من تأثيرات روحية، أو تؤديه إليهم أو تفتحه عليهم من معانٍ وأفكار باطنية وتأويلات غيبية.

وقد يستعينون بأقوال اللغويين والنحاة في تحليلها، ويربطون بينها وبين رؤاهم الصوفية، أي أنهم في تأويلاتهم هذه يستندون إلى ظاهر الآية وهو شرط لتفسيراتهم.

يقول القشيري في بسملة الأعراف: ((الباء مكسورة في نفسها وعملها الخفض لأنها من الحروف الجارّة للأسماء، وهي صغيرة القامة في الخط، ونَقْطُها الذي تتميز به عن غيرها واحد وهو نهاية القلة ثم موضع هذه النقطة أسفل الحرف فهي تشير إلى التواضع والخضوع بكل وجه، والسين من (بسم الله) حرف ساكن...

(٤٤) لطائف الإشارات ٢/ ٣٦.

ويقال الباء تشير إلى بيان قلوب أهل الحقائق... فالغيب لهم كشف، والخبر لهم عيان، وما للناس علم فلهم وجود والسين تشير إلى سرور قلوبهم عند تقريبات البسط... والميم تشير إلى محبة الحق ـ سبحانه ـ لهم بدءً فإنها هي الموجبة لمحابهم، إذ عنها صَدَرَ كلُّ حب فبمحبته لهم أحبوه وبقصده اليهم طلبوه، وبإرادته لهم أرادوه. .))[٤٥].

لقد تناول الصوفية (البسملة) تناولاً روحياً غيبياً، يستعينون أحياناً بكلام اللغويين والنحويين، وأحياناً يذكرون كلاماً عسير الفهم ما لم نرجع إلى أسس علم التصوف وأصوله ومصطلحاته ومبادئه وفلسفاته كوحدة الوجود والإشراق وغيرها، ومع ذلك يبقى من الغموض ما لا يمكن فهمه ثم قبوله، وقد يرفضون أقوال اللغويين والنحاة ولاسيما تعليلاتهم، وإنما يفعل الله ما يشاء، يرفع من يشاء ويمنع[٤٦].

(٤٥) لطائف الاشارات ١/ ٥١٦ وفي النص غموض.

(٤٦) ينظر: لطائف الاشارات ١/ ٢٦.

إضافة (اسم) إلى لفظ الجلالة:

يرى النحوي في هذه المسألة غير ما يراه رجل الدين من المفسرين ولاسيما المتأثرون بالفلسفة الصوفية.

قال أبو عبيدة ذكر الاسم صلة زائدة، والتقدير: (بالله)، لأن اسم الشيء هو الشيء بعينه وإنما ذكر لفظ الاسم إما للتبرك، وإما ليكون فرقاً بينه وبين القسم[٤٧].

وتابعه على هذا كثير من العلماء، وخالفه آخرون فقالوا: الاسم غير المسمى، وقال أبو حاتم الرازي لا يضاف إلى لفظ الجلالة شيء إلا اسمه ـ عزّ وجل ـ فقال: (باسم الله) ولم يقل (بالله). فإن تحت ذلك معاني لطيفة، وأمراً عظيماً، ثم نعت بصفتين: الرحمن والرحيم، ولم يزد عليهما، ولم ينقص، وفي ذلك يرى أسراراً خفية وجعلها فاتحة لكتابه الكريم عبرة للكافرين[٤٨]. وضعّف الرازي كلام أبي عبيدة ((لأنا لما أُمِرنا بالابتداء فهذا الأمر إنما يتناول فعلاً من أفعالنا. وذلك الفعل هو لفظنا وقولنا، فوجب أن يكون المراد ابدأ بذكر الله (بسم الله... كما أن ذات

(٤٧) مجاز القرآن ١/ ١١.

(٤٨) الزينة لأبي حاتم الرازي ١٦٩.

الله تعالى أشرف الذوات فكذلك ذكره أشرف الأذكار، واسمه أشرف الأسماء ... وجب أن يكون ذكره واسمه سماتها كل الأسماء)[٤٩].

وقال الصفاقسي: إن إسناد حكم إلى لفظ اسم، يكون حقيقة نحو (زيد اسم ابنك) ومجازاً وهو يطلق الاسم، ويراد به المسمى كقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ [سورة الرحمن: ٧٨] و ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [سورة الأعلى: ١]. وتأويل السهيلي على إقحام الاسم أي، سبح ربك، وإنما ذكر الاسم حتى لا يخلو التسبيح من اللفظ باللسان، لأن الذكر بالقلب متعلقه المسمى، والذكر باللسان متعلقه اللفظ وتأول قوله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً ﴾ [سورة يوسف: ٤٠] بأنها أسماء كاذبة غير واقعة على الحقيقة فكأنهم لم يعبدوا إلا الأسماء التي اخترعوها[٥٠].

ويرى الطبري أن معنى (بسم الله) هو الله تعالى: واستشهد بلغة العرب كثيراً كأن الاسم هو المسمى[٥١].

وقال ابن عاشور: ((وإنما أقحم لفظ (اسم) مضافاً إلى علم الجلالة إذ قيل: (بسم الله)، ولم يقل: (بالله) لأن المقصود أن يكون الفعل المشروع فيه من شؤون أهل التوحيد الموسومة باسم الإله الواحد فلذلك تقحم كلمة اسم في كل ما كان على هذا المقصد كالتسمية على النسك، قال تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [سورة الانعام: ١١٨]))، وقال: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [سورة الانعام: ١١٩]، وكالأفعال التي يقصد بها التيمن والتبرك وحصول المعونة مثل: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ [سورة العلق: ١]، فاسم الله هو الذي تمكن مقارنته للأفعال لا ذاته، ففي مثل هذا لا يحسن أن يقال: بالله لأنه حينئذ يكون المعنى أنه يستمد من الله تيسيراً أو تصرفاً من تصرفات قدرته، وليس ذلك هو المقصود بالشروع، فقوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾

(٤٩) الزينة ١٦٩.

(٥٠) المجيد في إعراب القرآن المجيد ٤١، عن تفسير الثعالبي ١/ ١٥٩.

(٥١) ١/ ١١٤.

[سورة الواقعة: ٧٤] أمرٌ بأن يقول: سبحان الله...))[٥٢].

والتركيب لا يستبعد أن يدلك على أن لله اسماً يريد الله ان يخفيه على عباده، لذلك ذكر ما يدل عليه: (اسم الله). وقد يكون المراد: (اسم الله الأعظم) الذي ورد فيه الأثر أنه ما سأل أحدٌ به إلا استجاب له الله تعالى وقد كتبوا فيه كتباً واختلفوا فيه اختلافاً كبيراً ولاسيما المتصوفة منهم[٥٣].

وقد يكون المراد أن اسم الله تعالى يختلف من لغة الى أخرى فهو المعبود لدى جميع الطوائف والأمم المتحضرة والمتخلفة البعيدة والقريبة، القديمة والمعاصرة، البشرية وغير البشرية، والله أعلم. كيهودا لدى اليهود وكما تدل على ذلك كتبهم[٥٤]، ولا نريد ان نتكهن بهذا الموضوع فنضرب الأمثال، لخطورته.

الخاتمة

لقد دلّت الدراسات اللغوية المتقدمة على ان لغة القرآن الكريم لغة مقدسة، مرتبطة بالإسلام ارتباطاً روحياً لا انفصام له، إذ لا يوجد أحدهما بدون الآخر، وإن العناية الإلهية هي التي بلغت بالعربية هذه الرتبة العالية من القوة والوضوح، وذلك لتهيأتها إلى الحدث العظيم (نزول القرآن الكريم) المعجزة المطلقة. إن الدلالة التي قصدناها للفظة (الروحية) في هذا البحث، الدلالة الإسلامية ولاسيما في صدر الإسلام التي تدعو إلى الأخلاق السامية والزهد في الدنيا والسلوك إلى الله تعالى، فهي نقيض المادية، ولا تتقاطع مع العقلانية. وقد فضلنا استعمال مصطلحي: (الروحي والروحية) بدلاً من مصطلحي (الروحاني والروحانية) اللذين يشعران بدلالة متأثرة بالفلسفات الأجنبية والعلوم الروحانية غير الإسلامية التي تدخل تحتها الغيبيات المحرّمة كالسحر والشعوذة.

وثمة حقائق أو نتائج أشرنا إليها تارة بإجمال وأخرى بتفصيل، منها:

(٥٢) ابن عاشور ١/ ١٤٩.

(٥٣) مثل الغزالي في كتابه (المقصد الأسنى في شرح معاني اسماء الله الحسنى) والقرطبي في كتابه (الأسنى في اسماء الله الحسنى) والبوني في (شمس المعارف الكبرى).

(٥٤) ينظر: قصة الحضارة ج٣، مج٤، ص١٤.

- إن لكلام الله تعالى سلطاناً على القلوب على قدر ما فيها من العلم بالله والخشية له والقرب منه، وفيه شفاء للإنسان من الأمراض النفسية والجسدية.
- إن من النصوص الإسلامية المأثورة ما لا يمكن تفسيرها في ظل الجانب المادي المعاصر إذ تتقاطع معه إلا في ضوء الإيمان بالجانب الروحي في اللغة العربية ذلك إن ظاهرها قد يتقاطع مع العلم والعقل.
- إن لكل مقال حرمة لدى الله تعالى، فإذا نطقه الإنسان وقصده وتدبّره، نفعه في حياته بحسب المواطن والحالات النفسية وكان له شفاءاً.
- إن معجزات القرآن الكريم مطلقة، ومنها روحية ألفاظه التي هي شفرات لما في الغيب الإلهي.
- إن للتصوف الإسلامي نظرة إلى اللغة العربية فلسفية روحية، وقد بذلوا جهداً متفرّقاً في بحوثهم لخدمة اللغة العربية، ولهم أطروحات قد تتقاطع ظاهراً مع البحث الأكاديمي المعاصر، غيبية، وغريبة، ومغرقة في الفلسفة الإلهية، وإن استعانوا بالنحو وعلم اللغة إلا إن كلامهم عسير الفهم، غامض ما لم نرجع إلى أسس علم التصوف ومبادئه ومصطلحاته وفلسفته.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين ﷺ، محمد بن علي الشوكان (١٢٥٠هـ)، دار التربية، مطبعة وأوفسيت منير، بغداد (د.ت).

٢. التصوّف الثورة الروحية في الإسلام، د. أبو العلا عفيفي، ط١، ١٩٦٣.

٣. التعرف لمذاهب أهل التصوّف، أبو بكر محمد الكلاباذي (٣٨٠هـ)، تحقيق: د. يوحنا الحبيب، ط١، دار صادر، بيروت ٢٠٠١.

٤. تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، (د.ت).

٥. تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في

تفسير القرآن)، الإمام عبد الرحمن مخلوف الثعالبي (٨٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد الموجود، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٩٧.

٦. التفسير الصوفي للقرآن عند الصادق، د. علي زيعور، ط١، دار الأندلس ١٩٧٩.

٧. ختم الأولياء، الحكيم الترمذي، تحقيق: عثمان إسماعيل يحيى، المطبعة الكاثوليكية، بيروت (د.ت).

٨. خلق أفعال العباد، الإمام محمد بن إسماعيل النجادي، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، ط١، دار الجيل، بيروت ١٩٩١.

٩. الحياة الروحية في الإسلام، د. محمد مصطفى حلمي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر ١٩٤٥.

١٠. رسائل ابن عربي، تقديم محمود الغراب، ضبط محمد شهاب الدين العربي، ط١، دار صادر، بيروت ١٩٩٧.

١١. رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، تصحيح خير الدين الزركشي، المطبعة العربية بمصر ١٩٢٨م.

١٢. الرسالة القشيرية في علم التصوف، أبو القاسم القشيري (٤٦٥هـ)، دار التربية، مطبعة واوفسيت منير، بغداد (د.ت).

١٣. الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، الشيخ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي (٣٢٢هـ)، تحقيق: حسين بن فيض الله الهمداني، ط١، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٦٤.

١٤. شرح مشكلات الفتوحات المكية، عبد الكريم الحبلي، تحقيق: د. يوسف زيدان، ط١، مصر ١٩٩٩.

١٥. شمس المعارف الكبرى، الشيخ أحمد بن علي البوني (٦٢٢هـ)، ط١، مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت ٢٠٠٠.

١٦. الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس (٣٩٥هـ)، تحقيق: مصطفى الشويحي، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٤.

١٧. الفتوحات المكية، الشيخ محي الدين

بن عربي (٦٧٨هـ)، دار صادر، بيروت (د.ت).
١٨. قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، أبو طالب المكي، تحقيق: سعيد نسيب مكارم، ط١، دار صادر، بيروت ١٩٩٥.
١٩. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم، جار الله الزمخشري (٥٨٣هـ)، ط١، دار الفكر ١٩٧٧.
٢٠. الكليات، أبو البقاء الكفوي (١٠٩٤هـ)، تحقيق: د. عدنان درويش، ومحمد المصري، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٨.
٢١. لطائف الإشارات، الإمام القشيري، تحقيق: د. إبراهيم بسيوني، ط٢، الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨١.
٢٢. مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، لفخر الدين الرازي (٦٠٤هـ)، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨١.
٢٣. المقصد الأسنى في شرح معاني اسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالي، تحقيق: فضلة شحادة، ط٢، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦.
٢٤. مكانة العقل في الفكر العربي، ندوة المجمع العلمي العراقي، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٨.
٢٥. مكارم الأخلاق، الشيخ أبو نصر الطبري (٦٨٠هـ)، تحقيق: الشيخ حسن الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٩٩٤.
٢٦. نحو القلوب، الإمام أبو القاسم القشيري (٤٦٥هـ)، تحقيق: مرسي محمد علي، محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).
٢٧. نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، أوستين، ترجمة عبد القادر قينيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ١٩٩١.
٢٨. نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول ﷺ، الحكيم الترمذي، دار صارد، بيروت، (د.ت).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ
أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ
۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ
أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ
ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ
۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ
كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا
يَعْلَمُونَ ۝ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟
إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ

ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝

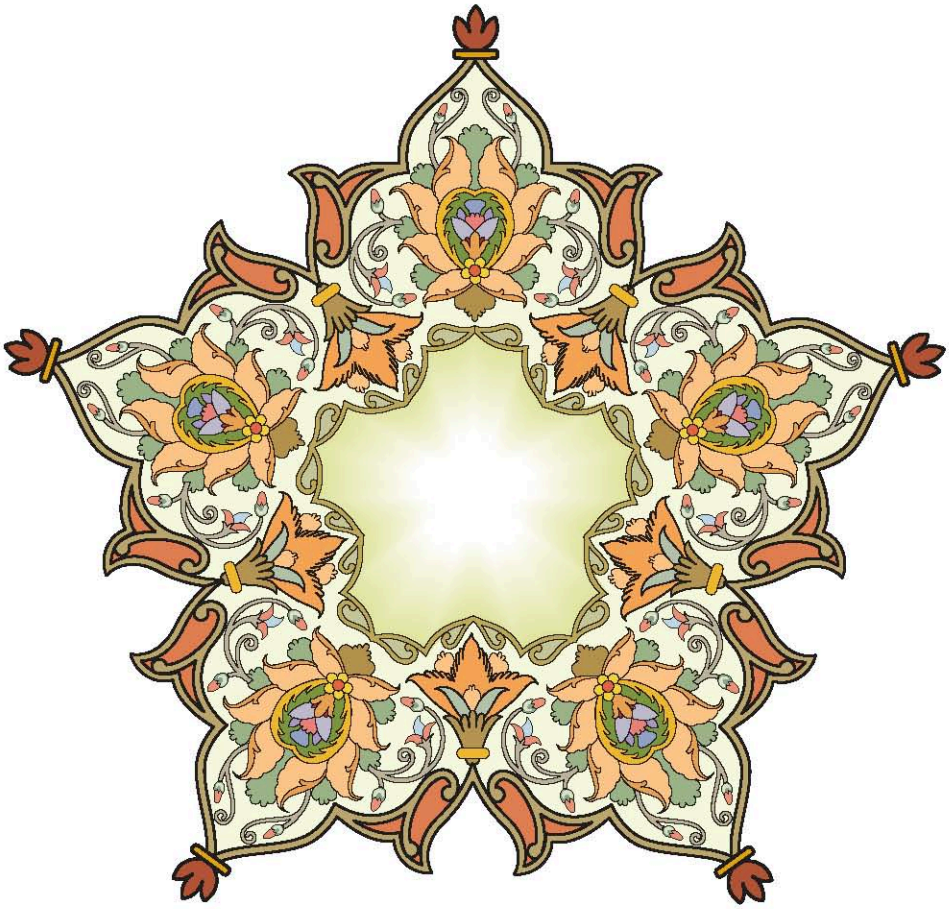

القرآن الكريم
طريقنا لتجاوز العجز الحضاري

أ.د. وجدان فريق عناد
مركز احياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد - العراق

ملخص البحث

يبدو من خلال هذا البحث أن الإسلام والمسلمين يمرون بمرحلة تاريخية مهمة زُرعتْ فيها بذور الإعلان عن مرحلة مقبلة للعالم الإسلامي، يحتاجون فيها إلى التغيير والإفادة من عِبَر التاريخ، لبناء إرادة إسلامية منهجها القرآن لتكون قادرة على جعل المسلمين متمكنين من رفض الهيمنة واستمرار المقاومة.

ولابد أن يعمل المسلمون على توعية المعجبين بالحضارة الغربية خاصة، بأن الإسلام من أكثر الديانات دعوة إلى التسامح والسلام والأخوة العالمية .

كما تقرر السيدة الباحثة أن الإسلام يؤمن بالحوار ويرى فيه جسور التواصل بين العالم، أما الصراع فهو نهاية العالم.

وتستنتج: أن القرآن الكريم خطاب أزلي صالح لكل زمان ومكان، وان في آياته مفاتيح لكنوز العلوم والنظريات في كل مجال. ففي دلالة الآيات المذكورة والتي استشهدت بها معانٍ صريحة وحثٌّ على الدعوة للحوار بين البشر.

المقدمة

في عالم السياسة اليوم نظريتا صراع الحضارات وحوار الحضارات، وكلتا النظريتين تبحثان في مستقبل ومصير الحضارة الغربية. والذي يهمنا من هاتين النظريتين نظرتهما إلى العالم الإسلامي، إذ ترى الأولى أن العالم الإسلامي خطر يهدد الحضارة الغربية وسيكون سبباً في انهيارها، والثانية ترى فيه خير مثل يمكن أن يحتذى من أجل أن تستطيع تلك الحضارة أن تدوم مدة أطول.

ويبدو أن الاهتمام بالعالم الإسلامي يأتي من كون أن القرآن الذي هو دستور المسلمين قد جعل من العرب والمسلمين أمة ذات حضارة لا يزال أثرها باقيا، وهي حية قادرة على التعامل مع كافة الحضارات التي انطوت تحت لوائها، وفيه أقدم دعوة للحوار بين الحضارات، عندما خاطب الله تعالى البشر بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[سورة الحجرات: ١٣].

وبعد أن أصاب الضعف تلك الحضارة، وتقدمت الحضارة الغربية، فإن بعض مفكري الحضارة الغربية، ومنهم (صموئيل هنتنغتون) أخذ يبحث في الأسباب التي تهدد حضارته بالانهيار، فتوصل إلى أن العالم الإسلامي سيكون سبباً أساسياً في سقوطها وانهيارها، لأنه يرى أن الحضارة الإسلامية، هي من الحضارات المتحدية للحضارة الغربية، التي ستكون في صراع معها في المستقبل، والذي ستكون نتيجته أساسية للتطور التاريخي.

فالإسلام هو العدو الأول الذي تخشى منه الحضارة الغربية، لأن القرآن الذي رسم منهج حياة متكاملة، متى ما سار عليه المسلمون فأنه كفيل بأن يجعل منهم قوة قادرة على التنافس والتفوق على الحضارة الغربية، لأنه سيحقق الاستقلال السياسي الذي يحررهم من الهيمنة الغربية الاقتصادية والعسكرية، وعندها ستنهض الحضارة الإسلامية ويتضاءل شأن الحضارة الغربية.

وهذا البحث يخوض في حيثيات نظرية صراع الحضارات وكيفية رؤيتها للإسلام كونه يشكل الخطر الأول على الحضارة الغربية، وكيف أن القرآن قد وضع منهاج للمسلمين لتجاوز العجز الحضاري الذي يعيشه العالم الإسلامي، وهو السبيل الأنجع للمسلمين للارتقاء بحضارتهم ذات الصبغة الإنسانية البعيدة عن الدعوة لصِدام مع الحضارات الأخرى، بل إن أقدم دعوه للحوار والتفاعل الايجابي بالحضارات والشعوب الأخرى نادى بها القرآن الكريم.

نظرية صِدام الحضارات وموقع الإسلام فيها:

في العام ١٩٩٦ صدر كتاب "صِدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي" لمؤلفه صاموئيل هنتنغتون، و فكرة الكتاب الأساسية هي أن الثقافة أو الهوية الحضارية هي الأساس في تشكيل نماذج التماسك والتفكك والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة. وإن أكثر الصراعات انتشاراً وأهمية وخطورة ستكون بين شعوب تنتمي إلى هويات ثقافية مختلفة، وإن هذا الصراع حتمي، لأنه سيكون ليس بين القوى العظمى، ولكن بين الحضارات التي يقسمها هنتنغتون على ثلاثة أصناف، والذي يهمنا منها هي الحضارات المتحدِّية، وهي الحضارتان الإسلامية والصينية، والعلاقة بين الحضارتين المتحدية والغربية، هي أن العلاقات بينهما تكون متوترة ومشدودة، وفي الأعم الأغلب عدائية. فالإسلام في نظره هو العدو الأول، لأنه يرى أن الإحياء الإسلامي قد أعطى المسلمين الثقة في أهمية حضارتهم وقيمهم، مقارنة بالحضارة الغربية[1].

لقد شغلت هذه النظرية المثقفين فصدرت حولها تعليقات مؤيدة لها أو ضدها، وبما أن العرب هم أكثر المستهدفين في هذه النظرية، بل إن نصف الكتاب تقريباً يتحدث عنهم، والسبب في ذلك أن صاحبها يرى أن توازن

(١) صاموئيل هنتنغتون، صِدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ترجمة مالك عبيد أبو شهيوه ومحمود محمد خلف، الطبعة الأولى، الدار الجماهيرية للتوزيع والنشر والإعلان، مصراته، ١٩٩٩، ص١٤ وما بعدها.

القوى بين الحضارات سائر نحو التغيير، فالحضارة الغربية تتراجع في نفوذها النسبي والحضارات الآسيوية تسير نحو التقدم والتوسع في قواعدها الاقتصادية والعسكرية والسياسية، والإسلام يتفجر سكانياً، الأمر الذي يؤدي إلى عدم الاستقرار للدول الإسلامية وجاراتها والحضارات غير الغربية بشكل عام، وهي الآن ترى أن ثقافاتها ذات قيمة عالية.

أما الحضارة الغربية فإن أطروحتها العالمية تجعلها في صراع مع الحضارات الأخرى، وبشكل أكثر خطورة مع الإسلام والصين، والذي يهمنا في بحثنا هذا هو الإسلام. ذلك أن كل العلماء الكبار يعترفون بوجود حضارة إسلامية متميزة، ولدى بروزها في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، انتشر الإسلام بسرعة عبر شمال أفريقيا وشبه الجزيرة الأيبيرية وكذلك شرقا إلى شبه القارة الهندية وجنوب شرقي آسيا، ونتيجة لتوسع الرقعة السياسية وجدت ثقافات اخرى متميزة أو فروع حضارية داخل الإسلام، بما في ذلك العرب والأتراك والفرس والملاويين[٢].

ففيما يتعلق بالحركات الاسلاموية (المنسوبة الى الاسلامي) التي يسميها هنتنغتون بالإحياء الإسلامي، فان هذه الحركات، في الوطن العربي خاصة، والإسلامي عامة، يجب النظر إليها بأنها استجابة للمشكلات الجارية في مجتمعاتها في الحياة اليومية، ومنها الدولة التسلطية، والتحضر السريع، والتغيرات الاجتماعية والثقافية والتعليمية، وحقيقة التبعية وتخلف الدولة وضعفها، هي الأسباب وراء ذلك الإحياء.

يبقى الإسلام والمسلمون العدوَّ الأولَ الذي يريد أن يكرسه هنتنغتون في أذهان مجتمعات الحضارة الغربية وخطراً حقيقيا، لأن الشعوب الإسلامية تحاول البحث عن مشروع حضاري، يكون الإسلام جوهره، والمعطيات الحضارية العالمية أساسه، لذا يرى أن الإسلام وحضارته يشكل تهديداً للحضارة الغربية[٣].

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٨.
(٣) المرجع نفسه، ص ٤٩.

فنظرية (صِدام الحضارات) تؤمن بمركزية الحضارة الغربية، والانحياز ثقافياً وقيمياً الى تلك الحضارة ومصالحها الإستراتيجية السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية، فهي تؤمن بالمصالح الغربية فقط، وتجعل للإسلام « حدوداً دامية »، وأن الإسلام مرتبط بالعنف منذ ظهوره، وأن تاريخ الإسلام كله صراع وعنف مع أطرافه الخارجية، وبين أقسامه الداخلية. فهذه النظرية محاولة لإقناع الغرب بأن المسلمين يتحدون الغرب، وقد اختار هنتنغتون أمثلة وأحداثاً بطريقة انتقائية، وفسرها بالشكل الذي يجعلها متلائمة مع أفكاره ونتائجه، مع العلم أن أفكاره وتحليلاته متناقضة [٤].

نظرية حوار الحضارات وموقع الإسلام منها:

المفكر الفرنسي (روجيه غارودي) صاحب كتاب «من أجل حوار بين الحضارات» يعد من الرواد في إطلاق هذا المصطلح، وهو باختصار يدعو المفكرين والسياسيين الذين يعيشون في كنف الحضارة الغربية إلى الإفادة من الحضارة العربية الإسلامية، لأنها برأيه تمكنت من أن تمتد من بحر الصين إلى المحيط الأطلسي في مدة زمنية قصيرة نسبياً. ويرى أن السبب وراء ذلك: «أن العرب حملوا معهم أشكالاً أسمى وأرفع من التنظيم الاقتصادي والاجتماعي، فانضمت إليهم جماهير الناس في عالم يمارس الاستعباد ويقف في أوج التحلل».

كما إنه أراد أن يقدم للحضارة الغربية شهادة تتمثل في أن الحوار بين الحضارات هو السبيل الوحيد لميلاد مشروع كوني لاختراع المستقبل. وإن الحضارة العربية الإسلامية هي الوحيدة التي تمكنت من مد جسور الحوار بين الحضارات التي أنضوت تحت لوائها، فهو يقول: إنه يرغب أن يقدم شهادة «عن تجربة عالمية عن فرحة الثراء الإنساني الذي مكنتني منه ثقافات غير غربية ورجال من آسيا

(٤) المرجع نفسه، ص٦١. ينظر كذلك: حميد حمد السعدون، الغرب والإسلام والصراع الحضاري، دار وائل للطباعة والنشر، عمان، ٢٠٠٢، ص٨٤.

ومن ديار الإسلام ومن أفريقيا وأمريكا اللاتينية، أن أقدم شهادة عما بحثت عنه، واعتقد أنني اكتشفته من طابع إلهي في كل واحدة من تلك الثقافات، وفي كل واحد من أولئك الرجال»[٥].

وهو يرى أن هناك حاجة ماسة لاستعراض التاريخ بمنظار لا تشوهه أوهام الاستعمار الغربي ولا تبقى أوروبا وحدها مركز جاذبيته، فهو يقدم صورة عن مساهمة الحضارة الإسلامية في التقدم الإنساني، وما تنطوي عليه من قيم عظيمة، فهي تقدم الدواء الشافي لما يعانيه البشر في عصرنا هذا من قلق واضطراب وتدهور[٦].

لقد وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة في العام ٢٠٠٠ على اقتراح الدكتور محمد خاتمي رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية السابق بشأن تسمية العام ٢٠٠١ بعام الحوار بين الحضارات، فعقدت من اجل ذلك المؤتمرات لدراسة آليات الحوار، ومعالجة جوانبه المتشابكة والمعقدة ونقد الحركات العالمية والأحداث الدولية على وفق قاعدة الحوار لتكون قيمة أساسية للمجتمع البشري. وهناك دعوات كثيرة ليكون الحوار وإحلال السلام والتعايش السلمي هو القيمة العليا بدلاً من النعرات العنصرية والمذهبية والطائفية، وذلك من أجل الوقوف بوجه القوى التي تتخذ من الحرب وسيلة لفرض نظام عالمي على كل البشر، وتأطيرهم بإطار سياسي واحد[٧].

وباختصار فإن الحوار بين الحضارات يدعو إلى البحث عن المبادئ المشتركة بين الحضارات الإنسانية في ماهيتها ومداها، بأنها تتصل أصلاً وفرعاً ومسلكاً ومضموناً جملة وتفصيلاً بالشأن الإنساني. إنها أصول فكرية أفرزتها خبرة البشر وذكّرت بها النبوءات في مختلف الثقافات

(٥) روجيه غارودي، من أجل حوار بين الحضارات، ترجمة محمد حديد، الطبعة الثانية، د.م، د. ت، ص٣٤.

(٦) ستار جبار الجابري، أي حوار نريد، مجلة المرصد الدولي، مركز الدراسات الدولية -جامعة بغداد، العدد الرابع، حزيران -٢٠٠٧، ص٣٣.

(٧) محمد خاقاني، أصولنا في حوار الحضارات، مجلة المرصد الدولي، مركز الدراسات الدولية -جامعة بغداد، العدد الثالث، آذار -نيسان -٢٠٠٧، ص ٥.

والحضارات عبر العصور

حقيقة قرآنية:

إن القرآن الكريم سبق غارودي بما يزيد على أربعة عشر قرناً في الدعوة إلى الحوار الإنساني البناء حينما خاطب الله تعالى الناس بقوله -تعالى- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٨] [سورة الحجرات: ١٣]، وهذه دعوة صريحة من القرآن الكريم في كيفية التعامل مع الشعوب الأخرى، فالإسلام يدعو إلى احترام الأقوام الأخرى وعدم التعامل معهم بالتعالي عليهم والغرور[٩].

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[١٠] [سورة ال عمران: ٦٤].

فهو خطاب عالمي يتجاوز المنطقة التي ظهر فيها الإسلام ويتجاوز العرق البشري الذي انتمى إليه نبي الإسلام بالتصريح بكونه رحمة للعالمين، فالإسلام يرى العالم كله لله، وأن الله تعالى سخر العالم كله للبشر. قال -تعالى -: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١١] [سورة الجاثية: ١٣].

ومن خلال ذلك المنطلق الذي أساسه منهج القرآن في كيفية التعامل مع الشعوب والأقوام الأخرى، استطاعت الحضارة العربية الإسلامية في نشأتها وأوج ازدهارها أن تستفيد من حضارة

(٨) ينظر في تفسير الآية: الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت القرن السادس الهجري). مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي، ج١٣، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٩هـ، ص١٣٤؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت٧٧٤هـ). تفسير القران العظيم، ج٤، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٩، ص٢١٧.

(٩) محمد العربي الخطابي، من أجل حوار بين الحضارات، مجلة المناهل، العدد العاشر، السنة الرابعة، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧م، ص٣٩-٤٠.

(١٠) الطبرسي، المصدر السابق، ٢/ ٤٥٤.

(١١) ينظر:- الطبرسي، المصدر السابق، ٩/ ٧٣؛ حميد مجيد هدو، كمال الحيدري قراءة في السيرة والمنهج، ج٢، مؤسسة الهدى، ٢٠١١، ص٩٨١.

تلك الشعوب، فعرفت تلك الحضارة ثراءً فكريا وروحياً لم يكن له مثيل[١٢].

فالقرآن الكريم يدعو المسلمين إلى نشر الدعوة الإسلامية وإيصال كلمة الحق إلى الناس جميعاً، ويدعوهم إلى إقامة المحبة والدعوة بالحكمة ويرفض التقليد في العقيدة والإكراه في الاعتناق، ويدعو إلى الانفتاح والتفاعل مع الآخر بغض النظر عن العقيدة والجنس واللون واللغة، بعيدا عن الاستعلاء القومي ومحاولة إلغاء الآخر وإذابته وتجريده من خصوصياته ونهب خيراته وثرواته، إنما القرآن يأمر المسلمين بالرحمة وإخراج الناس من الظلم، وأساس الدعوة لابد أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، واعتماد البراهين والأدلة، متبعين اليسر واللين ورفض الإكراه والتعنيف والتجريح[١٣].

(١٢) محمد العربي الخطابي، المرجع السابق، ص٤٠.

(١٣) غازي سعيد سليمان، المنهج الإسلامي في التعايش السلمي مع غير المسلمين، مطبعة هيئة إدارة واستثمار الوقف السني، بغداد، ٢٠٠٩، ص ٧٣ - ٧٤.

واقع العالم الإسلامي:

لقد مر العالم الإسلامي بحقب تراجع فيها المسلمون عن قيمهم المثلى، وانغلقوا على انفسهم، ومن تلك الحقب، القرن الثالث الهجري، إذ كان المسلمون يخوضون في مناقشات عديمة الجدوى، أخرتهم عن بناء الحضارة الإسلامية، فلولا تلك المناقشات العقيمة -منها مسألة خلق القران -لبلغت الحضارة والعلوم الإسلامية مستوى أكثر تقدما مما بلغته بعد ذلك، فعلى سبيل المثال فإن الثورة الصناعية في أوروبا، كانت مقومات نشوئها متوافرة لدى الحضارة الإسلامية في ذلك القرن[١٤].

وعلى العموم، ففي الوقت الذي نهض الغرب فيه لاكتساب العلوم والكشف عن أسرار العالم، بقي المجتمع الإسلامي في ركوده وتخلفه عن الغرب، متناسياً تحديات العصر، ثم أدركت الأمة الإسلامية خسارتها الكبيرة في ركونها وخضوعها، وفي تفتت قيمها وكيانها، فبدأت دعوات

(١٤) محمد تقي المدرسي، القرآن حكمة الحياة، قم، ٢٠٠٧، ص١٧٩.

تظهر في أنحاء المجتمع الإسلامي من أجل أن يستفيق المسلمون من سباتهم، ويفهموا خطر الموقف في الوضع الراهن وفي عصر العولمة[١٥].

هذا هو حال العالم الإسلامي، قبل أن تصحو الأمة الإسلامية لتجد مجتمعاتها تعاني من أفكار متخلفة لا تمت إلى الإسلام بصله، وهذه الأفكار كانت نتيجة فلسفات دخلت في كيان الأمة الإسلامية[١٦].

والسؤال الذي يطرح نفسه؟

ما السبيل كي تتمكن الأمة الإسلامية من النهوض من جديد، لتستعيد مكانتها العالمية، مادامت تتمتع بتلك الإمكانات التي تجعل نظرية صراع الحضارات ترى أنها تهدد وجود الحضارة الغربية ؟ وانها هي المؤهلة لقيادة العالم لأنها تمتلك البعد الإنساني والتجربة التاريخية الناجحة في التعامل مع الأقوام والشعوب الأخرى على وفق رؤية (نظرية حوار الحضارات).

ويبدو أن الجواب الوافي يكون في القرآن الكريم، لأنه متى ما سارت الأمة الإسلامية على منهج القرآن الكريم، فإن التمزق والتخلف سينتهي، وتحلّ محله الوحدة الإسلامية، وبالتالي تتحقق النهضة العلمية التي تجعل العالم الإسلامي قوة عظمى، وهذا ما تخشاه نظرية صِدامِ الحضارات.

"إن خلاصنا يكمن في القرآن لأنه يمنحنا ما نحرك به أسباب التقدم في أنفسنا، وما ينظف فطرتنا، ويعيدنا إليها بسلام"[١٧].

القران هو السبيل إلى تجاوز العجز الحضاري:

القران الكريم ليس مثل الكتب السماوية الأخرى التي امتدت إليها يد التحريف من حذف وإضافة، بل هو كتاب الحياة سواء الحياة الدنيا أم الآخرة، لأن الحكمة القرآنية لا تفصل بين الحياتين، بل إن احدهما تكمل الأخرى، فالقرآن منهج وبرنامج الهي ينظم الحياة وشؤونها لتعد الإنسان في النهاية لاستقبال الحياة

(١٥) محمد خاقاني، المرجع السابق، ص ٨.
(١٦) محمد تقي المدرسي، المرجع السابق، ص١٨٢ -١٨٣.
(١٧) محمد تقي المدرسي، المرجع نفسه، ص١٨٣.

الأخرى، وهو منبع الحكمة، وفيه ضالة الإنسان في البحث عن السعادة، والأمن، والسلام، والعيش الهانئ. لذلك فأن الإيمان بالله وخشيته ومعرفته، هي رأس كل حكمة، وبالتالي رأس كل فضيلة، ومنها تنحدر سائر الحكم[١٨].

إن الوجه الحضاري للحياة يتمثل في أن تؤطر بالحرية والكرامة والاستقلال، ومن اجل بلوغ معالم الحضارة تلك، فمن الأجدى بالإنسان أن تكون حركته من منطلق الحكمة والوعي، وان يتخلق بالأخلاق الإيمانية، الأمر الذي يقوده إلى مبتغاه الحضاري في العيش بحياة حرة كريمة، وبدون ذلك فأنه سيبقى في التخلف، والتبعية، والخضوع للآخرين. ولكي تتحقق تلك الأهداف الحضارية فان القرآن يحدد الطريق لذلك بخطوات هي[١٩]:

أولا: التغير: على المسلمين الذين يطمحون إلى التغير أن يدركوا أن البداية تبدأ من قوله تعالى ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[٢٠] [سورة الرعد: ١١]. فلكي يكون المسلمون سائرين نحو التقدم والازدهار. والحياة الحرة وتكون بيدهم القوة، لابد أن يتحركوا ويغيروا ما بانفسهم بالشكل الذي لا يدع الآخرين يسيطرون عليهم ويفرضوا أنواع الهيمنة أيا كانت: فكرية، ثقافية، اجتماعية أو اقتصادية. .. الخ. ومن الحقائق أن طبيعة الإنسان وفطرته تكون في حركة مستمرة نحو التكامل لقوله تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[٢١] [سورة التين: ٤].

ثانيا: التوكل على الله: أي إن المسلمين في مسيرتهم لبناء الحضارة الإسلامية، عليهم أن يضعوا أمام أعينهم حقيقة: أن الشيء الوحيد الذي يخشونه هو الله،

(١٨) محمد تقي المدرسي، المرجع السابق، ص١٥١ وما بعدها.

(١٩) حميد حمد السعدون، المرجع السابق، ص٤٥.

(٢٠) ينظر: الطبرسي، المصدر السابق، ٥/ ٢٧٩؛ د. حميد مجيد هدو، المرجع السابق، ج٢/ ص٩٧٧.

(٢١) الطبرسي، المصدر السابق، ٦/ ٥١٠.

وان هذه الصفة هي التي تقود إلى العزة والكرامة والاستقلالية، والآيات القرآنية الكريمة في ذلك كثيرة منها: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[٢٢][سورة الطلاق: ٣].

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[٢٣][سورة التوبة: ٥١].

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٢٤][سورة آل عمران: ١٥٩]. ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٢٥][سورة الملك: ٢٩].

ومن صور التوكل قول كلمة الحق، وان لا يخشى في ذلك لومة لائم، ولا من عواقبها، لان الله سيكون سنده، لأن الشجاعة التي تأتي من التوكل هي سر النجاح في الحياة[٢٦].

ثالثا: التاريخ: فالقرآن ومن خلال القصص يدعونا إلى أن نتفكر فيه، ويعطينا درسا مهما، هو التمعن بالتاريخ ومظاهر الصراع التي كانت، وكيف انتهت بانتصار الأتقياء والصالحين. فالتاريخ ينفع في أخذ العبر لبناء مستقبل مشرق، وذلك بالابتعاد عن أخطاء الماضي. «فالحياة تفيض بالعبر، والدروس، والتاريخ مدرسة كبرى، ومعلم خبير، ونحن لم نصل إلى ما وصلنا إليه منقطعين، ومنفصلين عن تلك المدرسة وهذا المعلم، فلقد مضت قبلنا آلاف من السنين كان خلالها أناس، وكانت أمم وصراع، ومعاناة تفوق ما نراه الآن آلاف المرات...»[٢٧].

لأن الذي يستلهم العبر من تلك المدرسة سوف يكون قوياً ولن يهتز، أو

(٢٢) الطبرسي، المصدر السابق، ٩/ ٣٠٢.
(٢٣) الطبرسي، المصدر نفسه، ٥/ ٣٦.
(٢٤) الطبرسي، المصدر نفسه، ٢/ ٥٢٦.
(٢٥) الطبرسي، المصدر نفسه، ٩/ ٣٢٨.
(٢٦) محمد تقي المدرسي، المرجع السابق، ص١٥٩.
(٢٧) محمد تقي المدرسي، المرجع نفسه، ص ١٦٧ - ١٧٠.

ينهزم عند مواجهة المشاكل، والعكس سيكون حال من لا يهتم بالتاريخ، لأنه لا يعرف كيف يعالج المصائب، ولكي تعطي قراءة التاريخ جدواها، فلابد أن تتم عن طريق قراءة القران وتلاوته والتدبر في آياته، وقصصه[٢٨].

والدين الإسلامي منذنزول الوحي على النبي محمدﷺ هو دين الحوار والاستفهام والدلالة الحسية والعقلية، بل إن اللغة القرآنية كانت إعجازاً في لغة الحوار[٢٩].

وللحضارة الإسلامية في حوارها مع الحضارات الأخرى مبادئ رسمها القرآن، هي[٣٠]:

أولاً: الإيمان بالحقيقة.

ثانياً: عدم ادعاء احتكار الحقيقة في جانب واحد.

ثالثاً: الاقتناع بأن هناك أخذ وعطاء بين الحضارات والمدارس الفكرية.

رابعاً: الخضوع والاستسلام للحقيقة بعد أن يظهرها الحوار.

كما أن للحضارة الإسلامية مبادئ للتعارف مع الآخر وفق المنهج القرآني هي:

أولاً: معرفة الآخر التي هي من الأمور المهمة التي يُبنَى عليها التعارف، ويدخل في ذلك معرفة لغة الآخر، معرفة أهدافه وخططه، معرفة إمكانات وطاقات وايجابيات وعلوم ومعارف الآخر[٣١].

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾.

ثانيا: الاعتراف بالآخر، ويعني الاعتراف بالتنوع والاختلاف الحاصل بأمر الله، وأن المنهج القرآني يقوم على أساس الاعتراف بالآخر المختلف، والإقرار بوجوده والحوار معه، وليس إلغاءه وتهميشه، وعدم الاعتراف به. ولهذا

(٢٨) عبد الرحمن حللي، حرية الاعتقاد في القرآن الكريم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٨٩، بديع الزمان سعيد النورسي، المعجزات القرآنية، ترجمة احسان قاسم الصالحي، مطبعة الرشيد، بغداد، ١٩٩٠، ص٢١٤ -وما بعدها.

(٢٩) حميد حمد السعدون، المرجع السابق، ص٦٧.

(٣٠) محمد خاقاني، المرجع السابق، ص١٣.

(٣١) غازي، المرجع السابق، ص٨٠ -٨٣.

ففي القرآن آيات كثيرة فيها حوار مطول مع المشركين وأهل الكتاب وحتى مع الشيطان، فالقرآن رسم لنا المنهج الحواري القائم على الاحترام للإنسانية والشعور والخصوصية، ومحاولة الإقناع واستخدام الحجج والبراهين وعدم الإكراه والحرية في الاختيار[٣٢]، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[٣٣][سورة الكهف: ٢٩].

ثالثا: التعاون مع الآخر في ميدان المشتركات -التعاون الذي فيه خير للبشرية جمعاء مبدأ قراني أصيل ومبدأ عام في كل الجماعات الإنسانية والقرآن يأمر بالتعاون ليس مع المسلم فقط، وإنما بالتعاون مع غير المسلم بشرط أن يكون الهدف خدمة البشرية ودفع الظلم وتحقيق مصلحة عامة[٣٤]. وقد قرر القران الكريم ذلك بقوله: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[٣٥][سورة المائدة: ٢].

أسلوب الحوار الإسلامي:

لقد حدَّ القران أسلوب الحوار ولغته، بأن تكون بالحسنى. وذلك في قوله تعالى ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[٣٦][سورة العنكبوت: ٤٦].

إن الحوار الذي اعتمده الإسلام، هو حوار راق وحضاري وإنساني، ومن الآيات التي توضح احترام الله وأنبيائه لشكل الحوار والفهم المشترك مع اقرب الناس إليه: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٣٧] [سورة المائدة: ١١٢].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ

(٣٢) المرجع نفسه، ص٨٢ -٨٣.
(٣٣) الطبرسي، المصدر السابق، ٦/ ٤١٤.
(٣٤) غازي، المرجع السابق، ص٨٣ -٨٤.
(٣٥) الطبرسي، المصدر السابق، ٣/ ١٥٢.
(٣٦) الطبرسي، المصدر نفسه، ٧/ ٢٨٦.
(٣٧) الطبرسي، المصدر نفسه، ٣/ ٢٦٣.

أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[٣٨] [سورة البقرة: ٦٧].

والأسبق لذلك أن الإسلام جعل الحوار مع الله سبحانه مباشر. قال-تعالى- ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[٣٩] [سورة البقرة: ١٨٦].

كما نلاحظ أهمية الحوار من التحية التي يستعملها المسلم لأي شخص أخر والتي تبدأ بسلام عليكم فالسلام لغة حوار وقناعة[٤٠].

فالقرآن يرى في الحوار الحضاري مطلباً مهماً لإدامة الحياة لأن صِدام الحضارات هو نهاية العالم، وان الحوار الحضاري هو جسر التواصل الحقيقي لاستمرار الحياة»[٤١].

لذلك فالقرآن الكريم بدعوته الى حوار الحضارات ينطلق من قاعدة أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس من شعوب وقبائل وجعل التواصل والتعارف قاعدة للتعامل فيما بينهم، وهو بهذا يرتب لمبدا مهم هو مبدأ الأخوة الإنسانية والعدالة ومبدأ التعارف والتواصل والتعاون، فالإسلام ينظم العلاقات الإنسانية على أساس الوحدة الإنسانية الجامعة لا على أساس المظاهر المفرقة و منها التعصب، الغنى، الفقر، الجهل، والعلم، فالقرآن الكريم أقر بوجود الأخوة الإنسانية المشتركة بين البشر إلى جانب إقراره بالأخوة الخاصة بين المؤمنين، فالعلاقات والروابط بين المسلمين وغيرهم قاعدة للحياة، وأكد الإسلام المساوة بين النوع الإنساني في الخلق بعيدا عن الجنس والعرق واللون، ويجب مراعاة المساواة التامة بين البشر، وإن الاختلاف بين الأجناس والألوان والألسنة يجب أن يكون سبب في دعم الاتصال والتعارف والتآلف بين البشر، والتعاون في مجال القضايا المشتركة

(٣٨) الطبرسي، المصدر السابق، ١/ ١٣٠.
(٣٩) الطبرسي، المصدر نفسه، ٢/ ٢٧٧.
(٤٠) ادوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨١، ص ٦٨ ؛ غازي، المرجع السابق، ص٨٧.
(٤١) حميد حمد السعدون، المرجع السابق، ص٦٧.

وتبادل الاحتياجات، وليس سبيلا للتناحر والتنافر والتنازع [٤٢].

ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٤٣] [سورة الحجرات: ١٣]. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[٤٤] [سورة الروم: ٢٢].

واختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى الذي منح هذا النوع من خلقه الحرية والاختيار فيما يفعل ويترك، والمسلم يوقن بأن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب، كما إنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة، علم الناس ذلك أو جهلوه، ولهذا لا يفكر المسلم يوما في أن يجبر الناس ليكونوا كلهم مسلمين [٤٥].

إن الاختلاف والتنوع واقع في الدين والجنس والعنصر واللغة واللون، وإن هذا الاختلاف هو آية من آيات الله، ودليل على عظمته وكبريائه سبحانه، وإن الحكمة من وراء هذا الاختلاف والتنوع هي التعارف بين الناس لا التنافر، والتعاون لا التباغض، والتنافس في الخير لا الشر [٤٦].

وإن القرآن الذي يدعو إلى الحوار والتعايش هدفه ليس العجز أو الضعف أو المهادنة، لأنه يضع حدا فاصلا بين الحوار والتعايش والتسامح، النابع من الثقة بالنفس والاعتزاز بالقيم الإسلامية، وبين التذويب النابع من التقليد والإمَّعِيَّة [٤٧]، وذلك من قوله تعالى ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾[٤٨] [سورة القلم: ٨ -٩].

إن القرآن الكريم خطاب أزلي، وميزة هذا الخطاب انه موجه إلى كل طبقات البشر وفي كل العصور، وان خطابه مباشر، وانه

(٤٢) غازي، المرجع السابق.، ص٤٠.
(٤٣) الطبرسي، المصدر السابق، ٩/ ١٣٤.
(٤٤) الطبرسي، المصدر نفسه، ٧/ ٢٩٩.
(٤٥) غازي، المرجع السابق، ص٥٤.
(٤٦) غازي، المرجع نفسه، ص٥٤ -٥٥
(٤٧) غازي، المرجع نفسه، ص ٧١
(٤٨) الطبرسي، المصدر السابق، ١٠/ ٣٣١.

خطاب يمتاز بالشبابية لأنه ينظر إلى كل العصور المختلفة في الأفكار والمتباينة في الطبائع، نظرا كأنه خاص بذلك العصر ووفق مقتضياته، إن كل قوانين البشر تهرم وتتغير وتتبدل، إلا أحكامَ القرآن وقوانينَهُ فلها من الثبات والرسوخ بحيث أن متانتها تظهر كلما مرت العصور[٤٩].

متى تكون نهضة الحضارة الإسلامية:

لا يمكن أن تكون تلك النهضة بين ليلةٍ وضحاها، أو بعبارة أخرى، لا يمكن أن تكون بسرعة، لأنها ليست مرتبطة بزوال نظام معين، بل مرتبطة بالمسلمين ورغبتهم في قيادة زمام الحضارة من جديد، والسير على منهج القران الكريم لتحقيق الصحوة الإسلامية ذات البعد الإنساني، فهي غير مقتصرة على نظام أو بلد، وهي آخذة في الاتساع، الأمر الذي دفع السياسيين الغربيين لأن يبحثوا بكل وسيلة ليتصدوا للمد الإسلامي، إذ اعتنق الكثير من الأوربيين الإسلام، ولاسيما في الأوساط العلمية والسياسية والصحافية. لأن تلك الشعوب التي تعيش في كنف الحضارة الغربية تعاني من فراغ روحي حيث انتشار الفساد، وضياع المفاهيم والقيم الإنسانية، لذلك أصبح هناك توجه لدى تلك الشعوب نحو الإسلام، والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا تأخر المسلمون عن ركب الحضارة الإنسانية ؟

وربما يكون الجواب في أن المسلمين الذين كانوا حَمَلَةَ مشعل التقدم، انشغلوا بالخلاف والجدل العقيم الذي من ورائه نتيجة ـ كما ذكرنا سابقا[٥٠].

إن القرآن الكريم يدعو إلى الوحدة والاتفاق والابتعاد عن التفرقة والاختلاف، مع الإيمان بوجود الاختلاف والتنوع على أنه سنة إلهية واقعة بمشيئة الله، والقرآن رسم منهجاً واضحاً للتعامل مع الاختلاف والتنوع هو التعارف والتسابق في الخيرات والسعي لطلب الخير والحق وعدم الإكراه[٥١].

(٤٩) بديع الزمان، المرجع السابق، ص٩٠.

(٥٠) محمد تقي المدرسي، المرجع السابق، ص١٧٩.

(٥١) غازي، المرجع السابق، ص.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- ادوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨١.

٢- بديع الزمان سعيد النورسى، المعجزات القرآنية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، مطبعة الرشيد، بغداد، ١٩٩٠.

٣- حميد حمد السعدون، الغرب والإسلام والصراع الحضاري، دار وائل للطباعة والنشر، عمان، ٢٠٠٢، ص٨٤

٤- حميد مجيد هدو، السيد كمال الحيدري سيرته منهجه آثاره، ج٢، مؤسسة الهدى، ٢٠١١.

٥- روجيه غارودي، من أجل حوار بين الحضارات، ترجمة محمد حديد، الطبعة الثانية، د.م، ٢٠٠٠، ص ٣٤

٦- ستار جبار الجابري، أي حوار نريد، مجلة المرصد الدولي، مركز الدراسات الدولية -جامعة بغداد، العدد الرابع، حزيران -٢٠٠٧.

٧- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت القرن السادس الهجري). مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٨- صاموئيل هنتنغتون، صِدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ترجمة مالك عبيد أبو شهيوه ومحمود محمد خلف، الطبعة الأولى، الدار الجماهيرية للتوزيع والنشر والإعلان، مصراته، ١٩٩٩.

٩- عبد الرحمن حللي، حرية الاعتقاد في القرآن الكريم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٨٩.

١٠- محمد العربي الخطابي، من أجل حوار

بين الحضارات، مجلة المناهل، العدد العاشر، السنة الرابعة، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧م، ص ٣٩

١١- محمد تقي المدرسي (آية الله العظمى)، القرآن حكمة الحياة، قم، ٢٠٠٧.

١٢- محمد خاقاني، أصولنا في حوار الحضارات، مجلة المرصد الدولي، مركز الدراسات الدولية -جامعة بغداد، العدد الثالث، آذار-نيسان ٢٠٠٧، ص٥.

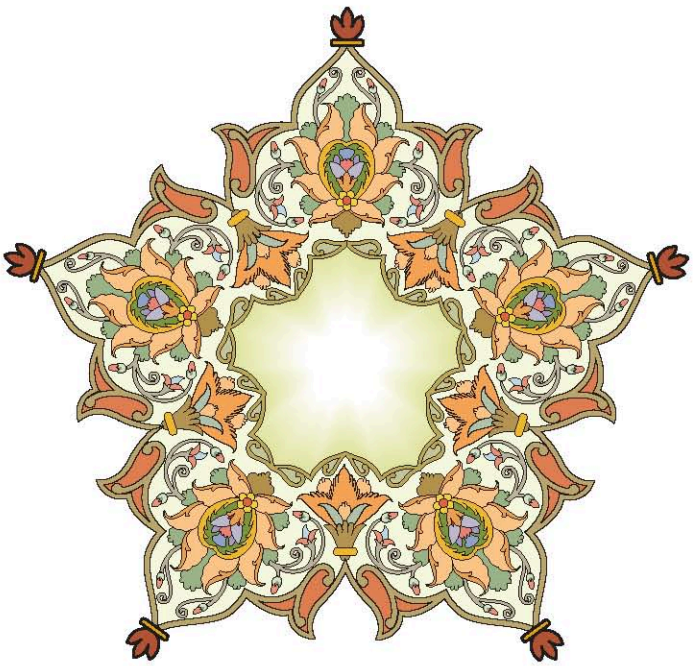

منهج تفسير القرآن بالقرآن
نماذج وتطبيقات

جميل الحاج مانع
باحث اسلامي

ملخص البحث

يقرر السيد الباحث في مقدمة بحثه: أن القرآن الكريم لما كان منهجاً متكاملاً للحياة، كان لزاما علينا الاخذ به والاهتمام بمناهج تفسيره وفهمه، ووضح أن التفسير امر لابد منه للوصول الى ما يريده الله -سبحانه- من الآيات القرآنية خصوصا الآيات التي لايتمكن الانسان من الوصول الى معناها الامن خلال التأمل في مجموعة أخرى من الآيات وهو ما يدعى بـ (منهج تفسير القرآن بالقرآن). ومع أن هناك من اشار الى وجود أدلة معارضة للتمسك بهذا الأسلوب للخروج بتفسير للنص الكريم، الا أن تلك الأدلة لاتقف مانعاً من ذلك بالرغم من انها ادلة تستند في الأغلب الى روايات لها تأويلاتها لدى اولئك المفسرين. ويقرر أن هذا المنهج هو اكثر المناهج انتشاراً ووجاهة بين الأساليب المتعددة.

وقد قسم السيد الباحث بحثه على محاور مثَّل لها بأمثلة من القرآن الكريم والمأثور عن الامام علي عليه السلام واعتمد مصادر متخصصة في هذا الميدان . وفي الختام أهاب بالباحثين أن يسلطوا الضوء على ما وقع فيه من اختلاف في الامثلة الفقهية التي ذكرها.

المقدمة

والصلاة والسلام على اشرف الخلق محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

وبعد:

إن القرآن الكريم هو ربيع قلوب المؤمنين ومأوى أفئدة العارفين وليس من الغريب أن تزداد الدراسات المتخصصة فيه، لأنه معجزة الله الخالدة التي هي العدل الأكبر الذي أوصى الله تعالى بالتمسك بها.

ولما كان القرآن الكريم منهجاً متكاملاً للحياة كان لزاماً علينا الأخذُ به، نظراً لارتباطه بحياة الإنسان على مختلف المستويات، ولأن ما تضمنه من إرشادات وعِبَر كان لها الدور المثال في توجيه المتأمل فيه إلى سبل النجاح والرقي الخُلُقِي، ولا سيما مع أزمة الأخلاق المتزايدة يوماً بعد آخر.

وكان شَغَفي بالقرآن -أو بهذا البحث على الخصوص -ناتجاً من دراستي الفقه الإسلامي في الحوزة العلمية في هذه المدينة المقدسة (النجف الاشرف)، وقد يخطر في البالِ الكثيرُ مما يتعلق بكثيرٍ من الآيات التي ترتبطُ بطريقةٍ أو أخرى بالوظيفةِ الشرعية وغيرها.

وقد كان من المناسب أن نتعرض للأسباب الكامنة وراء لزوم تفسير القرآن على الرغم من ادعاء بعضِهم عدم الحاجة لذلك، ثم الإشارة إلى رد ذلك كله من خلال ردود أهل الاختصاص في مثل هذه البحوث.

ثم نتعرض إلى مناهج تفسير القرآن بصورة عامة، ونعرج على محل البحث (تفسير القرآن بالقرآن) بصورة خاصة، ونستعرض أدلة القائلين به وأدلة المعارضين له، مع تحليل آرائهم ونقدها بصورة علمية تامة على مستوى البحث القرآني والأصولي أيضاً، ونذكر بعد ذلك أنواع تفسير القرآن بالقرآن مع التمثيل لكل نوع.

وبعد ذلك نعرج في البحث الختامي على ذكر بعض التطبيقات المرتبطة بالبحث مما وقع الاختلاف فيها كثيراً بين المفسرين، وأثمر البحث في ذلك الاختلاف عن نتائج متباينة على المستوى

الفقهي والأصولي، وقد أثمر الأخذ والرد في بعضها عن ظهور بعض مباحث علوم القرآن، كما هو واضح بالنسبة إلى بحثَي حول المحكمِ والمتشابهِ والمجمل والمبين والمفصّل، وغيرهما.

ومن المهم جداً الإشارة إلى الحاجة إلى مثل هذه البحوث ولاسيما عندما تكون بحوثاً مقارنة، ليزدان بذلك الفكر الإسلامي ولتتلاقح الأفكار المخدرة في الكتب منذ زمن بعيد، وليكون ذلك نهجاً لفتح الطريق لتجاوز حالات الانفراد التي تتصف بها المجتمعات الإسلامية المحافظة من ناحية الفكر ولو على مستوى البحث القرآني على أقل تقدير.

الدواعي إلى تفسير القرآن

قد يقال إن القرآن ما دام قد جاء بلغة عربية سليمة لم يداخلها غيرُها، فما الداعي لوجود هذا الكم الهائل من التفاسير، بل والمناهج المختلفة في التفسير، وهذه القضية ليست ترفاً فكرياً، بل هي من مسببات بعض الآيات القرآنية، فربما يتصور أن التفسير ينافي قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [سورة القمر: ١٧]، وكذا وصفه القرآن بأنه نزل بلسان عربي مبين في أكثر من مكان[1]، فهو على هذا غني عن البيان والتفسير؟.

وأما الإجابة فان وصفه باليسر أو بأنه نزل بلغة عربية واضحة يهدفان إلى أمر آخر وهو إن القرآن ليس ككلمات الكهنة المركبة من الأسجاع والكلمات الغريبة، ولا من قبيل الأحاجي والألغاز، وإنما هو كتاب سهل واضح لمن أراد فهمه، فالطريق مفتوح أمامه، وهذا نظير ما إذا أراد رجل وصف كتاب أُلفّ في علم الرياضيات أو في الفيزياء أو الكيمياء فيقول: أُلف الكتابُ بلغةٍ واضحةٍ وتعابير سهلة، فلا يهدف قوله هذا إلى استغناء الطالب عن المُعلّم ؛ ليوضح له المطالبَ ويفسر له القواعد.

ومن أجل ذلك قام المسلمون بعد عهد الرسالة بتدوين ما أُثِر عن النبي أو الصحابة والتابعين أو أئمة أهل البيت عليهم السلام في مجال كشف المراد وتبيين الآيات، ولم

(١) كما في [سورة الشعراء: ١٩٥] و [سورة النحل: ١٠٣].

تكن تلك الآيات المتقدمة رادعة عن القيام بهذا الجهد الكبير[٢].

بعد وضوح ما تقدم ذكره (من عدم استغناء القرآن عن التفسير)، قد يكون من اللازم بيان الحاجة إلى التفسير ويتمثل ذلك في عدة محاور ووجوه:

الاول: إنّ الاعتماد في فهم القرآن على الآية نفسِها مع غض النظر عن أسباب نزولها، قد يؤدي الى إجمال معناها وعدم فهم المراد منها، ولذلك كان ضم سبب النزول الى الآية يفضي الى وضوح المراد منها، لأنه من قبيل ضم القرينة المنفصلة عن الكلام إليه، أو من قبيل الاعتماد على القرائن الحالية التي عَوّل عليها المتكلم في فهم كلامه، وعند تأمل قوله تعالى ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة التوبة: ١١٨]، نجد عدم وضوح المراد من الثلاثة المتخلفين الذين ضاقت بهم الأرض، ولا نفهم أسباب ما وقع منهم، ولم كان عقابهم بالضيق، ولا المراد من ضيق الأرض، أو ضيق أنفسهم ؟ ولمَ كان الانقلاب منهم حتى ظنوا أنه لا ملجأ من الله إلا إليه ؟ وغير ذلك من التساؤلات التي يفرزها جعل الآية نفسِها هي المنظورة دون أسباب نزولها، ولكن لو نظرنا الى تلك الأسباب أيضاً لأصبح المعنى المرادُ منها بيّناً لا إجمال فيه، ولا تشويش، ومنه تظهر أهمية ودور سبب النزول في فهم المراد في جميع الآيات القرآنية.

الثاني: إنّ هناك تشابهاً في بعض الآيات القرآنية، وهو يمنع من الفهم الصحيح للمراد منها وذلك لأن ما يتبادر منها في باديء النظر قد يكون على خلاف ما يريده الله سبحانه منها، ولذلك فإنّ من كان مريضَ القلب قد يتمسك بالفهم البسيط لظاهر الآيات المتشابهة -على الرغم من امتناعه -، ويصر على كونه المعنى الوحيد الذي يمكن أن يراد منها، بهدف التشويش وإحداث الفتنة وجعل ذلك هو تأويل

(٢) المناهج التفسيرية في علوم القران/ العلامة السبحاني/ ص١٥.

الآية ومآلها، وأما راسخو العلم فإنهم يعتمدون فهم الآيات المتشابهة على ما يظهر لهم من الآيات المحكمة، التي هي أم الكتاب كما في قوله تعالى ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾[سورة آل عمران: ٧]، وربما عد ذلك من أوضح صور تفسير القرآن بالقرآن والآية بمثلها.

الثالث: ورود ألفاظ ذات معان شرعية مجملة من دون بيان، كبعض ألفاظ التكاليف من الصلاة والصوم والحج، وبقصر النظر على الآيات التي ذكرَتْها لا يمكن فهم المراد من تلك الالفاظ إلا من خلال الرجوع الى السُّنّةِ البيانية لشرح إجمالها.

الرابع: إن أسلوب تنزيل القرآن التدريجي على طول حياة النبي ﷺ من أجل تثبيت قلبه الشريف كما في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[سورة الفرقان: ٣٢]، وبحسب هذا الأسلوب فإن الموضوعَ الواحدَ قد توزعت الآيات المتعلقة به بين السور، ولا ريب في ان اتخاذ الموقف الشرعي في الموضوع الواحد يستدعي جمع الآيات المتفرقة المرتبطة بعضها ببعض، لكي تتم عملية الاستنطاق، وقد أشار الحديث النبوي المعروف (القرآن يفسر بعضه بعضاً)[٣] الى هذا المعنى والقاعدة الكلية.

وقال الإمام علي عليه السلام: (كتاب تبصرون به، وتنطقون وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله)[٤].

(٣) اختلفت الكلمات في وصف هذا المقطع فمنهم من قال حديث نبوي كالشيخ السبحاني في بعض كتبه ومنهم من وصفه بالقول المشهور كبعض الجمهور في بعض تفاسيرهم وقد ذكر العلامة ناصر مكارم الشيرازي بأنه رواية عن ابن عباس ولم يستبعد انه أخذها من النبي ﷺ أو من علي عليه السلام وقد ورد ذلك في نهج البلاغة، والظاهر ان معنى هذه العبارة بسبب دلالة بعض الآيات عليه وقع التسامح في وصفه رغم عدم وجوده في أمهات الكتب الحديثية عند الفريقين كما أشار الى ذلك العلامة السبحاني فتأمل.

(٤) نهج البلاغة: بتحقيق صبحي الصالح الخطبة

وفي كلامه عليه السلام ما يعرب عن كون الرسول صلى الله عليه وآله هو المفسر الأول للقرآن الكريم إذ يقول: (خَلَّفَ فِيكُمْ... [أي رسول الله] كِتَابَ رَبِّكُمْ فِيكُمْ مُبَيِّناً حَلاَلَهُ وَ حَرَامَهُ وَ فَرَائِضَهُ وَ فَضَائِلَهُ وَ نَاسِخَهُ وَ مَنْسُوخَهُ وَ رُخَصَهُ وَ عَزَائِمَهُ وَ خَاصَّهُ وَ عَامَّهُ وَ عِبَرَهُ وَ أَمْثَالَهُ وَ مُرْسَلَهُ وَ مَحْدُودَهُ وَ مُحْكَمَهُ وَ مُتَشَابِهَهُ مُفَسِّراً مُجْمَلَهُ وَ مُبَيِّناً غَوَامِضَهُ)[٥].

وقد ذكرت هذه الوجوه وأمثالها كأدلة مُثبَّتةٍ لعدم استغناء القرآن عن التفسير، وأضاف بعض العلماء وجوها أخرى قريبة من الوجوه المذكورة لإثبات عدم الحاجة للتفسير، أعرضنا عن التعرض لها مخافة التطويل[٦].

نظرة سريعة في مناهج تفسير القرآن

من المهم جداً عند الباحثين في القضايا العلمية الخاضعة لمناهج خاصة أن يكون لهم اطلاع واضح على الأسس التي يُبْتَنى عليها البحث العلمي، ومن تلك الأبحاث هو البحث التفسيري، وذلك:

لأن استخدام المنهج في كل عام يحظى بأهمية خاصة، لان تعلم المنهج الصحيح والاستفادة منه يوصل الإنسان إلى هدف العلم في حين يفضي عدم الاستفادة من المنهج الصحيح أو الخطأ فيه إلى الابتعاد عن هذا الهدف.

إن استخدام منهج التفسير بالنسبة إلى القرآن بلغ من الأهمية حداً بحيث عد استخدام بعض المناهج ممنوعا وحراما شرعا، وقد أكدت الأحاديث أهمية هذا الأمر، بحيث إذا قام شخص بتفسير القرآن بطريقة خاطئة، كالتفسير بالرأي فانه يُعدّ مخطئا وان حصل على نتائج صحيحة[٧].

رقم (١٣٣) ص٢٤٢.

(٥) نهج البلاغة: الخطبة رقم (١) والظاهر إن قوله: مبينا، بيان لوصف النبي صلى الله عليه وآله، والضمائر ترجع الى القران الكريم لا الى الله سبحانه.

(٦) منها ما ذكره السيوطي في الإتقان في علوم القران. و الزرقاني في مناهل العرفان في علوم القران. والقبانجي في مقدمات في علم التفسير وغيرها.

(٧) أُثيرَ عن النبي صلى الله عليه وآله: (من قال في القران برأيه فأصاب فقد أخطا) سنن الترمذي/ ج٤/ كتاب تفسير القران/ الحديث=

وبعبارة أخرى: إن تعيين المنهج التفسيري الصحيح له موضوعية في هذه المسألة، وان معرفة المناهج والاتجاهات التفسيرية يُعَدّ لازماً لكل مفسر(٨).

ومن الجدير بالذكر أن التفاسير التي كانت خاضعة للمنهج التفسيري ربما تعد -في نظر بعضهم -من أكثرها إثارة وقيمة علمية.

وعند التتبع يجد الناظر في هذا الجانب أنّ المتقدمين لم يعطوا المناهج التفسيرية الاهتمام الذي تستحقه، برغم تأثيرها المباشر في خصوبة وزخم المطالب العلمية التي تشتمل عليها التفاسير الخاضعة لها، وكانت أقرب الكتب إلى هذا الجانب هي الكتب التي تحدثت عن طبقات المفسرين وسيرهم، وكان الاختلاف الحاصل بين العلماء سبباً لخضوع تلك التفاسير إلى رؤى وقفت بالضد بعضها من بعض فيما أيدت بالمطلق بعضاً آخر، وكانت الاتجاهات الفكرية التي يخضع لها الكاتب وراء اتخاذهم مناهج خاصة في تفسير القرآن، بل تأويله تبعاً للرؤى الاعتقادية الفكرية التي يتبنونها وكان التوجه الخاص للمفسر دافعاً لجعل القرآن يصب في الجانب العلمي الذي يبرز فيه المفسر، ولذلك تجد التفاسير في بعض الأحيان توصف بأوصاف علمية بعيداً عن الجانب الشمولي للقرآن.

المناهج التفسيرية

وبالرغم من الالتزام بالابتعاد عن الأسباب وراء تعدد المناهج التفسيرية لابد من أن نبين أن المناهج أيضاً تخضع لعملية قسمة تابعة للموقف من كل منهج، وقد قسمت المنهج على عدة أقسام منها:

١. منهج تفسير القرآن بالقرآن وسيأتي الحديث عنه.

٢. منهج التفسير الروائي أي تفسير القرآن بالسُّنة، ويعد قسماً من تفسير القرآن بالمأثور، وهو أقدم الأقسام وأكثرها انتشاراً، وقد حظي هذا القسم بكثير من الاهتمام من قبل المفسرين، وقد

=(٢٩٦١)، الميزان ج٣/ ص٧٥.

(٨) ينظر: دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقران/ محمد علي الرضائي الأصفهاني/ ص١٧ -١٨.

أخذ هذا المنهج طابعاً متشدداً، ورفض مؤيدوه جميع المناهج المخالفة له.

٣. منهج التفسير العلمي وهو أسلوب الاستفادة من العلوم الطبيعية والتجريبية في فهم المراد من آيات القرآن الكريم، وكان ظهوره متأخراً عن المنهج المار ذكره (التفسير الروائي)، وكان بعض العلماء قد رد أدلة القائلين بصحة هذا المنهج فيما ذهب بعض آخر إلى تأييده وبطرق قد تعد من المنهج السابق ذكره كالآيات ونحوها.

٤. منهج التفسير الاشاري ويشمل التفسير العرفاني والصوفي ونحوهما، وقد ذهب البعض إلى عدّه من أوائل المناهج التفسيرية، لوروده في بعض الروايات التفسيرية، ولكن ذهب آخرون إلى عدّه دخيلاً على القرآن ومرفوضاً في كثير من الأحيان.

٥. منهج التفسير العقلي والاجتهادي وكان الموقف من هذا المنهج متفاوتاً بين مؤيد ومعارض، وقد حظي هذا المنهج باهتمام أصحاب المناهج العقلية في تفسير الشريعة كالمعتزلة والامامية، فيما وقف أصحاب المنهج النقلي المتشدد في الطرف المقابل له.

٦. منهج التفسير بالرأي وقد يكون عد تفسير القرآن بالرأي تفسيراً لا يخلو من مسامحة؛ لأن الوارد عند الجميع إن هذا المنهج مرفوض بل ومحرم[٩].

إن قيل إن أكثر المناهج المذكورة وقع الخلاف فيها بين رافض ومؤيد، وعليه فلا مانع من عد المنهج المذكور معها !؟

نقول إن هذه المناهج على ما وقع فيها من خلاف بين القبول والرفض لم تعدم متحدثاً باسمها في وقت من الأوقات، بخلاف منهج تفسير القرآن بالرأي؛ فإن الواقعين فيه ينكرون أو يكادون المنهج المذكور نفسه حتى مع وقوعهم تحت براثنه، وعليه فوصفه بالتفسير في حد نفسه لا يخلو من تسامح في التعبير.

وقد يقال -كما قيل- إن المنهج الصحيح هو المنهج الذي يستفيد من المناهج الخمسة المتقدمة؛ لان كُلاً من هذه المناهج له مكانه

(٩) بناء على ان المقصود من التفسير هو التفسير الصحيح لا الأعم من الصحيح والخاطئ.

المناسب في عملية التفسير، ولذا يكون المنهج المتكامل هو الذي يجمع بين المناهج، وليس المختصر على بعض منها دون بعضٍ آخر.

طريقة تفسير القرآن بالقرآن بين الرفض والقبول:

هذا النوع من التفسير على الرغم من قدمه وانتشاره لكنه مع ذلك واجهه بعض المعترضين والرافضين، والاعتراض المذكور وان عد شاذاً، لكنه لم يكن امراً اعتباطياً على رأي المعترض -على أقل تقدير -بل استند إلى مناقشات وأدلة ساقها المعترض وقبل التعرض، لذلك لا بأس بذكر نبذة تاريخية لهذا المنهج.

وعند تصفح تاريخ تفسير القرآن في جميع المصادر قد نصل الى أنّ هذا المنهج:

من أقدم طرق التفسير، ويرجع استخدامه إلى زمن الرسول ﷺ وقد استخدمه الأئمة عليهم السلام وبعض الصحابة والتابعين.

وفيما يلي بعض الأمثلة على ذلك:

١. سئل الرسول ﷺ عن معنى الظلم في الآية الكريمة ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [سورة الأنعام: ٨٢]، فأجاب ﷺ وبالاستناد إلى الآية ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان: ١٣] (بان المقصود بالظلم في الآية الأولى هو الشرك المذكور في الآية الثانية)[١٠] يتبين من خلال هذا الحديث المشابهة إن الرسول ﷺ استعمل هذا المنهج، وانه قام بتعليم أتباعه عملياً استعماله.

٢. استدلَّ الإمام علي عليه السلام من خلال الآيتين ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ [سورة لقمان: ١٤]، و ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [سورة الأحقاف: ١٥] بان اقل مدةٍ للحمل هي ستة أشهر[١١] فإذا كانت مدة الرضاع سنتين ومدة الحمل والرضاع معا ثلاثين شهرا، ووضعنا الآيتين جنبا إلى جنب، فتكون النتيجة واضحة وهي أن اقل مدة للحمل ستة أشهر، وهذا نوع من تفسير القرآن بالقرآن[١٢].

(١٠) صحيح البخاري، كتاب تفسير القران، تفسير ابن كثير/ ج٤/ ص٤٤٤، بصائر الدرجات/ الصفار/ ص ١٩٥.

(١١) تفسير الصافي/ ج٥/ ص١٤.

(١٢) انظر: دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن/ ص٤٢ -٤٣.

أدلة القائلين بمنهج تفسير القرآن بالقرآن

هناك أدلة متعددة ساقها القائلون بهذا المنهج منها أدلة قرآنية، وروايات واحتجاج بالسيرة واهم هذه الأدلة ما يأتي:

الدليل الأول: الآيات القرآنية:

١. قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة النحل: ٨٩]، واستدل العلامة الطباطبائي بهذه الآية على تفسير القرآن بالقرآن فقال: وحاشا أن يكون القرآن تبيانا لكل شيء ولا يكون تبيانا لنفسه[١٣].

٢. قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[سورة النساء: ١٧٤]، كتب الطباطبائي عند استدلاله بهذه الآية قائلا: كيف يكون القرآن هدًى وبينة وفرقانا ونورا مبينا للناس في جميع ما يحتاجون إليه ولا يكفيهم في احتياجهم إليه وهو اشد الاحتياج[١٤].

٣. قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[سورة النساء: ٨٢] بين الطباطبائي بعض المطالب عند تفسير هذه الآية يمكن تلخيصها بما يلي:

أولا- إن القرآن يمكن فهمه من قبل الأفراد الاعتياديين.

ثانيا- إن القرآن يفسر بعضه بعضا[١٥] لان الله سبحانه وتعالى دعا الناس إلى التدبر في آيات القرآن؛ لكي يتضح عدم وجود الاختلاف فيه بضم الآيات بعضها إلى بعضٍ آخر.

٤. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾(فقد قسمت هذه الآية آيات القرآن على مجموعتين: محكمات ومتشابهات.. .فان الآيات المحكمة هي الآيات ذات المفاهيم الواضحة والتي لا مجال للخلاف والجدل في معانيها. اما الآيات المتشابهات فهي الآيات ذات المعنى المعقد أو ذات

(١٣) انظر: الميزان/ ج١/ ص١٤.
(١٤) انظر: الميزان/ ج١/ ص١٤.
(١٥) انظر: الميزان/ ج٥/ ص٢٠.

المعاني المتعددة والتي لا يتضح معناها المقصود إلا في ضوء الآيات المحكمة • وقد أطلق على الآيات المحكمة (أُمّ) أي هي الأصل والمرجع للآيات الأخرى. وبعبارة أخرى لابد من إرجاع الآيات المتشابهة إلى المحكمات، لكي يتضح معناها وهذه الطريقة هي احد أنواع تفسير القرآن بالقرآن وهي مورد تأييد القران نفسه)[١٦].

٥. قال تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [سورة القيامة: ١٨ -١٩]ومن الواضح أن المقصود من البيان إنما يكون بطريقتين إحداهما نفسها الآيات القرآنية والأخرى عن طريق النبي ﷺ.

٦. (إن تكرار الآيات يستلزم هذه الطريقة في التفسير؛ لأننا نفهم بعض الآيات لابد من مراجعة الآيات المتشابهة فقد جاء ذكر قصة موسى عليه السلام وفرعون في [سورة الأعراف: ١٠٥ -١٣٦]، وفي [سورة طه: ٩ -٩٨]، وفي [سورة الشعراء: ١٠ -٦٧]وفي [سورة النمل]، ولا يمكن تفسير هذه الآيات ورفع الإبهام عنها ما لم تتم مراجعة هذه الآيات وفي الوقت نفسه وإلا فانه قد يؤدي إلى وقوع المفسر في أخطاء)[١٧].

(١٦) دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقران/ ص٤٥.

الدليل الثاني: السنة:

إن الاستدلال من خلال الأحاديث على صحة تفسير القرآن بالقرآن إنما يتم بوسيلتين:

الأولى: السنة العملية لرسول الله ﷺ وأهل بيته حيث استعملوا هذه الطريقة عملياً.

الثانية: الأحاديث الخاصة التي أشارت إلى هذا الأمر ومن أهمها:

١. قال أمير المؤمنين عليه السلام: (كتاب الله... ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض)[١٨] فقوله إن بعض آيات القرآن ينطق بعضها ببعض يمكن أن يشير إلى هذا المنهج في التفسير حيث يقوم المفسر.

(١٧) دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقران/ ص٤٦.

(١٨) نهج البلاغة/ الخطبة (١٣٣).

باستنطاق بعض آيات أخرى. وروي عن الإمام علي عليه السلام حديث آخر قال فيه (ذلك القرآن فاستنطقوه)[19].

٢. وقال عليه السلام: (إن كتاب الله ليصدق بعضه بعضا ولا يكذب بعضه بعضا)[20] تصديق القرآن بعضه بعضاً يعني عدم وجود الاختلاف فيه وان معاني آيات القرآن تؤيد بعضها بعضاً)[21]، وغير ذلك من الأحاديث التي إن لم تكن دالة وصريحة في هذه الطريقة فهي على الأقل مؤيدة لذلك.

الدليل الثالث: بناء العقلاء:

وقد فسره الأصوليون بقولهم: (هو صدور العقلاء عن سلوك معين قبال واقعة ما صدورا تلقائيا، وهم يتساوون في صدورهم عنه، على اختلاف أزمنتهم وأمكنتهم وتفاوت في ثقافاتهم ومعارفهم وتعدد في نحلهم وأديانهم)[22].

والمقصود بالعقلاء ليس طبقة خاصة من الناس، بل كل إنسان عاقل مدرك ولذا قيل:

من اجل فهم أي كتاب لابد من مراعاة القرائن الموجودة فيه، فإذا جاء ذكر احد المطالب بصورة مطلقة وعامة، وفي مكان آخر بصورة مقيدة وخاصة فلابد من النظر إلى الكلام بصورة كلية بوصفه مجموعة كاملة، وهذه هي طريقة العقلاء في فهم أي كتاب.

والقرآن غير مستثنى من هذه القاعدة وهذا هو الشيء نفسه الذي يعرف باسم تفسير القرآن بالقرآن، يعني الاستفادة من بعض الآيات كقرائن لفهم وتفسير آيات أخرى والشارع المقدس لم يمنع من هذه الطريقة العقلائية، بل قام بتأييدها طبقا للأحاديث السابقة.

وعندما نراجع طريقة الصحابة والتابعين ومفسري القرآن على طول التاريخ نرى أنهم استعملوا هذه الطريقة أي الاستفادة من بعض الآيات في فهم آيات أخرى، ومن خلال استمرار

(١٩) المصدر السابق/ الخطبة (١٨).
(٢٠) بحار النوار/ ج٩/ ص١٢٧.
(٢١) دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقران/ ص٤٧.
(٢٢) الأصول العامة للفقه المقارن/ العلامة محمد تقي الحكيم/ ص١٩٧.

طريقتهم هذه نستدل على جواز هذا المنهج وعدم وجود منع من الشارع [٢٣].

هذه عمدة الأدلة التي ذكرت من قبل الموافقين على اتباع هذا المنهج، بل القائلين بوجوب إتباعه، ولكن هناك من ذهب إلى خلاف ذلك وهذه أدلتهم.

أدلة المخالفين لتفسير القرآن بالقرآن

على الرغم من عدم التصريح بهذا المنهج المخالف من جهة محددة بعينها، توجد بعض الأحاديث الدالة عليه والتي تحتاج إلى نظرة نقدية لبيان قيمتها العلمية:

الدليل الأول: أحاديث ضرب القرآن بعضه ببعض:-

١. وردت رواية في ذلك (عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن النضر بن سويد عن القاسم بن سليمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أبي: (ما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض إلا كفر)[٢٤].

(٢٣) انظر: دروس في المناهج ولاتجاهات التفسيرية للقران/ ص٤٧ -٤٨.

(٢٤) الكافي/ الكليني/ ج٢/ ص٦٣٢، بحار الأنوار/ المجلسي/ ج٨٩/ ص.

٢. روى السيوطي -من مفسري السنة- فقال: (إن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج على قوم يتراجعون في القرآن وهو مغضب فقال: بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضرب الكتاب بعضه ببعض. قال وإن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا، نزل ليصدق بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملو وما تشابه عليكم فآمنوا به)[٢٥].

وهذه الروايات في هذا المجال لا تخلو من المناقشات السَّنَدِية والدلالية، فالرواية الأولى مثلا ليست تامة السند، لأن في رجالها من لم يوثق مضافاً إلى إن دلالتها على منع تفسير القرآن بالقرآن ليست صريحة، وهناك احتمالات أخرى في تلك الدلالة[٢٦].

الدليل الثاني: عدم حجية ظواهر القرآن عند الإخباريين:

(٢٥) الميزان/ ج٣/ ص٩٠.

(٢٦) ما ذكره العلامة في الميزان/ ج٣/ ص٨٥، والفيض الكاشاني في الوافي/ ج٥/ ص٢٧٤، والمجلسي في بحار الأنوار/ ج٨٩/ ص٣٩.

إن تفسير القرآن بالقرآن يقوم أساساً على مسألة وقع الكلام فيها بين الأصوليين والأخباريين، وهي حجية ظواهر القرآن وقد أنكر الإخباريون ذلك واستدلوا على ذلك بأمور منها:

١. إن الروايات دلت على اختصاص فهم القرآن بالنبي وأهل بيته الكرام.

٢. إن هناك مضامين ليس بمقدورنا الوصول إليها، وقد ذكر القرآن أن الراسخين في العلم هم من يوفق للوصول إليها فقط.

٣. اشتمال القرآن على الآيات المتشابهة يمنع من التمسك بظواهره.

٤. إن الكثير من الآيات القرآنية احتوت على التخصيص أو التقييد أوان المعنى الذي يقصد منها ليس المعنى الحقيقي وهذا كاف للمنع من التمسك بظواهر القرآن.

٥. إن هذا من قبيل تفسير القرآن بالرأي وهو ممنوع.

وقد ناقش الأصوليون ذلك كله، وكما يأتي:

١. المقصود باختصاص فهم القرآن بأهل البيت. . . هو الفهم الكامل للقرآن الذي هو أعم من المحكم والمتشابه و.. . والمنع من الاستقلال بالفتوى من دون مراجعة الروايات الصادرة عن أهل البيت...

٢. لا يوجد تعارض بين وجود مضامين عالية وصعبة الفهم في القرآن، والرجوع إلى الظواهر الواضحة والاستدلال.

٣. إن ظواهر القرآن ليست من المتشابهات، بل: إن المقصود من المتشابهات هنا هو الآيات المجملة، ولكن ظواهر القرآن ليست مجملة ولا متشابهة.

٤. إن الأخذ بالظواهر وتفسير القرآن يكون بعد مراجعة المخصصات والمقيدات والروايات الأخرى، وعندها ينحل العلم الإجمالي ويرتفع حينئذ المانع من الأخذ بالظواهر.

٥. إن روايات التفسير بالرأي تعني تفسير القرآن بدون مراجعة القرائن العقلية والنقلية أما الأخذ وتفسير القرآن بها بعد مراجعة القرائن العقلية والنقلية (أعم من الآيات والروايات المعتبرة)

فلا يعد جزءا من التفسير بالرأي، بل إن بعض علماء الأصول قالوا إن حمل ألفاظ القرآن على ظاهرها لا يعد تفسيرا لان التفسير هو كشف الستار وظواهر القرآن لا ستار عليها والمقصود من التفسير بالرأي هو الاعتبار الظني غير المعتبر مثل حمل اللفظ على خلاف ظاهره على أساس الترجيح الشخصي.

فالنتيجة إن أدلة الإخباريين على منع حجية القرآن مخدوشة، وان أدلة علماء الأصول تامة ومقبولة[٢٧].

أنواع تفسير القرآن بالقرآن:

إن منهج تفسير القرآن بالقرآن له أنواع متعددة ومن المهم جداً الإلمام بها من قبل المفسرين من أجل التوصل إلى أقرب الدلالات للنص القرآني، وسوف نشير إلى أهم تلك الأنواع مع التمثيل لكل واحد منها:

أ. إرجاع المتشابهات إلى المحكمات:

تعدُّ الآيات المحكمة مرجعاً للمفسر لتوضيح المتشابهات من الآيات القرآنية، وذلك لكثرة الاحتمالات المتوقعة منها ومثالها الآيات الدالة على التجسيم، وكذا التي تشتمل على أوصاف غير محتملة في حق الله إذا فسرت على ظاهرها، كما سيأتي[٢٨].

ب. الجمع بين الآيات المطلقة والمقيدة:

إن بعض الآيات قد جاءت مطلقة بينما نجد أن آيات أخرى تكون مقيدة، ومن المهم جداً عند تفسير الآيات الأولى من الرجوع إلى الثانية؛ لأنها مفسرة من قبيل قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾[سورة البقرة: ٤٣] فإنها مطلقة بينما لا يكون الأمر كذلك في آيات أخرى من قبيل قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾[سورة الإسراء: ٧٨]، وغيرها من الآيات، كما سيأتي[٢٩].

ج. الجمع بين العام والخاص:

من قبيل الآيات التي احتوت أدوات

(٢٧) دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقران/ ص٥١ -٥٢.

(٢٨) راجع البحث الثالث حول المحكم والمتشابه.

(٢٩) راجع البحث الثالث حول المطاق والمقيد.

العموم مثل (كل)، فيما كانت آيات أخرى تشتمل على ما يخصص تلك الآيات، وبالتالي تكون الثانية مفسرة للأولى، وذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾[سورة النساء: ٣]، فهي عامة لا تخصيص فيها، بينما استثنيت بعض النساء من ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ...﴾[سورة النساء: ٢٢ -٢٣]، وسيأتي أيضا[٣٠].

د. توضيح الآيات المجملة بواسطة الآيات المبينة:

وردت في القرآن آيات اتصفت بعدم التفصيل فكان ذلك سبباً في إجمال النص القرآني وبالتالي لن يتضح المقصود منه إلا بالرجوع الى الآيات المفصلة وتسمى الأولى المجملة بينما تسمى الثانية بالمبينة، وأمثلتها كثيرة منها: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[سورة المائدة: ١] وقال في آية أخرى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ...﴾[سورة المائدة: ٣]، ومن الواضح ان الآية الثانية تكون مفسرة لإجمال الآية الأولى وسيأتي المزيد منها[٣١].

ه. تعيين مصداق الآية بوساطة الآيات الأخرى:

تكون في بعض الأحيان الآيات القرآنية خالية من ذكر المصاديق التي تنطبق عليها فيما تكون آيات أخرى مشتملة عليها، ولا بد من أجل تفسير الخالية من المصاديق بصورة سليمة أن نجمع بينهما، ومن أمثلة ذلك: قال تعالى في سورة الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ...﴾[سورة الفاتحة: ٦ -٧] ويقول في آية أخرى ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[سورة النساء: ٦٩]، ويتبين من خلال المقابلة بين الآيتين أن مصداق الآية الأولى هو ما ذكر في الآية الثانية.

(٣٠) راجع البحث الثالث حول العام والخاص.

(٣١) في البحث الثالث حول المجمل والمبين.

و. الاستفادة من سياق الآيات:

والمقصود بالسياق هو ذلك الارتباط الحاصل بين الألفاظ أو العبارات أو الجمل الناتج بسبب الاقتران الواقع بينها (ويعد اتصال الكلام وارتباطه واعتماد قرينة السياق على فهم كلام الأفراد من الأصول العقلائية المعتمدة في جميع اللغات...

والسياق له عدة أقسام: فربما يكون السياق سياق كلمات أو سياق جمل أو سياق آيات وسنوضح ذلك بأمثلة:

المثال الأول: كلمة الدين في الآية (مالك يوم الدين) تعني الجزاء ويعرف هذا من خلال إضافة (مالك) إلى (الدين) أي استفدنا ذلك من سياق الكلمات في حين جاء لفظ (الدين) في آيات أخرى بمعنى الشريعة لان هذا هو مقتضى سياق تلك الآيات.

المثال الثاني: قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [سورة الدخان: ٤٣ -٤٨]، وقد جاء في نهاية هذه الآيات ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان: ٤٩]، فإذا أخذنا بظاهر الآية من دون الالتفات إلى سياق الآيات المتقدمة لفهم منه أن الله سبحانه وتعالى يخاطب شخصاً محترماً وعزيزاً، أما إذا أخذنا بنظر الاعتبار الآيات المتقدمة فسوف يتبين أن هذا الشخص (الذي عُدّ عزيزاً كريماً في الآية) ما هو إلا ذليل حقير.

المثال الثالث: قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٧]، وللمفسرين رأيان في هذه الآية:

عَدّ بعض المفسرين أن معنى اللهو في هذه الآية هو المرأة والولد وهي إشارة إلى نفي عقائد المسيحيين الذين يعتقدون أن لله زوجة وولدا.

والمجموعة الأخرى ذهبت إلى إن معنى اللهو هو التسلي، أو الأهداف غير المعقولة. وعلى هذا يكون معنى الآية إن هدف الخالق ليس هو التسلي.

وقد تمسك أصحاب الرأي الثاني بالسياق لرد الرأي الأول لأن ارتباط الآيات أعلاه سينقطع بالآيات السابقة، فضلاً عن أن كلمة (اللهو) إذا جاءت بعد كلمة (اللعب) فتعني التسلي وليس المرأة والولد[٣٢].

وقد استفاد العلامة الطباطبائي من هذه الطريقة في تفسير القرآن بالقرآن واستدل بمفهوم السياق في كثير من الموارد في تفسير الميزان[٣٣].

ز. رفع الاختلاف الظاهري بين الآيات المختلفة:

هناك بعض الآيات التي يبدو أنها بحسب الظاهر متعارضة، ولكن بعد الاستفادة من هذه الطريقة يمكن رفع ذلك التوهم مثال ذلك (ذكر القران الكريم مسألة تعرض الكافرين للسؤال يوم القيامة فقال: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [سورة القصص: ٧٨]، وقد جاء في مورد آخر ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الحجر: ٩٢]، فالظاهر من الآيتين التعارض فيما بينهما، ولكننا نفهم أن يوم القيامة له مواقف متعددة يتعرض الإنسان في بعضها إلى السؤال دون بعضٍ آخر، أو انه لا يسأل سؤالا تحقيقيا وإنما يسأل من أجل التوبيخ فقط، لأن الأمور يوم القيامة ستكون واضحة)[٣٤].

هذه هي أهم الأنواع لهذه الطريقة من قبيل الأنواع الخاصة بالجمع بين الآيات الناسخة والمنسوخة، أو تحديد بعض معاني الاصطلاحات القرآنية بالاستعانة بأخرى، أو بيان القصص القرآني، أو تحديد كلمة بآية أخرى، أو التفسير الموضوعي للقرآن ويقول بعض الباحثين إن هناك أنواعاً أخرى ولكن يمكن تداخل بعضٍ من هذه الأنواع مع بعضها الآخر[٣٥].

(٣٢) تفسير الأمثل/ مكارم الشيرازي/ ج١٣ (٣٧٠-٣٧١) (الهامش).

(٣٣) دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقران/ ص(٦٤-٦٥).

(٣٤) دروس في المناهج ولاتجاهات التفسيرية للقران/ ص(٦٦-٦٧).

(٣٥) دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقران/ (٦٩).

التفاسير وفق منهج تفسير القرآن بالقرآن:

إن طريقة تفسير القرآن بالقرآن كانت محور اهتمام عدد من الباحثين والمفسرين لأنها من أقدم طرق التفسير وأكثرها قبولاً، ومن الطبيعي أن تتراكم التفاسير بهذا الأسلوب ولكن الاستفادة من هذا الأسلوب اختلف من مفسر لآخر، ففي الوقت الذي تجد مفسراً يكثر من هذا الأسلوب نرى بعضاً آخر يستعمله بقلة.

ومن أهم التفاسير التي استعملت فيها هذه الطريقة بصورة كبيرة هي:

١. تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي الذي يعدّ بحق رائدا في مثل هذه القضية.
٢. تفسير الفرقان في تفسير القرآن للدكتور محمد الصادقي الطهراني.
٣. تفسير ألاء الرحمن للشيخ محمد جواد البلاغي.
٤. التفسير القرآني للقرآن للشيخ عبد الكريم الخطيب.
٥. تفسير أضواء البيان في إيضاح القران بالقران للشيخ محمد أمين بن محمد مختار.

ومن الجدير بالذكر إن الشيخ الطوسي قد استفاد من هذا الأسلوب، ولكن ليس بالمقدار الذي يصنف معه تفسيره (التبيان) على هذا النهج، بل هو معدود من التفاسير الجامعة بين الأسلوبين العقلي والنقلي.

تطبيقات في مباحث:

هناك تطبيقات من هذا الأسلوب وقد وردت في المباحث المختلفة كما في مباحث الأصول وعلوم القرآن وأصول التفسير، وهي كما يلي:

١. المحكم والمتشابه.

ورد بيان معنى المحكم والمتشابه في كتب علوم القرآن كما يلي:

المحكم والمتشابه بمعناهما اللغوي:

أ. المحكم.

قال صاحب القاموس (احكمه أتقنه فاستحكم ومنعه عن الفساد كحكمه حكماً وعن الأمر رجعه فحكم منعه مما يريد كحكمه)[٣٦].

وقال صاحب لسان العرب (أحكمت الشيء فاستحكم: صار محكماً، واحتكم

(٣٦) القاموس المحيط/ الفيروزابادي -مادة (حكم).

الأمر واستحكم: وثق. ونقل عن الزهري، أن حكمتُ تأتي بمعنى أحكمت)[٣٧].

وقد حاول بعض الباحثين في علوم القرآن أن يرجع مادة الإحكام بمشتقاته المتعددة كالحكم، والحكمة، وحكم، واحكم، وغيرها إلى معنى واحد يجمعها وهو المنع[٣٨].

(ولكن المتبادر من مادة (الإحكام) معنى وجودي ايجابي هو الإتقان و الوثوق يشير إلى ذلك تصريح أهل اللغة في تفسير أصل المادة والمنع من تسرب الفساد. ويمكن أن يكون من مستلزمات هذا المعنى الايجابي (الإتقان) الأمر الذي صحح استعمال المادة فيه أيضاً مجازاً من باب استعمال اللفظ الموضوع للملزوم في اللازم)[٣٩].

(٣٧) لسان العرب/ العلامة ابن منظور -مادة (حكم).

(٣٨) راجع بهذا الصدد الفخر الرازي/ التفسير الكبير/ ج٧/ ص١٧٩، والزرقاني/ مناهل العرفان/ ج٢/ ص١٦٦،ورشيد رضا/ تفسير المنار ج٣/ ص١٦٣.

(٣٩) علوم القران/ العلامة الشهيد محمد باقر الحكيم/ ص١٦٦.

ب. المتشابه.

قال صاحب القاموس: (الشِّبَه بالكسر والتحريك... المثل جمعه: اشباه وشابَهَه وأشبهه مائلهُ وتشابها واشتبها: اشبه كل منهما الآخر حتى التبسا وامور مشتبهة ومشبَّهة كمعظّمة، مشكّلة. والشبهة بالضم -الالتباس والمثل. وشبه عليه الامر تشبيهاً لبّس عليه وفي القرآن المحكم والمتشابه)[٤٠].

وقال صاحب لسان العرب: (الشِّبهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ المِثْلُ والجَمعُ اشباه. واشبه الشيءُ الشيءَ: ماثله وأَشبَهتُ فلاناً وشابَهتُهُ واشتَبَهَ عليَّ وتشابهَ الشيئان واشتبَها: أَشبَهَ كلُّ واحدٍ منها صاحِبَه والمُشتبهاتُ من الأمور: المشكلاتُ، والمتشابهاتُ: المتماثلاتُ والتشبيه: التمثيل. والشُّبهَة: الالتباس وأُمور مُشتَبهة ومُشَبِّهة ومُشَبِّهة: مشكلة يُشبِهُ بعضُها بعضاً. وشَبَّهَ عليه: خَلَّطَ عليه الأمرَ حتّى اِشتبَهَ بِغَيرِه)[٤١].

(٤٠) القاموس المحيط/ الفيروزابادي -مادة (شبه).

(٤١) لسان العرب/ ابن منظور -مادة (شبه).

وعند النظر في هذا يمكن القول -كما قيل[٤٢]-:-

١. ان شابهه واشبهه بمعنى ماثلهُ. وكذا تشابه واشتبه، ولكنهما يدلان على وجود الوصف في الطرفين فهو من قبيل المفاعلة.

٢. ان الشبه يأتي بمعنى المثل فهو معنى وجودي ذو طابع موضوعي، ولكنه قد يطلق في نفس الوقت على ما يستلزمه احياناً من (الالتباس) الذي هو من المعاني ذات الطابع الذاتي القائم في عالم النفس. بل قد تطلق المادة ويراد منها خصوص المماثلة المؤدية: الى الالتباس كما قد يرمي الى ذلك صاحب القاموس في قوله الآنف (وتشابها واشتبها اشبه كل منهما الآخر حتى التبسا). وهذا النوع من الاستعمال نجده في كل مادة تطلق على معنى يقبل الشدة والضعف حيث قد يكون احد مصاديق المعنى مستلزماً لوجود شيء آخر.

وقد وصف القرآن جميعه بأنه كتاب محكم كما في قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ ...﴾ [سورة هود: ١].

وقال بعضهم في قوله تعالى ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [سورة يونس: ١] إن (حكيم) في هذه الآية جاءت بمعنى محكم[٤٣]، كما جاء في التنزيل أيضا وصف جميع القرآن بأنه كتاب متشابه كما في قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا ...﴾ [سورة الزمر: ٢٣]، وفي مقابل هذا الاستعمال الشامل لهذين الوصفين يوجد استعمال آخر لهما في التنزيل يطلقهما بشكل يجعل الإحكام مختصاً ببعض الآيات القرآنية، ويجعل التشابه مختصا ببعض آخر منهما كما جاء ذلك في قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة آل عمران: ٧].

(٤٢) علوم القران/ العلامة الشهيد محمد باقر الحكيم/ ص١٦٧.

(٤٣) لسان العرب/ ابن منظور/ مادة (حكم).

وقد حصل الاتفاق بين علماء علوم القرآن وباحثيه على ان كلاً من المعنيين في الاستعمال الأول معين، وذلك عندما وجدوا أن المسوغ لإطلاق وصف الإحكام على الآيات القرآنية جميعاً موجود في القرآن من ناحية دقة نظمه وإتقانه، وما حواه من التجانس والتناغم بين أفكاره ومفاهيمه.

كما انهم وجدوا ان العلاقة التي أجازت وصفه بالتشابه تتمثل في صرف التماثل والتشابه بين أجزائه من ناحية الأسلوب والغاية وخلوه من شبهة التناقض والتنافي والاختلاف الذي لا يخلو منه كتاب مهما أوتي صاحبه من قدرة على صياغة المعاني والأفكار قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[٤٤].

ومن البداية وقع الاختلاف فيما بينهم عندما حاولوا تحديد المراد من وصفي المحكم والمتشابه في الاستعمال الثاني أي معناهما في الآية السابعة من سورة آل عمران[٤٥]، ونتيجة ذلك البحث والاختلاف فقد شهد البحث القرآني ولادة علم جديد من علوم القرآن سمي بـ (المحكم والمتشابه).

آراء العلماء في معنى المحكم والمتشابه:

يختلف العلماء في تحديد معنى المحكم والمتشابه اختلافاً كثيراً:

منها أن المقصود بالمحكم هو الذي تكون دلالته واضحة ولا يحتمل ان يكون منسوخاً، وأما المتشابه فهو الذي لا يمكن إدراك معناه بالعقل أو النقل والذي يكون الله عز وجل قد استأثر به من قبيل معنى الحروف المقطعة في أوائل بعض السور القرآنية، أو قيام الحساب وقد ذكر – العلامة الالوسي –ان هذا هو رأي السادة الحنفية[٤٦].

(٤٤) علوم القران/ العلامة الشهيد محمد باقر الحكيم –ص١٦٩.

(٤٥) وهي قوله ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

(٤٦) تفسير الالوسي/ ج٢/ ص ٤٢٥ عند=

ومنها أن المقصود من المحكم هو ما كان المراد منه معروفاً، سواء كان ذلك من خلال ما يظهر منه، أم من خلال عملية تأويله، وأما المتشابه فيقصد به، ما كان علمه خاصاً بالله سبحانه وتعالى من قبيل المثالين المتقدمين وخروج الدجال وقد ينسب هذا القول الى أهل السنة على انه هو المختار عنهم.

ومنها أن المقصود بالمحكم هو ما كان الوجه المحتمل فيه واحدا عند التأويل، وأما المتشابه فيقصد به ما تعددت الأوجه المحتملة فيه، وربما نسب هذا الرأي الى ابن عباس، ولعل هذا هو ما جرى عليه أكثر علماء الأصول من غير الشيعة.

ومنها أن المقصود من المحكم هو ما كان مستقلاً بنفسه ومستغنياً عن الحاجة الى البيان، وأما المتشابه فهو الذي يكون بخلافه ويحتاج الى البيان، وتختلف طرق البيان بسبب الاختلاف في تأويله، وهذا القول محكي عن الامام احمد بن حنبل.

ومنها أن المقصود من المحكم هو الدقيق النظم والصياغة والذي يؤدي الى الدلالة على المعنى المستقيم دون منافاة، وأما المتشابه فهو الذي لا يصل العلم الى المقصود منه من ناحية اللغة، إلا في حالة اقتران الكلام بأمارة أو قرينة، وعلى هذا فالمشترك عموماً مندرج فيه وربما نسب هذا الى إمام الحرمين الجويني.

ومنها أن المقصود من المحكم ما كان معناه واضحاً والذي لا يتطرق إليه احتمال مأخوذ من الإحكام بمعنى الإتقان، وأما المتشابه فبخلافه، ولعل معنى المحكم على هذا ما كان نصاً أو ظاهراً فيما يكون معنى المتشابه قد انتظم فيه المشترك، وما كان من الألفاظ موهماً للتشبيه في حق الله سبحانه وتعالى ووقع الكلام في نسبته الى قائل بعينه.

ومنها أن المقصود من المحكم هو ما كان راجح الدلالة فيشمل ما كان نصاً، وما كان ظاهراً، وأما المتشابه فهو الذي تكون دلالته ليست راجحة، وقد يعبر عنه بالمجمل أو المؤول أو المشكل، واختار هذا الرأي جمع من المحققين عد منهم الامام

=تفسير الآية السابعة من سورة آل عمران.

الفخر الرازي[٤٧].

وأضاف الزرقاني[٤٨] صاحب (مناهل العرفان) أربعة آراء أخرى وهي:

١. أن المحكم هو الذي يعمل به أما المتشابه فهو الذي يؤمن به ولا يعمل به وقد روى السيوطي هذا القول عن عكرمة وقتادة وغيرهما...

٢. أن المحكم ما كان معقول المعنى والمتشابه بخلافه كأعداد الصلوات واختصاص الصيام برمضان دون شعبان وفيه أن هذا التفسير قاصر عن الوفاء بكل ما كان واضحا وكل ما كان خفيا.

٣. أن المحكم ما لم يتكرر لفظه والمتشابه ما تكرر لفظه وفيه أن هذا المعنى بالنسبة إلى المتشابه أقرب إلى اللغة منه إلى الاصطلاح الذي عليه الجمهور، وفيه إهمال لما اعتبر هنا من أمر الخفاء والظهور.

٤. أن المحكم ما لم ينسخ لمتشابه ما نسخ.

ونظرا إلى أن هذه الآراء أضعف من تلك الآراء... وأبعد عنها في ملحظها ومغزاها افردناها بالذكر ولم نسلكها مع تلك في سمط واحد. وقد يكون من المناسب ان نذكر ان البحث عندما يتعلق بفهم مقصود القرآن الكريم من هاتين الكلمتين (المحكم والمتشابه) في الآية السابعة من سورة آل عمران، فهو لا يتعلق بالمعنى الاصطلاحي لهما، ولا بما هو شبيه بالمعنى الاصطلاحي، كما هو حال البحث المتعلق بالمراد من المكي والمدني، وذلك لأن غايته الوصول الى هدف موضوعي، وهو المراد الالهي من المحكم والمتشابه، وقد اختلفت الاتجاهات والآراء في معناهما، وربما كان استمرار البحث في هذه الآية وأمثالها وراء ذلك منذ بداية البحث القرآني التفسيري حولها نظراً لأهمية البحث المذكور من جهة مذهبية.

ما هو المختار في المحكم والمتشابه:

المقصود من وصف الآيات: بالإحكام أنها ذات مفاهيم واضحة ولا مجال للجدل والخلاف بشأنها كآية ﴿قُلْ

(٤٧) التفسير الكبير/ الفخر الرازي/ ج٧ ص١٨٠.

(٤٨) مناهل العرفان/ الزرقاني/ ص٥٣٣-٥٣٤.

﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: ١]، و ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورى: ١١]، و ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [سورة الزمر: ٦٢]، و ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [سورة النساء: ١١]، والمتشابه هو ما تكون أجزاؤه المختلفة متشابهة أو ان التراكيب والكلمات التي تعقدت معانيها وأفرزت بسبب ذلك احتمالات كثيرة، وان كان ذلك في المرحلة المتقدمة من النظر الى تلك الكلمات والتراكيب، لأنها عند التأمل فيها بعد العرض على المحكمات من الآيات سيتضح معناها ويختفي ما توهم وجوده من خفاء وتشابه في معناها.

(وعلى الرغم من أن المفسرين أوردوا احتمالات متعددة في تفسير المحكم والمتشابه ولكن الذي قلناه يناسب المعنى الأصلي لهذين المصطلحين كما يتفق مع أسباب نزول الآية وكذلك مع الأحاديث الواردة في تفسير هذه الآية[٤٩]، ومع الآية نفسها)[٥٠].

(٤٩) [سورة آل عمران: ٧].

(٥٠) تفسير الأمثل/ ج٢/ ص٣٩٦-ص٣٩٧.

٢. العام والخاص.

أما في اللغة فقال في مختار الصحاح (عم الشيء يعم بالضم عموماً أي شمل الجماعة -يقال عمهم بالعطية)[٥١].

وقال في مجمع البحرين (العام خلاف الخاص... والعامة خلاف الخاصة.. والنسبة إلى العامة: عامي والهاء في عامة للتأكيد. وقوله (ولا يعذب الله العامة بعمل الخاصة) أي لا يعذب الأكثر بعمل الأقل وفي الحديث (خذ بما خالف العامة) يعني أهل الخلاف، وقد ذهب عامة النهار أي جميعه، وعم الشيء يعم عموماً من باب قعد: شمل. ومنه (عمهم بالعطية) و (عمهم المطر)[٥٢].

وأما في اصطلاح علوم القرآن فقد ذكر جلال الدين السيوطي في (الإتقان) ما نصه:

العام لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر وصيغته (كل) مبتدأة نحو ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [سورة الرحمن: ٢٦] أو تابعة

(٥١) مختار الصحاح/ محمد بن ابي بكر الرازي.

(٥٢) مجمع البحرين/ الشيخ فخر الدين الطريحي/ مادة (عمم).

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٣٠]، والذي والتي و تثنيتها و جمعها، نحو ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ [سورة الأحقاف: ١٧]، فان المراد به كل من صدر منه هذا القول بدليل قوله بعد: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ [سورة الأحقاف: ١٨] و ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [سورة البقرة: ٨٢]، ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [سورة يونس: ٢٦] ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ ﴾ [سورة آل عمران: ١٥] ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ ... ﴾ [سورة الطلاق: ٤] الآية، ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ .. ﴾ [سورة النساء: ١٥] الآية، ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ... ﴾ [سورة النساء: ١٦] و أي و ما و من [شرطاً واستفهاما ً وموصولا ً نحو: ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [سورة الإسراء: ١١٠] ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٨]، ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [سورة النساء: ١٢٣]، والجمع المضاف نحو ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ [سورة النساء: ١١]، والمعرف بال نحو: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة المؤمنون: ١]، ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة التوبة: ٥]، واسم الجنس المضاف نحو ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ [سورة النور: ٦٣]، أي كل أمر الله، و المعرف بال نحو: ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٧٥]، أي كل بيع ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ [سورة العصر: ٢]، أي كل إنسان بدليل ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [سورة العصر: ٣]، والنكرة في سياق النفي والنهي نحو ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [سورة الإسراء: ٢٣]، ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [سورة الحجر: ٢١]، ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [سورة البقرة: ٣]، ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ [سورة البقرة: ١٩٧]، وفي سياق الشرط نحو: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ

﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[سورة التوبة: ٦]، وفي الامتنان نحو: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾[سورة الفرقان: ٤٨].

ثم عقد فصلاً لبيان أقسام العام فقال: العام على ثلاثة أقسام:-

الأول: الباقي على عمومه، قال القاضي جلال الدين البلقيني ومثله عزيز، إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص، فقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [سورة الحج: ١] قد يخص غير المكلف، و﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾[سورة المائدة: ٣] حتى منها حالة الاضطرار...

وذكر الزركشي في البرهان انه كثير في القرآن وأورد منه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[سورة المائدة: ٩٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾[سورة يونس: ٤٤]، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[سورة الكهف: ٤٩]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾[سورة فاطر: ١١]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [سورة غافر: ٦٤].

قلت: هذه الآيات كلها من غير الأحكام الفرعية فالظاهر أن مراد البلقيني انه عزيز في الأحكام الفرعية وقد استخرجت من القرآن بعد الفكر آية فيها وهي قوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ..﴾[سورة النساء: ٢٣] الآية فانه لا خصوص فيها.

الثاني: العام المراد به الخصوص.

الثالث: العام المخصوص وللناس بينهما فروق...)[٥٣].

ثم بين أمثلة الثاني والثالث فقال:

ومن أمثلة المراد به الخصوص قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٣]، والقائل واحد هو نعيم بن مسعود الأشجعي، أو أعرابي من خزاعة، كما أخرجه ابن مردويه من حديث أبي رافع لقيامه مقام كثير في تثبيط المؤمنين عن ملاقاة أبي سفيان.

قال الفارسي: ومما يقوي أن المراد به واحد قوله: -﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [سورة آل عمران: ١٧٥]، فوقعت

(٥٣) الإتقان في علوم القران/ ج٣/ ص٤٩-ص٥٠.

الإشارة بقوله (ذلكم) إلى واحد بعينه، ولو كان المعني جمعاً لقال: (إنما أولئك الشيطان) فهذه دلالة ظاهرة في اللفظ ومنها قوله تعالى ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ [سورة النساء: ٥٤]، أي رسول الله ﷺ لجمعه ما في الناس من الخصال الحميدة، ومنها قوله ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ [سورة البقرة: ١٩٩]...

ومنها قوله تعالى ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾ [سورة آل عمران: ٣٩]، أي جبريل كما في قراءة ابن مسعود، وأما المخصوص فأمثلته في القرآن كثيرة جداً وهو أكثر من المنسوخ إذ ما من عام إلا وقد خص.

وأما الأصوليون فقد عرفوا العام والخاص بما بالآتي: -

(العام اللفظ الشامل بمفهومه لجميع ما يصلح انطباق عنوانه عليه في ثبوت الحكم له. وقد يقال للحكم (انه عام) أيضا باعتبار شموله لجميع أفراد الموضوع أو المتعلق أو المكلف.

والقصد من((الخاص)) الحكم الذي لا يشمل إلا بعض أفراد موضوعه أو المتعلق أو المكلف، أو أنه اللفظ الدال على ذلك)[٥٤].

وقد ذكروا له أقساماً ثلاثة هي العموم ألاستغراقي والعموم المجموعي والعموم البدلي، وافاضوا في تعريف كل قسم، ومثلوا لها بأمثلة مرتبطة بالفقه، وتترتب على كل واحد من هذه الأقسام أحكامٌ شرعية مذكورة في طيات البحوث الفقهية الاستدلالية.

وأما ألفاظ العموم فقد ذكروا له مجموعة من الأدوات والكلمات وميزوا بينها من خلال سبب الدلالة في كل لفظ ومع تلك الألفاظ مما يأتي: -

١. لفظ ((كل)) وما في معناها فانه من المعلوم دلالتها بالوضع على عموم مدخولها سواء كان عموما استغراقياً أو مجموعياً وان العموم معناه الشمول لجميع أفرادها مهما كان لها من الخصوصيات اللاحقة لمدخولها.

٢. ((وقوع النكرة في سياق النفي أو

(٥٤) انظر: أصول الفقه/ العلامة المظفر/ ص١٥١.

النهي)) فانه لاشك في دلالتها على عموم السلب لجميع أفراد النكرة عقلاً لا وضعاً؛ لأن عدم الطبيعة إنما يكون بعدم جميع إفرادها...

٣. ((الجمع المحلى باللام والمفرد المحلى بها))، لا شك في استفادة العموم منها عند عدم العهد ولكن الظاهر انه ليس ذلك بالوضع في المفرد المحلى باللام، وإنما يستفاد بالإطلاق بمقتضى الحكمة، ولا فرق بينهما من جهة العموم في استغراق جميع الأفراد فرداً فرداً)[٥٥].

ثم المخصص للعام في القرآن إما متصل وإما منفصل (فالمتصل خمسة وقعت في القرآن: -

احدها: الاستثناء نحو ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾ [سورة النور: ٤ -٥] ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ... ﴾ [سورة الشعراء: ٢٢٤ -٢٢٧] الآية، ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ... ﴾ إلى قوله ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ [سورة الفرقان: ٦٨ -٧٠]، ﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [سورة النساء: ٢٤] وقوله تعالى ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [سورة القصص: ٨٨].

الثاني: الوصف نحو ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ [سورة النساء: ٢٣].

الثالث: الشرط نحو ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ [سورة النور: ٣٣]، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٠].

الرابع: الغاية نحو ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ إلى قوله ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ ﴾ [سورة التوبة: ٢٩]، ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٢]، ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ

(٥٥) أصول الفقه/ العلامة المظفر/ ص١٥٢-ص١٥٣.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [سورة البقرة: ١٩٦]، ﴿وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ...﴾ [سورة البقرة: ١٨٧] الآية.

والخامس: بدل بعضٍ من كل، نحو ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [سورة آل عمران: ٩٧]، والمفصل آية أخرى في محل آخر أو حديث أو إجماع أو قياس)[٥٦].

٣. المجمل والمُبيَّن.

المجمل هو للفظ الذي لم تتضح دلالته وهو واقع في القرآن وقد ذكر بعض العلماء للإجمال أسباباً:

منها -الاشتراك -نحو ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [سورة التكوير: ١٧]، فانه موضوع لأقبل وأدبر ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٨]، فان القرء موضوع للحيض والطهر ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٧].

يحتمل الزوج والولي فان كلا منهما بيده عقدة النكاح.

ومنها: الحذف نحو ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [سورة النساء: ١٢٧] يحتمل (في) و(عن).

ومنها: اختلاف مرجع الضمير نحو ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [سورة فاطر: ١٠] يحتمل عود الضمير الفاعل في يرفعه إلى ما عاد عليه ضمير (إليه) وهو الله، ويحتمل عوده إلى العمل والمعنى أن العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب، ويحتمل عوده إلى الكلم الطيب أي الكلم الطيب وهو التوحيد يرفع العمل الصالح لأنه لا يصح العمل إلا مع الإيمان.

ومنها: احتمال العطف والاستئناف نحو ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٧]، ومنها: غرابة اللفظ نحو ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٢]، ومنها: عدم كثرة الاستعمال نحو ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٢٣] أي يسمعونه ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ [سورة الحج: ٩] ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ [سورة الكهف: ٤٢].

ومنها: قلب المنقول، نحو ﴿وَطُورِ

(٥٦) انظر: الإتقان في علوم القران/ الشيخ جلال الدين السيوطي/ ج٣ ص٥٢ -ص٥٣.

سِينِينَ ﴾[سورة التين: ٢] أي سيناء ﴿عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴾[سورة الصافات: ١٣٠] أي على الياس.

ومنها: التكرير القاطع لوصل الكلام في الظاهر نحو ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ ﴾(٥٧) [سورة الأعراف: ٧٥].

ثم إن التبيين لما كان مجملاً قد يكون متصلاً ومنفصلاً، وقد ذكر السيوطي في (الإتقان) انه: قد يقع التبيين متصلاً نحو من الفجر بعد قوله ﴿ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٧] ومنفصلاً في أية أخرى نحو ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾[سورة البقرة: ٢٣٠] بعد قوله ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٩]وقوله ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ... ﴾[سورة المائدة: ١] الآية فسرت قوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾[سورة المائدة: ٣] وقوله ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[سورة الفاتحة: ٤] فسرت قوله ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ... ﴾[سورة الانفطار: ١٧ -١٩] الآية وقوله ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ﴾ [سورة الزخرف: ١٧] فسرت قوله في آية النحل ﴿بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ [سورة النحل: ٥٨] وقوله ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾[سورة البقرة: ٤٠] قال العلماء بيان هذا العهد قوله ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى... ﴾ [سورة المائدة: ١٢] إلى آخره فهذا عهده وعهدهم ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ... ﴾ [سورة المائدة: ١٢] الى آخره وقوله ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[سورة الفاتحة: ٧] بينه قوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[سورة مريم: ٥٨].

وقد ذكر الأصوليون مواضع وقع الشك في إجمالها بعد أن عَرَّفوا المجمل بما تقدم تعريفه به وهو (ما لم تتضح دلالته) ويقابله المبين.

و من تلك المواضع ما الآتي:

قوله تعالى ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ

(٥٧) الإتقان في علوم القرآن/ جلال الدين السيوطي ٢/ ٢٠٠ -البابي الحلبي (القاهرة) ١٩٥١.

﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [سورة المائدة: ٣٨] فقد ذهب جماعة إلى إن الآية من المجمل المتشابه إما من جهة لفظ القطع باعتبار إنه يطلق على الإبانة ويطلق على الجرح كما يقال لمن جرح يده بالسكين قطعها كما يقال لمن أبانها كذالك. وإما من جهة لفظ اليد باعتبار إن اليد تطلق على العضو المعروف كله وعلى الكف إلى أصول الأصابع وعلى العضو إلى الزند والى المرفق...

والحق أنها من ناحية لفظ ((القطع)) ليست مجملة، لان المتبادر من لفظ ((القطع)) هو الإبانة و الفصل، وإذا أطلق على الجرح فباعتبار انه أبان قسما من اليد فتكون المسامحة في لفظ ((اليد)) عند وجود القرينة لا إن القطع استعمل في مفهوم الجرح، فيكون المراد في المثال من اليد بعضها كما تقول: ((تناولت بيدي)) وفي الحقيقة إنما تناول ببعضها.

وأما من ناحية ((اليد)) فان الظاهر أن اللفظ -لو خلي ونفسه- يستفاد منه أرادة تمام العضو المخصوص، ولكنه غير مراد يقيناً في الآية فيتردد بين المراتب العديدة من الأصابع إلى المرفق، لأنه بعد فرض عدم إرادة تمام العضو لم تكن ظاهرة في واحدة من هذه المراتب فتكون الآية مجملة في نفسها من هذه الناحية وان كانت بينة بالأحاديث عن آل البيت (عليهم السلام) الكاشفة عن إرادة القطع من أصول الأصابع.

ومنها: قوله ﷺ: (لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب)[٥٨]، وأمثاله من التي تشتمل على كلمة (لا) التي لنفي الجنس نحو: (لا صلاة إلا بِطَهور)[٥٩]، و (لا بيع إلا في ملك)[٦٠]، و (لا صلاة لمن جاره المسجد إلا في المسجد)[٦١]، و (لا غيبة لفاسق)[٦٢]، و (لا جماعة في النافلة)[٦٣]،

(٥٨) وسائل الشيعة/ الحر العاملي/ ج٤/ ص٧٣٢/ الباب الأول من أبواب القراءة.

(٥٩) وسائل الشيعة/ الحر العاملي/ ج١/ ص٢٥٦/ الباب الأول من أبواب الوضوء/ الحديث (١ -٦).

(٦٠) انظر: وسائل الشيعة/ الحر العاملي/ ج٢/ ص٢٤٨ -ص٢٤٩.

(٦١) وسائل الشيعة/ الحر العاملي/ ج٣/ ص٤٧٨/ الباب الثاني من أبواب أحكام المسجد.

(٦٢) بحار الأنوار/ العلامة المجلسي/ ج٧٥/ ص٢٣٣.

(٦٣) وسائل الشيعة/ الحر العاملي/ ج٥=

و نحو ذلك[٦٤].

٤. المطلق والمقيد.

ورد تعريف المطلق في البحوث القرآنية[٦٥] وكما يأتي: -

المطلق -الدال على الماهية بلا قيد وهو مع المقيد كالعام مع الخاص. قال العلماء متى وجد دليل على تقييد المطلق صير إليه، وإلا فلا، بل يبقى المطلق على إطلاقه والمقيد على تقييده لأن الله تعالى خاطبنا بلغة العرب.

والضابط أن الله إذا حكم في شيء بصفة، أو شرط ثم ورد حكم آخر مطلقاً، فننظر: فان لم يكن له أصل يرد إليه إلا ذلك الحكم المقيد وجب تقييده به، وان كان له أصل يرد إليه غيره لم يكن رده إلى أحدهما بأولى من الآخر.

فالأول مثل اشتراط العدالة في الشهود على الرجعة والفراق والوصية في قوله ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ ﴾[سورة الطلاق: ٢]، وقوله ﴿ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾[سورة المائدة: ١٠٦]، وقد أطلق الشهادة في البيوع وغيرها في قوله ﴿ وَأَشْهِدُوٓا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾[سورة البقرة: ٢٨٢] ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ﴾[سورة النساء: ٦]، والعدالة شرط في الجميع.

ومثل تقييده ميراث الزوجين بقوله: ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ [سورة النساء: ١١]، وإطلاق الميراث فيما أطلق فيه. وكذلك ما أطلق من المواريث كلها بعد الوصية والدَّين.

وكذلك ما اشترط في كفارة القتل من الرقبة المؤمنة وإطلاقها في كفارة الظهار واليمين والمطلق كالمقيد في وصف الرقبة.

وكذلك تقييد الأيدي بقوله ﴿ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ ﴾[سورة المائدة: ٦] في الوضوء وإطلاقه في التيمم.

=ص١٨٢/ الباب السبع من أبواب نافلة شهر رمضان.

(٦٤) أصول الفقه/ العلامة المظفر/ ص٢٠٨-ص٢٠٩.

(٦٥) انظر الإتقان في علوم القرآن/ جلال الدين السيوطي/ ج٣/ ص١٠١ -ص١٠٢.

وأما الأصوليون فقد ذكروا في توضيح معنى المطلق بحسب اصطلاحهم بما يأتي:

(«انه ما دل على معنى شائع في جنسه» ويقابله المقيد)[٦٦]، وهذا التعريف وقع الحديث فيه بين نقض وإبرام، ويظهر من استعمال الاصوليين للفظي المطلق والمقيد في معناهما اللغوي عدم وجود معنى خاص بهم، وكما هو معروف من اخذ المطلق والمقيد من الارسال والشيوع وما يقابلهما كان التقابل بينهما من قبيل تقابل الملكة والعدم.

(غاية الأمر إرسال كل شيء بحسبه وما يليق به، فإذا نسب الإطلاق والتقييد إلى اللفظ -كما هو المقصود في المقام -فإنها يراد ذلك بحسب ماله من دلالة على المعنى فيكونان وصفين للفظ باعتبار المعنى)[٦٧].

ويظهر من كلام الأصوليين أن هناك تلازماً بين المعنيين (بمعنى أنه لا يمكن فرض استكشاف الإطلاق وإرادته من كلام المتكلم في مورد لا يصح التقييد، بل يكون هذا الكلام لا مطلقاً ولا مقيداً، وان كان في الواقع أن المتكلم لابد أن يريد احدهما)[٦٨].

ويظهر أيضا من كلامهم أن الإطلاق والتقييد لا يختص بالمفردات، بل يكون في الجمل أيضا كإطلاق صيغ (افعل) مثلاً، ولكن لأن البحث الأصولي في خصوص الألفاظ المفردة وقد يكون السبب في عدم شمول البحث لجمل باعتبار إن ليس هناك ضابط كلي لمطلقاتها[٦٩].

وهناك شروط يجب توافرها لاستفادة الإطلاق عندهم من دلالة الألفاظ وهي المعبر بمقدمات الحكمة ومحصلها إمكان الإطلاق والتقييد وعدم نصب القرينة على التقييد، وعدم وجود قدر متقين في مقام التخاطب، وكون المتكلم في مقام بيان تمام مراده، وهناك فرق بين المعنى المشار إليه سابقا عند أصوليي الشيعة ومعناه عند أهل السنة.

(٦٦) انظر: أصول الفقه/ العلامة المظفر/ ص١٨٣.

(٦٧) المصدر السابق.

(٦٨) المصدر السابق ص١٨٤.

(٦٩) المصدر السابق -ص١٨٥.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الإتقان في علوم القرآن -العلامة جلال الدين السيوطي -دار الكتب العلمية -بيروت -١٤٠٧هـ.

٢. الأصول العامة للفقه المقارن -العلامة السيد محمد تقي الحكيم -دار الهلال - النجف الاشرف -١٤٢٧هـ.

٣. أصول الفقه -العلامة الشيخ محمد رضا المظفر -طبعة بستان الكتاب -قم المقدسة -١٤٢٩هـ.

٤. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل - العلامة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي -دار الكتب الإسلامية -طهران ١٤٠٢هـ.

٥. بحار الأنوار -محمد باقر المجلسي- دار إحياء التراث العربي -بيروت- ١٤٠٣هـ.

٦. تفسير ابن كثير -ابن كثير -دار الكتب العلمية -بيروت -١٤١٦هـ.

٧. مناهل العرفان في علوم القرآن -محمد عبد العظيم الزرقاني -دار الكتب العلمية -بيروت -١٤١٦هـ.

٨. تفسير الصافي -محمد محسن الفيض الكاشاني -مؤسسة الاعلمي للمطبوعات -بيروت -١٤٠٢هـ.

٩. التفسير الكبير -فخر الدين الرازي -دار الكتب العلمية -بيروت -١٤١١هـ.

١٠. دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن -الدكتور محمد علي الرضائي الأصفهاني ترجمة قاسم البيضاني -المركز العالمي للدراسات الإسلامية -طبعة صدف -١٤٢٦هـ.

١١. صحيح البخاري -أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري -دار إحياء التراث العربي -بيروت -١٤٠٠هـ.

١٢. علوم القرآن -العلامة الشهيد محمد باقر الحكيم (قد) -مجمع الفكر الإسلامي -قم المقدسة -١٤١٩هـ.

١٣. القاموس المحيط -محمد يعقوب الفيروزآبادي -طبعة بيروت -

لبنان -١٤١٦هـ.
١٤. الكافي -الشيخ محمد بن يعقوب الكليني -المكتبة الإسلامية -قم المقدسة -١٤٠٤هـ.
١٥. لسان العرب -الإمام العلام أبو الفضل جمال محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري -دار صادر للطباعة -بيروت -١٩٥٥م.
١٦. المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم -الدكتور محمد حسين علي الصغير -المكتبة الإسلامية - طهران -١٤٢١هـ.
١٧. مجمع البحرين -فخر الدين الطريحي -المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية -١٤١١هـ.
١٨. مختار الصحاح -الإمام محمد بن ابي بكر الرازي -دار العلوم الإنسانية - دمشق -١٤٠٩هـ.
١٩. المناهج التفسيرية في علوم القرآن- العلامة جعفر السبحاني -مؤسسة الإمام الصادق -قم المقدسة- ١٤٢٦هـ.
٢٠. مناهل العرفان في علوم القرآن - محمد عبد العظيم الزرقاني -دار الكتب العلمية -بيروت -١٤١٦هـ.
٢١. الميزان في تفسير القرآن -العلامة محمد حسين الطباطبائي -مؤسسة مطبوعات اسماعيليان -قم المقدسة -١٣٩٣هـ.
٢٢. نفحات القرآن -تفسير موضوعي- العلامة ناصر مكارم الشيرازي- مؤسسة ابي صالح للنشر والثقافة.
٢٣. نهج البلاغة -الإمام علي عليه السلام -جمع الشريف الرضي -منشورات هدف- قم المقدسة -بدون تاريخ.
٢٤. الوافي -محمد محسن الكاشاني - مكتبة أمير المؤمنين علي عليه السلام العامة- أصفهان-١٤٠٨هـ.
٢٥. وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة -محمد بن الحسن الحر العاملي -دار إحياء التراث العربي - بيروت -١٣٩١هـ.

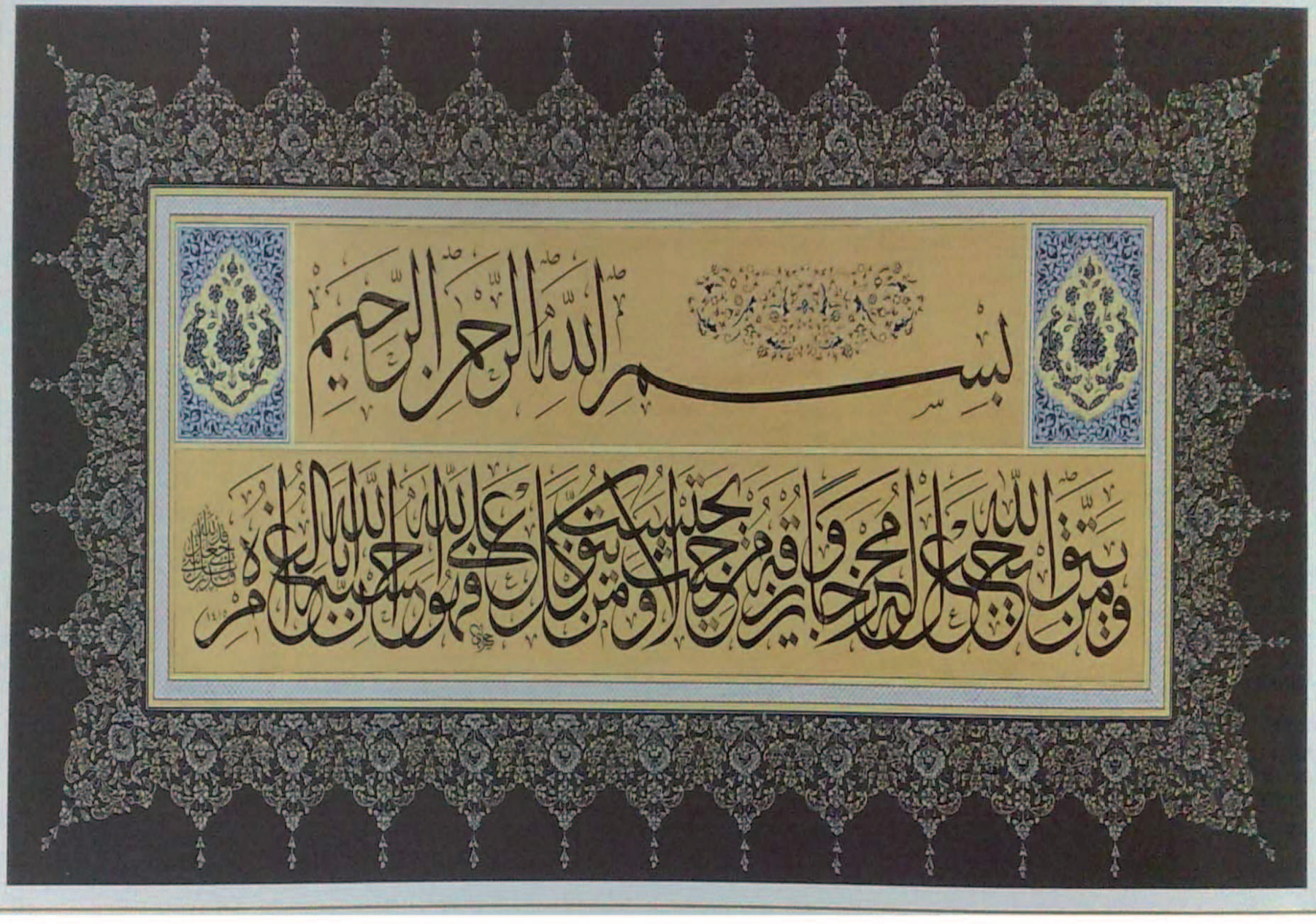
بسم الله الرحمن الرحيم
ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره

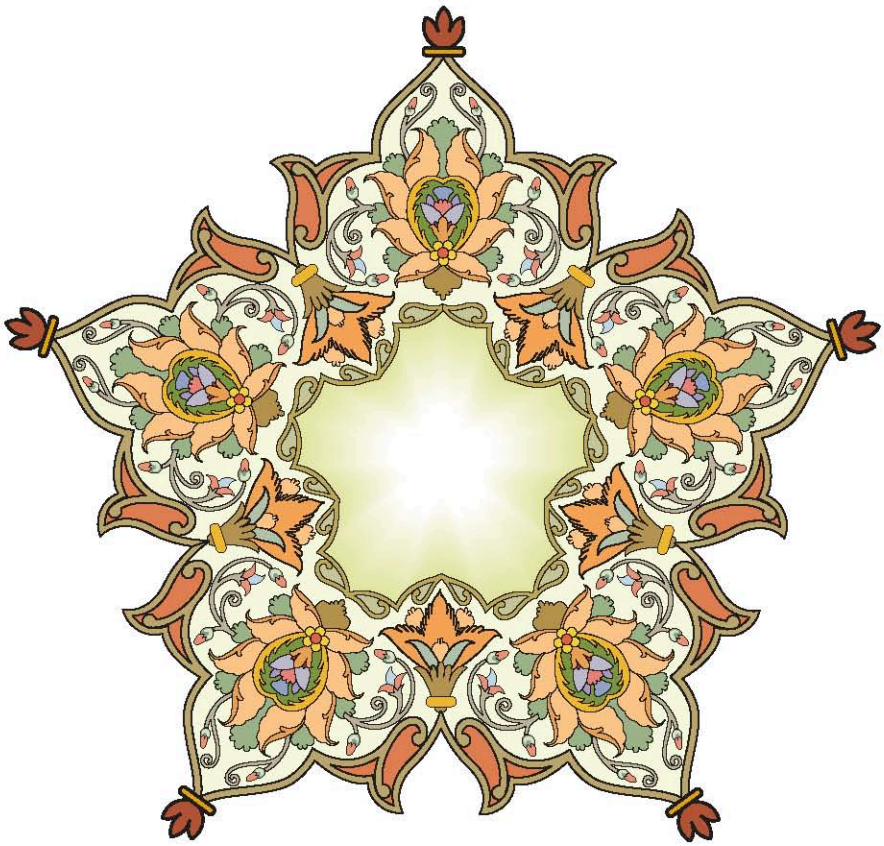

البنية المقطعية في سورة القارعة
إيضاح الجمالية الإيقاع

خالد حويرالشمس
كلية الآداب - جامعة ذي قار

ملخص البحث

انطلاقاً من دعوة المحدثين الى دراسة الصرف العربي في ضوء اتجاه جديد، هو: الاتجاه الصوتي الصرفي المورفولوجي الذي انتجته المدرسة الامريكية في دراستها للاصوات، انطلق السيد الباحث الى تحليل سورة القارعة مقطعياً، مستعرضاً انواع المقطع اللغوي عند (الأصواتيين) أي: القصير، الطويل المفتوح، الطويل المغلق ، المدير، الممتد. ولم يستوعب الباحث كل السورة بل قصرها على مفاصل منها، كالتكرار، و الفاصلة والتعادل والوقف الوصل، والمناسبة. بعدها وقف بايجاز على مفهوم كل مفردة في الدرس اللغوي، مع مقارنة ذلك بالمقطع اللغوي. ووضح الدلالة القرآنية التي توصل اليها المفسر مع ما يحمله المقطع من شحنة دلالية ليناغم الجمالية القرآنية في صياغة التركيب القرآني. وبذلك تحققت اجابة عن سؤالٍ طرحه البحث، مفاده: هل بالامكان تناول النص القرآني مقطعياً؟ وقد رجع السيد الباحث الى ثلاثة مفسرين منهم الطبرسي (من القدماء) والطباطبائي (من المحدثين).

● ان تعدد قراءات النص القرآني من اكبر الأدلة على ثرائه الإعجازي وقيمته الإبداعية، فكل مختص يحاول الولوج لِكُنْهِ النص القرآني وسَبْرِ دلالته، بحسب زاويته واختصاصه، فان كان تركيبيا ففي مجاله، وإن كان صرفيا كذلك، وإن كان فيلسوفا، أو صوفيا، وهكذا، حتى نصل بعد تعداد يطول إلى من كان جماليا، إيقاعيا، او أدبيا على منوال تفسير محمد رشيد رضا في (المنار) وسيد قطب في (في ظلال القرآن).

الإيقاعي الصوتي على وجه الخصوص يلتمس الصدى الصوتي في النص القرآني محاولا ابداء أو اظهار الجمالية القرآنية من خلال مباحث محدودة السجع، التكرار،الفاصلة... أي إنه قد تتفرع الحقيبة الصوتية إلى فروع، منها التأثير الأسلوبي من خلال استعمال مخارج الحروف وصفاتها، المجهور مهموسا أحيانا وغير ذلك، وهذا ما عُرِف بالمستوى التركيبي في الدرس الصوتي الحديث أو الأساسي. او منها المستوى فوق التركيبي او الثانوي ومصاديقه النبر، والتنغيم، والطول، والقصر، وهكذا.

وقد وقفت في البحث على جمالية قرآنية من زاوية صوتية، التزمت فيها المقطع سمة لرصد الايقاع، تحريتها في سورة من السور القصار ألا وهي (القارعة)، اذ هي من السور ذات المعالم الأسلوبية الإيقاعية الواضحة. وبالمحاولة والتفتيش لزم أن تكون مفردات الايقاع ودراسة المقاطع في القارعة من جهة، التكرار،والفاصلة، والتعادل، والوقف، والمناسبة.

ردد البحث مقولات المحدثين (المورفولوجيين)، أمثال هنري فليش، وعبد الصبور شاهين، وغيرهم من دون التصريح بأحد منهم، بل تبين ذلك في الجانب التطبيقي من البحث.

هدف البحث الأول محاولة تطبيق المقطع اللغوي على النظام القرآني، وهل نفلح في تحليل النص القرآني كله في هذه المحاولة؟.

توصل البحث إلى ذلك مبرزا نتيجة مفادها: أن المقطع اللغوي متواشج مع القصد القرآني الذي شخصه المفسرون،

أي موافقة دلالة المقطع لما توصل إليه المفسرون من دلالات قرآنية في هذه السورة موضع البحث، ومن المفسرين الذين رجعت إليهم، الطبرسي، وسيد قطب، والطباطبائي.

أولا: التكرار.

حده في المنظومة البلاغية: دلالة اللفظ على معناه مرددا[1]. ويكون في اللفظ والمعنى، وأحيانا في المعنى من دون اللفظ[2]، وكثيرا ما يقع في الألفاظ من دون المعاني، ولا يخفى الطابع المترتب في المعنى عن طريق التكرار، وأمثلته كثيرة في النص القرآني، والنص العربي الفصيح، ولعل ذكرها يغنينا ويلهينا عن المطلوب، وهذه المرة التكرار حمل بعدا ايقاعيا مضافا الى ذلك، ويدرس هنا من باب تكرار المقاطع الصوتية. ليحقق البعد الجمالي في السورة القرآنية موضع البحث.

اذ كرر المقطع الطويل المفتوح ثلاث مرات في ثلاث آيات لسورة مكونة من احدى عشرة آية قصيرة. وجاء التعبير القرآني ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾

{ القارعة * ما القارعة * وما ادراك ما القارعة }

قـ ـًـ قـ ـًـ قـ ـًـ

وليس التكرار هذا الا لإضفاء صفة الجمالية القرآنية التي تعني معنى التهويل والتقريع في هذه السورة، اذ ذهب المفسرون إلى أن الجو العام للسورة فيه تبشير بالقيامة، ويغلب فيه جانب الانذار[3]. لذا جاء أو التزم المقطع الطويل المفتوح (ص ح ح) و ورد بأكثر من صورتين.

وسنشير إلى هذه المقاطع بعد التقطيع الآتي:

ءَـ لْ/ قـ ـًـ/ رِـ/ عِـ هْ.

مَـ لْ/ قـ ـًـ/ رِـ/ عَـ هْ.

وَـ/ مَـ ـًـ/ ءَـ دْ/ رَـ ـًـ/ كَـ/ مَـ لْ/ قـ ـًـ/ رِـ/ عَـ هْ.

قـ ـًـ = ٣ مرات.

مـ ـًـ = مرة واحدة. رـ ـًـ = مرة واحدة.

(١) المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر: ٣/ ٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، والصحيفة نفسها.

(٣) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٢٠/ ٣٤٩.

وبالجمع يكون المقطع الطويل المفتوح جاء خمس مرات.

ويلحظ أن ما يبعث به التكرار المقطعي ينسجم وما جاء به اصحاب التفسير القرآني الكبار، اذ أن تكرار المقطع الواحد في ثلاث آيات وهو الطويل المفتوح كما ذكرنا (ق ـً) ينمّ عن قوة اثر اللفظة ومعناها القرع. وهذا ما يتماشى مع ما ذكره الشيخ الطبرسي في تفسيره[٤].

ثانيا: الفاصلة.

كثرت تعريفات الفاصلة، فقيل إنَّ منها: ((كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع، وقال الداني كلمة آخر الجملة))[٥]. وقال الرماني: ((الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني))[٦].

ولها وظيفتان، تلخيص معنى الآية تلخيصا يظهر به المعنى المراد منها. أو بتعبير آخر اكمال المعنى القرآني[٧]، فضلا عن الأثر الموسيقي المترتب عليها، يقول عنها تمام حسان: ((ومع ذلك تأتي الفاصلة في نهاية الاية لتحقق للنص جانبا جماليا لا يخطئه الذوق السليم، لاننا مهما يكن من شيء نحس بانها تضفي على النص قيمة صوتية منتظمة))[٨].

وما احدثه المقطع الصوتي في تناسب الفواصل و انسجامها لتحقيق التماسك الإيقاعي، لا يعني إبعاد أثرها في المعنى، ولكن لتسليط الضوء على زاوية الايقاع، حيث جاء المقطع المديد (ص ح ح ص) في آيتين وسط السورة في فاصلتين هما مبثوث، منفوش، من قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾

مبثوث: ك ـَ ل/ ف ـَ/ ر ـً/ ش ـِ ل/ م ـَ ب/ ث ـُ ث منفوش: ك ـَ ل/ ع ـِ هـ/ ن ـِ ل/ م ـَ ن/ ف ـُ ش.

ث ـُ ث.

ف ـُ ش.

وتكررت مراعاة الفاصلة مرة أخرى في السورة نفسها، ولكن بصورة مغايرة للأولى، إذ جاءت هذه المرة بالمقطع الطويل

(٤) ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ١/ ٣٦٤.
(٥) التحبير في علم التفسير: ١٣٩.
(٦) النكت في اعجاز القرآن: ٨٩ ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز.
(٧) ينظر: الفاصلة في القرآن: ٢٧.
(٨) البيان في روائع القرآن: ١/ ١٩٥.

المغلق (ص ح ص) في تسع آيات:

رقم الاية

١. القارعة: ء ـَ ل/ ق ـّ/ ر ـِ/ [ع ـَ هـ] في حال الوقف.

٢. ما القارعة: [ع ـَ هـ].

٣. ما القارعة: [ع ـَ هـ].

٤. موازينه: م ـَ/ و ـّ/ ز ـِ/ ن ـَ هـ.

٥. راضية: ر ـّ/ ض ـِ/ ي ـَ هـ.

٦. موازينه: ن ـَ هـ.

٧. هاوية: هـ ـّ/ و ـِ/ ي ـَ هـ.

٨. ماهية: م ـّ/ هـ ـِ/ ي ـَ هـ.

٩. حامية: ح ـّ/ م ـِ/ ي ـَ هـ.

واغلب الظن ان هذه المرات التسع حققت تلاؤما موسيقيا، أبدع فسحة جمالية طيبة جعلت القارئ المتأمل يرصد ويتذوق الحقيقة المختفية وراء موسيقى الآيات، وهي الهدف من تسجيل ونزول السورة القرآ نية لبيان حقيقة القارعة. ولبيان مشهد من مشاهد القيامة كما يعبر سيد قطب[٩].

ومن المدهش أن المقطع يتكرر من حيث الإيقاع أي مقطع طويل فعلت، والبنية نفسها فثلاث مرات ع ـَ هـ، وأربع مرات ي ـَ هـ ومرتان ن ـَ هـ.

ثالثا: التعاد.

سمي بتسميات كثر عند القدماء فمنهم من سماه بالتوازي، والمحاذاة، والتساوي، أو المجاراة والتكافؤ، وغير ذلك، وعرَّفوه في كتبهم بتعريفات مختلفة، أبرزها ما مفاده جعل لفظتين أو تركيبين متوافقين في الخفة والثقل، وغيرهما من الأحكام النحوية، والصرفية وغيرها[١٠].

ولنعد إلى الجانب التحليلي من سورة القارعة، إذ بإمكان النص القرآني أن يأتي بهذه الصورة) الْقَارِعَةُ* ومَا أدراك ما الْقَارِعَةُ)من دون الآية الثانية ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾لكن أبى الا أن يكون ككفتي ميزان وبينهما حبل في الوسط، وهاتان الكفتان حملتا معنى التعجب، إذ الأولى تعجب من القارعة بصورة غير قياسية دل عليها السياق القرآني بأكثر من مقطع:

ء ـَ ل/ ق ـّ/ ر ـِ/ ع ـَ هـ.

(٩) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٠.

(١٠) ينظر: التعادل في العربية: ٦.

هـذه المقاطع نفسها تكـررت تماما للوصول إلى تكافؤ الصورتين وهي:

م ـَـ ل/ ق ـًـ/ ر ـِـ/ ع ـَـ هـ.

الـدالـة عـلى تعجب المـولى لنبيه ﷺ ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾. اذ معناها: يا محمد لا تعلم حقيقة امرها. وماهية صفاتها على وجه التفضيل[11].

ثم الحبل الوسط كما عـبرت بحمل البنية المقطعية نفسها تماما وهي

م ـَـ ل/ ق ـًـ/ ر ـِـ/ ع ـَـ هـ.

ليكون بـذلـك صفا متزنا معتدلا متساوياً في ثلاث آيات عبرت عن معان عـدة، الأول تعجب والـثـاني استفهام والثالث تعجب. نصل إلى تساوي البنية القطعية واختلاف المعنى.

ونلحظ التعادل المقطعي الآخـر في قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ ﴾ في الآية رقم (٤) و ﴿ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ ﴾ من الآية رقم (٥) لو قطعناهما:

م ـَـ/ ي ـَـ/ ك ـُـ/ ن ـُـ ن.

و ـَـ/ ت ـَـ/ ك ـُـ/ ن ـُـ ل.

لوجدناهما تـدلان على عمق تطاير الناس في النار، كتطاير الفرَاش في الهواء في أكثر من جهة وذلك بأن يأتي بجملة معادلة او بجزء من جملة بالفاظ مختلفة، لكن بوزن متفق، ليرسخ هذا المعنى، أو ليزيد من هول الأمـر وشدته، ففي حين ثبّت الرواسي في الأرض وجعل لها أوتادا فها هي الأوتاد،نفسها أي: الجبال كالصوف تتطاير، بل الأكثر من هـذا، كالصوف الملون المصبوغ الذي يتضح ويلوح للناظر من بعيد[12].

وتتعدد صـور التعادل في العربية، فهي احيانا شكلية موسيقية فقط، واحيانا موسيقية دلالية ومنها في تعادل الفواصل الثلاث (هاوية، ماهية، حامية)، اذ يتضح من التحليل المقطعي:

هـ ـًـ/ و ـِـ/ ي ـَـ هـ.

م ـًـ/ هـ ـِـ/ ي ـَـ هـ.

ح ـًـ/ م ـِـ/ ي ـَـ هـ.

وهنا سـؤال مفاده لِمَ هـذا التساوي والتعادل ترى أجاء مصادفة ؟ وللاجابة نقول: في البدء مقطع طويل مفتوح ويتلوه قصير ثم طويل مغلق أي: (ص ح ح +

(١١) ينظر: مجمع البيان ١٠/ ٣٦٤.

(١٢) مجمع البيان: ١٠/ ٣٦٥.

ص ح + ص ح ص) وعلى انساق ثلاثة متوالية. هذا ليحقق شكل الخاتمة لمن خفت موازينه في اعتبار الله و تقويمه (أمه هاوية)، ثم يستفسر عن تلك الهاوية بـ (ماهية) ثم يجيب ختاما (حامية). إذ التسلسل واضح مرة نتيجة وبعدها سؤال عن تلك النتيجة ثم الاجابة[١٣]. لكن ثمة سؤال مفاده لمَ لا يتحقق التعادل في النص السابق؟ ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴾ مع تحققه في عاقبة السوء والشر والرذيلة.

فممكن القول والله اعلم ـ أن الشيء مرضٍ للمولى تعالى بأن تكون النتيجة طيبة وان يعيش في رضا، لكن المؤلم حقا أن تكون المعيشة او المصير الى ام هاوية، فجاء التعبير بمقاطع متساوية متعادلة لتعبر عن حسرة من باب ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾.

رابعا/ الوقف والوصل

إن دلالة الوقف الاصطلاحية، واضحة تماما ولها اثر كبير في الشكل المقطعي[١٤]. ومن أبرز آثارها ما جاء في سورة القارعة، وما نبه له الشيخ الطوسي ﷺ، في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴾، إذ الهاء في (هيه) عنده للوقف[١٥].

ومن إيضاحات الوقف في السورة ما جاء من تحول أواخر المقاطع فيها فقد تحولت من لون مقطعي إلى آخر كالآتي:

القارعة = ء ـَ ل/ ق ـَ/ ر ـِ/ ع ـَ/ ت ـُ الـــى ع ـَ هـ.

من مقطعين مفيدين إلى مقطع واحد طويل مغلق. وهذا ما جرى في ثلاث آيات

المبثوث= م ـَ ب/ ث ـُ/ ث ـِ الـــى ث ـُ ث.

من مقطعين طويل مفتوح والآخر قصير إلى مقطع واحد مديد مكرور جائز في الوقف.

المنفوش = م ـَ ن/ ف ـُ/ ش ـِ في حالة الوصل الـــى ف ـُ ش.

هذه الحالة كما في سابقتها المبثوث.

وكذلك في هاوية وحامية

هـ ـــ/ و ـــ/ ي ـــ/ ت ـَ ن اذ

(١٣) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦١.

(١٤) ينظر: المدخل إلى علم أصوات العربية: ٢٧٢.

(١٥) ينظر: مجمع البيان: ١٠/ ٣٦٥.

اصبحت:

هـ ـًا/ و ـِ/ ي ـَ هـ.

ح ـًا/ م ـِ/ ي ـَ/ ت ـُ ن الـــى ي ـَ هـ.

اذ بانقلاب التاء إلى هاء عند الوقف يتحول المقطع الطويل القصير المغلق إلى طويل مغلق في (هاوية)، والمقطعان الصغيران في (حامية) إلى مقطع واحد طويل مغلق.

لكن وكما يتضح من تفضيل قراء القرآن الكريم الوصل على الوقف عند قراءة سورة الواقعة أي القراءة مع الحركات تعود الاشكال المقطعية كما كانت. أي بهذه الشاكلة:

ع ـَ/ ت ـُ لثلاث مرات

ث ـُّ/ ث ـِ.

ف ـُّ/ ش ـِ.

ن ـُ/ هـ ـُ.

ض ـِ/ ي ـَ/ ت ـِ ن.

ن ـُ | هـ ـُ.

و ـِ/ ي ـَ/ ت ـُ ن.

ي ـَ/ ت ـُ.

يتضح في الوصل الإفادة من تعظيم شأن القارعة وهذا بَيِّنٌ في درج الكلام المتأتي من حركات المقطع.

اذ إن تغيُّر حالة المقطع من طويل مغلق في حالة الوقف إلى قصير مفتوح في حالة الوصل، يكون له اثر واضح في الطابع الجرسي المتأتي من ضم الكلمات أو الضمتين المتواليتين، مما يُنتج اهتماما بالكلمات المتغيرة المقاطع من لدن المنتج، ومما يؤكدها اذ يتحقق في نفس المتلقي صدى اكبر مما هو عليه في الوقف.

خامسا: المناسبة.

لا تختلف في مفهومها عن مفهوم الفاصلة أو التعادل، وتعد إحدى وسائل التماسك يقول الدكتور صبحي الفقي: ((إذ إنها تمثل وسيلة من أهم وسائل التماسك النصي: شكليا ودلاليا)) (١٦).

وفي سورة القارعة يحسب أنها اضافت أو انها عملت على الارتباط بين عناصر النص القرآني من جهة الايقاع، حينما اختارت (راضية) فاعلة= ر ـًا/ | ض ـِ/ ي ـَ هـ في حال الوقف، ض ـِ/ ي ـَ/ ت ـِ ن في حال الوصل من دون مرضية = م ـَ ر/ ض ـِ ي/ ي ـَ ه في حال الوقف

(١٦) علم اللغة النصي: ٢/ ٩٣.

ض ـِ ي | ي ـَ/ ت ـِ ن. في حال الوصل.

فلو اختارت الصيغة (مفعولة) لاختلفت عن الأوليتين فهما تبدآن بمقطع طويل مفتوح، بينما تلك الثانية بطويل مغلق. راضية، هاوية.

وهذا، بحسب التفسير أعلاه مما يبقي ما ذهب إليه علماء التفسير القائلين بنيابة اسم الفاعل بمعنى مفعول. ثم إن ما يدخل في اطار المناسبة، ما وقع في بداية هذه السورة اذ بدأتها بالمقطع الطويل المغلق د ـَ ل ثم اتبع بطويل مفتوح ق ـً لينا سب من خلال الظل و الجرسي و الايحاء المرهوب الجو العام للسورة[17].

اذ فيهما جفاوة وسمع من دون غيرهم. في بعض السور التي تبدأ بطويل مفتوح او مقطع قصير. كما نجده في سورة حملت طابع التبشير بالخير والفتح ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾.

ء ـِ/ ذ ـً فهي بدأت بقصير مفتوح.

ثم جاءت بما اعقبها بمقطع مديد م ـً ل على ثقله وجفاوته في الدرس الصوتي الحديث[18].

لينا سب الأمر المُستهوَل الغامض الذي يثير الدهشة والتساؤل[19].

في نهاية المطاف التحليلي يتضح مصادفة الجمال القرآني او المعنى القرآني للبحث المقطعي الإيقاعي الذي رصد في الدرس الصوتي الحديث.

المصادر والمراجع

١. البيان في روائع القران، الدكتور تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.٢ -التحبير في علم التفسير، تأليف جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي، ط١، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م.

٢. التعادل في العربية دراسة صوتية صرفية نحوية، ابتسام ثابت محمد، رسالة دكتوراه، آداب/ بغداد، ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م.

٣. علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية،

(١٧) ينظر المنهج الصوتي للبنية العربية.

(١٨) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٠.

(١٩) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٠.

تأليف الدكتور صبحي إبراهيم الفقي، ط١، الناشر: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة -مصر، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٤. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تأليف أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، ت: ٤٥٦هـ، ط٢، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.

٥. الفاصلة في القرآن، تأليف محمد الحسناوي، ط ٢، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت -لبنان، الناشر: دار عمار، عمان -الأردن، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٦. في ظلال القران، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٣٤، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٧. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تأليف ضياء الدين بن الأثير، ت: ٦٣٧هـ، ط١، تحقيق: الدكتور احمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: مكتبة نهضة مصر، مطبعة الرسالة، ١٣٨١هـ-١٩٦٢م.

٨. مجمع البيان في تفسير القران، الطبرسي (ت: ٥٤٨هـ)، دار القارئ، ودار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، بغداد-العراق، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٩. المدخل إلى أصوات العربية، تأليف الدكتور غانم قدوري الحمد، الناشر: المجمع العلمي العراقي، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

١٠. المنهج الصوتي للبنية العربية رؤية جديدة في الصرف العربي، الدكتور عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة،بيروت-لبنان، (د.ط)، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

١١. الميزان في تفسير القران، محمد حسين الطباطبائي (١٤١٣هـ).

١٢. النكت في إعجاز القران (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)، تأليف علي بن عيسى الرماني ٣٨٦هـ، (د.ط)، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف، القاهرة-مصر، (د.ت).

منهجُ البحثِ التاريخيِّ عندَ الإمامِ السَّبزَواريِّ في (مواهبِ الرَّحمنِ)

د. سلمان باقر الخفاجي

الكلية الاسلامية الجامعة - النجف الاشرف

ملخص البحث

يعرض السيد الباحث للموضوع في إطلالة استعراضية لتفسير (مواهب الرحمن) للسيد عبد الأعلى السبزواري مختزلاً منهج البحث التاريخي فيه مقرراً أن سماحته اعتمد المنهج العلمي التوثيقي للقضايا والمفاهيم والاحداث التي رأى (سماحته) الحاجة ملحّة لدراستها من هذا الجانب. وقد تمكن السيد الباحث من أن يقف على جوانب منهجية البحث التاريخي موضحاً اسلوب (سماحته) التحليلي النقدي ومدى إحاطته العلمية التكاملية في هذا المنهج الدقيق، واعتماده خاصية التحديد الأدق للمفاهيم والاحداث والقضايا الانسانية الصعبة والمبهمة فدرسها دراسة علمية دقيقة معتمداً المصادر العلمية الدقيقة.

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة:

يظل القرآن المجيد المنهل الذي لا ينضب، تعيش الإنسانية تحت أفيائه، تنهل منه وتشبع حاجاتها من ثماره، وتحوم أمناء الإنسانية وجهابذتها حول كنوزه آملة أن تحظى ببعض بركاته وأن تجني من بعض عطاءاته الربانية لترسم لها أسس السعادة في هذه الحياة الرصينة.

وينبع من بين هؤلاء الأعلام علم موسوعي أخذ من علوم القرآن الكريم ما وسعه وأكملها بفيوضات النبوة المباركة وإنارات أهل البيت الكريمة حتى تمكن من أن يكون في مقام الناظرين في كتاب الله العزيز ليسلط الأنوار على آياته العظيمة فيقدم لنا سفرا عظيما، كان من المنن الإلهية والبركات السماوية وأبدع حين وسمه((مواهب الرحمن في تفسير القرآن)). والحقيقة هو مواهب رحمانية تسمو في كثير من عطاءاته ومعارفه على العقلية الإنسانية الطبيعية.

وما يؤكد تلك الشمولية التكاملية للعلوم التي وقف عليها السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري، فقد أحاطته بمعظم جوانب الآيات الشريفة التفسيرية، الأدبية، الفقهية، العرفانية، الروائية، التاريخية، العقائدية.

وبحكم اختصاصنا ونحن ندرس في هذا السفر العظيم أدركنا الموسوعية العلمية له، وما بهرنا هو منهج البحث التاريخي الذي اعتمده رضوان الله تعالى عليه، وألفينا أنفسنا أسيري هذه الأطروحات العلمية العالية التي قرأناها ونحن نقلب صفحات البحث التاريخي خاصة، وكأننا أمام باحث متخصص في منهجية البحث العلمي التاريخي، فهو يقدم لنا أنموذجا قيما للعالم المتبحر في هذا الاختصاص وسنرى في ثنايا البحث الإحاطة العلمية لسماحته، حيث اعتمد الأسلوب التحليلي النقدي، واستنباط النتائج العلمية القيمة بعدا استيفائه للحجج العلمية الدقيقة، وأخذ بمبدأ الانتقاء الذي يميز الأبحاث العلمية المهمة التي يرى ضرورة معالجتها ونحن

كباحثين ودارسين وجدنا هذه الحاجة تلح علينا وأنه ﷺ قد تصدى لها وكأنه يقرأ تلك الحاجة ويدركها إدراكا دقيقا فيخرجنا من حيرتنا وتيهنا ويضعنا على جادة الصواب والعلم الناجز.

اعتمد السيد السبزواري المنهج العلمي التوثيقي في دراسته التاريخية للقضايا والمفاهيم والأحداث التي رأى الحاجة ملحة لدراستها وتحقيق مرامي الكتاب العظيم وأهدافه الإنسانية والتربوية الاجتماعية منها، وسنرى الأمانة والدقة العلمية التي تميز بها وهو يستشهد من مصادره الأولية المعتمدة.

وارتقى سماحته إلى مقامات العلماء المتخصصين في الدراسات التاريخية حين أخذ بمبدأ العلوم المكملة للبحث التاريخي كالعلوم الأدبية، والفقهية والعقائدية والطبيعية الفلكية والروائية فأكسبت أبحاثه التاريخية التكاملية العلمية، وهذا ما ستؤكده مباحث هذه الدراسة بدقة ووضوح.

المبحث الأول
المنهج التحليلي عند الإمام السبزواري

تعددت مناهج الدراسة التاريخية بين سردية وقصصية روائية، تعتمد نصوصا تقليدية الحدث التاريخي يشكل عمودها الفقري. وكثيرا ما يكون التركيز على العنعنة الواردة في رواية الحديث الشريف، وهو ما تعارفت عليه أجيال المؤرخين كاليعقوبي والطبري وابن الأثير وغيرهم حتى عصر ابن خلدون، الذي نقد في مقدمته هذا المنهج بكل ما يرتبط بالنصوص من عوامل جغرافية وطبيعية وبيئية ونفسية واجتماعية وفكرية وكل ما يؤثر بالحادثة التاريخية اسبابا وعوامل مؤثرة وحيثيات وأهدافا ونتائج فدعا لذلك ابن خلدون بما معناه: إن المؤرخين من السلف نقلوا الأخبار والروايات كما رواها أسلافهم، وكما وجدوها مثبتة في كتبهم من دون التدقيق فيها ومراجعتها والتمعن في متونها ومعرفة أسبابها وطبيعة أشخاصها والأحوال المؤثرة في حياتهم

وحتى الظروف الطبيعية والبيئية التي عاشوها، ولابد للتدوين التاريخي من أن يخرج من هذا المنهج إلى منهج قراءة ما وراء النص والتحقق فيه.

وهذا المنهج أطلق عليه المحدثون (فلسفة التاريخ)، وهو الذي يتجه إلى قراءة ما وراء النص أو ما بين السطور، فيستنبطون الحكمة من حصول هذا الحدث أو ما هي فلسفته والحكمة منه. وقد نهج الإمام عبد الأعلى السبزواري هذا المنهج فعمد إلى تحليل النص تحليلا دقيقا ومقابلته بنظرائه من الحوادث والغوص في أعماق الخبر لسبر أغواره عملا بقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ((أعقلوا الخبر إذا سمعتموه عقل رعاية لا عقل رواية)).

نراه يأخذ النص القرآني فيقرأ ما أشار إليه من حدث وواقعة أو قضية مهمة من القضايا الإنسانية، أو حقيقة من حقائق الخلق الإلهي، أو عقيدة من العقائد السماوية أو الوضعية، ويعرض الحالة بصدق وأمانة حتى وإن أشار اليها القرآن الكريم برمزية، ثم يقارنها بشبيهاتها من الحوادث وخاصة ما يتعلق من معاصرة، ثم يحللها تحليلا دقيقا ومبسطا بعلمية بعيدة عن الإطالة أو الإسفاف في المجال المذهبي أو التعصب الفكري من دون الحكم المسبق قبل أن تؤكد ذلك الحجة العلمية والدليل القاطع، وبعض مصاديق ذلك في الشواهد الآتية:

البحث التاريخي العقائدي[1] الذي خص به طائفة الصابئة والذين أشارت إليهم الآية المباركة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[سورة المائدة: ٦٩].

فهو يعرض عقائد الصابئة من خلال قراءة تاريخية، فيذكر أصولهم العقائدية، ويذكر أنبياءهم بعد أن يقدم المعنى اللغوي من أصله العبري وأسماء أنبيائهم كما وردت في التوراة، وهذا ما يضفي العلمية الدقيقة على دراسته، ثم يعرض لفرقهم وأصولها ومعتقداتها وتفرقها على

(١) السيد السبزواري، مواهب الرحمن، (١/ ٣٧٩-٣٨٢).

فرق متعددة، ثم يؤكد ذكرهم في القرآن الكريم، ثم يناقش آراء العلماء والمفسرين وخلطهم الفرقة الوثنية بالفرقة الموحدة ويقدم عرضا علميا لمعتقدات كل فرقة فيمكن الباحث من التمييز بينها، ويعرض طقوسهم بالتفصيل، وبعد هذا العرض التحليلي يستنبط نتائجه فتكون بلا شك علمية وصحيحة ويضعها تحت عنوان: (والحاصل فما وصل ألينا من حالاتهم)، فيقدم لنا هذه النتائج بدقة وينتهي إلى القول: ((إن الصائبة فرق مختلفة أخذوا بشريعة موسى، وبعضهم أخذوا بشريعة عيسى، وبعضهم وثنيون، والكل يظهرون الإسلام، والتغيرات والتبدلات كثيرة في دينهم، مع صعوبات كثيرة تنافي سائر الأديان، ولذا قلّ الدخول في دينهم، فصار عرضة للزوال والانحلال. هذا ما ضبطته التواريخ بعد ردها بعضها إلى بعض)). وما يعوز هذه القراءة التاريخية الحكيمة توثيقها بأسماء المصادر التي أخذ عنها السيد السبزواري.

وهذا المنهج التحليلي الاستقرائي نراه واضحا في معظم مباحثه التاريخية التي قدمها: بحث تاريخي عن البيت الحرام والحجر[٢]، وأهمية الكعبة واحترامها عند الأمم قبل الإسلام[٣]. والحكمة في تشريع القبلة وتحويلها[٤]. وبحث تاريخي يتعلق بمهاجرة أصحاب الرسول ﷺ إلى الحبشة، وما يميز هذا المبحث أن الإمام ﷺ، ذكر المصادر التاريخية ومصادر السيرة، وكُتُب التفسير التي أخذ عنها روايته التاريخية مما يجعله أكثر علمية وتوثيقا، وهذا ما تكرر عنده في مباحث أخرى، كما في بحثه التاريخي عن ميادين القتال، وما نزلت بها من الآيات القرآنية الشريفة[٥].

المبحث الثاني
المنهج الانتقائي في بحوثه التاريخية

لم يعمد السيد السبزواري إلى دراسة كل الحوادث التاريخية والقضايا الإنسانية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، بل اعتمد منهجا انتقائيا لمعالجة بعض ما رآه ضروريا

(٢) السيد السبزواري، مواهب الرحمن (٢/ ٣٩).
(٣) م.ن (٢/ ٦٤).
(٤) م.ن (٢/ ١٧٨).
(٥) م.ن (٦/ ٣٠٥ - ٣٣٠).

للدراسة التاريخية وتسليط الضوء على ما خفي منه وما رأى سماحته حاجة ملحة لتبيانه، فأخذ من الأمور الاعتقادية أهمها: كتشريع القبلة والحكمة من هذا التشريع(٦)، وهو يدرس الآيات الكريمة التي نزلت في ذلك من سورة البقرة الآية (١٤٦) وحتى الآية (١٥٠) وخاصة عند معالجته للآية المباركة: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[سورة البقرة: ١٤٩ - ١٥٠].

فنرى الإمام(رحمه الله) يستعرض حقيقة هذا التشريع وامتداداته التاريخية في حياة الأمم وكيف كانت تلك التشريعات مؤقتة ومحدودة ويستشهد بالآية المباركة التي تحدثت عن القبلة عند موسى وأخيه (عليهما السلام): ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس: ٨٧].

ثم يذكر قبلة النصارى وأنها كانت شرقي بيت المقدس وهي لم تكن بوحي سماوي، بل كانت من مقترحاتهم التي اقترحوها من أنفسهم. ويخلص إلى نتيجة علمية مفادها: إن تشريع القبلة للمسلمين هو تشريع نوعي أبدي، وهو أول تشريع من نوعه في تاريخ الأديان الإلهية، والحكمة من هذا التشريع هو حفظ الوحدة بين أفراد هذا الدين، وإنها كانت سببا في هدايتهم، وإعلاما بأنهم على الصراط المستقيم.

وهكذا نرى سماحته قد وفى الأمر حقه من حيث التدرج التاريخي، والتعمق في دراسة فلسفة هذا التشريع والنتائج العلمية التي استقرأها من خلال ثمرة من ثمار بحثه.

ولو تتبعنا هذا المنهج عند السيد السبزواري فانه يتجلى أيضا في دراسته

(٦) السيد السبزواري، مواهب الرحمن (٢/ ٦٤ و ١٧٨).

لبحث الصوم في الأديان السماوية[٧] عند تصديه لتفسير آيات الصوم من [سورة البقرة: ١٨٣ -١٨٤]: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ .... ﴾.

واختار الإمام من الحوادث التاريخية أهمها: مثل: هجرة أصحاب الرسول ﷺ إلى الحبشة[٨]. وهو يدرس الدعوة الإلهية لأهل الكتاب من اليهود والنصارى للتوحيد وتأمرهم بالاتحاد ونبذ النفاق والتعرض لرد المسلمين عن العقيدة الحقة والكلمة الفاصلة، وذلك ما ورد في الآيات المباركة من [سورة آل عمران : ٦٤ – ٦٨]، والتي أولها: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤].

ويستشهد السيد بقصة هجرة أصحاب النبي ﷺ إلى الحبشة وعظمة هذه الهجرة وفلسفتها وما جرى بينهم وبين النجاشي من حوار في العقيدة، وما آلت اليه هذه الهجرة من نتائج عظيمة انعكست على بناء شخصيات المسلمين وعمقت عقيدتهم وثمرة الاحتكاك بالأمم الأخرى، وحين روى قصة الهجرة ذكر مصادرها في التاريخ وأسباب النزول وكتب التفاسير، ولكنه لم يوثقها بدقة على وفق المنهجية المعاصرة التي تقتضي ذكر اسم المؤلف ومصدره، ومكان وزمان والجزء والصفحة التي اقتبس منها.

وخلص سماحته إلى النتائج العظيمة التي استنتجها من دراسته وتحليله لمفردات هذه الهجرة العظيمة، وهذا أيضا مصداق من مصاديق علميته في أبحاثه.

وأخذ سماحته حادثة مهمة أخرى وهي موضوع التيه الذي وقع به بنو إسرائيل وهو يدرس الآيات الكريمة من [سورة المائدة: ٢٠ – ٢٦]، وخاصة النتيجة التي أرادها الخالق جل وعلا من تذكرته لبني اسرائيل بفيض نعمه وعنايته بهم وتفضيلهم على من عاصرهم من الأمم، وعدم شكر تلك النعم، فحق

(٧) السيد السبزواري، مواهب الرحمن (٣/ ٢٢).
(٨) م.ن (٦/ ٥٢ -٥٦).

عليهم الحكم بالتيه لتهذيب نفوسهم المريضة وترويضها على تحمّل التكاليف التي حققتها الآية الشريفة: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [سورة المائدة: ٢٦].

ويبدو أن الحكمة من سماحته لهذه القضية المهمة والخطرة، نستخلصها من قوله قدس سره: ((وهي قضية مهمة في حياة بني إسرائيل، وتعد هذه القضية منعطفا تاريخيا في حياة بني إسرائيل، وتعتبر من أعظم الأحداث في التاريخ الإنساني، لما وقع فيه من خوارق العادات وغرائب الأمور، فصار التيه بحد ذاته مدرسة تربوية إصلاحية...))، ثم يذكر من دراسته للتيه فيقول: ((ونذكر في هذا البحث حقيقة التيه، وأسبابه، ومدته، ومكانه، والحكمة منه، والحوادث الواقعة فيه))[٩].

وهنا نجد تبريرا علميا واقعيا وموضوعيا لاختيار السيد لهذا الموضوع الخطير ودراسته بإفاضة ودقة.

وتصدى سماحته لبعض من الحقائق العلمية و التاريخية التي تدخل مكونا أساسيا من مكونات الحياة الإنسانية وترسم مساراتها الصحيحة. كما كان ذلك في دراسته للتوقيت والتاريخ، وهو يفسر الآية الشريفة: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٩].

فقدم سماحته دراسة تحليلية استقرائية وافية عن الحكمة في الأهِلَّة ومعرفة المواقيت والأزمنة، وفسر معنى(العام والشهر واليوم)، وأنها وحدات فلكلية لقياس الزمن، ودرس أوجه القمر الأربعة(الهلال -الربع الأول-البدر -الربع الأخير) وتأثيرها المباشر في تقسيم السنة إلى وحدات زمنية أصغر ويرجع ذلك إلى عدة أسباب طبيعية واعتبارية ودينية.

واستطرد في دراسته معتمدا كتب

(٩) السيد السبزواري، مواهب الرحمن (١١/ ١٧٥ -١٧٦).

التاريخ والفلك ومستعرضا حسابات الزمن عند الأمم السالفة كالمصريين والسومريين، واليونانيين والرومانيين والعبريين.

وقدم مقارنة بين طرق هذه الأمم، ثم عرض ما عند المسلمين من اتباعهم التقويم القمري، واستعرض التواريخ عند العرب، فلم يكن تاريخ موحد يجمعهم وجاء الإسلام ليوحد تاريخ المسلمين بين الشمسي والقمري، ثم ينتهي إلى ((أن البحث في هذا الموضوع معقد جدا، لاختلاط الموضوع بالخرافات والعادات والتقاليد السائدة، وقد كان للعلماء شأن كبير في تهذيبه))[١٠].

ومن أساليب سياحته البحثية العلمية، الدراسات المقارنة، فنراه قدم بحثين علميين تاريخيين مقارنين: أحدهما قضية قدسية الكعبة عند الأمم السالفة وعند المسلمين[١١].

وثانيهما قصة البقرة بين ما ورد عنها في القرآن العظيم وما جاء عنها في التوراة[١٢].وهذا بحد ذاته منهج علمي رصين اعتمد معظم العلوم وخاصة العلوم الطبيعية، وحتى في العلوم الإنسانية وهنا تتميز عظمة السيد السبزواري العلمية في اعتماد الدراسة المقارنة في القضايا التاريخية والإنسانية والاعتقادية ليستنبط منها النتائج العلمية الدقيقة التي هي ضالته طيلة حياته العلمية.

كتب السيد بحثا روائيا مفصلا عن قصة البقرة التي سميت السورة الثانية المباركة في القرآن المجيد باسمها وهو يعتني بتفسير الآيات المباركة من هذه السورة البقرة(الآيات من ٦٣ -الآية٧٤) ويستقصي ما ورد فيها من حكمة وعظمة إلهية ودروس تربوية وأخلاقية لبني البشر، وعبر رسالية أممية تهذب سلوك المجتمع وتهديهم سبل الرشاد وتحذرهم من البطش والاعتداء وهدر الدماء بغير حق ويشبههم قول الحق: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ

(١٠) السيد السبزواري، مواهب الرحمن (٣/ ١٢٥ -١٣٢).

(١١) م.ن (٢/ ٦٤).

(١٢) م.ن (١/ ٤٠٧).

مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٧٤]. ويحذرهم بأن الله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وأنه قادر على إظهار الحق وخاصة إذا تعلق الأمر بدماء بريئة من خلال عرضه لقصة البقرة كما وردت في القرآن الكريم وبرواية العياشي عن احمد بن أبي نصر البزنطي عن الإمام أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام[١٣]، ثم يقارن السيد عليه السلام ذلك بما ورد في التوراة فيقول: ((إنها لم ترد بهذا التفصيل، وإنما ورد فيها حكم كلي، فقد جاء في سفر التثنية، الإصحاح الحادي والعشرين، ما هذا لفظه...وأورد... النص...))[١٤].

ويعلق عليه بقوله: ((والظاهر من ذلك أنه كان من بقايا قصة معلومة مبينة عندهم، وطالتها يد التحريف والتضييق، وكم من مثل هذه التحريفات؟ وقد صحح القرآن هذه القصة بالكيفية المذكورة، ثم شرحنا الأخبار الواردة عن نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة الهداة عليهم السلام كما تقدم في البحث الروائي))[١٥].

وهنا تتضح العظمة العلمية لهذا العالم الجليل وما يجسده من تمثله صفات الباحث العلمي الناجح من صبر وأناة وحكمة واعتماد لكل المناهج العلمية في البحث والاستقصاء حتى يدرك الحقيقة من دون تعنت مسبق أو ضيق في الأفق الفكري أو العلمي.فضلا عما مر في بحث التوقيت والتاريخ والأزمنة، وما قدمه عن قدسية الكعبة وأهميتها عند الأمم قبل الإسلام وما هي عليه عند المسلمين[١٦]. فيعرض مقارنة لما كانت عليه من قدسية وأهمية واحترام عند العرب وعند غير العرب كاليهود والفرس والصابئة واليهود والنصارى وغيرهم. ويستعرض معتقداتهم في ذلك وما شابها من أساطير وخرافات، ويميز سماحته نوعين من المعتقدات منها ما هو صائب وموافق للعقل ومنها ما هو شاذ بقوله عليه السلام:

(١٣) السيد السبزواري، مواهب الرحمن (١/ ٤٠٤-٤٠٧).
(١٤)م.ن (١/ ٤٠٧).
(١٥) م.ن (١/ ٢٠٨).
(١٦)م.ن (٢/ ٦٤).

((ولكن ذهاب هذه الأمم إلى أصل قداسة البيت وعظمته مما لا ينكره أحد، وأما ما ذهبوا إليه من حلول روح سيفا أو هرمز أو التقديس لها لأجل صورتي العذراء أو المسيح أو غير ذلك، إن كان من جهة قصور عقولهم في تطبيق القداسة والعظمة على ما زعموا، فلا شك أنه من باب الجهل المركب في تطبيق الواقع على مزاعمهم، وإن كان مرادهم بذلك الموضوعية الخاصة. فالآيات المباركة والسنة الشريفة وضرورة الدين تنكر جميع ذلك، بل العقل لا يقبل ذلك أيضا...))[17].

وما سبق هذا البحث من بحث ممهد له عن مقام البيت الحرام الذي جعله الله تعالى مثابة وأمنا عند دراسته للآيتين الشريفتين تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [سورة البقرة: ١٢٥ -١٢٦].

وعلق الإمام سماحته على ذلك بالقول: ((وفي اختيار لفظ المثابة أشار إلى أنه مضافا إلى كونه مقصدا يقصده المؤمنون في عبادتهم، أنهم يشتاقون إلى الرجوع إليه متكررا. وهذا من أسرار هذا البيت وآية من آياته تعالى، ويستطرد سماحته فيقول: ((ومن لطيف المقارنة أنه جل شأنه قارن بين الإمامة لإبراهيم خليل الرحمن عليه السلام وجعل البيت مثابة للناس، فهما قرينان في الجعل الأزلي والتشريعي...))[18].

وختم سماحته بحثه تاريخي عن الركن الأسود والمقام ويحقق في المكان الأول والأصيل لكل منهما وأسباب التغيير وتوقيته، يجدر الرجوع إليه[19].

وهذه الانتقائية ناتجة كما أسلفنا عن اجتهاد سماحته وتقديره لأهمية الموضوع وضرورة التصدي له ودراسته وإزالة الإبهام والغموض عنه، آخذا بنظر الاعتبار

(١٧) للمزيد يرجع للمصدر نفسه(٢/ ٤٢ -٦٥).

(١٨) السيد السبزواري، مواهب الرحمن(٢/ ٢٤ -٤١).

(١٩) م.ن (٢/ ٣٩ -٤١).

أن كتابه (مواهب الرحمن) تفسيري وليس تاريخيا، فكان دقيقا في عباراته مختصرا في أبحاثه مكملا لمعارف القرآن الكريم، الذي رأى أن القارئ يحتاج لإيضاحها من حيث المعالجة التاريخية.

وإننا نرى أن بعض القضايا بقيت من دون معالجة تاريخية، وكان الأولى دراستها، نحو أسرار قضايا الأنبياء عليهم السلام، وقضية بيعة الغدير، تقديم عرض تاريخي لحركة النبي صلى الله عليه وآله في طرحها على الآية والتناسق التاريخي بين حركته ونزول الآيات الكريمة التي عنيت بهذه القضية الخطرة والمقدسة في حياة الأمة الإسلامية، وأثرها الكبير في الحفاظ على روح الرسالة وديمومتها وسلامتها، وما آلت إليه أحوال الأمة حين اجتهدت قبالة النص في ترتيب حقائقها وحقائق النزول المبارك للآيات التي حددت مسار هذه القضية المركزية الخطرة والتي تتعلق بمصيرية الرسالة الإسلامية والحركة الاجتماعية والفكرية والسياسية للأمة، وغيرها من القضايا المهمة والحوادث الجليلة.

المبحث الثالث
المنهج التوثيقي في دراسته للحوادث التاريخية

إن ما يمنح كل بحث تاريخي العلمية ويبعده عن السطحية والارتجالية، هو التوثيق التاريخي باتخاذ كل الوسائل التوثيقية من رقم طينية أو جذاذات جلدية أو أكتاف أو آثار أو وثائق أو مصادر أولية لمؤرخين موثوقين، وإغفال هذه الحقيقة العلمية هو ما عانته معظم الكتابات التاريخية قبل ظهور منهج السند، الذي انتقل من منهجية علماء الحديث الشريف عند تدوينهم له من توثيق بسلسلة الرواة. وكذلك ما عانته الدراسات التاريخية من إهمال للتوثيق فكانت تأتي عفوية مسترسلة يطغى على الأسلوب القصصي الأسطوري الشعبي، من دون العناية بالمصدر التاريخي الذي نقلت عنه تلك الحوادث، حتى ظهور منهج البحث العلمي المعاصر، وخاصة في الجانب التاريخي الذي استند بدقة للتوثيق التاريخي للرواية من مصادرها الأصيلة.

وكلما اعتمد الباحث المصادر التاريخية

الأولية، واقتبس منها بدقة وأمانة، كان بحثه ودراسته ذا صبغة علمية تسمو على الخطأ بمسافة بعيدة. ويكتسب البحث أو الدراسة علمية ووثاقة عند الباحثين والدارسين فيأخذونه مأخذ الحقيقة والصدق بعيدا عن الشك العلمي.

واهتم السيد السبزاري بذكر مصادره التاريخية ومصادر السيرة وكتب التفسير عن روايته التاريخية والتفسيرية، ولكن من دون ذكر هوية المصدر وفق المنهج المعاصر الذي يشترط ذكر اسم المؤلف كاملا أول مرة واسم المصدر كما ورد ومكان وزمان الطبع والجزء والصفحة التي أخذ الاقتباس منها. فنراه كما أسلفنا في بحثه التاريخي لهجرة أصحاب الرسول ﷺ إلى الحبشة، فذكر ما نصه: ((روى أهل السير والتواريخ حديث هجرة أصحاب النبي ﷺ إلى الحبشة...))[٢٠].

وفي مقام ثان قال: ((فقد روى الواقدي في -أسباب النزول- والخازن في تفسيره وغيرهما عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، ورواه محمد بن إسحاق عن ابن شهاب...))[٢١].

وفي مقام آخر وهو يدرس الآيات الشريفة التي نزلت في مقامات الحروب التي خاضها النبي ﷺ ضد العتاة والجبابرة الذين أرادوا النيل من الإسلام، والوقوف أمام تقدمه... وخاصة غزوة أحد وبدر من بين سائر الغزوات، والآيات الشريفة من [سورة آل عمران: ١٢١ -١٢٦] عند تفسير سماحته لهذه الآيات واستنباطه الدروس والعبر التي يجب أن يقف عندها المسلمون دوما من الاستجابة لأوامر ونواهي ولي الأمر (الشرعي) بالأمر الإلهي وليس بالتنصيب الوضعي الاجتهادي والالتفات حوله والحفاظ على وحدة ومنفعة المسلمين واسترخاص النفوس من اجل الحفاظ على العقيدة والدفاع عن حياض المسلمين وحفظ بيضة الإسلام.

ويعدد لنا سماحته أنواع حروب الرسول ﷺ، فيقسمها على: غزوة وسرية ويعدد غزوات الرسول ويتحدث عنها

(٢٠) السيد السبزاري، مواهب الرحمن (٦ -٥٢).

(٢١) م.ن (٦/ ٥٣).

بشكل مقتضب يتناسب ومقام البحث فيذكر منها ستاً وعشرين غزة، أولها الأبواء وآخرها تبوك. ويتحدث عن غزوة مؤتة ويذكر أن رسول الله ﷺ لم يشترك فيها[٢٢].

وإن أولى ما نرى ضرورة عرضه والوقوف عليه هو محاكمة سماحته للنص التاريخي وآراء علماء السير والتاريخ في ذكرهم لأسباب غزوات الرسول ﷺ وخاصة غزوة أحد التي انطوت على دروس كبيرة في التعبئة وما أحاطت بها من ظروف هزيمة المشركين في موقعة بدر الكبرى وما لحق بهم من ذل الهزيمة، وخوف قريش من قوة ومنعة المسلمين وسطوتهم، وملامح زوال مجدهم الزائف، واهتمامهم بأن لا تقع طرق التجارة إلى الشام والعراق بأيدي المسلمين، ورعبهم من انتشار الإسلام وسرعة استجابة الناس لهذه الدعوة الإلهية وحرص النبي ﷺ على الدفاع عن الإسلام و المسلمين وعاصمتهم المدينة المنورة وردهم استفزازات قريش للمسلمين بإرسالها إبلهم وخيلهم ترعى روع يثرب[٢٣].

وفي بعض هذه المباحث يعمد السيدﷺ الرجوع إلى مصادره فيذكر أسماءها مثل: كما في (السيرة الحلبية)[٢٤]، وفي (مجمع البيان)[٢٥]، وفي مقام ثان ذكر: (وقال ابن هشام في السيرة)، وقريب منه ما ذكر الواقدي[٢٦]. وفي مقام آخر يذكر: وفي (الكافي)[٢٧].

وعند محاولتنا تحقيق وتوثيق روايات البحث هذا من مصادرها التي ذكرها سماحته وجدناه وثيق الرواية أمينا في نقله، ولكنه لم يذكر الجزء والصفحة، فنجده في روايته من(السيرة الحلبية) كان دقيقا وأمينا وهو الكتاب المسمى: (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون).

فقد وقفنا عليها في السيرة الحلبية لأبي الفرج نور الدين على بن إبراهيم بن

(٢٢) م.ن (٦/ ٣٠٥-٣١٠).

(٢٣) السيد السبزواري، مواهب الرحمن (٦/ ٣١٢-٣١٣).

(٢٤) م.ن (٦/ ٣١٤).

(٢٥) م.ن (٦/ ٣١٤).

(٢٦) م.ن(٦/ ٣١٧).

(٢٧) م.ن (٦/ ٣٢٤).

أحمد الحلبي المتوفى سنة(١٠٤٤هـ)ضبط وتصحيح عبد الله محمد الخليلي-دار الكتب العلمية (ط٢ سنة ٢٠٠٦م-١٤٢٧هـ) المجلد الثاني (ص٢٩٥).

وكذلك وقفنا على روايته من سيرة ابن هشام، فوجدناها دقيقة وموثقة في الروض الانف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام للإمام أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي المتوفى سنة (٥٨١هـ)ومعه السيرة النبوية للإمام أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري المتوفى سنة (٢١٣هـ)علق عليه ووضع حواشيه مجدي بن منصور بن سيد الشوري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، المجلد الثالث (ص٢٥٠).

وهكذا في روايته مجمع البيان في تفسير القرآن لأمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطوسي، المتوفى سنة(٥٦٠هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت(ط ١ سنة ١٤١٥هـ)، الجزء الثاني(ص٣٧٦)، وكانت الرواية التي نقلها سماحته دقيقة وصادقة. وخلاصة القول إننا توثقنا بأن السيد السبزواري في نقله للروايات وثيق باعتماد مصادره وإن لم يذكر تفصيلا هوية مصدره وللجزء والصفحة التي اقتبس منها.

المبحث الرابع
منهجه في اعتماده المباحث المكملة للبحث التاريخي

إن التطور العلمي الذي شمل جوانب المعرفة كافة ومنها مناهج البحث العلمي، ادى الى أن الباحث عمد إلى التوسع في مجال بحثه وانطلق إلى العلوم المكملة، وهذا الأسلوب اعتمده السيد السبزاري رحمه الله في معظم أبحاثه التاريخية، حيث استعان بجملة علوم منها: علم الرواية، والعرفان، والفقه، والأدب، والبحث العلمي وعلى سبيل المثال لا الحصر ما وقفنا عليه في موضوع الأهلة والمواقيت والأزمنة حيث نراه بعد أن فسر الآية المباركة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۚ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ

مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[سورة البقرة: ١٨٩].لغة واصطلاحا وتعدد الأقوال في كل ذلك ولكل مصطلح لفظه في الآية الشريفة[٢٨].

وبعدها ينتقل الإمام إلى البحث الروائي، فيتابع كل الروايات التي وردت في كتب التفسير كـ(الدر المنثور)، وما روي في كتب الحديث كالتهذيب، وما رواه البخاري وابن جرير وما روي في المجمع وفي تفسير العياشي ومحاسن البرقي والكافي.

وعندما استعرضنا هذه المصادر وجدنا أن سماحته كان متوازنا محايدا علميا بعيدا عن المذهبية والرؤى المسبقة غايته الوصول للحقيقة العلمية ونرى السيد بعد استعراضه لكل الروايات المذكورة وتحليل أبعادها، ينتهي إلى نتائجه فيقول: ((أقول: هذا هو معنى الآية الشريفة على النحو الكلي، فيكون ما ورد في نزولها من باب ذكر بعض المصاديق))[٢٩].

فهو بهذه الاستعانة يجد حجة إضافية لحججه العلمية التي يمتلكها الباحث. وبهذا يحقق العناية المطلوبة من الاستعانة بالعلوم الإضافية، ثم يستعين الباحث ببحث علمي فيجول في أوساط العلوم الفلكية وعلوم الأولين من رومان ومصريين ويونانيين قدماء وغيرها حتى يصل إلى نتيجة إضافية يدعم بها نتيجته العلمية الأساسية.

وبهذا نجد الحكمة العلمية من هذا الأسلوب وهو الاستعانة بالعلوم المكملة للبحث التاريخي. وهناك مقام آخر طبق فيه السيد هذا الأسلوب العلمي وهو اعتماد العلوم المساعدة للوصول إلى الحقيقة، وذلك عند تفسيره للآية الشريفة: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾[سورة البقرة: ٢٢٤ -٢٢٥].

على وفق المنهجية السالفة بعد أن يفسر مفردات الآية واختلاف الآراء في المفاهيم،

(٢٨) السيد السبزواري، مواهب الرحمن(٣/ ١٢٣ -١٢٢).

(٢٩) السيد السبزواري، مواهب الرحمن (٣/ ١٢٥).

والآيتان كما هو مفهوم ظاهرا تتعلقان بقيم تربوية وأخلاقية سلوكية، فبعد أن يركز الباحث على استجلاء حقائق هذه المفاهيم القِيَميَّة التربوية، يذهب إلى بحث أدبي[٣٠]، ليؤكد من خلال قواعد اللغة العربية تلك الحقائق والمفاهيم ويعمد إلى بحث فلسفي[٣١]، يقرأ من خلاله الحكمة من اعتماد لفظ القلب كعضو من أعضاء جسم الحيوان والعقل العملي أو النفس الإلهية، ويدرس هذين المفهومين في الآيات المباركة المؤكدة للمفهوم الرباني الذي ركزت عليه الآيتان الشريفتان، وبعدها استعان الباحث ببحث روائي[٣٢] طاف به حول أرجاء الكتب الروائية كتفسير القمي وتفسير العياشي والكافي والواحدي في أسباب النزول، وينتهي أخيرا إلى مراده وهو تأكيد المفهوم الأخلاقي التربوي الذي قصدته الآيتان الكريمتان.

ثم يخلص الباحث إلى أحكام فقهية أربعة تتعلق بتلك المفاهيم من خلال بحث فقهي[٣٣]، فيستعرض الأقسام الثلاثة من الإيمان، ثم يذكر الأحكام التي تترتب على كل نوع من هذه الأنواع، ثم يتوج سماحته بحوثه المساعدة تلك ببحث عرفاني يخلص منه إلى نتيجة أخلاقية رصينة، وهي: ((كما لا يحلف أحد بمحبوبه فإنه تعالى المحبوب الحقيقي لكل موجود، ولو حلفوا به فإن عبوديتهم له عزّ وجلّ تقتضي الوفاء بكل ما أمكنهم))[٣٤].

وهكذا يؤكد السيد رضوان الله تعالى عليه قدرته على مزج العلوم والأبحاث فيها للوصول إلى النتائج العلمية التي يقتضيها منهج البحث العلمي، وهناك مسألة يقتضيها المقام لابد أن نشير اليها وهي سهولة اللغة ووضوح المفردة اللغوية والتي تمثل (السهل الممتنع)، وهذا ما تميزت به كل أبحاثه في سفره العظيم هذا الموسوم(مواهب الرحمن في تفسير القرآن).

(٣٠) السيد السبزاري، مواهب الرحمن(٣/ ٤٠٧).
(٣١) م.ن (٣/ ٤٠٧ -٤٠٨).
(٣٢) السيد السبزواري، مواهب الرحمن ٣/ ٤٠٩.
(٣٣) م.ن (٣/ ٤١٠).
(٣٤) م.ن (٣/ ٤١٢).


بسم الله الرحمن الرحيم
وأن اعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين

صُورَةُ (ثَمود)
كما رَسَمها (عَبد الله يُوسُف علي) قُرآنِياً

ترجمة وتعليق
سعد شريف طاهر

ملخص البحث

دأبت مجلة المصباح على إبراز مباحث العلامة الهندي (عبد الله يوسف علي) على هامش ترجمته معاني القرآن الكريم والتي قضى في انجازها جل عمره بلغة تختلف عن كل الترجمات التي سبقته او التي تأخرت عنه. وفي هذه الحلقة يلوّن السيد مترجم تلك المقدمات الصورة التي رسمها العلامة عبد الله يوسف لقبيلة ثمود (قوم صالح) ضمن ملاحظاته على هامش ترجمة معاني القرآن، مستنداً الى آيات القرآن الكريم . وهو بحث موجز في كلماته، واسع في معانيه، موثق بالقرآن الكريم و بمشاهداته الشخصية وتقارير الرحالة الذين زاروا منطقة (الأحقاف) أو (الحجر) مواطن عاد وثمود. وما كتبوه من تقارير وضعت قيد الدراسة العميقة للوصول الى الحقيقة.

المقدمة

ذكرت في القرآن الكريم قصص كثيرة عن الامم السابقة وما حل بها من عذاب نتيجة لكفرهم وابتعادهم عن الله تعالى. ومن تلك الامم عاد وثمود والفراعنة واصحاب الرس واصحاب الايكة وغيرهم ممن لم يعرفهم عرب قريش في زمن الرسول محمدﷺ. وذكرها الله تعالى تذكرة وتحذيراً لكفار قريش من العذاب الذي ينتظرهم جراء صدهم عن دعوة الرسولﷺ وتعذيبهم للمسلمين. وقد تكررت قصص الانبياء مراراً في السور القرآنية وذلك لطول فترة التنزيل التي استمرت ٢٣سنة ولتذكير الكفار بين فترة واخرى لئلا ينسوا وليعتبر من يعتبر.

قوم ثمود من العرب العاربة البائدة مثلهم مثل جرهم وجديس والعمالقة وغيرهم قبل التاريخ لم يصل عنهم شيء من مصادر شحت عند العرب فجاء القرآن الكريم ليصف حياتهم الاجتماعية والطبقية والحضارية والعمرانية بصور رسمت بكلمات مقتضبة بليغة تداعب فؤاد السامع وتتحدى ريشة اي رسام ماهر أو أديب بارع كيف لا ومؤلفها خالق الكون عالم الماضي والحاضر والمستقبل؟ وقد ذكرت قصة ثمود في ٢١سورة وهي: [سورة الاعراف: ٧٣] و [سورة التوبة: ٧٠] و [سورة هود: ٦١-٦٨-٩٥] و [سورة ابراهيم: ٩] و [سورة الاسراء: ٥٩] و [سورة الحج: ٤٢]و [سورة الفرقان: ٣٨] و [سورة الشعراء: ١٤١] و [سورة النمل: ٤٥] و [سورة العنكبوت: ٣٨] و [سورة ص: ١٣] و [سورة غافر: ٣١] و[سورة فصلت: ١٧] و [سورة ق: ١٢] و [سورة الذاريات: ٤٣] و [سورة النجم: ٥١] و [سورة القمر: ٢٣] و[سورة الحاقة: ٥] و[سورة البروج: ١٨] و [سورة الفجر: ٩] و [سورة الشمس: ١١].

وقد أبدع العلامة الهندي عبدالله يوسف علي المتوفي في ثلاثينات القرن العشرين عند ترجمته القرآن الكريم الى الانجليزية والتي ذيلها بـ (٦٣٠٩) ملاحظات في الهامش ليشرح ويعلق على

الآيات والافكار المطروحة فيها. وفيما يخص ثمود وبلدهم افرَدَ ملحقا بعنوان "نقوش ثمودية في وادي الحجر" ذكر فيه رحلة العالم (داوتي) الى جزيرة العرب وكيف وصف وادي الحجر. وقد خصص (٦٦) ملاحظة عن الآيات التي تخص (ثمود).

وقد جمعنا تلك الملاحظات مترجمة في ثنايا هذا البحث لتكون بمجموعها صورة بانوراميةً رائعة لقوم سادوا ثم بادوا ولم يخلفوا ما يشفي غليل الباحث أو نهم القارئ في تخيل حياتهم اليومية ونهايتهم المأساوية.

زار عبدالله يوسف علي كل الاماكن والمواقع الجغرافية التي ذكرت في القرآن الكريم ابتداءً بالسور الذي بناه الاسكندر قريبا من الصين الى (العين الحمئة) في بلغاريا و جزيرة العرب بالأخص كونها مسرح الرسالة الاسلامية العظيمة ومهبط الوحي. وحدد المواقع جغرافيا بحسب قربها وبعدها من المدن الحديثة و موقعها بحسب خطوط الطول والعرض.

ابدع هذا العلامة في الوصف حيث تشبع بالقران الكريم و حفظه كاملا في عمر ٧ سنين و أطلع على متاحف العالم اثناء تدريسه الحضارة الاسلامية في جامعات أوربا و خصوصا بريطانيا و اطلاعه الوفير على الكتب المقدسة ليطلع علينا بعمل موسوعي جبار تجاوز ١٨٦٢صفحة مرصعة بتحف الكلمات و بالوثائق النادرة في ملاحقه (الاربعة عشر) المتنوعة من النواحي التاريخية و الفلسفية و اللغوية و الدينية و غيرها.

ان الاطلاع على هذا العمل العملاق يفتح نافذة على كتب نادرة اصدرت في اواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين اعتمدها كمصادر في بحوثه. وهو في عمله انما يبحر في بحار المعرفة وشطآنها ليستخرج لألئ ثمينة من كنوز القرآن ليفتخر كل مسلم بإسلامه ويعتز بكتاب الله العظيم الذي أُنزل على الرسول الاعظمﷺ في القرن السابع الميلادي اي قبل قرابة ١٥قرناً. وقد طوّع هذا الجهبذ اللغة الانجليزية وجعلها (كما قال في

المقدمة) لغة اسلامية. ومن الجدير بالذكر ان عبدالله يوسف علي اشار في ملاحظاته الى ارقام الآيات والسور والملاحظات فقط! مما دعانا الى ذكرها بالتفصيل لعدم اطلاع الكثير من القراء على هذه التحفة التاريخية العلمية الروحية. لعلنا في جهدنا المتواضع هذا ان نسدي شيئاً من الوفاء لروحه الطاهرة وكلماته الخالدة بخلود القرآن.

قوم ثمود ورثة قوم عاد

ذُكر قوم عاد ونبيهم هود في عدة مواضع في القرآن الكريم بدأً في [سورة الاعراف: ٦٥] ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ و [سورة الشعراء: ١٢٣-١٣٩] ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ يقول عبد الله يوسف علي في الملاحظة ١٠٤٠ و٣١٩٤ للآيات السالفة معرفاً قوم عاد:

تعود قصتهم الى التراث العربي، فجدهم عاد الذي تنتمي اليه القبيلة هو من الجيل الرابع لنوح، فهو ابن أوس بن آرام بن سام بن نوح(ع). وكانوا يقطنون في صقع من اصقاع جنوب الجزيرة العربية يمتد من عُمان في فم الخليج الفارسي الى حضرموت واليمن في النهاية الجنوبية للبحر الأحمر. كان القوم طوال القامة وكانوا بارعين في البناء. وربما كانت الاراضي الملتوية الرملية لوادي الأحقاف تحت سيطرتهم تُروى بقنوات ري، وقد ابتعدوا عن الله واضطهدوا شعبهم فحلت بهم مجاعة لثلاث سنين لكنهم لم يرعووا ودمرتهم ريح صرصر عاتية ومن

تبقى منهم ونجا سُمّوا (عاد الثانية) أو (ثمود)، الا انهم واجهوا نفس المصير فيما بعد. وجاء ذكرهم في [سورة الأحقاف: ٢١] ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. ولا يزال قبر هود معروفاً كتراث في حضرموت على خط عرض ١٨شمالاً وخط طول ٩٤شرقاً، حوالي ٩٠ميلاً عن مدينة المكلّا (اليمن). وتوجد بجواره اطلال ونقوش. ويحج اليه الناس برحلات سنوية في شهر رجب. (راجع كتاب حضرموت وأسرارها الغامضة غير المكتشفة) لـ (فاندرميولين و هـ. فون وسمان/ ليدن١٩٣٢).

نسبهم وموطنهم

عرفهم عبد الله يوسف علي في ملاحظة ١٠٤٣ بأنهم ابناء عمومة عاد على ما يبدوا وانهم الفرع الاكثر حداثة للعرق نفسه. وتعود قصتهم الى التراث العربي ايضاً فجدهم الأعلى ثمود هو ابن عابر (اخو آرام) بن سام بن نوح عليه السلام. وتقع ديارهم في الزاوية الشمالية الغربية لجزيرة العرب بين المدينة وبلاد الشام وتضم بلداً صخرياً ووادياً خصباً فسيحاً وبلداً لقرى سهلية يبدأ مباشرة من شمال (المدينة المنورة) ويمر به خط سكك حديد الحجاز (سابقاً).

وكان الرسول ﷺ ورجاله قد مروا ببقايا ثمود (حوالي ٤٠٠ميل شمال المدينة المنورة) سنة ٩هـ لصد القوات الرومانية الغازية القادمة من بلاد الشام. (راجع نقوش ثمودية في الملحق لتفاصيل أكثر).

الأنباط والبتراء

تعود (البتراء) المدينة الصخرية التي تم اكتشافها حديثاً قرب (معان) جنوب الاردن الى ثمود رغم خصائص طرازها المعماري الذي يربطها بالحضارة المصرية والاغريقية والرومانية. يسميها الكتّاب الاوربيون (الحضارة النبطية) ولكن من هم الأنباط؟ انها القبيلة العربية القديمة التي لعبت دوراً كبيراً في التاريخ خصوصاً بعد دخولها في نزاع مع أنتيجونوس الأول عام ٣١٢ق.م وكانت عاصمتهم

البتراء لكنهم وسعوا اراضيهم حتى تخوم الفرات.

أصبحوا اسياد دمشق تحت قيادة ملكهم (الحارثة) (الذي يطلق عليه أريتاس في التاريخ الروماني) عام ٨٥ق.م. وتحالفوا لفترة مع الإمبراطور الروماني وسيطروا على سواحل البحر الأحمر. ولكن الإمبراطور (تراجان) سحقهم وضم اليه أراضيهم سنة ١٠٥م. وخلّف الأنباط ثموداً ذات التقاليد العربية. ويُذكر قوم ثمود بالاسم في نقوش الملك الآشوري سرجون المؤرخة في ٧١٥ق.م على انهم أقوام شرق ووسط الجزيرة العربية (دائرة المعارف الأسلامية) (انظر «نقوش ثمودية في وادي الحجر» الملحق لسورة الشعراء).

كفر قوم ثمود وتغطرسوا بفعل التطور المادي للحضارة فدمرهم زلزال عنيف وقد حذرهم نبيهم صالح عليه السلام قبل ذلك. وترتبط الازمة في تاريخهم بقصة ناقة عجيبة (انظر الملاحظة التالية):

قصة الناقة:

تروى قصة الناقة العجيبة (وهي علامة إلهية لقوم ثمود) بأشكال عديدة في المأثورات ولسنا بحاجة (الكلام لعبد الله يوسف علي) لاتباع الروايات التقليدية المختلفة عنها ولكن ما يذكره القرآن الكريم لنا ما يلي:

١. انها آية أو رمز استخدمها النبي صالح عليه السلام لتحذير المتعجرفين الذين اضطهدوا الفقراء.

٢. كانت هناك ندرة في الماء وحاول المتغطرسون المتسلطون منع الفقراء أو قطعانهم من الوصول الى عيون الماء بينما تدخّل النبي صالح عليه السلام بالنيابة عن المحرومين. [سورة الشعراء: ١٥٥] ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ و [سورة القمر: ٢٨] ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾.

٣. ان المروج والمراعي هبة الطبيعة المجانية مثل الماء في أرض الله الواسعة ولكن المتغطرسين عملوا على احتكار تلك المراعي ايضاً.

٤. جُعلت هذه الناقة بالذات حالة اختبار [سورة القمر: ٢٧] ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ

﴿فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ لـيرى هل سيتعقل المتغطرسون؟.

٥. بدل ان يستسلم المتغطرسون لحقوق الناس المشروعة عقروا الناقة المسكينة وربما ذبحوها سراً. [سورة الشمس: ١٤] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ و[سورة القمر: ٢٩] ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ وطفح كاس خطاياهم فدُمروا بزلزال مروع أكبهم أرضاً ودفنهم وبيوتهم ومبانيهم الجميلة.

ملاحظة ١٠٤٥

وكما يحدث عادة في مثل هذه الحالات، فالمؤمنون كانوا مستضعفين واذلاء. والمضطهدون هم المتغطرسون الذين يخفون بأنانية هبات الطبيعة (وهي هبات الله عند الناس الذين كانوا يصمون آذانهم عن أوامر العدالة والشفقة. أخذ النبي صالح عليه السلام جانب غير الميسورين ولذلك تعرض هو نفسه للهجوم.

الجانب العقائدي

كان قوم ثمود منقسمين عقائدياً على قسمين:

١. الذين امنوا بما جاء به النبي صالح عليه السلام وأطاعوه.

٢. المتغطرسون الكفرة الذين التزموا جانب العناد والتمرد ويلاحظ انه كانت تدور مناقشات وسجالات بين الطرفين وهذا ما جسدته الملاحظة التالية:

الملاحظة ١٠٤٦

لاحظ العلاقة بين السؤال والجواب. فزعماء الكفار ارادوا ان يكذبوا النبي صالح عليه السلام ويشوهوا سمعته ويطرحوا سؤالاً شخصياً مؤداه (ألم يكن كذاباً؟).

أعاد المؤمنون المسألة الى مستوى أعلى بقولهم نعرف أنه رجل تقي، ولكن انظروا الى العدالة التي يقاوم من أجلها ومن يقاومها يقاوم الله. كان جواب الكافرين أن يرفضوا الله بالأقوال والأفعال فيقترفون بعناد عملاً قاسياً وظالماً بعقر الناقة وقتلها وفي الوقت نفسه يستخفون بشدة بالنبي صالح عليه السلام وربه.

الملاحظة ٣١٩٥

انظر ملاحظة ٣١٨٧ لـ[سورة الشعراء: ١٠٧] ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

الامين تعني الشخص الذي أُعطيت له الامانة وتعني ضمناً

١. من يستحق الثقة.

٢. المُلزَم بتسليم الأمانة مثل النبي الذي يُلزم بنشر رسالته السماوية.

٣. المُلزم بالفعل تماماً كما توجهه الامانة فالنبي ملزم ان يبلغ رسالته السماوية فقط من دون ان يضيف اي شيء من عنده.

٤. عدم البحث عن المصالح الشخصية.

ومن سجالاتهم ان صالحاً عليه السلام قال لهم في ملاحظة ٣٢٠٠ ولكنكم اسأتم استعمال كل تلك الهبات التي اعطاكم اياها الله وستعانون لا محالة جراء سوء الاستعمال ونكرانكم للجميل. فيجيبونه في ملاحظة ٣٢٠١ سوف لن نهتم بك سواء وعظتنا أم لم تعظ. وتركيب الجملة الثانية أولم تكن من بين واعظينا؟ هو ضربة سيف بتار قاسية موجهة للنبي كما لو انهم قالوا: نعم لقد سمعنا الكثير من الواعظين مثلك وقالوا كما قال اعداء ديننا المعاصر (الكلام لعبد الله) انكم تحيون خرافات قديمة أفيوناً للشعوب، فلا يوجد شيء اسمه (آخرة) أو عقوبات ستحل بكم. وعبد قوم ثمود الالهة (اللات) و (مناة) و (قيس) و (هُبل) و (ديوساريس) و (مارتابا) الا ان اللات هي الاشهر.

ملاحظة ١٥٥٦ ذُكرت قصة النبي صالح عليه السلام مع قوم ثمود من وجهة نظر اخرى في [سورة الأعراف: ٧٣]. والاختلاف في وجهة النظر هنا هو كما في قصة هود. أنظر [سورة هود: ٥٠] ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ لاحظ كيف ان القصة الآن مشابهة ومع هذا فقد قُدمت نقاطٌ وتفاصيل جديدة لوصف كل مناقشة جديدة ولاحظ ايضا كيف مُيزت خطيئة قوم عاد الماثلة (الكبرياء والعناد) من الخطيئة الماثلة لثمود (اضطهاد الفقراء) كما صُرت بقضية اختبار ورمز الناقة. لاحظ ملاحظة ١٠٤٤ لـ(سورة الاعراف: ٧٣].

وكل الخطيئة تكمن في الاحساس بالكبرياء والعصيان. ومع هذا فقد أخذت

الخطايا اشكالاً خاصةً في ظروف مختلفة. وقدمت هذه الألوان بشكل فني رائع من خلال صورة رُسمت باقتصاد في الكلمات وبتحليل حاد للدوافع. (ولموضع قصة ثمود لاحظ الملاحظة ١٠٤٣ لـ [سورة الاعراف: ٧٣].

النبي صالح عليه السلام

ملاحظة ١٥٥٨: كانت حياة النبي صالح عليه السلام مع قومه مستقيمة جداً مثل الامين محمد ﷺ في الازمان اللاحقة بحيث كان يمكن ان يختاروه قائداً أو ملكاً لمجرد أن يتوافق مع خرافاتهم ويدعم خطاياهم. ولكنه ولد لمهمة أسمى (أن يعظ بالحقيقة والصلاح) وأن يكون عنصراً متحمساً وبطلاً لحقوق الانسان على أرض الله الحرة من خلال الناقة.

الملاحظة ١٥٥٩ ويخاطب صالح عليه السلام قومه "كان الله طيباً معي ومنحني نوره والامتياز الذي لا يُقدّر بثمن بحمل رسالته اليكم. ألاترون اذا فشلت في حمل رسالته فسأكون في موضع المساءلة امامه؟ فمن سيساعدني في تلك الحالة؟ وسيكون الشيء الوحيد الذي تضيفونه الى محنتي هو الخراب التام في العالم الروحي (راجع [سورة هود: ٢٨]) ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾؟.

ملاحظة ١٥٦٠ لم يتخذ النبي صالح عليه السلام موقفاً سلبياً فقط وانما قدم الناقة كرمز الهي: لاحظ الملاحظة ١٠٤٤ لـ[سورة الاعراف: ٧٣] (اتركوا احتكاركم الاناني واجعلوا هبات الله على هذه الارض متاحة للجميع. أعطوا الفقراء حقوقهم بما فيها رعي الماشية في الاراضي المشاعة. أظهروا توبتكم بأن تتركوا هذه الناقة ترعى بحرية. انها رمز الهي ومقدسة لكم) ولكن ردهم الوحيد انهم اخروا المناشدة وعقروا الناقة وبذلك سلكوا طريق الخاطئين الى الدمار التام

المؤامرة

ملاحظة ٣٢٨٣: ذُكرت قضية اختيار الناقة في [سورة الشعراء: ١٤١ -١٥٩]. اما النقطة هنا، فهي المؤامرة السرية

للرجال التسعة ضد المؤمن الورع الذي يعتقدون ان تعاليمه جلبت لهم الفأل السيء ولكنهم دعوا الفأل السيء على انه عقاب الله العادل على افعالهم السيئة، فقد حبطت مؤامراتهم ودُمر المجتمع السيء بأكمله.

[سورة النمل: ٤٦-٥٣] ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَٰسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

ملاحظة ٣٢٨٤: كان فاعلوا السوء يستعجلون العقاب بنظامهم الاقطاعي ضد الفقراء في حين لم يجلب لهم مؤيدو العدالة الفأل السيء بل كانوا يرونهم الطريق ليدفعوا عنهم الاذى. وجلب لهم ظلمهم الكارثة.

ملاحظة ٣٢٨٥: واما الشر الذي لم يُعاقب ليس تأييداً له بل لإعطاء الفرصة للإصلاح. فهم في محاكمة وبرحمة الله فما ينعتونه بالفأل السيء هو في الحقيقة عقاب عادل على اعمالهم السيئة، والقرار متروك لله.

ملاحظة ٣٢٨٦: وقد قرروا شن حرب شعواء ضد العدالة لكنهم لم يدمروها بل العدالة هي التي دمرتهم.

ملاحظة ٣٢٨٧: كانت المؤامرة جبانة وخسيسة وغادرة بسبب

١. كانت سرية.

٢. في الليل.

٣. أُخذ الضحايا على حين غرة.

٤. كان الاحتياط قد عُمل بأن عليهم جميعاً قول الكذب معاً بقولهم انهم لا

يعرفون شيئاً عن ذلك حتى يتجنبوا انتقام ورثة شعيب لو بقي احد منهم أو ان قبيلته ربما تريد الانتزاع. وكانت تلك المؤامرات هي نفسها التي حيكت ضد النبي محمد ﷺ.

ملاحظة ٣٢٨٨: إنَّ تآمرهم السري معروف عند الله، ولكنهم لم يعرفوا بخطط الله تعالى العادلة الرحيمة. فلا بد للأشرار من نهاية شريرة.

[سورة الشمس: ١١-١٥] ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾.

ملاحظة ٦١٥٤: يمكن ان تفهم الصورة الخادعة لقوم ثمود بالرجوع الى [سورة الاعراف: ٧٣-٧٩] انظر بشكل خاص ملاحظة ١٠٤٤. كان على النبي صالح عليه السلام ان يتعامل مع شعب متغطرس اضطهد الفقراء وانكر عليهم حقوقهم في السقي ورعي قطعانهم.

ملاحظة ٦١٥٥: فجعل لهم النبي صالح عليه السلام ناقة معينة علامة أو رمزاً ربانياً كحالة اختبار ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة الاعراف: ٧٣]. لكنهم تأمروا على قتلها وأرسلوا أكثرهم شراً لفعل ذلك. وربما عندما جاءت لتشرب من الساقية عُقرت وقُتلت. انظر [سورة الشعراء: ١٥٥] و [سورة القمر: ٢٧].

ملاحظة ٦١٥٧: وبالطبع فالرجل الذي انتدب لذلك الفعل العاق كان يحظى بتعاطف وتعاون الناس جميعاً حيث كان أكثرهم جرأة.

انذرهم النبي صالح عليه السلام سوء عاقبة ما فعلوا وامهلهم ثلاثة أيام للتفكير والتوبة. قائلاً لهم: [سورة هود: ٦٥] ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ و [سورة الذاريات: ٤٣] ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

ملاحظة ١٥٦١: تمهلوا ثلاثة أيام فقط لتفكروا وتتوبوا، ولكنهم لم يعطوا

اذناً صاغية ولم يبالوا [سورة القمر: ٢٣] ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾.

العقاب

فداهمتهم هزة ارضية عنيفة ليلاً سبقها انفجار مدوّ عظيم (ربما بركاني) مثلما هو معروف في المناطق الزلزالية. حدثت ليلاً ودفنتهم في بيوتهم المحصّنة التي كانوا يعتقدون انها اماكن امنة وتوصف في [سورة النمل: ٣١] (صيحة واحدة) على انها (انفجار هائل واحد).

ملاحظة ١٠٠٤: الصيحة اشارة الى الصوت المدوي الهائل والريح المصاحبة لهزة ارضية [سورة الاعراف: ٧٨] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

ملاحظة ١٠٤٧: لم تتأخر العقوبة طويلاً، حيث حدثت هزة ارضية رهيبة دفنت الناس ودمرت حضارتهم التي كانوا بها يتفاخرون. ولاشك ان الكارثة كانت واسعة النطاق في المساحة والرهبة الكبيرة التي أوحت اليها. وان نوع الدوي المرعب الذي أوحت به هائل وهو ما يصاحب الهزات الارضية العنيفة. فأصبحوا وهم منكبين على وجوههم ليخفوها عن البريق. ترى كيف أُذِلَّ الجبابرة.

ملاحظة ١٠٤٨: وانقذت الرحمة الإلهية صالحاً لأنه انسان عادل وتقي. وقد يكون كلامه هنا اما تحذير مودّع أو مناجاة النفس وهو يندب دمار قومه بسبب خطيئتهم وحماقتهم [سورة النجم: ٥١] ﴿وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَى﴾.

نكتة

يعلق عبد الله يوسف علي على [سورة الشمس: ١٥] ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ بالملاحظة ٦١٥٨ بقوله: أُعربت هذه الآية بشكل مختلف. فأتبعتُ الرأي العام بالإشارة الى الضمير (هو) لـ (ربهم) في الآية الاخيرة والضمير (ها) للعقوبة التي خصصت للكل اعلاهم وادناهم. وفي تلك الحالة يكون المعنى: قضى الله بالتدمير الكامل لقوم ثمود. وفي حالة المخلوقات فإن مثل ذلك الدمار قد يسبب خسارة لهم وربما سيخشون عواقب تلك الخسارة أو التدمير. لكن الله تعالى هو الذي خلق

ويمكنه ان يخلق بمشيئته ولا يخشى شيئاً. وهناك رأي بديل بأن (هو) تشير الى النبي صالح ﷺ حيث ذُكر في الآية ١٣ في نفس السورة ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾. وعليه يكون التفسير ان صالحاً لم يخش العواقب على نفسه فقد حذر الاشرار بموجب مهمته. انقذت رحمة الله صالحاً لأنه رجل عادل وتقي فتركهم بندم [سورة الاعراف: ٧٩] ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾.

وهناك بديل آخر يشير الى (هو) على انه الرجل الشرير (الذي ذكر في اية ١٢ ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ الذي عقر الناقة حيث انه لا يعرف عاقبة فعله.

[سورة فصلت: ١٧] ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

ملاحظة ٤٤٨٥: «العقاب المذهل» يعني الضجيج الذي يصّم الاذان مثل الرعد والبرق أو دوي الزلزال المرعب. في [سورة الاعراف: ٧٨] ربما كان زلزالاً. وفي [سورة فصلت: ١٣] ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾.

تحليل نفسي لقوم ثمود:

فيما يخص [سورة القمر: ٢٣] ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾ يقول عبد الله يوسف علي في ملاحظة ٥١٤٦: تُحلل نفسية قوم ثمود هنا اكثر من [سورة فصلت: ١٧] لتظهر التناقض بين أفكار الناس الضحلة عن التنزيل الإلهي والقيمة الحقيقية لسلامة العقل والانسانية والروح الاجتماعية وحقيقة التنزيل. أولئك الذين جاءهم النبي صالح ﷺ بالتنزيل الرباني.

الجانب الحضاري والعمراني:

[سورة البروج: ١٨] ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾.

ملاحظة ٦٠٦٣: كان قوم ثمود عظماء في البناء وكانت لهم حضارة مادية عالية المستوى لكنهم تحدوا شريعة الله فهلكوا.

[سورة الفجر: ٩] ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾.

ملاحظة ٦١١٦: تظهر حضارتهم أثر

تأثير المصريين وأقوام بلاد الشام ولاحقاً الاغريق والرومان حيث بنوا معابد وقبوراً وبنايات محفورة في الصخور الصلدة وقد ازدهرت بينهم عبادة الآلهة (اللات).

ملاحظة ٣١٩٦: تفتخر كل حضارة مادية بحتة بنفسها من خلال المباهاة والاستعراض، ونشر انصارها للنُصُب بكل اشكالها في اماكن بارزة بحيث تُحيي تلك النصب ذكرى الافعال التي لا تُنسى في بعض اجيال لاحقة. انظر قصيدة (شيلي) عن (اوزمانديا‌س):

«انا اوزماندياس، ملك الملوك! انظروا الى اعمالي العظيمة ولكنها يائسة فقد تمتد عليها الرمال الى الافق البعيد وتبقى وحيدة وعارية».

[سورة الحجر: ٨٠-٨٤] ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾.

ملاحظة ٢٠٠٢: ان (أرض الحِجر) بلا ريب اسم جغرافي حيث يظهر اسم (الحِجر) في خرائط الجزيرة العربية شمال (المدينة المنورة). يقع جبل الحِجر على بعد ١٥٠ ميلاً شمالي المدينة. وعليه فتلك الارض تقع على الطريق الرئيس الى بلاد الشام. وكانت تلك بلد قوم ثمود.

ملاحظة ٢٠٠٣: لا تزال آثار تلك الصروح الصخرية موجودة في الحِجر وان مدينة (البتراء) لا تبعد أكثر من ٣٨٠ ميلاً عن (جبل الحِجر). والبتراء في اللغة الاغريقية تعني (الصخر أو الحِجر أو الارض الصخرية).

كان قوم عاد وثمود في حضارة مادية راقية في ازمانهم فقد طغوا بذلك وترفعوا عن الجوانب الروحية التي جعلوها وراءهم بفعل غواية الشيطان. [سورة العنكبوت: ٣٨] ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ وتظهر مبانيهم

١. انهم كانوا موهوبين بذكاء عظيم ومهرة.

٢. كانوا فخورين بحضارتهم المادية.

٣. ان تدميرهم يناقش كيف لا تستطيع الحضارة المادية والمصادر ان تنقذ شعباً عصى قانون الله الاخلاقي.

[سورة الشعراء: ١٤١-١٥٩]

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

ملاحظة ٣٢٠٣: اما قوم ثمود فكانوا بارعين بالبناء والحَجر، ولهم ثروات زراعية ولكنهم كانوا قوماً متنفجين (اي لا يختلطون بمن يحسبونهم اقل منهم منزلة). ويضطهدون الفقراء. والنقطة التي يتم التركيز عليها هي (كم ستدوم ثروتك، خصوصاً اذا كنت توهن شعبك وتهين علامة الله (آيته) بالعقر؟ اما النقوش الموجودة في آثار قوم ثمود فانها محفورة بالبنايات والاحجار.

ملاحظة ٣٢٠٤: من الواضح ان قوم ثمود كانوا يفتخرون بمهارتهم في زراعة الأرض بالحنطة والفواكه وينحتون مساكنهم في الصخور مثل مساكن الرومان لاحقاً في مدينة البتراء.

ملاحظة ٣٢٠٥: وأُخبروا انَّ: (كل خبراتكم جيدة جداً ولكن كرسوا أنفسكم للفضيلة ولا تتبعوا أولئك الذين أسرفوا بسلطاتهم على الناس والموارد الماديّة أو الذين عاشوا بترف مبالغ فيه حيث الانغماس بالملذات مما جرهم للشر، ولكن أبواب التوبة مفتوحة: فهل انتم تائبون؟

وللمزيد عن الفن المعماري لدى قوم ثمود راجع الملحق (نقوش ثمودية) في ثنايا هذا البحث.

اصحاب الرس وقوم ثمود:

[سورة الفرقان: ٣٨] ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾.

لعل اصحاب الرس هم ورثة قوم ثمود كما ان قوم ثمود هم ورثة قوم عاد. وربما يتبادر ذلك للذهن من خلال المناطق التي استوطنوها محاذية لأراضي ثمود وعلى ذلك يعرّج عبد الله يوسف علي في الملاحظة ٣٠٩٤ قائلاً:

لا يوضح المفسرون من هم أصحاب الرس. فمعنى جذر الكلمة (الرس) هو البئر القديم أو حفرة ماء ضحلة. ومعنى آخر يربطها بـ (مدفن الأموات) ولكن من المحتمل انها اسم لمدينة أو مكان. وربما اصحاب الرس هم قوم شعيب حيث ذكروا هنا مع قوم عاد وثمود ولوط. وهناك ربط آخر لقوم شعيب في [سورة الشعراء: ١٧٦-١٩٠] ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنِّى... ﴾.

و[سورة هود: ٨٤-٩٥] ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٰٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٰٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ... ﴾.

كان شعيب بنى شِعب المدائن في شمال غرب الجزيرة العربية حيث توجد آبار قديمة. وهناك واحة (الرس) في مقاطعة القصيم في وسط نجد (حوالي ٣٥ ميلاً جنوب غرب مدينة عنيزة التي تعدّ وسط شبه جزيرة العرب وهي تقع في وسط الطريق بين مكة والبصرة. (انظر كتاب جزيرة العرب لـ داوتي (الجزء الاول طبعة لندن ١٩٢٦م) وخارطة خط عرض ٢٦شمالاً وخط طول ٤٣شرقاً.

قوم ثمود وقريش:

كانت القصص القرآنية تحذيرية لكفار قريش من تطاولهم على الرسول ﷺ والمسلمين وتنذرهم من المصير المحتوم

كما حل بالامم السابقة التي كفرت وازدادت عناداً وتذكرهم بالنهايات المروعة لتلك الاقوام علهم يرتدعون فكانت تلك القصص تُعاد عدة مرات في أوقات مختلفة للتذكير. يقول عبد الله يوسف علي في ملاحظة ٢٢٤٧: (يرسل الله تعالى العلامات والمعجزات والمنذرين كتحذير لينفذ الرعب في قلوب فاعلي الشر ويبشرهم بالطريق الصحيح. وناقشتُ الخوف كحافز لينذر نماذجاً من القلوب القاسية في ملاحظة ٨٢ لـ [سورة البقرة: ٧٤] ولكن بعض القلوب القاسية لا يجدي معها هذا الحافز نفعاً لان الله تعالى اعطاهم ارادة مرة محدودة وكانت لهم حرية الاختيار. وعندما اختاروا الشر اخّر الله عقابهم بفيض من رحمته اللامحدودة. ومنع العقاب الفوري).

ولأن كثيراً من الكفار يجهلون تاريخ الأمم السابقة وأحداث الماضي يقول عبد الله يوسف علي في ملاحظة ١٨٨٢ (حتى اسماء كل الانبياء لم تكن معروفة للناس واقلها تفاصيل قصصهم. ولو تصل اخبارهم (وتترجم كلمة اخبارهم على انها قصصهم) فأنها تعطي تعالياً روحية في الحياة.

[سورة الاسراء: ٥٩] ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

ملاحظة ٢٢٤٦: يُذكر مثال من قصة قوم ثمود حيث أُرسلت بينهم ناقة عجيبة كرمز ونذير، فعقروها جراء شرهم. ولذلك بدلاً ان تكون وسيلة لإصلاحهم أصبحت وسيلة لدمارهم بعدما كُشف امرهم. انظر ملاحظة ١٠٤٤ لـ[سورة الأعراف: ٧٣] للمزيد عن الناقة وللمقاطع التي ذُكرت فيها.

جاء في تفسير الجلالين لهذه الآية (وما منعنا ان نرسل بالآيات التي اقترحها اهل مكة الا ان كذب بها الاولون لما ارسلناهم فأهلكناهم ولو أرسلناها الى هؤلاء لكذبوا بها واستحقوا الهلاك وقد حكمنا بإمهالهم لإتمام أمر محمد وآتينا ثمود الناقة آية مبينة واضحة فكفروا فأهلكوا وما

نرسل بالآيات المعجزات الاّ تخويفاً للعباد ليؤمنوا.

ويخاطب الله تبارك وتعالى الرسول الاكرم عن موقف قريش بتكذيبهم له ونعتهم اياه بالكذاب أو المجنون أو الساحر وغير ذلك فلا بد ان الرسول ﷺ تألم نفسياً وربما ضاق ذرعاً الى حد ما فجاء خطاب الله له لتهدئته وإعطائه شحنة نفسية بتذكيره بما فعل الاولون. جاء في [سورة الحج: ٤٢] ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴾.

تقول الملاحظة ٢٨٢٠ (ليس جديداً ان يُتهم نبي الله بالدجل والخداع فهذا قد كان في كل العصور، مثلما جرى لنوح وهود نبي قوم عاد وصالح نبي قوم ثمود).

ان تكرار قصة عاد وثمود وأصحاب الايكة والرس انما هو اخبار عن اقوام عاشت شمال وجنوب الجزيرة العربية وحيث ان مكة في وسط الطريق بين الشام واليمن فيكون الخطاب (يا أهل مكة انظروا الى ما حل بتلك الأمم من حولكم وليس غريباً ان يحل بكم مثلما حل بهم وان أمر الله كلمح البصر.

[سورة ص: ١٣ -١٥] ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾.

تقول الملاحظة ٤١٦٥: (فواق تعني تأخير. فالفاصلة بين حالب للناقة وآخر اما لإعطائها فسحة للتنفيس او لإعطائها وقتاً لتُرضع، أو ربما يريح القائم بالحلب أصابعه. ومثل هذه الفاصلة قصيرة جداً. والمعنى المشتق هو عندما يحل العقاب المحتوم على الخطيئة فلن يتوانى بل يكون بلا تأخير). ويستمر التحذير والتذكير.

[سورة غافر: ٣١] ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾.

ملاحظة ٤٤٠٢: [يذكرهم الله بالماضي بقوله (الم تسمعوا بالأقوام التي عاشت قبلكم مثل اجيال نوح وعاد وثمود وغيرهم حيث تحملوا أوزار خطاياهم تجاه الداعين الى الله ومُسحوا اجراء اقترافهم تلك الخطايا؟)].

ملاحظة ٤٤٠٣: (كل هذه الكوارث التي حدثت في التاريخ اذا لم تتركوا فعل الشر. لا تعتقدوا في هذا الوقت ان الله ظالم. فأنتم بأفعالكم تهيئون لتلك الكوارث).

ويربط عبد الله يوسف علي حال كفار قريش بحال قوم نوح في الملاحظة ٣١٨٦: (ضيع جيل نوح الايمان كله وسلموا انفسهم للشر. فقد رفضوا رسالة الانبياء الذين ارسلوا للعالم سابقاً. فأرسل الله لهم نوحاً كواحد منهم «أخوهم» وان حياته كانت مفتوحة أمامهم «معروف لهم تماماً». فأثبت لهم بأن قلبه نقي «مثل النبي محمدﷺ في الجزيرة العربية الذي جاء بعده بفترة طويلة» وانه اهل للأمانة والثقة. فهل سيخافون الله ويتبعون نصائحه؟ عرفوا بأنه ليست لديه غايات شخصية وراء عمله. وهل سيعزفون عنه ولا يصغوا اليه؟).

وكيف ان الرسول محمدﷺ كان يذكرهم بنعم الله ويحذرهم في الوقت نفسه كما حذر النبي صالحؑ قوم ثمود. [سورة الشعراء: ١٣١-١٣٥] ﴿فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

تقول الملاحظة ٣١٩٩: (توصف الهبات «النعم» بشكل عام مادية وغير مادية. «كل ما تعرفونه» ليس فقط الاشياء المادية بل المعرفة والقابليات التي تستخدم لإسعاد الانسان، وتجعل حياته أكثر جمالاً وطهارة. «الانعام» تعني الثروة بشكل عام و «البنين» تعني المجتمع والايدي العاملة. «جنات وعيون» هي الاشياء التي تساهم بمتعة وسعادة الانسان).

ملاحظة ٣٢٠٠: (ولكنكم أسأتم استعمال تلك النعم وستعانون لا محالة جراء سوء الاستعمال ونكرانكم للجميل).

وبصمود الرسولﷺ ومن معه من الاوفياء وبدعم الرحمة الإلهية تحقق نصر الله والفتح ودخلت قريش الاسلام افواجاً ولعل الكثير منهم ندم على فعله وطلب المغفرة. فأستغفر لهم الرسولﷺ ووعدهم بأن الله كان توابا. ولم يكن عام الفيل عنهم بعيداً وما حل بأبرهة وجيشه درسٌ يتذكره المسنون من قريش.

الخاتمة

بعد ان تجولنا في جنينة عبد الله يوسف علي الغَنّاء بين سواقيها الندية الروحية ننهل من عبقريته الفذة لا بد لنا ونحن نغادر (أيكته) ان ننثر الورود على قبره اعتزازاً بذكراه العطرة.

مداخلة:

- تقول احدى الدراسات ان قوم عاد هم السومريون حيث ان كلمة عاد تعني بالسومرية العقرب وكان شعار السومريين الرجل العقرب وانهم تلك الاقوام التي نزحت من جنوب الجزيرة العربية وكانوا بارعين في الزراعة والري وقد جلبوا معهم طريقة الري الى جنوب العراق وهي مشابهة لما أكتشف في حضرموت. (مجلة سومر التاريخية/ وزارة الثقافة والاعلام/ بغداد جـ١ مجلد ٣٤ سنة ١٩٧٧ (بتصرف) (المترجم).

الملحق:

بحث عبد الله يوسف علي (نقوش ثمودية في وادي الحِجر):

تَنَقَّل الرحالة سي.أم.داوتي في شمال غرب الجزيرة العربية في ثمانينات القرن التاسع عشر. ويُعتبر كتابه (الصحراء العربية) واحداً من أهم كتب الرحلات الشهيرة عن الجزيرة العربية. وقد نشرته مطابع جامعة كمبردج لأول مرة عام ١٨٨٨م بجزأين تلته طبعات لاحقة أخرى. والطبعة التي أمامي (الكلام لعبد الله يوسف علي) هي الطبعة غير المختصرة ذات المجلد الواحد مطبوعة في لندن عام ١٩٢٦م.

سافر داوتي في طريق قوافل الحج القديم (درب الحج) مع قافلة حج من دمشق حتى تخوم مدائن صالح، وعندما فارق الحجاج أتجه صوب نجد. ومدائن صالح [أي مدن النبي صالح عليه السلام] هي أحدى المحطات في طريق الحج من سوريا، تقع شمال المدينة بحوالي ١٨٠ ميلاً. وتبعد عن (تبوك) التي غزاها الرسول ﷺ عام ٩هـ حوالي ١٧٠ ميلاً. وعن مفرق (معان) حوالي ١٥٠ ميلاً.

كانت مدائن صالح قبل التاريخ محطة مهمة في طريق الذهب والبخور بين

اليمن ومصر وبلاد الشام. ويشار اليها في التاريخ المقدس على انها المكان المدمّر لقوم ثمود الذين أرسل الله لهم النبي صالح عليه السلام وكانت ناقته علامة ربانية رمزية في تاريخه (انظر الملاحظة ٣٢٠٨ في [سورة الشعراء: ١٥٥-١٥٧]).

وتقع الى الغرب والشمال الغربي لمدائن صالح (الحـرّات) أو مناطق الاراضي البركانية المغطاة بالحمم البركانية الممتدة الى تبوك. وما يلي عرض لوصف داوتي مشاهداته الاولى لمدائن صالح عندما وصلها من الجزء الشمالي الغربي:

[في ذلك الصباح ومع الشفق المعتم وصلنا في سفرتنا الى قمة هضبة رملية ذات منحدرات صخرية، صاح بي (اسوَد) انظر هذا هو مكان (مـبرك الناقة) اي مكان ركوع ناقة صالح. انحدار شديد ينتهي الى هضبة (الحِجر) وهي مدائن صالح. عندما ارتفعت الشمس اسفرت عن منظر طبيعي رائـع لذلك الـوادي الـذي تطوقه رمال وصخور هائلة تشبه خطاً من جـدران مدينة وابراج مدهشة ومباني قلاع تعلوها كتل رملية ركمتها الرياح. اما القاع فقد افترشتها الرمال وشجيرات صحراوية خفيضة كثيفة الاغصان. لاحظت رمالاً بركانية وقد رشت المكان. ويمكن رؤية جبال (الحرات) السوداء المرعبة النازلة الى جهة الغرب. (الصحراء العربية ص٨٣ المجلد الاول).أخذ داوتي بعض ما أمكن الوصول اليه من النقوش المحكوكة وتمت دراستها من قبل م.ايرنست رينان استاذ اللغات السامية الكبير ونشرتها (أكاديمية النقوش والرسائل). ونُشر تقرير رينان في اللغة الفرنسية كملحق للفصل الرابع والخامس والسادس من كتاب (الجزيرة العربية/ الجزء الاول ص١٨٠ -١٨٧). وفي ملاحظات أم.لي.ماركيز دي ڤوگو) بالفرنسية ايضاً على (الفن المعماري في المنحوتات النبطية في مدائن صالح/ الجزء الاول ص٦٢٠-٦٢٣)].

ويمكن اختصار نتيجة هذه الدراسات بأن هذا الفن المعماري وفن النحت يشبه ما موجود في الآثار النبطية في البتراء (للمزيد انظر ملاحظة ١٠٤٣ لـ[سورة

الاعراف: ٧٣]). لم يتم العثور على نقوش محفوظة في البتراء ولكن وجد الكثير في مدائن صالح حيث تم العثور فيها على مئة سرداب لقبور محفورة بالصخور يضم بعضها عظاماً بشرية وآثاراً تدل على النبطيين الذين عرفوا فن التحنيط واستعملوا الملابس الكتانية كتلك التي استعملها المصريون القدماء. وقد كُرست القبور لتخليد العوائل المشهورة. وكان لقب الملوك الانباط المشهورين «محب شعبه». وهناك أعمدة مستطيلة ذات تيجان وقواعد ناتئة ويمكن تمييز أشكال وحوش رباعية الأطراف ونسور وطيور. وبالإضافة الى سراديب القبور هناك قاعة كبيرة أو غرفة المجلس (إيوان) ذات ابعاد ٢٥قدماً ×٢٧قدماً×١٣قدماً وربما كان ذلك معبداً. عُرفت اسماء الآلهة المعبودة آنذاك من مصادر نبطية اخرى وهي (ديوساريس) و(مارتابا) و(اللات) و(مناة) و(قيس) و(هبل). وترتبط (اللات) و(مناة) و(هبل) بأوثان وأصنام عَبَدَها وثنيو قريش في فترات الجاهلية.

ومن الطريف ان تجد كلمة (مسجداً) (بالعربية مسجد) مستعملة سابقاً هناك لتدل على (مكان العبادة). وقد عبدو أشياء ثلاثية صخرية كآلهة.

ويعود تاريخ تلك النقوش للفترة من ٣ق.م الى ٧٩م. ومن خلال تلك الفترة القصيرة التي لا تتجاوز ٨٢ سنة يمكننا رؤية تطور الكتابة السامية القديمة في غضون تلك السنين حيث أصبحت الكتابة بحروف متصلة أكثر وأكثر وبذلك نجد نقاطاً مشتركة بين الخط الآرامي القديم والعبري المربع والسينائي والكوفي والنَسخ.

عندما حددنا تواريخ الانباط فهذا يعني انهم قوم لهم تاريخ في حين ان اهل ثمود كانوا أقواماً قبل التاريخ سكنت مواقعاً سكنها الانباط وغيرهم فيما بعد. وتبقى اسماء المواقع مثل مبرك الناقة وبئر الناقة وعدد من الاسماء المحلية حية في الذاكرة لقوم قدماء عاشوا مع نبيهم صالح في تخوم الجزيرة العربية.

نافذة

المصباح

العرض و النّقد و التّعريف

نقد كتاب (مفردات ألفاظ القرآن) للراغب الأصفهاني

سماحة الشيخ علي الكوراني
قم - ايران الاسلامية

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم السلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين، أفصح من نطق بالضاد، وتكلم بجوامع الكلم.

نَمَّى الله اللغة العربية ورباها ليخاطب بها الناس

من آيات الله تعالى أنه جعل العرب يعشقون لغتهم عشقاً شديداً، قروناً طويلة، حتى نَضَّجُوها وطوَّروها.. فصارت صالحة ليُنزل بها الله كتابه ويكلم بها عباده. ويدل على ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام (الخصال/ ٢٥٨): (تعلموا العربية، فإنها كلام الله الذي يكلم به خلقه).

لاحظ قوله عليه السلام: (يُكلم به خلقه) الدال على استمرار تكليم الله تعالى للخلق كل الخلق، بالقرآن. وليس هو موضوعنا.

وقد أدرك المستشرقون تميز اللغة العربية عن غيرها، وارتفاع مستواها عن حاجة شعوبها الطبيعية، فقال فيليب حِتِّي (مجلة البيان: ٢٠٤/ ٩): «والعرب لم يبدعوا أن ينشئوا

فناً عظيماً خاصاً بهم، من الفنون المعروفة، ولكنهم عبروا عن الغريزة الفنية بصورة واحدة هي الكلام. فإن فاخَرَ الإغريقي بما عنده من تماثيل الفن ومنشآت هندسة البناء، فالعربي يرى قصيدته أفضل ما يعبر عن خلجاته الداخلية».

من ليس له خبرة كافية بالعربية لا يكون فقيهاً

ذلك أن لغة الإسلام هي العربية، فلا بد للباحث والفقيه من فهم معانيها، ومعرفة قواعدها، والخبرة بتراكيبها، ليستطيع القول إن المعنى المقصود هو هذا، فيبني عليه أفكاره ويفتي به. فإن كل اجتهاد يتوقف على استظهار المعنى من النص، ولا يمكن الإستظهار بيقين إلا بفهم اللغة وقواعدها.

وليس هذا إنقاصاً لمقام الباحثين والعلماء والفقهاء غير العرب، فقد عشتُ في إيران عشرين سنة، واختلطت بالفرس وتكلمت بالفارسية وترجمت منها، وأحاضر بها، لكني لا أعدُّ نفسي خبيراً بها خبرة كافية للجزم دائماً بمداليل نصوصها، والفتوى بأن هذا هو المعنى المقصود.

فالمسألة ليست بالبساطة التي يتصورها البعض، وما لم تصبح اللغة الثانية أماً لك كلغتك، أو خالة، فلا تعدّ نفسك مؤهلاً للحكم فيها.

وعندما تعطي وأنت عربي رأياً في تحليل لفظ فارسي واشتقاقه وأبعاد معانيه، فقد يُلفتك المتخصصون من أبنائها الى شطحات ذهبتَ بها بعيداً عن مدلول اللفظ عند أهله. ولا نطيل بذكر الأمثلة. ومِثْلي الكثير من غير العرب الذين عاشوا في بلاد العرب، لكن بعضهم صارت اللغة العربية لغته الأم، أو أمه الثانية، وكان مرجعاً فيها للعرب! كسيبويه والكسائي والزجاج والمبرد والفارسي، وأكثر اللغويين والنحويين.

أما معاصرونا فمنهم منصفون يرجعون الى الخبير بالعربية، فيسألونه عن فهمه هذه العبارة، وعن استعمال هذه اللفظ عند العرب.

يسألونه عن اليوم عند العرب هل هو من طلوع الشمس الى غروبها، أو من طلوع

الفجر؟ وتترتب عليه أحكام في الصوم، وعدة الطلاق، وأحكام السفر، وكافة العقود الموقتة بالأيام. .

ويسألونه مثلاً عن قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [سورة طه: ١٤]. هل المقصود: أقم الصلاة لأجل ذكر الله تعالى، أو أقم الصلاة التي نمت عنها أو نسيتها عندما تذكرها. أو أنها تشمل المعنيين؟وتترتب عليه أحكام لأداء الصلاة وقضائها.

لكنَّ منهم من يركب رأسه ويرى أنه أخبرُ بالعربية من أهلها، وتراه يأخذ بأول معنى يَعِنُّ لذهنه ويجادلك به ولايقنع بفهمك لمعنى اللفظ، ولا باستعمال العرب له، كأنه هو واضع اللغة ومعلمها للعرب!.

أول من صنف في ألفاظ القرآن تلاميذ أهل البيت عليهم السلام

(أول من دون علم القراءة أبان بن تغلب الربعي، أبو سعيد، ويقال أبو أميمة الكوفي، قال النجاشي في فهرس أسماء مصنفي الشيعة: كان أبان رحمه الله مقدماً في كل فن من العلم، في القرآن، والفقه، والحديث..

وقد ذكر ابن النديم في الفهرست (ص٢٧٦) تصنيف أبان في القراءة، قال: وله من الكتب معاني القرآن لطيف، كتاب القراءة، كتاب من الأصول في الرواية على مذهب الشيعة. انتهى. وبعد أبان صنف حمزة بن حبيب، أحد القراء السبعة كتاباً للقراءة. قال ابن النديم في الفهرست: كتاب القراءة لحمزة بن حبيب، وهو أحد السبعة من أصحاب الصادق عليه السلام...

ثم اعلم أن المصنفين في غريب القرآن بعد أبان جماعة من الشيعة منهم: أبو جعفر الرواسي، وهو متقدم أيضاً على أبي عبيدة، ومنهم أبو عثمان المازني، المتوفى سنة ٢٤٨، والفراء المتوفى سنة ٢٠٧، وابن دريد الكوفي اللغوي المتوفى سنة٢٢١، وعلي بن محمد السيمساطي. وستأتي تراجم هؤلاء في فصل علم النحو، وفصل علم اللغة، والدلالة على تشيعهم).(الشيعة وفنون الإسلام/ ٢٧).

(قال السيوطي في الأوائل: أول من صنف غريب القرآن أبو عبيدة معمر بن المثنى، أخذ ذلك من أسئلة نافع بن الأزرق لابن عباس. انتهى. والعجب من السيوطي كيف يقول ذلك، مع أنه ذكر في بغية الوعاة أن أبان بن تغلب صنف غريب القرآن وذكر وفاته ١٤١). (أعيان الشيعة: ١/ ١٢٨).

وقد اقترب رأي أحد الباحثين السلفيين المعاصرين من رأينا، وهو أحمد حسن الخميسي، فقد نشر في مجلة ملتقى أهل التفسير:

/http://www.tafsir.net/vb/tafsir16133

بحثاً بعنوان: حركة التأليف المعجمي في مفردات القرآن:

(أول من قال بغريب القرآن هو ابن عباس، وطبع له كتاب في غريب القرآن.كما أن مسائل نافع بن الأزرق المتوفى سنة٦٥هـ قد أُثبتت في الإتقان للسيوطي وهي مطبوعة في شواهد القرآن لأبي تراب الظاهري وفي إعجاز القرآن، لعائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)..

والمؤلَّفُ الثاني في غريب القرآن: هو لأبي سعيد أبان بن تغلب بن رباح البكري المتوفى١٤١هـ ودوَّن شواهده من الشعر. وهذا مايجعلنا نقول: إن بداية تدوين غريب القرآن كان في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة واستمر إلى العصر الحاضر). انتهى.

وقد عقد ابن النديم في كتابه (الفهرست) أبواباً لأنواع التأليف في القرآن الكريم، وأكثر أوائل من صنف فيها شيعة:

(باب نزول القرآن بمكة والمدينة وترتيب نزوله/ ٢٨.

تسمية الكتب المصنفة في تفسير القرآن/ ٣٦.

الكتب المؤلفة في معاني القرآن ومشكله ومجازه/ ٣٧.

الكتب المؤلفة في غريب القرآن/ ٣٧.

الكتب المؤلفة في لغات القرآن/ ٣٨.

الكتب المؤلفة في القراءات/ ٣٨.

الكتب المؤلفة في النقط والشكل للقرآن/ ٣٨.

الكتب المؤلفة في لامات القرآن/ ٣٨.

الكتب المؤلفة في الوقف والابتداء في القرآن/ ٣٨.

الكتب المؤلفة في اختلاف المصاحف/ ٣٨.

الكتب المؤلفة في وقف التمام/ ٣٩.

الكتب المؤلفة فيما اتفقت ألفاظه ومعانيه في القرآن/ ٣٩.

الكتب المؤلفة في متشابه القرآن/ ٣٩.

الكتب المؤلفة في هجاء المصاحف/ ٣٩.

الكتب المؤلفة في مقطوع القرآن وموصوله/ ٣٩.

الكتب المؤلفة في أجزاء القرآن/ ٣٩.

الكتب المؤلفة في فضائل القرآن/ ٣٩.

الكتب المؤلفة في عدد آي القرآن/ ٤٠).

هوية الراغب الأصفهاني

هو الحسين بن محمد بن المفضل، المعروف بالراغب الأصفهاني. ولد في أصفهان وتوفي فيها، وعاش فيها وفي الري، أي طهران.

ولم أجد نصاً يدل على أنه خرج من إيران حتى الى الحج، فقد كان محباً للعزلة وغلب عليه التصوف والفلسفة. وهو لغوي موسوعي، اشتهر بمؤلفه مفردات ألفاظ القرآن، وكتاب المحاضرات، في بضعة عشر مجلداً.

وقد عده بعض علمائنا شيعياً، كالسيد الأمين، قال في أعيان الشيعة: ٦/ ١٦٠: (في رياض العلماء: الشيخ الإمام الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل بن محمد الأصفهاني، العالم الفاضل الأديب المفسر اللغوي المتكلم الحكيم الصوفي، المعروف بالراغب الأصفهاني، كان من مشاهير حكماء الإسلام.. اختلف في كونه شيعياً فالعامة

صرحوا بكونه معتزلياً، وبعض الخاصة صرح بذلك، ولكن الشيخ حسن بن علي الطبرسي قد صرح في آخر كتاب أسرار الإمامة بأنه كان من حكماء الشيعة... ثم استشهد السيد الأمين على تشيعه بكثرة روايته في كتبه عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وتعبيره عن علي عليه السلام دون غيره بأمير المؤمنين، وروايته عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله قال: إن خليلي ووزيري وخليفتي وخير من أترك من بعدي، يقضي ديني وينجز موعدي، علي بن أبي طالب).

كما استشهد السيد الأمين برواية الراغب عدداً من النصوص تدل على أنه يعتقد بالوصية لعلي عليه السلام، وأن غيره لايستحق الخلافة.. (راجع: اليقين لابن طاووس/ ٥٢٣، ومحاضرات الراغب: ٢/ ٢١٣، والبحار: ٥٨/ ١٣).

بينما عده بعض علماء السنة سنياً، وقد قرنه الفخر الرزي بالغزالي فقال عنه: (إن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة).(بغية الوعاة للسيوطي: ٢/ ٢٩١).

وقد استند الطرفان الى دليل صحيح! ففي كتب الراغب ما يدل على تشيعه ورفضه المخالفين لعلي عليه السلام. وفيها مدحٌ للشيخين، وفيها كما نقلوا نصٌّ على ضلال فرقة الشيعة لأنها حسب تعبيره: (تظهر موالاة أمير المؤمنين، وبها إضلال المؤمنين، يتوصلون بمدحه وإظهار محبته إلى ذمّ الصحابة وأزواج النبي صلى الله عليه وآله... الفرقة الناجية هم أهل السُّنة والجماعة الذين اقتدوا بالصحابة». (رسالته في الإعتقاد/ ٥٢، كما حكاه داودي في مقدمة المفردات).

وقد يكون الراغب سنياً ثم تشيع، أو العكس، أو يكون صوفياً يعيش حالات تشيع وحالات تسنن، ولا يرى تعارضاً بينها.

فالصحيح أنه صوفي حكيم بحسب تعبيرهم، قبل أن يكون سنياً أو شيعياً.

بقي أن نشير الى أنه اشتهر أن وفاة الراغب كانت سنة ٥٠٢ هجرية، وقد أشار المدققون الى أن ذلك لايصح لأن حياته كانت قبل ذلك بنحو قرن! فلعل الصحيح أن وفاته كانت سنة ٤٠٢. والله العالم.

أستاذ الراغب أبو منصور الجبّان

يظهر أن أستاذ الراغب الأساسي أبو منصور الجبان محمد بن علي بن عمر. قال الداودي في مقدمته للمفردات: (لم تذكر المصادر المتوفرة بأيدينا شيئاً عمن تلقّى عنه الراغب علومه وثقافته، كما لم تذكر شيئاً عن تلامذته وطلابه.

والظاهر أن المؤلف كان مغموراً يحبُّ الخمول كما يتضح لنا من شعره. لكن الذي يغلب على ظني ويترجح عندي أنه قرأ العربية على أبي منصور الجبان، وإسمه محمد بن علي بن عمر، قال عنه ياقوت: أحد حسنات الري وعلمائها الأعيان، جيّد المعرفة باللّغة، باقعة الوقت، وفرد الدّهر، وبحر العلم، وروضة الأدب...

وكان الصاحب(ابن عباد) يُعزه ويُجلّه، وله مناظرة مع ابن سينا. صنف كتاب الشامل في اللغة، كثَّر فيه الألفاظ اللغوية، وقابل الشواهد، فهو في غاية الإفادة من حيث الكثرة، وله أيضاً كتاب كبير سماه « لسان العرب » استوفى فيه اللغة غاية إمكانه، لكنه مات قبل إخراجه من المسوّدة...

والذي حملني على هذا الظن أنه أولاً: كان معاصراً للراغب، وفي طبقةٍ قبل طبقته، إذ أنه أدرك الصاحب بن عباد، والراغب لم يدركه مجالسةً. ثانياً: إن الراغب نقل عنه باسمه في كتابه).

أقول: ويؤيد ذلك أن ابن الجبان سكن أصفهان ودرَّس فيها كتابه الشامل.

قال القفطي في إنباه الرواة: ٤/ ١٧٦: (أبو منصور الجبان النحوي، نزيل الري...وهو إمام في اللغة مبرز في زمانه، صنف الكتاب «الشامل» فى اللغة، كَثَّرَ فيه الألفاظ اللغوية، وقابل الشواهد، فهو في غاية الإفادة من حيث الكثرة، ملكت منه بعض نسخه من فضل الله، من أصل ثلاثة عشر مجلداً. وقد كان الصاحب كافي الكفاة يُعزه ويُجِلّه، ويعلم مقداره ويقرّب داره...

وحضر أبو منصور الجبان في مجلس علاء الدولة بن فخر الدولة ابن بويه، وفي المجلس

أبو علي بن سينا الرئيس، وهو يومئذ وزير لعلاء الدولة، وجرى فصل من اللَّغة، تكلم فيه الرئيس ابن سينا، فقال له أبو منصور: أنت منطيقي ما نعارضك، وكلامك في لغة العرب ما نرضاه!

فسكت أبو عليّ خجلاً، وبعد انفصاله من المجلس نظر في اللَّغة وتبحر فيها وعمل رسائل أودعها نوعاً متوفراً من اللغة.

وسأل علاء الدولة ابن الجبان عما تضمنه من الغريب، فعلم بعضه وأنكر بعضاً، فقال أبو عليّ: الكلمة الفلانية معناها كذا، وهي مذكورة في الكتاب الفلاني.. وشرحها جميعاً، وأحال على الأصول، فخجل أبو منصور بن الجبان وفطن لما فعله ابن سينا، واعتذر إليه اعتذارا طويلاً، وشرع في تصنيف كتاب في اللغة، أحسن ترتيبه وتبويبه، واستوفى فيه اللغة غاية إمكانه، وجاء كبيراً، وسماه لسان العرب. ومات قبل إخراجه من المسودة).

وقال في الوافي (٤/ ١٢٨) عن ابن الجبان: (محمد بن علي بن عمر بن الجبان أبو منصور اللغوي، من أهل الري، سكن في اصبهان وكان إماماً في اللغة، وله مصنفات حسنة في الأدب، وهو من أصحاب أبي علي الفارسي النحوي. قدم بغداد سنة إحدى وتسعين وثلاث مائة، وروى بها كتاب انتهاز الفرص في تبيين المقلوب من كلام العرب، من تصنيفه، قرأه عليه عبد الواحد بن علي بن برهان الأسدي ورواه عنه، وقرئ عليه مسند الروياني، وتكلموا فيه من قِبَل مذهبه، كذا قاله ابن النجار. قلت: لعله كان معتزلياً.

قال ياقوت: له كتاب أبنية الأفعال، وكتاب الشامل في اللغة كبير. كتاب شرح الفصيح حسن. وكان ينخرط في سلك ندماء الصاحب بن عباد، ثم استوحش من خدمته، وتمادت به أحوال شتى حتى علق غلاماً من الديلم يقال له البركاني، واتفق للغلام أنه أحرم بالحج ولم يجد هو بداً من موافقته ومرافقته، حتى بلغا الميقات، فلما أخذ في التلبية قال: لبيك اللهم لبيك، والبركاني ساقني إليك!.

وقال عنه أيضا في معجم الأدباء (١٨/ ٢٦٠): (أبو منصور بن الجبان، أحد حسنات

الري وعلمائها الأعيان... كان من ندماء الصاحب بن عباد ثم استوحش منه وصنف أبنية الأفعال، وشرح الفصيح، والشامل في اللغة قرئ عليه في سنة ست عشرة وأربع مائة. قال ابن مندة: قدم أصبهان فتُكلم فيه من قبل مذهبه، وقرئ عليه مسند الروياني بسماعه من جعفر بن فناكي.

أقول: يظهر أن الصاحب بن عباد﵀ كره ابن الجبان وأبعده عنه، لافتضاحه بالشذوذ الجنسي! وكذلك الوزير ابن المدبر الضبي.

هذا، وذكر الزبيدي في تاج العروس(١٦/ ٦٥) أن الراغب نقل عن شيخه العَلامة أبي الحَسَنِ عليِّ بنِ سَمْعانَ الغِرْناطِيِّ أنه قال: إن انْبَهَم غَيْرُ مسموع، وإن الصواب اسْتَبْهَمَ. ولم أجد ترجمةً لشيخه علي بن سمعان الغرناطي، ولعله مُنْزَوٍ، كالراغب.

عاش الراغب مع شخصيات شيعية

عاش الراغب في عصر الدولة البويهية، وعاصر الوزير الشيعي الأديب واللغوي المشهور الصاحب بن عباد﵀ لكنه كان صغيراً فلم يدرس عنده، ودرس عند تلاميذه، فقد عاصر منهم علماء كباراً ولغويين نابغين.

قال الحموي في معجم الأدباء: (٦/ ١٧١)، عن الصاحب بن عباد: (والصاحب مع شهرته بالعلوم وأخذه من كل فن منها بالنصيب الوافر والحظ الزائد الظاهر، وما أوتيه من الفصاحة، ووفق لحسن السياسة والرجاحة، مستغن عن الوصف، مكتف عن الإخبار عنه والرصف...

وذكر الثعالبي قال: واحتف به من نجوم الأرض، وأفراد العصر، وأبناء الفضل، وفرسان الشعر، من يربي عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي، وملك رق المعاني).

كما اتصل الراغب بالوزير الشيعي الضبي، الذي قال عنه في الوافي (٦/ ١٢٩): (كافي الأوحد الوزير أحمد بن إبراهيم الوزير الضبي أبو العباس، الملقب بالكافي الأوحد، الوزير

بعد الصاحب بن عباد لفخر الدولة بن أبي الحسن علي بن ركن الدولة بويه، توفي في صفر سنة تسع وتسعين وثلاث مائة. ذكره الثعالبي قال: هو جذوة من نار الصاحب أبي القاسم، ونهر من بحره، وخليفته النائب منابه في حياته، القائم مقامه بعد وفاته).

وقال الذهبي في تاريخه: ٢٠/ ٢٩٥: (إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن المدبّر. الوزير أبو إسحاق الضَّبِّي الكاتب الأديب الشاعر... كان أحد من جمع بين الرياسة والأدب والبلاغة...كان جليلاً عالماً، ليس في الكُتَّاب من يدانيه).

وقد ألف الراغب للوزير الضبي كتاباً، وهو كما في مقدمة المفردات للداودي/ ٩: (تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين. ألفه للوزير أبي العباس الضبي، وقد طبع عدة طبعات، آخرها طبعة دار الغرب الإسلامي بتحقيق الدكتور عبد المجيد النجار، عام ١٩٨٨م ١٤٠٨هـ.)

وقال الداودي في مقدمته: (ذكر في كتاب مراتب العلوم الذي صنفه غالباً للوزير أبي العباس الضبي، ما نصه: لكن طال تعجبي في ذلك من الشيخ الفاضل حرسه الله، لأمور رأيتها منه طريفة: أحدها إنكاره عليَّ التفوه بلفظ القوة، اعتلالاً بأن هذه اللفظة يستعملها ذووا الفلسفة، وأن أقول بدله: القدرة، كأنه لم يعلم ما بينهما من الفرق في تعارف عوام الناس فضلاً عن خواصهم. ثم ما كان من إبهاماته وتعريضاته بل تصريحاته، تنفق منه على أشياعه وأتباعه بالوضع مني والغض مني، وازدياده بعد المقال مقالاً لما رأى مني في مجاوبته جملاً ثقالاً، ولم أكن أرى بأساً وضيراً في احتمال شيخ كريم علي، بما لا يعود بمعاب في الحقيقة عليّ.

قال الداودي: وكلامه هذا يوحي بأنه اختلف مع الوزير، وأن أتباع الوزير آذوه، ولم يسكت هو له بل ردَّ عليه، فلعل هذا أدى إلى سجنه).

أقول: لا بد أن ننظر الى سجن الوزير الضبي للراغب باهتمام، لأن ما ذكره الراغب عن اعتراض الوزير عليه لتعابيره الفلسفية ليس سبباً كافياً لسجنه، كما أنه لا يوجد سبب

سياسي، لأن الراغب لم يكن يعمل في السياسة، ولا توجد فئة سياسية وراءه لتستهدف بسجنه، فلا بد أن يكون السبب سلوك الراغب مع الوزير أو غيره، أو سلوكه الشخصي. ونرجو أن لايكون تأثر بأخلاق أستاذه.

مكانة كتاب مفردات الراغب

تميز كتاب مفردات ألفاظ القرآن بالإختصار والدقة والشمول النسبيين، وصار في القرون الأخيرة مرجعاً للعلماء والأساتذة والطلبة.

لكن هذه المكانة جاء بعضها باستحقاق، وأكثرها بالعمل على نشر الكتاب وتغييب غيره، كما سيأتي.

وقد أعجبت به المعاهد العلمية السنية، وقسم من المعاهد الشيعية.

ومن المعجبين به الوهابيون، وقد أضافوا اليه في السنين الأخيرة كتاب عمدة الحفاظ للسمين الحلبي، لكنهم ظلوا يفضلون الراغب عليه.

قال أحمد حسن الخميسي، الذي أشرنا الى بحثه بعنوان: حركة التأليف المعجمي في مفردات القرآن: (لقد وضع العلماء مؤلفات في غريب القرآن في القرنين الثاني والثالث الهجريين، ولكن معظم هذه الكتب فُقد. ومن الكتب التي وصلت إلينا (غريب القرآن) لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة٢٧٦.

وفي القرن الرابع تابع العلماء التأليف في غريب القرآن فأعد أبو بكر محمد بن عزيز بن أحمد السجستاني المتوفى سنة٣٣٠ هـ كتاب نزهة القلوب في تفسير علام الغيوب.

وفي القرن الخامس وضع الراغب الأصفهاني المتوفى٥٠٢ هـ كتابه المسمى المفردات في غريب القرآن، وقد أتقن مؤلفه ترتيبه على حروف المعجم مراعياً أوائل الكلمات. وألف في الغريب من أهل القرن السادس الهجري أبو الفرج بن الجوزي٥١٠هـ. وسمى كتابه تذكرة الأريب.

ثم عقد الخميسي مقارنة بين مفردات الراغب وعمدة الحفاظ فقال:

(يقول محمد باسل عيون السود: ذكر السمين في مقدمة كتابه أن الراغب أغفل في كتابه ألفاظاً كثيرة لم يتكلم عليها ولا أشار في تصنيفه إليها، مع شدة الحاجة إلى معرفتها، وشرح معناها ولغتها، مع ذكره لمواد لم ترد في القرآن الكريم.

وبالقراءة المتأنية لكتاب عمدة الحفاظ، وجدت أن ما ذكره السمين ينطبق عليه هو نفسه أيضاً، فقد فاته أن يذكر عدة مواد، ذكر بعضها الراغب، وغفل عنها الراغب والسمين وهذه المواد هي: توراة، جوف، دأب، دب، دبر، دثر، دحر، دحض، دحى، دخر، دخل، دخن، درأ، درج، درر، درس، درك، درهم، سلح، لدن، لذذ، مخض، مرأة، مرو، نمرق، هزل، هيأ. وقد فات المؤلف أن يذكر الأعلام الواردة في القرآن مثل: مريم، يسع، يثرب، يوسف.

ومع أن المؤلف قد أخذ على الراغب أنه يذكر موادَّ لم ترد في القرآن الكريم، فإنه قد حذا حذوه في هذا الخطأ، فقد أورد مادة (غ رض) مع أن القرآن قد خلا من هذه المادة. وبالمقابل فإنه أورد مادة (س هـ ل) (ر ع ب) ولم يذكر لهما شاهداً من القرآن..

(مقدمة/ ٢٨)

- ومنها إغفاله بعض المواد لم يتكلم عليها.

وفي ذلك يقول السمين الحلبي: (غير أنه قد أغفل في كتابه ألفاظاً كثيرة لم يتكلم عليها ولا أشار في تصنيفه إليها، مع شدة الحاجة إلى معرفتها وشرح معناها ولغتها، مع ذكره لبعض مواد لم ترد في القرآن الكريم، أو وردت في قراءة شاذة جدا كمادة (بظر) في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾[سورة النحل: ٧٨] وهذه لا ينبغي أن يُقْرَأَ بها البتة.

فمما تركه مع الاحتياج الكلي:

- مادة غ وط، وهي في قوله تعالى: ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾[سورة النساء: ٤٣].

-مادة: ز ب ن، وهي في قوله تعالى: ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ [سورة العلق: ١٨].

-ومادة: ق ر ش، وهي في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾[سورة قريش: ١].

-ومادة: ك ل ح، وهي في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١٠٤].

-ومادة: قدو، وهي في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[سورة الزخرف: ٢٣].

-ومادة: نضخ، وهي في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [سورة الرحمن: ٦٦].

وممّا فاته من المواد ولم يذكرها السمين.

-مادة فني، وهو في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[سورة الرحمن: ٢٦].

-ومادة خردل وهي في قوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾[سورة الأنبياء: ٤٧].

ثم أضاف الخميسي:

(تبين لنا من خلال الحديث عن الكتاب موسوعية هذا الرجل، وباعه الكبير في شتى العلوم الإسلامية، خاصة العربية منها والقرائية، ليحتل بذلك المكانة المرموقة والعالية ضمن جهابذة علمائنا العظام.

وإن كانت ثمة سلبيات في الكتاب ذُكرت، وقف عليها النُّقاد الأفذاذ، فلا يعني هذا بتاتاً الإنقاص من قدر الرجل ولو قيد أنملة، بل ذاك يضاف إلى سجل حسنات الرجال من باب: كفى بالمرء نبلاً أن تُعَدَّ معايبه، والمجتهد إذا أخطأ له أجر..

يقول الدكتور الشاهد البوشيخي: إن الراغب الأصفهاني في المفردات يكاد يتفرد بشوء لم يسبق إليه، ولم يلحق فيه، وهو التفطن إلى خصوصية الدلالة القرآنية، مما أكسبه تدقيقاً في الشرح، ميَّزه عن سواه تمييزاً.

وللزركشي كلام بنحو هذا، نَوَّهَ فيه بتفرد الراغب في هذا المقام، مشيراً إلى السر فيه، فقد قسم الزركشي القرآن على قسمين: أحدهما ورد تفسيره بالنقل...والآخر ما لم يرد فيه نقل عن المفسرين وهو قليل، وطريق التوصل إلى فهمه النظر في مفردات الألفاظ من لغة العرب، ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق، وهذا ما يُعنى به الراغب كثيراً في كتاب المفردات، فيذكر قيداً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ، لأنه اقتنصه

من السياق..).

ثم أفاض الخميسي الكلام في مدح مفردات الراغب، وبيان خصائصه..

أما علماء الشيعة فمنهم من يفضل كتاب العين للخليل، والمجمل والمقاييس لابن فارس، لأنهما أعلم من الراغب وأدق. ويفضل معهما مجمع البحرين للطريحي، لأنه يذكر الشواهد من كلام أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ومنهم من يتفق مع غيرنا في تفضيل مفردات الراغب، وقد وصل إعجابه به الى حد التقديس! فقد ذكرتُ لأحد العلماء أني أُدَرِّسُ كتاب مفردات الراغب وأكتب عليه تعليقةً، فقال متعجباً: تعليقةٌ على مفردات الراغب! فقلتُ: نعم، ولماذا التعجب؟قال: كان السيد الطباطبائي صاحب الميزان يقول: كما أن القرآن معجزة النبي صلى الله عليه وآله فإن مفردات الراغب معجزة القرآن!

فقلت له: من حق السيد الطباطبائي رحمه الله أن يُعْجَبَ به، ويراه أفضل كتاب في معاني ألفاظ القرآن، لأن لغته الأم التركية، ولم يتخصص في اللغة العربية بمعايشة أهلها، ولا بمعايشتها في مصادرها الى حد التخصص.

لكن ليس من حقه أن يضفي عليه صفة المعجزة، لا حقيقةً ولا مجازاً. فأنا أفسر إعجابه رحمه الله به بأنه اشتباه، كإعجابه باللغة التركية وقوله إنها لغة الفطرة، لأن حروفها وأجراسها تحكي صفات المسميات.

لقد رأى السيد الطباطبائي رحمه الله مفردات الراغب فأعجب بها، لكن فاته رحمه الله أن الراغب عايش اللغة العربية في الكتب والنصوص، وليس مع أهلها حتى يتكون له حس لغوي قوي!.

وقد زرت العلامة الطباطبائي رحمه الله سنة ١٩٧٣ ميلادية، فسألني عن رأيي في تفسير الميزان فمدحته، وأبديت ملاحظة على وضعه روايات أهل البيت عليهم السلام في آخر البحث وعدم جعلها المحور.

وسألني عن أسلوبه العربي، فأجبته بأنه حسنٌ ويحتاج الى ترجمة، فقال: فيكم البركة.

لم يقبل محدثي نقد الحس اللغوي للراغب، لأنه والكثيرين أمثال العلامة الطباطبائي تقبل يتصورون أن دراسة الراغب على أساتذة متخصصين في العربية، تكفي لتكوين الحس اللغوي القوي السليم عنده.

وقد فات هؤلاء الأجلاء أن الحس اللغوي إذا لم يتكون من معايشة أهل اللغة، يبقى ضعيفاً، ويبقى صاحبه في معرض الوقوع في أخطاء ذريعة، بل في أخطاء فظيعة، لاتخطر ببال!.

ويكفي دليلاً ما تجده من شطحات الأجنبي الذي لم تتحول العربية الى لغة أُمّ له، ويبلغ ذلك أحياناً حد المضحك.

وأقصد بالحس اللغوي: ملكة الخبرة باللغة، بحيث يميز المرء أن هذه الكلمة تشبه ألفاظ اللغة العربية، أو لا تشبهها.

وتستعمل عند أهل العربية بهذا المعنى أو لا تستعمل.

وتتضمن هذا البعد من المعنى، أو لا تتضمنه.

وترتبط بهذه الكلمة أو هذا المعنى أو لاترتبط ؟

وسترى في هذه التعليقة مصاديق عديدة لذلك.

كل اللغويين عيال على الخليل الفراهيدي

جعل أمير المؤمنين عليه السلام كل علماء النحو عيالاً على أبي الأسود الدؤلي الكناني عندما كتب له صحيفةً وعلمه أن يُفَرِّع عليها وقال له: أُنْحُ هذا النحو، فسمي علم النحو. وكان في الصحيفة: «الكلام ثلاثة أشياء: إسمٌ وفعلٌ وحرفٌ جاء لمعنى، فالإسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أوجد معنى في غيره».

وكان أبو الأسود يُفَرِّعُ عليها ويراجع أمير المؤمنين عليه السلام فيوجهه، حتى استكمل وضع علم النحو.

قال الزجاج: أخذه عنه عتبة، ثم ابن أبي إسحق، ثم عيسى، ثم الخليل، ثم سيبويه، ثم الأخفش، ثم المازني، ثم المبرد، ثم ابن السراج، ثم أبو علي الفارسي، ثم علي بن عيسى، ثم

الحسن بن حمدان، ثم أحمد بن يعقوب.

(راجع للسيوطي: سبب وضع علم العربية/ ٣٤، وتاريخ الخلفاء/ ١٤١، وعشرات المصادر).

كما جعل الإمام الصادق أو أبوه الإمام الباقر كل علماء اللغة عيالاً على الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي، وهو من نوادر النوابغ، وكل من بعده عيالٌ عليه، وهو أستاذ سيبويه، وواضع علم العروض، ومؤلف كتاب العين أول كتاب وضع على المعجم.

روى في مناقب آل أبي طالب: ١/ ٣٢٦، عن تاريخ البلاذري، أن علم العروض خرج من دار علي عليه السلام قال: (ومنهم العروضيون ومن داره خرجت العروض رويَ أن الخليل بن أحمد أخذ رسم العروض عن رجل من أصحاب محمد الباقر أو علي بن الحسين فوضع لذلك أصولاً).

ورواه في شرح إحقاق الحق: ١٢/ ١٦٩، عن الحافظ أبي حاتم أحمد بن حمدان الرازي، في كتابه: الزينة في الكلمات الإسلامية العربية/ ٨٠، طبعة القاهرة. قال:

(كان الخليل بن أحمد أوّل من استخرج العروض، فاستنبط منها و من علل النّحو ما لم يستخرجه أحد ولم يسبق إلى مثله سابق. وسمعت بعض أهل العلم يذكر أن الخليل بن أحمد أخذ رسم العروض عن رجل من أصحاب محمّد بن علي أو من أصحاب علي بن الحسين، فوضع له أصولاً وقسّم الشعر ضروباً وسمّاه بها، وجعل لتلك الأقسام دوائر وأسطراً، وبناه على السّاكن والمتحرك من أحرف الكلمة والخفيف والثقيل. فكل كلمة فيها حرف متحرّك وحرف ساكن سمّاه سبباً.. إلخ. »).

وقال في معجم الأدباء: ٣/ ٣٠٠: (وكان سفيان الثوري يقول: من أحب أن ينظر إلى رجل خُلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد! ويروى عن النضر بن شُمَّيْل أنه قال: ما رأيت رجلاً أعلم بالسنة بعد ابن عون من الخليل بن أحمد. أكلتُ الدنيا بعلم الخليل وكتبه وهو في خُصٍّ لا يشعر به).

أقول: تدل شهادة سفيان الثوري على أن الخليل ملك إعجابه بدرجة عالية لأنه إنسان مميز في فكره وروحه وسلوكه.

ومعنى قول ابن شميل تلميذ الخليل: أكلت الدنيا بعلم الخليل.. أنه كان يأخذ كتبه ويبيعها إلى الخليفة والولاة، والخليل يعيش في بيت قصب في حيٍّ فقير في البصرة، ولايعرف ما يفعل ابن شميل!.

لكن الذي لايعرف هو ابن شميل، فلم يعرف أنه كان ينفذ خطة الخليل في نشر كتبه بواسطة الخليفة والوزراء، ويقبض ثمنها، ويبقى الخليل بعيداً عن شرهم وعن تناول أموالهم، يتنعم بعيش الفقراء، ويملأ الدنيا بعلمه!

وفي أعيان الشيعة: ٦/ ٣٣٧: (قال الكفعمي من علمائنا: إن الخليل كان من أزهد الناس وأرفعهم نفساً، وكان الملوك يقصدونه ويبذلون له فلا يقبل، وكان يحج سنة ويغزو سنة حتى جاءه الموت).

وكان الخليل شيعياً يكتم تشيعه، وكان يروي عن أيوب السختياني وسفيان الثوري تلميذي الإمام الصادق عليه السلام اللذين كانا يعيشان معه في البصرة، وقد روى علماء السنة عنه، عن سفيان، عن الإمام الصادق عليه السلام، حديث فلسفة الحج، وسبب جعل الموقف وراء الحرم. (تهذيب الكمال: ٥/ ٩٣).

وقال العلامة الخلاصة/ ١٤٠: (الخليل بن أحمد، كان أفضل الناس في الأدب، وقوله حجة فيه، واخترع علم العروض، وفضله أشهر من أن يذكر، وكان إمامي المذهب).

وفي الذريعة: ١٥/ ٣٦٤: (ذكر في العين عدد أبنية كلام العرب المهمل والمستعمل على مراتبها الأربع، من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي من غير تكرار، في اثني عشر ألف ألف وثلاث مأة وخمسة آلاف وأربع مأة وستة. فالثنائي سبع مأة وستة وخمسون. والثلاثي تسعة عشر ألف، وست مأة وخمسون. والرباعي أربع مأة ألف، وأحد وتسعون ألف وأربع مأة. والخماسي أحد عشر ألف ألف وسبع مأة وثلاثة وتسعون ألف وست مأة).

أقول: استفاد الراغب من كتاب العين ومن كتب الخليل الأخرى، ونسب اليه أقواله في نحو ثلاثين مورداً، فلا يرد عليه كثير إشكال. لكن عدم أمانة الراغب العلمية، ظهرت في عمله مع ابن فارس رحمه الله.

غارة الراغب على مجمل اللغة لابن فارس!

من الشخصيات العلمية الذين عاصرهم الراغب، أحمد بن فارس بن زكريا، صاحب مقاييس اللغة. قال عنه الحموي في معجم الأدباء: ٤/ ٨٠: (كان الصاحب ابن عباد يكرمه ويتتلمذ له، ويقول: شيخنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف، وأمن فيه في التصحيف.. وله من التصانيف: كتاب المجمل، وكتاب متخير الألفاظ، كتاب فقه اللغة، كتاب غريب إعراب القرآن، كتاب تفسير أسماء النبي صلى الله عليه وآله كتاب مقدمة كتاب دار العرب، كتاب حلية الفقهاء، كتاب العرق، كتاب مقدمة الفرائض، كتاب ذخائر الكلمات، كتاب شرح رسالة الزهري إلى عبد الملك بن مروان، كتاب الحجر، كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وآله...كتاب الصاحبي صنفه لخزانة الصاحب، كتاب جامع التأويل في تفسير القرآن أربع مجلدات..كتاب مقاييس اللغة، وهو كتاب جليل لم يصنف مثله).

أقول: ابن فارس قزويني، نشأ في همدان، وعاش في الري، وخالط العرب وعايش لغتهم معهم، وهو صاحب حس لغوي معتدل، وقد عاصر الجوهري صاحب الصحاح، وهو أدق منه، وقد مدحه الصدوق وذكره في كمال الدين/ ٤٥٣، وترجمه الشيخ الطوسي في الفهرست/ ٨٣.

وقال في الذريعة: ٢٠/ ٥١: (مجمل اللغة، لإمام العربية واللغة ابن فارس اللغوي... قال الصدوق في إكمال الدين: سمعت شيخاً من أصحاب الحديث يقال له أحمد بن فارس الأديب الذي تشيع أواخر أمره...وتلمَّذ عليه الوزير الصاحب كافي الكفاة إسماعيل بن عباد المتوفى ٣٨٥، وكتب له فقه اللغة المطبوع، والمجمل، طبع مقدار من أوله، ويوجد تمامه في المكتبة الحميدية وغيرها بالآستانة... ورأيت نسخة عتيقة منه بخط محمد بن أحمد بن

محمد بن غياث المكنى بأبي مضر العقيلي، كتبها لنفسه، وفرغ من الكتابة في ذي قعدة ٤٤٦... وخطه جيد جداً. وحكى في معجم الأدباء: ٤/ ٩٠، صورة خط ابن فارس على كتابه مجمل اللغة، بما قرظه به من تسعة أبيات لنفسه، قافية لفظ العين، وكل بيت استعمله في إحدى معانيه وبيته التاسع هذا:

والمجملُ المجتنى تُغْني فوائدُهُ حُفَّاظه عن كتابِ الجيمِ والعَيْنِ

ومراده الجمهرة لابن دريد المتوفى ٣٢١ و العين للخليل).

أقول: هذا يدل على أن أهم مرجعين في اللغة الى عصر ابن فارس هما: العين للخليل (توفي سنة ١٧٠ هـ)، ثم الجمهرة لابن دريد، فهو يأمل أن يغني المجمل عنهما، وهذا ما حصل الى حد كبير، فقد رجع العلماء الى مجمل اللغة، ودرَّسوه لطلبتهم، ورووه بأسانيدهم عن مؤلفه، وأجازوا روايته، سواء منهم الشيعة والسنة، والفقهاء والأدباء والمتكلمون.

لاحظ على سبيل المثال السرائر لابن إدريس: ٣/ ٩٢، ونزهة الناظر ليحيى بن سعيد/ ١٣٠، ورسائل الشهيد الثاني: ٢/ ١١٣٦، وقد ذكر سنده اليه، والنووي في المجموع: ٩/ ٩٨، والسمعاني في الأنساب: ٢/ ٤٠٦.

وقد أجاز العلامة الحلي أبناء زهرة بروايته، وذكر سنده اليه فقال: ومن ذلك جميع مصنفات أبي الحسين أحمد بن فارس صاحب مجمل اللغة، عني، عن والدي، عن مهذب الدين محمد بن كرم المذكور، عن ابن الجوزي، عن ابن الجواليقي، عن الخطيب التبريزي، عن الفقيه أبى الفتح سليمان بن أيوب الرازي الشافعي، عن أحمد بن فارس المصنف. (البحار: ١٠٤/ ١٠٢).

وكان بعض الطلبة من السنة والشيعة يحفظونه حفظاً، من ألِفِهِ الى يائه!.

ولم يكن لمفردات الراغب ذكر طوال هذا القرون. بل لم أجد أحداً رجع اليه قبل القرن الحادي عشر، فبدأ يشتهر ونسي العامة مجمل اللغة والعين!.

ولا يبعد أن يكون اشتهار مفردات الراغب قد بدأ في القرن التاسع، لأني لم أجد ذكراً

مهماً له قبل الفيروز آبادي صاحب القاموس.

ولاشك أن لمفردات الراغب بعض الميزات على مجمل اللغة لابن فارس.

لكن المشكلة العلمية في الراغب شطحاته الكبيرة في تفسير عدد من الألفاظ القرآنيه، بسبب ضعف حسه وسليقته اللغوية.

والمشكلة الأخلاقية فقدانه الأمانة العلمية، حيث عمد الى كتاب المجمل بُعَيْدَ وفاة مؤلفه، وأخذ منه عمدة مواد كتابه، ولم ينسبه الى ابن فارس! .

قال الداودي في مقدمة المفردات: (اعتمد الراغب على مؤلفات العلماء قبله، فبحث فيها وناقش أصحابها، وارتضى أقوالاً وردَّ أخرى، وأهم هذه المصادر:

١. كتاب المجمل في اللغة، لابن فارس. ويبدو أن الراغب قد اعتمده كثيراً، مع أنه لم يذكره باسمه، ويتضح ذلك من ترتيب الكتاب نفسه، والتشابه الكبير في العبارة، وربما ينقل عنه حرفياً، والموافقة في الأبيات الشعرية. وقد بينا ذلك خلال تعليقاتنا على الكتاب!.

أنظر مثلاً مادة: أبَّ، أسَّ، جَنَفَ، خَصَفَ، رَكَزَ، سَجَلَ، صَفَدَ، تجد تقارباً تاماً في العبارات، إلا أن الراغب اختصر، وقلل الاستشهاد بالأبيات الشعرية.

٢. كتاب الشامل في اللغة، لأبي منصور الجبَّان. وقد ذكره المؤلف صراحة في مادة: دلَّى. وكتاب الشامل وُصف بأنه كثير الألفاظ، قليل الشواهد، في غاية الإفادة، ونجد أن هذه الأوصاف تنطبق على كتاب المفردات أيضاً.

٣. تهذيب الألفاظ، لابن السِّكّيت. وقد نقل عنه المؤلف في مادة بَقَلَ.

٤. المسائل الحلبيات، لأبي علي الفارسي. نقل عنه المؤلف في عدة مواضع من دون ذكر اسم الكتاب، بل يقول: قال الفارسي. أنظر مثلاً مادة: حَشَا، رَأَى.

٥. معاني القرآن، للفرَّاء. أنظر مثلاً مادة: تَتْرَى.

٦. كتاب الجمهرة، لابن دريد.

٧. معاني القرآن للزجاج. ويبدو ذلك واضحاً حينما تكلم المصنف على مادة: تَوْرَاة، كأنه

نقل كلام الزجاج حرفياً، وأيضاً في مادة: شَوَر، نجده يقترب جداً الى كلام الزجاج على قوله تعالى: وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ. أنظر معاني القرآن: ١/ ٤٨٣. وصرح المؤلف بالنقل عنه، وذلك في مادة: هَيْتَ، عند قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٣٦].

٨. كتاب العين، للخليل. وقد صرح باسم الخليل في عدة أمكنة، أنظر مثلاً مادة: مَكَّ، قَوَلَ، ظَلَمَ، ضَعُفَ، أَوَّل.

٩. تفسير أبي مسلم الأصفهاني. أنظر مادة: جَهَنَّم، عَرَض. ولعل تأثر الراغب بالمعتزلة حاصل من أخذه كلام أبي مسلم.

١٠. مجاز القرآن، لأبي عبيدة. أنظر مثلاً مادة: بَعْض، دَبَّ، نَاءَ.

١١. معاني القرآن، للأخفش. أنظر مثلاً مادة: قَوَمَ، عَوَدَ.

١٢. المسائل البصريات، للفارسي. أنظر مثلاً مادة: بَرَأَ.

١٣. المسائل العضديات، للفارسي. أنظر مثلاً مادة: دَم.

١٤. تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة. أنظر مثلاً مادة: دُون.

١٥. كتاب سيبويه. أنظر مثلاً مادة: أَيْنَ، آية، كان، طَهُرَ.

١٦. الغريب المصنف لأبي عبيد. ويظهر ذلك من التشابه الكبير في بعض المواد والشواهد. وانظر مادة: دَيْن.

١٧. الأمثال لأبي عبيد.

١٨. غريب الحديث، لأبي عبيد. أنظر مادة: حَرَسَ.

١٩. مجالس ثعلب. أنظر مثلاً مادة: أَيْنَ، أَوَهَ.

٢٠. غريب الحديث لابن قتيبة. أنظر مادة: بَشَرَ.

٢١. الحجة للقراءات السبعة للفارسي. أنظر مادة: طَهُرَ ودَخَل. وغير ذلك من الكتب).

أقول: الباحث الداودي محب للراغب، معجب بكتابه إعجاباً كاملاً. وقد عدد مآخذ الراغب من المصادر، وهو يتصور أنه بذلك يمدحه، لكنه ذمه، لأنه يأخذ نصوصاً من

غيره ويتبناها، بدون مناقشة ولا إضافة عليها أو تنقيص، ثم لا يشير الى إسم الكتاب، ولا إسم مؤلفه! وبهذا صار الراغب من المؤلفين غير المنصفين، الذين ينسبون جهود غيرهم الى أنفسهم!.

وقد ذكر الداودي واحداً وعشرين مؤلفاً، أخذ منها الراغب، وأظنها أكثر، ولعله أخذ منها أكثر المفردات، حرفياً أو بتلخيص! وسلوك الراغب هذا يشبه سلوك الفخر الرازي، الذي عاش بعده في الري ونسب الى نفسه جهود غيره، فأخذ في تفسيره من تفسير أبي الفتوح الرازي الخزاعي ولم يشر اليه، بل أخذ كتاب تنزيه الأنبياء للسيد المرتضى(قدس سره) وغيَّر في بعضه وسماه عصمة الأنبياء، ونسبه الى نفسه، ولم يشر اليه من قريب ولا بعيد مع أنه مؤلَّفٌ قبله بأكثر من قرن ونصف وكان مشهوراً!.

مهما يكن، فإن نقص الأمانة العلمية في الراغب، يساعد على قبول انتقاده علمياً عند من يدافعون عنه.

أهم نقاط قوة الراغب وضعفه

من نقاط قوة الراغب مستواه الذهني الذي فيه عمق في كثير من الأحيان، وابتكار أحياناً.

ومن نقاط قوة الراغب أن اللغة العربية ليست لغته الأم، وهذا الأمر نقطة سلبية من جهة، لأنه يضعِّف الحس اللغوي عند صاحبه، فيشطح أحياناً في تصور المعنى، وقد يصل الأمر الى أن يضحك منه أهل اللغة! وقد لمست ذلك من فهمي لبعض ألفاظ اللغة الفارسية، ومباحثتي مع المتخصصين بها.

لكن الأمر يكون نقطة قوة من جهة ثانية، لأن ابن اللغة قد يتلبد حسه بحكم ألفته وتعوده على ألفاظها، فلا يلتفت الى بعض خصائصها والربط بينها، بينما يلتفت الى ذلك من لم تكن العربية لغَتَهُ الأم.

ومن نقاط قوته وضعفه معاً اتجاهه دائماً الى توحيد اشتقاق الألفاظ المتشابهة، فهو

يحاول ردها الى جذر وأصل واحد، وقد يوفق أحياناً، وقد يشذ ويُغرب أحياناً، ويتكلف ويتعسف.

ونشير هنا الى مسألة الإشتقاق لأننا سنتعامل بها مع الراغب كثيراً، فاعلم أن اللغات عوائل كأبناء آدم، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[سورة الروم: ٢٢] فجعل اختلاف الألسنة آيةً تلي خلق السماوات والأرض، وتتقدم على اختلاف ألوان بني آدم عليه السلام.

وجعل الله في عوائل بني آدم وأفرادهم، وفي عوائل اللغة ومفرداتها مشتركات إذا لاحظتها ومشيت معها، قد تصل الى ما وصل اليه صديقنا العزيز البروفوسور رشيد بن عيسى الجزائري، الذي ما زال يعمل منذ عشرين سنة في جمع مفردات متشابهة من اللغات المختلفة، لإثبات نظريته (الإشتقاق الأكبر) وأن اللغات في العالم متفرعة من اللغة السريانية التي ورثتها اللغة العربية.

كما جعل الله –سبحانه – في مفردت اللغات ميزات، إذا لاحظتها في لغة ومشيت معها، وصلت الى نتيجة أنه لايوجد ترادف في اللغة العربية ولا في غيرها من اللغات، لأن كل كلمة تتناول المعنى من زاوية غير الأخرى فهي ذات شخصية تختلف عن مرادفتها جذرياً، ومثاله: لفظة منزل، التي تلحظ النزول من سفر أو الإستقرار بعد البحث. وبيت، التي تلحظ المبيت ليلاً، ومسكن، التي تلحظ السكون والهدوء.

وأمام هذا الواقع واجه اللغويين بسؤال مفاده: كيف يتعاملون مع مسألة الإشتقاق؟.

وقد كان لهم رأي قديم يقول: إن المصدر أصل الإشتقاق فلا بد أن ترتبط به فروع الكلمة برابط مناسب تبرر تفرعها عنه. لكنهم اصطدموا بواقع الألفاظ فتنازلوا عن هذه القاعدة، فوسعوا الإشتقاق الى الأسماء وبعضهم الى الحروف!.

قال الزركشي في البحر المحيط(١/ ٤٥٩): (قال ابن عصفور: لا يدخل الإشتقاق في سبعة أشياء، وهي الأسماء العجمية كإسماعيل والأصوات كغاق، والحروف وما أشبهها

من المتوغلة في البناء، نحو مَنْ وما، والأسماء النادرة نحو طوبى له (اسم للنعمة)، واللغات المتداخلة نحو الجوْن للأسود والأبيض، والأسماء الخماسية كسفرجل. ويدخل فيما عدا ذلك. انتهى. وأثبت ابن جني الاشتقاق في الحروف ولعل مراده الأكبر).

ومع فتح باب الإشتقاق انفتح الباب أمام اللغويين لافتراض أصل لعائلة الكلمة، وافتراض مناسبة تبرر الإشتقاق منه، وكثرت اجتهاداتهم في ذلك، وأكثرها اجتهادٌ ظني لا يملك دليلاً قطعياً، وبعضها ذوقي لا يزيد على الإحتمال.

وسترى في هذا المجال اختلافاً كثيراً بين الراغب وأستاذ أستاذه ابن فارس، فالراغب يميل الى ربط الألفاظ بأصل واحد يفترضه لها جذراً، ليجعلها عائلة واحدة، وابن فارس ينظر الى مجموعات مستقلة لها ميزاتها ولا يمكن أن تندرج تحت أصل واحد بل أصلين أو ثلاثة. وسترى ان الحق غالباً ما يحالف ابن فارس. وذلك لا ينافي القول بنظرية الإشتقاق الأكبر.

وهكذا صارت قيمة اجتهاد اللغوي تابعة لثقافته ودقته وتعمقه، وقدرته على إقناعك برأيه، أو جعلك تميل اليه.

نماذج من أغلاط الراغب اللغوية

سترى في تعليقاتنا كثيراً من أغلاطه، وبعضها غرائب انفرد بها عن بقية اللغويين. وهذه نماذج منها:

١. قال: (الإتيان: مجيءٌ بسهولة) وقد جاء معنى السهولة من تخيل الراغب، فلم يقله لغوي، ولا عليه شاهد من كلام العرب.

نعم قد تفهم السهولة أو العنف من قِبَلِ الآتي نفسه أو الآتي به أو المأتي به أو ظرف الإتيان، فالعنف والشدة في مثل قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [سورة الذاريات: ٤٢]. مفهومٌ من الريح، وليس من الاتيان نفسه.

٢. زعم أن تعبير: آتيناهم الكتاب، يدل على أنهم قبلوه وآمنوا به، قال: (وآتيناهم يقال

فيمن كان منه قبول) وقد قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[سورة الأنعام: ٢٠].

٣. أضاف الى معنى الأُجَاج الحرارة، وفسر: (هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ، شديد الملوحة والحرارة، من قولهم أجيج النار). ولا دليل عليه، كما جعل يأجوج ومأجوج من أجيج النار، بدون دليل، وقد يكون إسمهما سريانياً.

٤. قال الراغب: (والأَجْل: الجناية التي يخاف منها آجلاً.. قال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[سورة المائدة: ٣٢]، أي من جراء).

والصحيح أن أَجْل مادة مستقلة لاعلاقة لها بالأَجَل، بل هي حرفٌ للتفريع والتعليل، ولامدح فيها ولا ذم ولا جناية، ومعناها: بسبب ذلك. ومعنى الجريمة في الآية لم يفهم منها، بل من تفريعه على جريمة قابيل، واشتراك بني إسرائيل مع قابيل في الحسد الذي سبب الجريمة.

٥. قال: (الأداء: دفع الحق دفعةً وتوفيته... وأصل ذلك من الأداة، يقال أدَوْتَ تفعل كذا، أي احتلت. وأصله تناولت الأداة التي بها يتوصل إليه). وهذا من غرائبه ولا وجود لأدوت تفعل في العربية، وقد بحثت في سبعة آلاف مجلد فلم أجد هذا التعبير!.

٦. قال: (الأذى: ما يصل إلى الحيوان من الضرر) ولا يختص الأذى بالحيوان، والصحيح ما قاله الخليل في العين: ٣/ ٥٠: (وكل شيء نحيته عن شيء، فقد نقحته من أذى).

٧. جعل: أَرَبَّ الرجل ماله، من الإربة، بمعنى صار له به حاجة، بينما هو من: ربَّه وأربَّه أي رباه وتمَّاه.

٨. تصور الراغب وبعض المفسرين أن معنى: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾[سورة الإنسان: ٢٨]: شددنا في أبدانهم مخرج البول والغائط! وهو عجيب لأن اللغويين نصوا على أن الأسر بمعنى الخلق، فمعناه شددنا خلقهم وبناءهم، شبيهاً بشددنا أزرهم.

٩. لم يميز الراغب بين التبديل والإبدال، فجعلهما واحداً، والصحيح ما قاله ابن فارس في

المجمل: (بدَّلت الشي: غيرتهُ وإن لم تأت له ببدل. وأبدلتُه إذا أتيت ببدله).

١٠. جعل الراغب معنى البروج في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[سورة النساء: ٧٨]، بمعنى بروج السماء، أو احتمل فيها ذلك ومال اليه لأنه ذكره أولاً! مع أن المتبادر منها البروج المبنية في الأرض للحفاظ على حياة ساكنيها.

١١. جعل كل مادة بَرَدَ أصلاً واحداً، بمعنى خلاف الحر. ولم يستطع أن يبين وجه الإشتقاق منها في البريد، والمبرد، والبردي، وبريدي الطائر بمعنى جناحيه... فأرجع بعضها وأحجم عن بعض!.

١٢. قد يبحث الراغب المادة ولا يذكر الآية التي وردت فيها، أو لايستوفي آياتها، ومعانيها الأخرى الواردة في القرآن! وقد اعتنينا باستيفاء ذلك.

١٣. تضمن كتابه استطردات خارجة عن الموضوع، وأكثرها كلام صوفي عادي، لايلزم لفهم المقصود بالكلمة.

١٤. يستعمل الراغب أفعالاً بدون حروف التعدية مثل دلَّ ونبَّهَ، وذلك لا يصح:

قال في (بل): فإنه دلَّ بقوله.. أن ليس موضعاً للذكر. .وفي (بيت)نبّه النبيّ بقوله...أن مولى القوم يصح نسبته. وفي (آية): فنبَّه أن ذلك.. ونبه أنه لا يعمهم.. وفي أبتر: فنبه تعالى أن الذي ينقطع. وفي (حيي): فنبَّه تعالى أن ذلك..ومواردهما كثيرة، وقد شككت في وقوع تصحيف فراجعت عدداً من النسخ المطبوعة والمخطوطة، فوجدتها بدون حروف تعدية.

١٥. لايراعي في الألفاظ التي يوردها في المادة أن تكون كثيرة الإستعمال في اللغة العربية، أو معروفة لمتوسط الناس الناطقين بها، فتراه يذكر ألفاظاً مهجورة لاتستعمل. بينما راعينا فيما ذكرناه أن يكون سائداً، أو مستعملاً معروفاً.

١٦. وجدنا مضافاً الى الألفاظ التي ذكروا أنه أهملها أو أغفلها: إذ، وإذن، وكأنما.

أكملنا الصلاة على النبي ﷺ في أصل الكتاب وفيما نقلناه من مصادر، فذكرنا آله معه ﷺ، اتباعاً لأمره ﷺ الثابت عند الجميع، وابتعاداً عن الإبتداع. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﷺ.


يا قيوم

إقرأ في العدد القابل

التأويل... بين النص القرآني وأقوال المفسرين

د. حكمت عبد حسين الخفاجي

إنتاج الدلالة القرآنية

السيد مرتضى جمال الدين

منهج تفسير آيات الأحكام في القرآن

الشيخ الدكتور صاحب محمد حسين نصار

ظاهرة نظم القرآن عبر الدراسات القديمة والمعاصرة

أ.د. حسن منديل العكيلي

صيغة الفعل (بارك) في القرآن الكريم

د. أمجد كامل عبد القادر

أثر الأدوات النحوية في تعدد المعنى

د. هادي عبد علي هويدي